دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد 12

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

الأبله 2

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الحادي عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شيارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الأبلهُ

٢

الأبله (Idiote) ، كتبت هذه الرواية بين سنتى ١٨٦٧ ، ١٨٦٩ ونشرت مسلسلة فى مجلة «الرسول الروسى»

الجزء الثالث

الفصل الأول

يشتكى عندنا دائماً من أننا يعوزنا أناس عمليون • فيقال مثلاً ان هناك وفرة فى رجال السياسة ، وان هناك كثيراً من الجنرالات ، واننا اذا احتجنا الى رؤساء للمشروعات ، أياً كان العدد الذى نريده منهم ، فسوف نجد ضالتنا من جميع أنواعهم فوراً • أما الناس العمليون فلا نقع عليهم ، أو قل على الأقل ان جميع الملأ يتشكون من أنهم لا يقعون عليهم • حتى ليقال ان بعض الخطوط الحديدية لا وجود فيها لموظفين يحسنون القيام بأعمالهم البتة ؛ ويزعم بعضهم انه يستحيل كل الاستحالة على شركة من شركات الملاحة أن يتوفر لها موظفون فنيون ولو على درجة متوسطة من الكفاءة • فتارةً يصل الى علمنا أن عربات الركاب ، على خط جديد من خطوط السكك الحديدية ، قد تصادمت أو تهاوت مع جسر من الجسور • وتارةً نقرأ أن قطاراً بقى متعطلاً وسط حقل من الثلج حتى أوشك أن يعجز غن استئناف المسير طوال فصل الشتاء فاذا بالمسافرين الذين كانوا يظنون أنهم لن يغيبوا الا بضع ساعات ، يلبثون فى الثلج خمسة أيام • وتارةً يُروى أن ألوفاً كثيرة من أرطال البضائع قد فسدت لبقائها فى مكانها شهرين أو ثلاثة أشهر بانتظار نقلها • وتارةً يُذكر (وهذا شىء لا يكاد يُصدّق) أن واحداً من موظفى الادارة ، هو مراقب من المراقبين مثلاً ، لم يجد ما يردُّ به على طلب مندوب أحد التجار ، الذى

كان يستعجله شحن البضاعة ، الا آن يصفعه على وجهه ، فلما سئل عن فعلتــه لم يزد على أن صرّح بأنه « غضب » • والمكاتب تبلغ من الكثرة فى دوائر الدولة أن المرء يرتعش حين يفكّر فيها • ان جميع الناس عملوا موظفين فى الحكومة ، أو يعملون موظفين أو يأملون أن يعملوا موظفين• هل يصدّق العقل أن لا نستطيع أن نعثر بين هذه الوفرة الهائلة من الناس على قلة قلية تصلح لأن تعمل فى شركة ملاحة ؟

هذا سؤال يجيب عنه بعضهم اجابة مسرفة فى البساطة ، حتى لتبلغ من اسرافها فى البساطة أن المرء يصعب عليه أن يقبلها • يقول هؤلاء : ان جميع الناس فى بلادنا قد عملوا موظفين أو ما يزالون يعملون موظفين، فهذا يدوم فى الواقع منذ مائتى عام ، يتوارثه الناس أحفاداً عن أجداد ، على غرار خير قدوة أخذناها عن الألمان • والذين يعملون فى الوظائف هم بأعينهم أبعد الناس عن الروح العملية ؛ حتى ان الفـكر التجريدى وفقدان المعرفة العملية كانا ما يزالان الى عهد قريب يُعدّان بين الموظفين أنفسهم فضيلةً بارزة ولقباً رفيعاً •

ولكن عـلام نتكلم عن الموظفين بينمـا كان غرضنا فى الواقع أن نتحدث عن الناس العمليين عامةً ؟ هنا نستطيع أن نقول فى غير شبهة ان الوجل وفقدان المبادرة الشخصية كانا يُعدّان دائماً فى بلادنا خيرَ علامة أساسية يُعرف بها الانسان العملى • وحتى فى زماننا هذا ما يزال الناس يرون هذا الرأى • ولكن لماذا نتهم أنفســنا ، هذا اذا صحّ أن فى هذا الرأى اتهاماً ؟ ان فقدان التفرد والأصالة قد عُدّ فى جميع البلاد وفى جميع الأزمان ميزة أولى ومدخلاً مضموناً لشخص قادر على النجاح فى الأعمال وعلى امتلاك الحس العملى ، أو قل ان تسعة وتسعين فى المائة من الناس

(على الأقل) كانوا يرون هذا الرأى دائماً ، وان واحداً فى المائة منهم (على الأكثر) كان دائماً وما يزال لا يرى ذلك الرأى •

ان المخترعين والعباقرة قد نظر اليهم المجتمع فى جميع الأزمان تقريباً نظرته الى أناس حمقى ، وذلك فى بداية حياتهم (والى آخرها فى كثير جداً من الأحيان) • هذه ملاحظة معروفة شائعة حتى لتكاد تكون مبذولة• فطوال عشرات السنين مثلاً ظل النـاس يودعـون أموالهم فى مصرف لومبارد * مختزنين المليارات بفائدة ٤٪ ، فلما توقف مصرف لومبارد عن العمل ، فصار كل انسان متروكاً لمبادرته الشخصية ، كان لا بد أن نرى أكثر تلك الملايين تتبخـّر بين أيدى محتالين فى غمرة حمى من المضاربات ، فتلك هى النهاية المنطقية للآداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة ، وانما أقول « الأخلاق الحسنة » ، لأنه اذا كان الخجل المناسب والابتعاد المحتشم عن التفرد والأصالة قد عدّهما مجتمعنا فى رأى جميع الناس ميزةً ملازمةً لكل انسان جاد محترم ، فان تغيير المرء طريقة سلوكه وأسـلوب حياته فجأةً لا بد أن يشـتمل ، اذا هو حـدث ، على تناقض قوى واضطراب شـديد وتفكك كبير ، بل لا بد أن يكون فيه شىء من مجـافاة الليـاقة وقلة الأدب •

من هى ، على سـبيل المثـال ، الأم التى لا يجعلها حبهـا لأولادها وحنانها عليهم تخاف خوفاً قد يهـوى بهـا الى المرض اذا هى رأت ابنها أو بنتها يبتعدان ولو قليلاً عن السكة المرسومة والطريق الممهـّد ؟ انها تقول لنفسها : « لا ، لا ، لا نريد تفرداً وأصالة ! انى لأوثر له السعادة وأن يعيش فى يسر » • ان كل أم تفكر هذا التفكير وهى تدلل ولدها• أما المربيـات عنـدنا فانهن من قديم الزمان يهدهدن أولادنا فى مهودهم بأغنيتهن الأبدية : « الذهب سيحوطك ، وجنرالاً سوف تصبح » • هكذا نرى أن مربيات أولادنا أنفسهن قد نظرن دائماً الى لقب الجنرال على أنه

المقياس الأسمى للسعادة الروسية • معنى ذلك أن هذه الرتبة تعد هى المثل الأعلى الذى يحظى باحترام الناس كافة ، وتُعدُّ الرمز الى هناءة فائتة هادئة • وفى الواقع ، أى رجل فى روسيا لم يكن متأكداً من أنه بالغٌ رتبة جنرال فى يوم من الأيام ، وصائر الى اختزان مبلغ من المال فى مصرف لومبارد ، متى استطاع أن ينجح فى الامتحانات المطلوبة ، بعضاً وراء بعض ، ومتى خدم الدولة خمسة وثلاثين عاماً ؟ على هذا النحو انما كان الروسى يصل آخر الأمر ، دون جهد تقريباً ، على سمعة أنه رجل قادر عملى • والواقع أنه ليس فى روسيا الا افراد فئة واحدة لا يستطيعون أن يصلوا الى رتبة جنرال : أولئك هم ذوو الأفكار المتفردة الأصيلة ، أعنى أهل القلق الذين لا يستقرون على حال • قد يشتمل كلامى هذا على سوء فهم • ولكن هذه الملاحظة تبدو صحيحة صادقة ، ولقد كان المجتمع الروسى مبنياً على تعريف مثله الأعلى فى الانسان العملى هذا النحو من التعريف •

ولكن ها نحن اولاء قد نأينا كثيراً عن موضوعنا ، وهو أن نقدم بضع ايضاحات عن أسرة ايبانتشين •

ان أفراد أسرة ايبانتشين أو ان الميّالين منهم الى التأمل أكثر من الباقين ، يعانون من خصلة مشتركة بينهم جميعاً هى نقيض تلك الميزات التى تحدثنا عنها منذ قليل • ولقد كانوا يشتبهون أحياناً فى أن الأمور عندهم لا تجرى كما تجرى عند سائر الناس ، دون أن يدركوا ذلك ادراكاً تاماً (وهو أمر صعبٌ ادراكه على كل حال) • ان الطريق المستوية الممهدة بالنسبة الى الآخرين هى بالنسبة اليهم وعرة ملأى بالحجارة • الناس ينزلقون على السكة انزلاقاً سهلاً ليناً ، أما هم فينزلقون عنها فى كل لحظة • لدى الآخرين يسيطر وجل شديد وخوف حصيف ، أما لديهم فلا شيء من ذلك • صحيح أن اليزابت بروكوفيفنا

كانت تنتابها مخاوف فيها غلو ، ولكن تلك المخاوف لا تشبه في شيء ذلك الوجل اللائق وذلك الخجل المفيد اللذين كان يُحزن أفراداً أسرة ايبانتشين حرمانُهم منهما . ولعل اليزابت بروكوفيفنا كانت الوحيدة التي يحزنها ذلك على كل حال. لقد كانت الآنسات ، رغم صغر سنهن ، ينعمن منذ الآن بفكر نقاد ساخر فيه تحد ، وفيه ذكاء وفطنة ونباهة. أما الجنرال فكان ينفذ الى غور الأشياء (ولو بشيء من البطء) ، لكنه في الحالات المربكة لا يزيد على أن يهمهم قائلاً « هِم ْ » ، ثم ينتهي به الأمر الى الاعتماد على اليزابت بروكوفيفنا اعتماداً كاملاً بحيث تقع التبعة كلها عليها وتكون وحدها المسئولة .

لا يمكن أن نقول مع ذلك ان هذه الأسرة تتميز الى درجة بعيدة بروح المبادرة الخاصة ولا انها تبيح لنفسها أن تنقاد لميل واعٍ الى التفرد والأصالة ، والا كان ذلك شذوذاً غير لائق . لا ، لا ، لم يكن ثمة شيء من هذا في حقيقة الأمر ، لم يكن ثمة شيء يشتمل من جهتها على سابق قصد وعمد . ومع هذا لم تكن هذه الأسرة ، مهما نقل انها أسرةً محترمة ، لم تكن في الحساب الأخير ما ينبغي لها أن تكون على وجه الدقة والتمام حتى يصدق عليها التعريف الشائع للأسرة المحترمة . وقد اعتقدت اليزابت بروكوفيفنا في الآونة الأخيرة أنها وحدها ، بما تتصف به من طبع « شقي » ، هي سبب هذا الشذوذ في الأسرة ، فما كان من هذا الاعتقاد الا أن زاد آلامها وضاعف تباريحها . فكانت تؤاخذ نفسها في كل لحظة على « جموحها الطائش غير اللائق » ، حتى لقد أخذت تفقد صوابها مغمومةً مهمومة خائفة مرتابة . فلا تجد مخرجاً من أيسر التعقيدات ولاتجد حلاً لأبسط المشكلات، وماتنفك تمضي بالأمور من سيء الى أسوأ.

لقد قلنا منذ بداية قصتنا ان أسرة ايبانتشين كانت تحظى بتقدير ينعقد عليه اجماع الناس حقاً . فالجنرال ايفان فيدوروفتش نفسه ، رغم

انه مغمور الأصل ، كان يُستقبل فى كل مكان بتعظيم لا مراء فيه • ولقد كان يستحق هذا التعظيم على كل حال، أولاً لأنه ليس « أيّ شخص »، ولأنه رجل طائل الثراء ؛ وثانياً لأنه رفيع التهذيب رقيق الحاشية ، فليس يضيره أن يكون محدود المواهب • غير أن شيئاً من ثقل الفكر وكثافة الذهن ميزة تكاد تكون ضرورية فيما يظهر ، فان لم تكن ضرورية لكل رجل منخرط فى الأعمال ، فهى ضرورية على الأقل لكل رجل حريص على الانتفاع ساعٍ الى الفائدة • ثم انه كان راقى الآداب والسلوك • كان متواضعاً ، وكان يعرف كيف يصمت ، دون أن يتيح لأحد مع ذلك أن يدوس على قدميه ، لا بسبب رتبته فحسب ، بل لأنه رجل يحترم نفسه ويحترمه غيره • وهو فوق ذلك كله رجل له سند قوى يحميه •

أما اليزابت بروكوفيفنا فهى تنحدر من أسرة طيبة كما سبق أن قلنا • والمحتد لا يكون له وزن كبير فى بلادنا ان لم تشفعه علاقات وصلات لا بد منها • وقد حصّلت اليزابت بروكوفيفنا هذه العلاقات والصلات آخر الأمر ، فكانت تُحترم وتُقدر ، حتى لقد ظفرت بمودة أناس كان لا بد للجميع أن يقتدوا بهم فيعظّموها ويستقبلوها • ومما لا شك فيه أن أحزانها العائلية لم يكن لها أسباب تسوّغها ، أو هى ترجع الى أسباب تافهة يضخّمها خيالها تضخيماً مضحكاً • ولكن يكفى أن يكون للمرء ثؤلول فى أنفه أو جبينه حتى يتخيل أن جميع الناس لا يفكرون الا فى النظر الى هذا الثؤلول ، وفى الضحك منه ، وفى نقد صاحبه ، ولو كان صاحبه هذا هو مكتشف أمريكا • ومما لا شك فيه أيضاً أن اليزابت بروكوفيفنا كانت تُعدّ فى المجتمع « شاذة » بعض الشذوذ ، دون أن يقلّل هذا من الاحترام الذى كانت تُحاط به • لكنها أصبحت تشك فى هذا الاحترام آخر الأمر ، فكان هذا هو شقاءها كله • فهى حين تنظر الى بناتها تتخيل متألمةً أن طبعها المضحك ، غير اللائق ، الذى لا يُطاق ،

يؤذى حالة بناتها ويسيء الى مستقبلهن ، ومع ذلك كان هذا نفسه هو ما تتهم به بناتها وتأخذه عليهن وتأخذه على ايفان فيدوروفتش ، فهى تشاجرهن وتشاجره أياماً بكاملها ، دون أن تكف رغم ذلك عن أن تحبهم جميعاً حباً يمضى الى حد التضحية بالنفس ، ويبلغ درجة الهوى العارم.

وكان يعذّبها خاصةً أن تتصور أن بناتها قد أخذن يصبحن « شاذات » مثلها هن أيضاً ، وأنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد على وجه الأرض فتيات من نوعهن . كانت ماتنفك تردد على نفسها قولها : « لسوف يصبحن من أنصار المذهب العدمى » . وقد أخذت هذه الفكرة الحزينة تترسخ فى ذهنها مزيداً من الترسخ العميق منذ سنة . وكانت تتساءل : « فأولاً : لماذا لا يتزوجن ؟ انهن وُجدن لتعذيب أمهن . ذلك هو هدف وجودهن . و لاغرابة فى هذا على كل حال . فهو ثمرة الأفكار الجديدة ، وهو خاصةً ثمرة تلك القضية اللعينة ، قضية المرأة ! ألم تتخيل آجلايا منذ ستة أشهر أن تقص شعرها الرائع ؟ يا رب ! ألا ان شعرى أنا لم يكن جميلاً هذا الجمال فى غضارة صباى ! لقد أمسكت المقص بيدها ، وأوشكت أن تفعل فعلتها لولا أن تضرعت اليها جاثيةً على ركبتى .. ولنسلّم أن آجلايا انما تظاهرت تظاهراً بأنها تريد أن تقص شعرها ، لا لشيء الا أن تثير حنق أمها ، فهى فتاة شريرة ، طاغية ، مدلّلة ، شريرة خاصةً ، نعم شريرة !... ولكن ما قولنا بألكسندرا الكبيرة ؟ ألم توشك أن تقلّدها فتقصّ شعرها ؟ لم يكن الأمر عند ألكسندرا مكراً أو نزوة ، بل كان عن بساطة تامة . لقد أدخلت آجلايا فى روع تلك الحمقاء أنها اذا حلقت رأسها فسوف تنام نوماً أهدأ وسوف تتخلص من الصداع الذى يلم بها ! وما أكثر الرجال اللائقين الذى تقدموا يخطبونها منذ خمس سنين الى الآن ! ان بينهم رجالاً كانوا ممتازين حقاً ، بل رائعين ! وماذا

ينتظرن ؟ لماذا لا يتزوجن اذا لم يكن هدفهن الا أن يغضبن امهن ؟ لا شك أن السبب الوحيد هو هذا ! » •

ولكن هذا يوم جميل يسطع أخيراً أمام قلبها ، قلب الأم• ان احدى بناتها ، آديلائيد على الأقل ، تهم أن تتزوج • « هذه واحدة تنزل عن ذراعي ! » كذلك قالت الأم حين أتيح لها أن تعبِّر عن ذات نفسها بصوت عال (ولكنها كانت فى قرارة قلبها تجد ألفاظاً أملأ بالعاطفة والحنو) : « ولقد تمَّ الأمر على أحسن نحو، وأليق صورة ! فحتى فى المجتمع الراقى تحدث الناس عن الخطوبة بتقدير واحترام • ان الخطيب رجل معروف • انه أمير • وهو ثرى • وهو حسن الطبع • وقد حظى فوق ذلك باستلطافها • هل يرغب المرء فى أكثر من ذلك ؟ على أن مستقبل آديلائيد كان دائماً لا يثير فى نفس الأم من المخاوف مثل الذى يثيره مستقبل أختيها ، رغم أن الميول الفنية لدى هذه البنت الوسطى قد ألقت اضطراباً عميقاً فى قلب الأم الذى كان يعذِّبه شك متصل لا ينقطع » ، ولكن الأم قد انتهت الى القول من باب تعزية نفسها : « ان للفتاة طبعاً مرحاً فى مقابل ذلك ، وان لها فوق هذا كثيراً من سداد الرأى وسلامة الحس » •

وكانت الأم تخاف على آجلايا خاصةً • أما عن الكسندرا فكانت الأم لا تدرى هى نفسها فى حقيقة الأمر أينبغى لها أن تقلق عليها أم لا• كان يخيَّل اليها أحياناً أن هذه البنت « لم يبق لها مستقبل » • انها فى الخامسة والعشرين من عمرها • فأغلب الظن أنها ستبقى عانسا • « وما أجملها مع ذلك ! » • وكانت الأم تبلغ من الحزن عندئذ أنها تأخذ تبكى ليالى بكاملها مفكِّرةً فى ألكسندرا ، بينما تكون ألكسندرا فى تلك الليالى نفسها غارقة فى نوم هادىء هادىء ! • « ما حقيقة أمر هذه البنت ؟ أهى من أنصار المذهب العدمى ، أم هى غبية حمقاء لا أكثر من ذلك ؟ »• اما انها ليست غبية حمقاء ، فذلك أمر كانت تعرفه اليزابت بروكوفيفنا

حق المعرفة ، حتى لقد كانت تحترم آراء ألكسندرا احتراماً كبيراً ، وكان يسرها أن تستشيرها • ولكن لا شك في أن ألكسندرا « دجاجة مبتلة » : « انها تبلغ من فرط الهدوء أن لا سبيل الى تعكير صفوها • آه !••• انهن يفقدنني صوابي ! » كانت تحس نحو الكسندرا بحب رقيق وحنان شديد لعله أقوى من شعور الحنان الذي تحسه نحو آجلايا ، مع أن آجلايا هي معبودتها • غير أن تلك الاندفاعات الغاضبة (التي كانت المظهر الرئيسي لما يضطرم في نفسها من عطف الأم وحنوّها وحدبها) وكذلك تلك الاستفزازات وتلك الألقاب ، كقولها « دجاجة مبتلة » لم تكن تزيد على أن تثير في الكسندرا الابتسام •

وكانت أتفه الأمور تخرجها في بعض الأحيان عن طورها • من ذلك ، على سبيل المثال ، أن ألكسندرا كانت تحت أن تنام مدةً طويلة ، وكانت ترى في العادة أحلاماً كثيرة • ولكن تلك الأحلام كانت تتميز دائماً بتفاهة نادرة ، وكانت بريئة براءة أحلام طفل في السابعة من عمره• فكانت هذه البراءة نفسها تغيظ الأم وتحنقها ، لا يدري أحد لماذا • من ذلك أن الفتاة رأت في حلمها ذات ليلة تسع دجاجات ، فما كان أعنف الشجار الذي قام بينها وبين أمها بسبب ذلك الحلم ! لماذا ؟ انه يصعب على المرء أن يجيب عن هذا السؤال • وفي مرة من المرات ، في مرة واحدة، اتفق لها أن رأت حلماً فيه شيء من الطرافة : رأت راهباً معتكفاً في نوع من غرفة مظلمة خافت أن تدخلها • فلما قصّت حلمها على أختيها انفجرتا تضحكان ، وأسرعتا الى اليزابت بروكوفيفنا منتصرتين تقصان عليها ذلك الحلم • فغضبت الأم من جديد ووصفتهن جميعاً بأنهن « بلهاوات » • وقالت تحدث نفسها « هِمْ ••• انها متبلدة الاحساس كبهيمة • هي « دجاجة مبتلة » تماماً • لا سبيل الى اخراجها من تخدر الشعور • ثم انها حزينة • ان نظرتها تتجلل أحياناً بأسى وكآبة •

ما مصدر حزنها ؟ » . وكانت اليزابت بروكوفيفنا تلقى هذا السؤال أحياناً على ايفان فيدوروفتش ، تلقيه متجهمة الهيئة بلهجة مهددة تطلب جواباً على الفور . فكان الجنرال يجمجم ويهمهم « هم ... هم ... » ويقطب حاجبيه ، ويرفع كتفيه ، ثم يعلن أخيراً وهو يباعد ذراعيه :

ـ هي في حاجة الى زوج !

فاذا باليزابت بروكوفيفنا تنفجر انفجار قنبلة ، وتصرخ قائلة :

ـ أسأل الله ، على الأقل ، أن لا يكون ذلك الزوج مثلك . انني آمل أن لا يشبهك لا في آرائك ولا في أحكامك يا ايفان فيدوروفتش ! آمل أن لا يكون فظاً غليظ القلب مثلك يا ايفان فيدوروفتش !...

فكان الجنرال يولي هارباً ، ثم تهدأ اليزابت بروكوفيفنا بعد « انفجارها » . ثم لا يفوتها ، طبعاً ، في مساء ذلك اليوم نفسه أن تبدي بشاشة عظيمة ولطافة غير معهودة ، فهي تظهر رقة وعذوبة ولطفاً وتحبباً واحتراماً وتوقيراً لزوجها « الفظ الغليظ القلب » ايفان فيدوروفتش ، لزوجها الطيب العزيز الحبيب المعبود ايفان فيدوروفتش . ذلك أنها قد أحبته طوال حياتها ، أحبته حباً قوياً صادقاً ، وذلك ما كان ايفان فيدوروفتش نفسه يعلمه حق العلم ، ويكافئ عليه اليزابت بروكوفيفنا بتقدير لا حدود له .

ولكن العذاب الأساسي ، العذاب الدائم المقيم في قلب اليزابت بروكوفيفنا انما كان بنتها آجلايا . كانت الأم تقول لنفسها : « انها مثلي تماماً . هي صورتي من جميع النواحي : شيطان مستبد صغير ! عدمية ، شاذة ، طائشة ، شريرة ، شريرة ، شريرة ! آه ... يا رب ! ما أكثر ما ستلقى في حياتها من شقاء ! ... » .

غير أن الشمس كانت قد طلعت فأنارت ولطفت كل شيء ، فترة قصيرة على الأقل . لقد عاشت اليزابت بروكوفيفنا قرابة شهر ، متحررة

من جميع أنواع القلق والغم التى كانت تستبد بها . أخذ الناس فى المجتمع الراقى ، بمناسبة زواج آديلائيد القريب ، يتكلمون أيضاً عن آجلايا. وكانت آجلايا تتصرف فى كل مكان تصرفاً لطيفاً كيّساً ! كانت لبقة السلوك متوقدة الذهن فى آن واحد . وكانت هيئتها الآسرة ، التى يمازجها شيء من كبرياء ، تناسبها كثيراً ! وهى منذ شهر كامل تعامل أمها معاملة فيها أكبر الملاطفة وأعظم البشاشة ! (« صحيح أنه ما يزال ينبغى أن يُدرس أوجين بافلوفتش هذا دراسةً جيدة ، وأن تُعرف حقيقته معرفةً صحيحة . ثم ان آجلايا نفسها لا تظهر له من المودة أكثر مما تظهر للآخرين على كل حال ») . ولكن آجلايا قد أصبحت فتاةً بارعة الفتنة رائعة الجمال على حين فجأة ! رباه رباه ! ما أجملها ! وانها لتزداد جمالاً فى كل يوم !

ولكن ...

ولكن ما ان ظهر هذا الأمير الصغير الوغد ، ما ان ظهر هذا الأبله المعتوه ، حتى انقلب كل شيء رأساً على عقب من جديد ، وانقلب البيت عاليه سافله ! فماذا حدث ؟

الحق أنه لم يحدث شيء الا فى نظر اليزابت بروكوفيفنا . ولكن اليزابت بروكوفيفنا انما كانت تتميز بأن ترابط وتسلسل حوادث عادية جداً كانا يحدثان فى نفسها القلقة مخاوف أليمة يغذيها الخيال ولا يمكن أن يفسرها عقل ، حتى لقد كانت تسقط بسبب ذلك مريضةً فى بعض الأحيان . ففى وسعكم أن تتصوروا ما لا بد أن تكون قد عانته من ألم حين انبثق فى وسط عدد كبير من الهواجس السخيفة الوهمية حادث بدا أن له خطورة حقيقية فكأنه يسوّغ القلق والاضطراب والشك والريب.

قالت اليزابت بروكوفيفنا محدثةً نفسها طوال الطريق بينما كانت

تقود الأمير ، ثم فى دارها حين أجلسته الى المائدة المستديرة التى كانت تتحلق حولها الأسرة كلها : « كيف تجرأوا أن يكتبوا الىّ تلك الرسالة المنحوسة الغفل التى تدعى أن لهـذا « المخلوق » علاقات بآجلايا ؟... بل كيف أمكن أن تخطر هذه الفكرة على بال انسان ؟ لسوف أموت من شعورى بالعار لو صدّقت كلمة واحدة منها ، أو أظهرتُ آجـلايا على الرسالة ! أيسخرون هذا السخر منـا نحن آل ايبانتشـين ! وذلك كله بسبب ايفان فيدوروفتش . ذلك كله بسببك أنت يا ايفان فيدوروفتش ! آه ... لماذا لم نذهب الى جزيرة يا لاجين فنسـكن الفيللا التى نملكها هناك * ؟ لقد قلت ان علينا أن نذهب الى يالاجين ! ربما كانت فاريا هى التى كتبت تلك الرسالة ! نعم ، أنا أعلم ذلك ؟ أو ربما كان .. آه .. ذلك كله ذنب ايفان فيدوروفتش ! لقد تخيلت تلك المخلوقة أن تدبر له مثل هذه المكيـدة تذكيراً بعلاقات قديمة لتجعله فى وضع مضحك . هذا يذكّر بالزمان الذى كان يحمل اليها فيه لآلىء بينما كانت هى تضحك عليه وتشـده من طرف أنفه كمعتـوه !... ولكن ها نحن أولاء قد تعرضت سمعتنا للسوء نحن أيضاً . نعم يا ايفان فيدوروفتش ، لقد تعرضت سمعة بناتك للسوء ، بناتك اللواتى هن أوانس أرقى مجتمع ، وفتيات على أهبة الزواج . لقد كنّ حاضرات ؟ بقين هناك ، فسمعن كل شىء ، حتى لقد أُقحمن فى تلك الأمور السيئة . هل سررت الآن ؟ هناك أيضـاً كنّ حاضرات وسمعن الكلام . لن أغفر لهذا الأمير الصغير الشقى فى يوم من الأيام . لا ، لن أغفر له فى يوم من الأيام ! ولماذا أرى آجلايا مهتاجة الأعصاب الى هذا الحد منذ ثلاثة أيام ؟ لماذا أراها فيما يشبه الشجار مع أختيها ، حتى مع الكسندرا التى كانت من شدة احترامها لها تقبّل يدها كأم ؟ ما بالها تلقى على جميع الناس ألغازاً وأحاجى ؟ وما مجىء جبريل ايفولجين الى هنا ؟ لماذا أخذت تكيل له المديح أمس واليوم ، ثم انفجرت

باكية منتحبة ؟ لماذا تتكلم تلك الرسالة اللعينة عن هذا « الفارس الفقير » بينما لم تطلع آجلايا أختيها على رسالة الأمير ؟ ولماذا ... أسرعتُ اليه كالمجنونة واقتدته بنفسي الى هنا ؟ يا الهي ! لقد فقدت صوابي . ما هذا الذي صنعته ؟ كيف أمكنني أن أتكلم مع شاب عن أسرار بنتي ، لا سيما ... حين تكون هذه الأسرار متعلقة به أو تكاد ؟ رباه ! الحمد لله على أنه أبله ... وأنه ... وأنه .. صديق الأسرة . ولكن هل يمكن أن تفتتن آجلايا بمثل هذا الطرح ؟ ما هذا الذي أقوله ؟ آه ... اننا شاذون ... يحسن أن نوضع في قفص ليتفرج الناس علينا بعشرة كوبكات ... ولا سيما أنا ! لن أغفر لك هذا يوماً يا ايفان فيدوروفتش ، لن أغفره لك في يوم من الأيام ! ولماذا لا تسيء هي معاملته ؟ لقد وعدت بأن تسيء معاملته . ثم هي لا تفعل من ذلك شيئاً ! انظروا ! انها تلتهمه بعينيها التهاماً ، وتبقى صامتة ولا تعزم أمرها على الابتعاد . وهي التي حظرت عليه مع ذلك أن يعود ! ... أما هو فانه شاحب الوجه شحوباً شديداً ! وما القول في هذا الثرثار أوجين بافلوفتش الذي يحتكر الحديث كله ؟ ما من أحد يستطيع ، ازاء هذا السيل المتدفق من ثرثرته ، أن يدسّ كلمة واحدة . في وسعي أن أخرج كل شيء الى النور لو أمكنني أن أدير دفة الحديث ... » .

كان الأمير جالساً الى المائدة المستديرة ، شاحب الوجه حقاً . كان يلوح عليه أن هلعاً شديداً يسيطر عليه ، هلعاً يخالطه في بعض اللحظات نوع من نشوة يغزو قلبه ولا يستطيع هو نفسه أن يفهمه . لشد ما كان يخشى أن يختلس نظرة مواربة الى ذلك الركن الذي تحدّق اليه منه عينان سوداوان يعرفهما حق المعرفة ! ومع ذلك ما كان أعظم السعادة التي كانت تغمره حين يتصور أنه يجد نفسه مرة أخرى في هذه الأسرة، ويسمع ذلك الصوت المألوف ، وذلك بعد الذي كتبته اليه !...

« ما عساها تقول الآن يا رب ! » • لم يكن قد فتح فاه بعد ، وكان يصيخ بسمعه الى أحاديث أوجين بافلوفتش الذى كان « يتدفق فى الكلام تدفقاً غزيراً » ، وكان يعانى فى ذلك المساء نوبةً قوية من الرضى عن النفس والرغبة فى الكلام • أصاخ اليه الأمير بسمعه دون أن يفهم شيئاً مما كان يقوله • وكانت الأسرة كلها حاضرة ، الا ايفان فيدوروفتش الذى لم يكن قد رجع من بطرسبرج بعد • وكان الأمير « شتشت ••• » أحد الحضور ، وكان واضحاً أن هؤلاء كانوا ينتوون أن ينصرفوا بعد قليل ، قبل موعد الشاى ، ليذهبوا الى سماع الموسيقى * •

كان الحديث يدور على موضوع يبدو أنه طُرح على مائدة البحث قبل وصول الأمير • ولم يلبث أن ظهر كوليا على الشرفة ، لا يدرى أحد من أين انبجس ! قال الأمير يحدث نفسه : « عجيب ! ما زال يُستقبل اذن كما كان يُستقبل فى الماضى ! » •

ان مسكن آل ايبانتشين فيللا فخمة مبنية على طراز الشاليهات السويسرية ، قد أُحسنت العناية بها ، وأُحيطت بأزهار وخضرة تتألف منها مربعات ان كانت صغيرة الابعاد فانها رائعة الجمال • وكان الحفل كله مجتمعاً على الشرفة ، كما فى بيت الأمير ، لكن الشرفة هنا أفسح قليلاً وألطف ترتيباً •

ولم يكن يبدو أن موضوع الحديث يناسب ذوق جميع الحضور ، ويلقى من نفوسهم كلهم هوى • وأغلب الظن أنه بدأ بمناقشة حامية ، وكان يمكن حتماً أن ينحرف الى شىء آخر لولا أن أوجين بافلوفتش قد تظاهر بالعناد حول المسألة التى دارت عليها المناقشة ، دون أن يحفل بالأثر الذى يحدثه فى النفوس • وكأن ظهور الأمير أثاره مزيداً من الاثارة وحرّضه مزيداً من التحريض • وقد عبست اليزابت بروكوفيفنا وتجهمت سحنتها واربد وجهها دون أن تفهم كل ما كان يُقال • ولم

تنصرف آجلايا بل ظلت فى مكانها ، متنحية ، تصغى الى الكلام وتلتزم صمتاً عنيداً فلا تفتح فمها بكلمة واحدة .

أجاب أوجين بافلوفتش قائلاً بحرارة :

ـ اسمحى لى ، أنا لا أعترض على اللبرالية أى اعتراض . ليست اللبرالية شراً . انها جزء متمم من مجموع كلى لا بد أن يتحلل وأن يزول اذا هى لم توجد . ان حق اللبرالية فى الوجود لا يختلف عن حق أى مذهب من المذاهب المتطرفة فى المحافظة . لكننى أنتقد اللبرالية الروسية . وأعود فأكرر لكم أننى اذا كنت أحاربها فلأن اللبرالى الروسى لبرالى ليس « روسياً » فى شىء . أرونى لبرالياً روسياً ، فأعانقه أمامكم على الفور .

قالت الكسندرا ايفانوفنا التى كانت ثائرة الأعصاب ، وكانت خداها أشد احمراراً منهما فى العادة :

ـ هذا اذا رضى هو أن يعانقك !

فحدثت اليزابت نفسها تقول : « هذه واحدة لا يهزها شىء ولا يحركها شىء ، ولا تفكر الا فى النوم والطعام ، ثم اذا هى تندفع ـ مرة كل عام ـ اندفاعات تحيّرك ! » .

ولاحظ الأمير عرضاً أن ألكسندرا ايفانوفنا كانت تبدو مستاءة من أن ترى أوجين بافلوفتش يتكلم بلهجة تبلغ هذا المبلغ من التفاهة فى معالجة موضوع يبلغ هذا المبلغ من الجد ، ويصطنع الاندفاع والمزاح فى آن واحد .

تابع أوجين بافلوفتش كلامه قائلاً :

ـ كنت أقول قبل وصولك يا أمير اننا لم نعرف حتى الآن فى روسيا

الا فريقين من اللبراليين تحدر بعضهم من طبقة مالكي الأطيان القدامى (وهذه طبقة أُلغيت) وتحدر بعضهم الآخر من طبقة طلاب اللاهوت. واذ أن هاتين الطبقتين قد استحالتا في النهاية الى فئتين منعزلتين انعزالاً تاماً عن الأمة ، واذ أن انعزالهما يشتد ويقوى جيلاً بعد جيل ، فانه ينتج عن ذلك أن جميع ما فعله أو يفعله هؤلاء اللبراليون لا يمثل أي طابع قومي ...

ردّ الأمير « شتش ... » يقول :

ـ كيف هذا ؟ هل كل ما فعلوه ليس فيه شيء روسي ؟

ـ ليس فيه شيء قومي على كل حال . فحتى لو كان عملهم روسياً فانه ليس قومياً . على أن اللبراليين عندنا ليس فيهم شيء روسي ، اطلاقاً ... أبداً ... تستطيع أن تكون على يقين من أن الأمة لن تتعرف لا الآن ولا في المستقبل ما يكون قد فعله هؤلاء الناس من قدامى مالكي الأطيان وطلاب اللاهوت ...

قال الأمير « شتش ... » محتجاً بحرارة :

ـ عجيب ! كيف يمكنك أن ترى مثل هذا الرأي الغريب المفارق ، اذا كنت جاداً فيما تقول ؟ لا أستطيع أن أسمح بمثل هذا التهجم على قدامى مالكي الأطيان الروس . ألست أنت نفسك واحداً من قدامى مالكي الأطيان الروس ؟...

ألقى عليه الأمير « شتش ... » هذا السؤال وقد ازداد حماسة واندفاعاً . فأجاب أوجين بافلوفتش قائلاً :

ـ ولكنني لا أتكلم عن مالك الأطيان الروسي القديم بالمعنى الذي يبدو أنك تفهمه . هذه طبقة محترمة مجيدة ، على الأقل لأنني واحد من أبنائها ، ولا سيما الآن ، بعد أن لم يبق لها وجود ...

قاطعته ألكسندرا ايفانوفنا سائلة :

ـ هل صحيح أننا ، حتى فى الأدب ، لم يكن لدينا أى شىء قومى ؟

ـ لست متبحراً فى الأدب ، ولكننى أعتقد أن الأدب الروسى نفسه ليس فيه شىء روسى ، ربما باستثناء لومونوسوف ، وبوشكين ، وجوجول .

قالت آديلائيد ضاحكة :

ـ طيب . هذا وحده كاف . ثم اذا كان أحد هؤلاء من أبناء الشعب فان الاثنين الآخرين هما من طبقة مالكى الأطيان القدماء .

ـ صحيح . ومع ذلك لا تتعجلى الفوز والانتصار . ان هؤلاء الثلاثة هم حتى الآن الوحيدون الذين استطاعوا أن يقولوا شيئاً لم يكن مستعاراً بل كان مستمداً من نفوسهم* . ان الروسى الذى يقول أو يكتب أو يفعل شيئاً متصفاً بأنه روسى حقاً ، شيئاً مستمداً من ذاته فليس هو بالمحاكاة أو الاستعارة ، ان هذا الروسى يصبح قومياً بالضرورة ، حتى ولو كانت لغته الروسية رديئة . تلك عندى من المسلّمات البديهية . على أن ما بدأنا الحديث عنه والكلام عليه ليس هو الأدب بل هو الاشتراكيون . فبصدد الاشتراكيين انما انخرطنا فى المناقشة . وقد زعمت أنه لم يوجد عندنا ولا يوجد عندنا اشتراكى واحد روسى . لماذا ؟ لأن جميع الاشتراكيين عندنا انما انحدروا هم أيضاً من طبقة قدامى مالكى الأطيان أو من طبقة طلاب اللاهوت . ان جميع اشتراكيينا وجميع أولئك الذين يعلنون عن أنفسهم أنهم اشتراكيون ، سواء فى داخل البلاد أو فى الخارج ، ليسوا الا لبراليين خرجوا من صفوف قدامى مالكى الأطيان فى عهد القنانة . لماذا تضحكين ؟ أرينى كتبهم ، أرينى مذاهبهم ورسائلهم ، فأتعهّد لك ، دون أن أكون ناقداً محترفاً ، بأن أكتب أصدق الآراء

الأدبية مبيناً بوضوح كوضوح النهـار ان كل صفحة من صفحات كتبهم وكراساتهم ورسـائلهم انما هي قبل كل شيء من صنع مالك سـابق من قدامى مالكي الأطيان الروس • ان غضبهم ، واستياءهم ، وحتى سخرهم المفكه ، ان ذلك كله تفوح منه رائحة مالك الأطيـان القديم (حتى أن مالك الأطيان القديم هذا هو من نموذج عتيق بالٍ كنموذج فاموسوف*)• قد تكون صادقة ، ولكنها حماسات ودموع رجل من قدامى مالكي الأطيان، أو طلاب اللاهوت • أما تزالين تضحكين ؟ أتضحك، أنت أيضاً يا أمير ؟ ألست توافقني اذن على رأيي ؟

الحق أن الضحك كان عاماً شاملاً • وكان الأمير نفسه يبتسم •

قال الأمير وقد انقطع عن الابتسام بغتةً ، وانتفض انتفاضة تلميذ فوجيء مذنباً :

ـ لا أستطيع بعد أن أقول جـازماً أأنا أوافقك على رأيك أم لا ، ولكني أؤكد لك أنني أجد في الاصغاء الى كلامك لذة قصوى •••

نطق الأمير بهذه الكلمات وكأنه يختنق اختناقاً • وكان عرق بارد يغشى جبينه كحبات اللؤلؤ • هذه هي الكلمات الأولى التي نطق بها منذ وصوله • وأغراه أن يلقي نظرة حواليه ، لكنه لم يجسر ، ولاحظ أوجين بافلوفتش حركته فابتسـم ، ثم تابع كلامه قائلاً بتلك اللهجة نفسها من الاندفاع المفتعل والحـرارة المصطنعة التي يستشف المرء فيها رغبتـه في الضحك حتى من أقواله :

ـ سأذكر لكم واقعة أيها السادة ، واقعة أعتقد أن قد كان لي فضل اكتشافها وملاحظتها ، فما من أحد ، على الأقل ، سبق أن تكلم عليها أو كتب عنها حتى الآن • ان هذه الواقعة تحدِّد كل ماهية اللبرالية الروسية التي أوضِّحها • وما هي اللبرالية على وجه العمـوم أولاً ؟ أليست هي

الميل الى تسفيه نظام الأمور القائم ؟ (خطأً أو صواباً ، تلك مسألة أخرى) أليست اللبرالية هي هذا ؟ فاليكم الآن الواقعة التي لاحظتها : ان اللبرالية الروسية لا تهاجم نظاماً للأمور قائماً • ان ما تستهدفه هو جوهر الحياة القومية ، هو هذه الحياة نفسها لا المؤسسات ، هو روسيا لا التنظيم الروسي • ان اللبرالي الذي أحدثكم عنه يمضي الى حد جحود روسيا نفسها ، اي انه يبغض ويضرب أمه التي ولدته • ان كل شقاء يلم بروسيا ، وكل اخفاق تمنى به روسيا ، يحمله على الضحك ويبعث في نفسه الفرح أو ما يشبه الفرح • انه يشمئز من العادات الشعبية ويكره تاريخ روسيا ويبغض كل شيء • وعذره الوحيد ، اذا كان له عذر ، هو أنه لا يدرك ما يفعل ، ويظن أن هذا الكره الذي يحمله لروسيا هو اللبرالية الخصبة • ما أكثر اللبراليين الذين نصادفهم في بلادنا ويصفق لهم الناس ، وهم في حقيقة أمرهم وربما على غير علم منهم ، أشد المحافظين غباء وأكثرهم عتواً ! لقد كان كره روسيا هو الحب الحقيقي للوطن في نظر بعض اللبراليين الذين كانوا يفاخرون بأنهم يدركون حقيقة حب الوطن ادراكاً أوضح من ادراك غيرهم له • ثم صارت الأمور مع الزمن أصرح ، فاذا نحن نرى أن تعبير « حب الوطن » أصبح يعد غير لائق ، واذا بالفكرة التي تقابل هذا التعبير أصبحت توهم بأنها ضارة ، وتوصف بأنها جوفاء خالية من المعنى • تلكم واقعة أكيدة محققة • ينبغي أن تعزم أمرنا على ذكر الحقيقة بكل بساطة وصدق • نحن ههنا ازاء ظاهرة لم يسبق لها مثيل في أي زمان ولا في أي مكان • ما من قرن من القرون ، وما من شعب من الشعوب ، بدت فيه هذه الظاهرة • وهذا يدل على أنها عارضة وأنها قد تكون زائلة • ذلك أمر لا أنفيه • ولكن المرء لا يستطيع أن يرى في أي مكان غير روسيا لبرالياً يكره وطنه • فكيف نفسّر ظهور هذه الحالة في بلادنا ان لم نفسرها بالسبب الذي ذكرته منذ قليل وهو أن

الليبرالي الروسي ليس روسياً في شيء ؟ انني لا أرى تعليلاً أصلح من هذا التعليل .

ردّ الأمير « شتش ... » قائلاً برصانة :

ـ انني أعد كل ما قلتَه الآن مزاحاً يا أوجين بافلوفتش ...

قالت الكسندرا ايفانوفنا :

ـ أنا لم أرَ جميع الليبراليين ، ولكنني استأت أثناء سماعي كلامك. فانك قد بدأت من حالة خاصة فعمّمتها فوقعت في التجني .

أجاب أوجين بافلوفتش :

ـ حالة خاصة ؟ آ ... هذه بعينها الكلمة التي كنت أنتظرها ! أهي حالة خاصة أم لا ؟

وأضاف يسأل الأمير :

ما رأيك يا أمير ؟ أهذه حالة خاصة أم لا ؟

قال الأمير :

ـ يجب أن أعترف أنا أيضاً أن خبرتي ضئيلة وانني لم أعاشر .. الليبراليين كثيراً . ولكن يبدو لي أنك قد تكون على صواب ، وأن تلك الليبرالية الروسية التي تحدثت عنها ميّالة في الواقع الى ابغاض روسيا لنفسها لا للنظام السائد فيها . طبعاً ، ليس هذا صادقاً الا بعض الصدق ، فنحن لا نستطيع أن نأخذ هذا المأخذ على جميع الليبراليين بغير استثناء اذا نحن أردنا الانصاف ...

وقطع الأمير كلامه فجأة . وكان رغم انفعاله كله قد تابع الحديث باهتمام شديد . ان من سماته المميّزة أن وجهه يكتسي هيئة السذاجة العميقة في اصغائه الى الحديث عن الموضوعات التي تثير انتباهه . وهذه السذاجة تُلاحَظ في أجوبته التي يجيب بها أولئك الذين يسألونه عن

هذه الموضوعات نفسها ؟ وهى تظهر فى سحنته وتظهر حتى فى اشاراته ، وتكشف فى هذه وتلك عن ايمـان هو فى حمى من اصابات السخرية والتهكم • ولقد اعتاد أوجين بافلوفتش منذ زمن طويل أن لا يخاطبه الا وعلى شفتيه ابتسامة صغيرة خاصة ، أما الآن فانه حين سمع اجابته نظر اليه مبهوتاً ، بكثير من الجد والرصانة ، ثم جمجم يقول :

ـ هكذا !••• انك لتدهشنى حقـاً • هل كنت فى اجابتك جاداً يا أمير ؟

فسأله الأمير مستغرباً :

ـ ألم يكن سؤالك أنت جاداً ؟

فاستقبل الحضور هذه الكلمات بضحك شامل •

قالت آديلائيد :

ـ ألا امحضـوه ثقتكم ! ان أوجين بافلوفتش لا يحب شـيئاً كما يحب التضليل والمخادعة ! ليتكم تعرفون ما يستطيع أن يفتعله من مناقشات، متظاهراً بأكبر الجد !

وقالت الكسندرا بلهجة قاطعة :

ـ فى رأيى أن هذا الحديث شاق متعب ، وأنه كان من الأفضل أن لا ننخرط فيه • لقد كنا ننتوى القيام بنزهة •••

فهتفت أوجين بافلوفتش يقول :

ـ هلموا بنا ! الأمسية رائعة ! لكننى أحرص على أن أبرهن اننى ، فى هذه المرة ، قد تكلمت جاداً كل الجد • أريد خاصةً أن أبيِّن هذا للأمير • (لقد أثرت اهتمامى اثارة قوية يا أمير ، وانى لأحلف لك صادقاً اننى أقل عبثاً وخفةً مما يبدو علىَّ ، رغم أن العبث والخفة من عيوبى فى

حقيقة الأمر) • لذلك سألقى على الأمير ، بعد استئذان الحضور ، سؤالاً أخيراً لاشباع حب الاطلاع فى نفسى شخصياً ، ثم أقف عند هذا الحد مكتفياً به فلا أتعداه • ان هذا السؤال قد خطر ببالى ، بمصادفة تشبه العمد ، منذ ساعتين (هأنت ذا ترى يا أمير أنه يتفق لى أيضاً أن أفكر فى أمور جدية) • ولقد اهتديت الى حل لذلك السؤال ، لكننى أريد أن أعرف رأى الأمير • لقد كنا نتحدث منذ لحظة عمّا يسمى «حالة خاصة»• ان هذا التعبير دوراً كبيراً فى مجتمعنا ، وان مجتمعنا يحب استعمال هذا التعبير • فى الآونة الأخيرة وقعت حادثة اغتيال رهيبة أثارت اهتمام الصحافة والرأى العام ، هى حادثة مصرع ستة أشخاص بيد شاب قتلهم جميعاً • ولقد تحدث الناس عندئذ كثيراً عن تلك المرافعة الغريبة التى قام بها المحامى ، اذ أعلن أن فكرة قتل هؤلاء الأشخاص الستة كان «طبيعياً» ان تخطر ببال القاتل لأنه كان فى حالة فقر شديد • ليست هذه هى الكلمات التى استُعملت ، ولكننى أعتقد أن المعنى هو هذا • وأحسب أن المحامى حين أصدر ذلك الرأى الغريب وصاغ تلك الفكرة العجيبة انما كان يؤمن صادقاً بأنه يستلهم أسمى مفاهيم عصرنا فيما يتصل بالليبرالية والانسانية والتقدم • فما رأيكم ؟ أيجب أن نرى فى مثل هذا الفساد الذى أصاب العقل والضمير ، وفى مثل هذا الانحراف والانحطاط اللذين صار اليهما الرأى ، أيجب أن نرى ههنا حالة خاصة أم ظاهرة عامة ؟

انفجر الجميع يضحكون •

قالت ألكسندرا واديلائيد ضاحكتين :

ــ بل هذه حالة خاصة طبعاً •

وقال الأمير « شتشش ••• » :

ــ اسمح لى أن أذكّرك يا أوجين بافلوفتش أن مزاحاتك قد أخذت تفقد طرافتها !

لم يسمع أوجين بافلوفتش هذه الملاحظة ، وكان يحس بثقل نظرة الأمير ليون نيقولايفتش الرصينة المتفحصة ، فتابع كلامه سائلاً :

ـ ما رأيك يا أمير ؟ ماذا تعتقد ؟ أهى حالة خاصة أم ظاهرة عامة ؟ اعترف لك باننى وضعت هذا السؤال لالقائه عليك أنت •

قال الأمير برفق وهدوء ، ولكن بثبات وصلابة :

ـ لا ، ما هذه حالة خاصة •

صاح الأمير « شتشـ ••• » قائلاً فى شىء من غضب :

ـ هيه يا ليون نيقولايفتش ، ألا ترى أنه يمد لك شباكاً ، ألا ترى أنه ينصب لك فخاً ؟ واضح أنه يسخر ، وأنه أراد أن تكون أنت مدار سخريته •

قال الأمير وقد احمر وجهه :

ـ كنت أظن أنه يتكلم جاداً •

وخفض عينيه •

واستأنف الأمير « شتشـ ••• » كلامه فقال :

ـ يا عزيزى الأمير ، هلاّ تذكرت الحديث الذى جرى بيننا منذ ثلاثة أشهر ! لقد لاحظنا ، بحق ، أن محاكمنا الفتية ، رغم أن نشوءها حديث ، قد أبرزت محامين ممتازين يملكون أعظم المواهب • وما أكثر الأحكام التى صدرت عن محاكم الجنايات والتى تستحق أكبر الثناء والمديح ! لقد أسعدنى كثيراً حينذاك أن أراك تغتبط بهذا التقدم ••• واتفقنا على أن من حقنا أن نعتز وأن نفخر ••• فما تلك المرافعة الحمقاء وتلك الحجة العجيبة اذن الا حادث عارض ، الا حالة من ألف •

فكّر الأمير ليـون نيقولايفتش لحظةً ، ثم أجاب بلهجة تدل على أكبر الاقتناع ، ولكن دون أن يرفع نبرته ، حتى لقد كان فى صوته شيء من خجل :

ـ كل ما أردت أن أقوله هو أن هذا الفساد والتدهور فى الأفكار والعقل (اذا نحن شئنا أن نستعمل تعبير أوجين بافلوفتش) يصادفان فى أحيان كثيرة جداً ، فهما ـ وا أسـفاه ـ أقرب الى أن يكونا ظاهرة عامة منهما الى أن يُعدّا حالة خاصة . فلولا أنهما شـائعان هذا الشيوع كله فلعلنا كنا لا نرى جرائم كهذه الجرائم التى لا يتصورها الخيال ...

ـ جرائم لا يتصورها الخيال ؟ أؤكد لك أن الجرائم فى الماضى كانت لا تقل فظاعة وشناعة ، ولعلها كانت أقسى وأبشع . هذه الجرائم قد عرفتها جميع الأزمان ، لا فى بلادنا وحدها بل فى كل مكان ، وأعتقد أنها ستظل تُرتكب زمناً طويلاً . كل ما هنالك من فرق هو أننا لم نكن نملك فى الماضى أدوات لنشر الأخبار واسعةً هذا الاتساع كله فى حين أن الصحافة والجمهـور سرعان ما يلمان بأنبائها فى هذا الزمان . فذلك هو مصـدر شـعورنا بأننا ازاء ظاهرة جديدة . هـذا هو خطؤك يا أمير ، هـذا هو خطؤك الساذج البرىء . صدّقنى .

بهذا ختم الأمير « ششش ... » كلامه وهو يبتسم ابتسامة ساخرة.

قال الأمير :

ـ أعرف تماماً أن الجرائم كانت فى الماضى لا تقل عـدداً ولا تقل هولاً . لقد زرت سجوناً منذ زمن غير طويل ، فأتيح لى أن أعرف عدداً من المحكوم عليهم . ان بينهم مجرمين أفظع من أولئك الذين جرى عليهم حديثنا . ان منهم أناساً لا يشعر أحدهم بشيء من عذاب الضمير بعد أن يكون قد قتل «دستة» أشخاص . ولكن اليك ما لاحظته : ان أعتى أولئك المجرمين وأكثرهم خلواً من عذاب الضمير يحس مع ذلك أنه «مجرم»،

أى انه فى شعوره ووعيه يدرك أنه أذنب وان كان لا يحس بأى ندم . تلك كانت حالة جميع أولئك السجناء . لكن المجرمين الذين يتكلم عنهم أوجين بافلوفتش أصبحوا لا يريدون أن يعدوا أنفسهم مجرمين . فهم فى قرارة أنفسهم يعتقدون أنهم على حق وأنهم أحسنوا صنعاً ، أو يعتقدون بشىء من هذا القبيل . هذا فى رأيى فارق كبير . ولاحظ أن هؤلاء جميعاً شبان ، أى أن سنهم هى السن التى يكون فيها الانسان أعجز ما يكون عن مقاومة تأثير الأفكار المنحرفة .

كان الأمير « شتشت ... » قد كف عن الضحك فهو يصغى الى الأمير وقد لاح فى وجهه الارتباك . وكانت الكسندرا ايفانوفنا تريد منذ مدة طويلة أن تبدى ملاحظة لكنها لزمت الصمت كأن سبباً معيناً صدّها عن ذلك . أما أوجين بافلوفتش فكان ينظر الى الأمير بدهشة واضحة ، وبدون أية سخرية فى هذه المرة .

وتدخّلت اليزابت بروكوفيفنا فجأة تقول :

ـ ما بالك ، أيها السيد العزيز ، تحدّق اليه هذا التحديق ، مشدوه الهيئة ؟ أكنت تظنه أغبى منك ، وعاجزاً عن التفكير على غرارك ؟

قال أوجين بافلوفتش :

ـ لا يا سيدتى ، لم أكن أظن ذلك ، غير أن هناك شيئاً يثير دهشتى يا أمير (اغفر لى سؤالى) : اذا كنت ترى الأمور هذه الرؤية الواضحة ، فكيف أمكنك (معذرةً مرة أخرى) ... كيف أمكنك ... فى تلك القضية الغريبة ... القضية التى حدثت ذلك اليوم ... بشأن ذلك الرجل ... بوردوفسكى فيما أظن .. كيف أمكنك أن لا تلاحظ هذا الفساد نفسه وهذا التردى نفسه فى الأفكار والأخلاق ؟ لقد كان الأمر أمر هذا الفساد نفسه وذلك التردى ذاته مع ذلك . لقد تراءى لى حينذاك أنك لم تدرك هذا البتة .

انبرت اليزابت بروكوفيفنا تقول متحمسة :

ـ أيها السيد العزيز ، اذا كنا نحن ، جميع الحاضرين هنا ، قد أدركنا ذلك واستنتجنا من سداد رأينا وبراعة ادراكنا شعوراً بالتفوق على الأمير، فان الأمير هو الذى تلقى اليوم رسالة من أحد رفاق بوردوفسكى، من أبرزهم ، من ذلك الذى كان مبثور الوجه، هلتتذكرينه يا ألكسندرا؟ وفى هذه الرسالة يستغفر الشابُ الأميرَ ـ بطريقته طبعاً ـ ويعلن له أنه قطع صلته بالرفيق الذى حرّضه فى ذلك اليوم . هل تتذكرين يا ألكسندرا ؟ وهو يضيف الى هذا أنه بعد الآن لا يثق بأحد كما يثق بالأمير . ما من أحد منا تلقى رسالة كهذه الرسالة حتى الآن ، وان كنا قد ألفنا أن نعامل الشخص الذى وصلته هذه الرسالة معاملة تعالٍ .

صاح كوليا قائلاً :

ـ وهيبوليت أيضاً ترك بيته وجاء يقيم عندنا .

فقال الأمير سائلاً بشىء من القلق :

ـ كيف ؟ أهو هنا الآن ؟

ـ وصل فور انصرافك مع اليزابت بروكوفيفنا . أنا أحضرته بعربة .

فما ان سمعت اليزابت بروكوفيفنا هذا الكلام حتى غلت وفارت ، ناسية أنها قد مدحت الأمير منذ هنيهة ، وقالت :

ـ أراهن على أنه قد مضى أمس الى المسكن الحقير الذى يقيم فيه هذا الولد الفاسد ، فركع امامه طالباً غفرانه ، راجياً منه أن يجىء فيقيم هنا . لقد اعترفت أنت نفسك بذلك منذ قليل. أذهبت اليه أم لا ؟ أركعت أمامه أم لا ؟

هتف كوليا يقول :

ـ انه لم يركع • بالعكس تماماً • هيبوليت هو الذى تناول بالأمس يدَ الأمير فقبَّلها مرتين • رأيت المشهد بعينى • على هذا اقتصر العتاب بينهما • واذ أضاف الأمير أن صحة هيبوليت ستتحسن فى الفيللا ، أجاب هيبوليت فوراً أنه سيجىء للاقامة بها متى شعر ببعض التخفف من آلامه •

قال الأمير وهو ينهض ويتناول قبعته :

ـ أخطأت يا كوليا • لماذا تقص هذا ؟ اننى •••

فسألته اليزابت بروكوفيفنا وهى تستوقفه :

ـ الى أين تذهب ؟

واستأنف كوليا كلامه فقال بحرارة :

ـ لا تعذب نفسك يا أمير • لا تذهب اليه فتفسد عليه راحته • لقد نام بعد متاعب الرحلة • وهو مغتبط سعيد • أؤكد لك بصراحة يا أمير اننى أعتقد بأن من الأفضل كثيراً أن لا تلتقيا اليوم • أَرجىء لقاءه الى غد حتى لا تحرجه مرةً أخرى • لقد قال فى هذا الصباح انه منذ ستة أشهر لم يشعر بمثل ما يشعر به اليوم من ارتياح وقوة • حتى ان سعاله قلَّ الى الثلث •

لاحظ الأمير أن آجلايا قد غيَّرت مكانها فجأة لتقترب من المائدة • كان لا يجرؤ أن ينظر اليها ، لكنه كان بكل كيانه يشعر أن عينى الفتاة السوداوين كانتا فى تلك اللحظة تحدقان اليه وتتفرسان فيه • لا شك أن هاتين العينين كانتا تعبران عن الاستياء ، وربما كانتا تعبِّران عن تهديد • لا شك أن وجه آجلايا قد تخضب بحمرة شديدة •

قال أوجين بافلوفتش :

ـ يخيّل الىّ يا نيقولا آرداليونوفتش انك قد اسأت صنعاً اذ جئت به الى هنا ، اذا كان هو ذلك الفتى المصدور الذى انفجر فى ذلك اليوم باكياً بدموع غريزة ، ودعا الحضور الى الاحتفال بدفنه • لقد تكلم عن الجدار الذى ينتصب أمام بيته ، تكلم عنه ببلاغة تبلغ من القوة أنه سيندم على فراق ذلك الجدار • صدّقنى •

ـ لا أصدق من هذا الكلام • لسوف يشاجرك ، ولسوف يصل به الأمر الى حد الاقتتال معك ، ثم ينصرف • هذا أكيد •

قالت اليزابت بروكوفيفنا ذلك ، ثم شدت اليها سلّة حياكتها بحركة تنم على الاستياء ، ناسيةً أن الجميع كانوا قد نهضوا عن أماكنهم قاصدين القيام بنزهة •

واستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال :

ـ اننى أتذكر حماسته في الكلام على ذلك الجدار • لقد قال انه بدون ذلك الجدار لن يستطيع أن يموت ميتة فيها بلاغة • وهو يحرص على أن يموت ميتة فيها بلاغة •

دمدم الأمير قائلاً :

ـ وماذا بعد ذلك ؟ اذا لم تشأ أن تغفر له فسوف يستغنى عن غفرانك ويموت على كل حال ••• انه من أجل الأشجار انما جاء يقيم هنا •

ـ هه ! أنا من جهتي أغفر له كل شيء • تستطيع أن تبلغه هذا •

قال الأمير برفق وكأنه يتكلم على مضض ، وما زالت عيناه مطرقتين الى نقطة ثابتة فى الأرض :

ـ ما هكذا يجب أن يُفهم الأمر • يجب أن توافق أنت على قبول غفرانه لك •

ـ لماذا ؟ أى ذنب جنيت فى حقه ؟

ـ اذا كنت لا تفهم ، فلن ألح ... ولكنك تفهم حق الفهم . لقد كانت رغبته حينذاك ... هى أن يباركنا جميعاً وأن يتلقى مباركتنا له . ذلك هو الأمر كله .

تبادل الأمير « شتش ... » نظرة سريعة مع بعض الحضور . ثم قال بشىء من الحرارة ، ولكنه كان يزن كلماته :

ـ يا عزيزى الأمير الطيب ، ليست اقامة الجنة على الأرض بالأمر السهل كثيراً ؟ وما تسعى اليه أنت انما هو الجنة . الأمر صعب يا أمير ، أصعب كثيراً مما يصور لك قلبك الطيب. وحسبنا هذا ، صدقنى . والا اضطرب أمرنا من جديد ، وعندئذ ...

قالت اليزابت بروكوفيفنا بلهجة آمرة :

ـ هيا نمض الى سماع الموسيقى .

ثم نهضت عن مكانها بحركة فيها غضب .

وحاكاها الجميع .

الفصل الثاني

أقرب الأمير من أوجين بافلوفتش فجأة وأمسك يده ، وقال له بلهجة فيها حمياً غريبة :

ـ أوجين بافلوفتش، ثق أنني أقدرك واعتبرك رغم كل شيء ، لأنني أعدك رجلاً نبيل القلب وأعدك أحسن الناس . أحلف لك على هذا .

دُهش أوجين بافلوفتش ، وبلغ من الدهشة أنه تراجع خطوة الى وراء . وخلال لحظة من الوقت ، كظم رغبةً عنيفة قوية فى الضحك . لكنه حين أنعم النظر فى الأمير تبيَّن له أن الأمير ليس فى حالة طبيعية أو هو على الأقل فى حالة غير مألوفة . وهتف يقول :

ـ أراهن يا أمير أن هذا ليس ما كنت تنوى أن تقوله لى ، بل ربما كنت تريد أن توجه هذه الكلمات الى غيرى لا الىَّ أنا !... ولكن ماذا بك ؟ أتراك مريضاً ؟

ـ جائز ، جائز جداً . لقد برهنت على أنك تملك كثيراً من دقة الملاحظة ولطافة الادراك اذ قلت اننى ربما كنت أريد أن أوجِّه أقوالى تلك الى غيرك لا اليك أنت .

قال الأمير ذلك وابتسم ابتسامة خاصة يمكن أن توصف بأنها مضحكة . ثم بدت عليه الحماسة والحرارة فجأة فقال صائحاً :

ـ لا تذكرنى بسلوكى الذى سلكته قبل ثلاثة أيام •• اننى مابرحت أشعر بالخجل والخزى والعار منذ ذلك الوقت ••• أنا أعلم أننى أخطأت•

ـ ولكن ••• ما هو الشىء الرهيب الذى فعلته ، ما هو الذنب الهائل الذى اقترفته ؟

ـ أرى أنك ربما كنت تشعر بالخجل لى أكثر من الآخرين جميعاً• ان وجهك يحمر ، وهذه علامة نبل القلب • سأنصرف فوراً • ثق بهذا•

اتجهت اليزابت بروكوفيفنا بالكلام الى كوليا فسألته مروّعة الهيئة:

ـ ماذا دهاه ؟ هل نوباته تبدأ هكذا ؟

ـ لا تكترثى يا اليزابت بروكوفيفنا • ليست لى نوبة ، وسأنصرف بعد قليل • أنا أعلم أننى ••• انسان حرمته الطبيعة • لقد لبثت مريضاً طوال أربع وعشرين سنة ، أو قولوا الى السـنة الرابعة والعشرين من عمرى • فاحسبوا اننى ما أزال مريضاً • سأنصرف فوراً ، فوراً ، ثقى بهذا • ليس يحمـر وجهى خجـلاً ، فانه ليكون شيئاً غريباً ـ أليس كذلك ؟ ـ أن يحمر وجهى خجلاً من مرضى هذا • لكن وجودى فى المجتمع زيادة • لا أبدى هذه الملاحظة من باب الشعور بالكرامة • لقد فكرت ملياً خلال هذه الأيام الثلاثة فانتهيت الى أن من واجبى أن أنبئكم بذلك صادقاً عند أول مناسبة • ثمة أفكار معينة ، أفكار رفيعـة سـوف أمسك عن الكلام عنها حتى لا أُضحك جميع الناس ••• لقد ألمع الأمير « شتش ••• » الى هذا منذ قليل • ما من حركة من حركاتى تخلو من شذوذ • اننى لا أعرف القصد والاعتدال • لغتى لا تناسب المعانى التى فى ذهنى ، فهى لذلك تغض من قيمتها وتفسدها • لذلك لا يحق لى أن ••• ثم اننى شديد الاشتباه والارتياب • صحيح أننى ••• أننى مقتنع بأن أحداً لا يمكن أن يهيننى فى هذا المنزل ، وأننى محبوب فيه أكثر ممـا

استحق • ولكنى أعلم (علماً لا مجال للشك فيه) أن أربعة وعشرين عاماً من المرض لا يمكن الا أن تخلّف آثاراً ، وأن من المستحيل أن لا يسخر الناس منى ويتهكموا على ••• من حين الى حين ••• أليس هذا صحيحاً ؟

قال الأمير ذلك وأدار بصره على الحضور كأنه ينتظر جواباً أو قراراً • كان الجميع قد دُهشوا من هذه الاندفاعة المرضية التى لم يتوقعها أحد ، والتى لم يكن ثمة ما يدعو اليها ويبعث عليها ، فكانت سبباً لوقوع حادث غريب هو أن آجلايا صاحت فجأة تسأل الأمير :

ـ لماذا تقول هذا هنا ؟ لماذا تقول هذا لهم « هم » ••• لهؤلاء الناس ؟

كانت تبدو فى ذروة الاستياء والامتعاض • وكانت عيناها تسطعان •

لبث الأمير أمامها صامتاً كالأخرس ، واجتاحت وجهه صفرة مفاجئة • وانفجرت آجلايا تقول :

ـ ليس هنا شخص واحد يستحق أن يسمع هذه الكلمات ! انهم جميعاً لا يساوون خنصر يدك ، لا فكراً ولا قلباً ! أنت أشرف منهم قاطبة • أنت تفوقهم نبلاً وطيباً وذكاء ! هنا أناس لا يستحقون أن يشيلوا المنديل الذى سقط من يديك الآن على الأرض ••• فلماذا تُذل كبرياءك وتضع نفسك تحتهم ؟ لماذا قلبت كل شىء فى نفسك رأساً على عقب ؟ لماذا لا تكون لك عزة وأنفة ؟

قالت اليزابت بروكوفيفنا وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ رباه ! من كان يمكن أن يصدّق هذا ؟

وصاح كوليا يقول متحمساً :

ـ مرحى ! الفارس الفقير !•••

فقالت له آجلايا :

ـ اسكت !

وأضافت تقول لأمها وقد استبد بها انفجار من انفجارات الاهتياج التى لا تعرف حدوداً ولا عقبات ، قالت بقسوة وخشونة :

ـ كيف يجرؤ أحد أن يهينني هنا في دارك ؟ لماذا يضطهدوننى هنا جميعاً من أولهم الى آخرهم ؟ لماذا يرهقوننى منذ ثلاثة أيام بسببك يا أمير؟ لن أتزوجك فى يوم من الأيام بحال من الأحوال ! اعلمْ اننى لن أفعل هذا فى يوم من الأيام بحال من الأحوال ! ضعْ هذا فى رأسك ! هل تتزوج فتاة انساناً مضحكاً مثلك ! أنظر الى وجهك فى المرآة لترى كيف هو فى هذه اللحظة ! لماذا يناكدوننى زاعمين أننى سأتزوجك ؟ يجب عليك أن تعرف هذا ! لا شك أنك متواطىء معهم ! لا شك أنك شريكهم فى المؤامرة !

تمتمت آديلائيد تقول مذعورةً :

ـ لم يناكدها أحد فى وقت من الأوقات !

وهتفت الكسندرا ايفانوفنا تضيف قائلة :

ـ لم يخطر ببال أحد أن يناكدها فى لحظة من اللحظات !

وقالت اليزابت بروكوفيفنا تسأل جميع الحضور وهى ترتعش غضباً :

ـ من ناكدها ؟ متى ناكدها أحد ؟ من ذا تجرأ أن يقول لها كلاماً كذلك الكلام ؟ أهى تهذى أم هى مالكة رشدها محتفظة بعقلها ؟

فأجابت آجلايا بلهجة تمزق القلب ألماً :

ـ هم جميعاً قالوا هذا الكلام ! هم جميعاً صدَّعوا أذنى به خلال هذه الأيام الثلاثة ! لا أستثنى منهم أحداً •

ثم انفجرت تبكى بدموع غزيرة ، وأخفت وجهها بمنديلها وتهالكت على كرسى •

ـ ولكنه حتى الآن لم يخطب •••

قال الأمير كمن يتكلم بغير ارادة :

ـ أنا لم أخطبك يا آجلايا ايفانوفنا •

فصاحت اليزابت بروكوفيفنا تقول بلهجة تمتزج فيها الدهشة بالاستياء بالهلع :

ـ ماذا ؟ ما معنى هذا ؟

كانت لا تستطيع أن تصدق أذنيها ، فأخذ الأمير يقول بكلمات متقطعة :

ـ قصدت ••• قصدت •••• أردت أن أقول ••• أردت أن أشرح لآجلايا ايفانوفنا •• بل أردت أن أتشرف بأن أشرح لها اننى لم أنتو ••• أن أتشرف بخطبتها ••• وحتى فى المستقبل !••• ليس لى فى هذا الأمر أى ذنب أؤاخذ عليه يا آجلايا ايفانوفنا ، الله يشهد اننى ليس لى أى ذنب أؤاخذ عليه ! أنا لم أنتو أن أخطبك فى يوم من الأيام، حتى ان هذه الفكرة لم تخطر على بالى قط ، ولن تخطر على بالى أبداً ؛ لسوف ترين هذا ! لا تشكّى فى صدق ما أقول ! لا بد أن شخصاً شريراً سيىء النية وشى بى اليك متجنياً • ولكن فى وسعك أن تهدئى نفساً وأن تطمئنى بالاً !

كان وهو يتكلم قد اقترب من آجلايا • فأزاحت المنديل الذى كان يغطى وجهها وألقت على الأمير نظرة سريعة • فرأت سحنته المنقلبة

وهيئته المروّعة ، فأدركت معنى أقواله ، فانفجرت ضاحكة مقهقهة أمام أنفه . وقد بلغت ضحكتها من قوة الصراحة وشدة السخرية أنها انتقلت الى آديلائيد ، فاحتضنت آديلائيد أختها بكلتا يديها وانطلقت تضحك معها ذلك الضحك نفسه ، ذلك الضحك الطفولى الذى لا يقاوَم ولا يغالب. فلما رآهما الأمير على هذه الحال أخذ يبتسم هو نفسه ، وراح يقول معبراً عن الفرح والسعادة :

ـ آه ... الحمد لله ... الحمد لله !...

ولم تستطع الكسندرا نفسها عندئذ أن تقاوم ، فأخذت تضحك هى أيضاً من أعماق قلبها . وطال ضحك الأخوات الثلاث حتى لكأنه لا يريد أن ينتهى .

قالت اليزابت بروكوفيفنا مدمدمة :

ـ انهن لمجنونات ، فتارةً يروّعنك ، وتارةً ...

ولكن عدوى الضحك كانت قد سرت الى الأمير « شتش ... » ، والى أوجين بافلوفتش ، وحتى الى كوليا الذى أصبح لا يسيطر على نفسه، وراح ينقّل بصره بين هؤلاء وأولئك . فأخذ الأمير يضحك مثلما يضحكون !

هتفت آديلائيد تقول :

ـ هلموا نتنزه ! هلموا ! ليأت الجميع ، ولينضم الينا الأمير ! ليس هناك أى سبب يدعو الى انسحابك يا أمير وأنت على ما أنت عليه من لطف وتهذيب . أليس لطيفاً مهذباً يا آجلايا ؟ أليس هذا صحيحاً يا ماما ؟ وفوق ذلك ، يجب علىّ حتماً أن أقبّله ... تقديراً للتوضيح الذى قدّمه بين يدى آجلايا . يجب علىّ أن أقبّله . ماما ، عزيزتى ماما ، هل تأذنين لى أن أقبّله ؟ وأنت يا آجلايا ، اسمحى لى أن أقبّل «أميرك» !

بهذا هتفت الفتاة الماكرة •••

وقرنت القول بالعمل فاندفعت الى الأمير وقبلته على جبينه • فتناول الأمير يديها ، وشدّ عليها شداً بلغ من القوة أن آديلائيد كادت تصرخ من الألم ؛ ونظر اليها بفرح لا نهاية له ، ثم حمل يد الفتاة الى شفتيه فجأة فقبّلها ثلاث مرات •

قالت آجلايا :

ـ هلموا ، فلنمش ! يا أمير ، ستكون أنت مرافقي • هل تأذنين يا ماما ؟ أليس الأمير خطيباً رفض خطبتي منذ هنيهة ؟ ألم تعدل عني الى الأبد يا أمير ؟ ولكن ما هكذا يمد رجل ذراعه الى سيدة لتتناولها ؟ ألا تعرف كيف تُمدّ الذراع لتتناولها سيدة ؟ حسن ، الآن مددتها مداً صحيحاً • هلمّ نسر ، ولنكن في المقدمة • هل تقبل أن نسير في طليعة السائرين ، وأن نكون « وحيدين » * ؟

كانت تتكلم دون توقف وما تبرح تضحك فجأة من حين الى حين •

وكانت اليزابت بروكوفيفنا تقول مردّدةً ، دون أن تعرف على وجه الدقة ما الذى كان يبهجها وممّ كانت تغتبط :

ـ الحمد لله ! الحمد لله !

وحدث الأمير « شتش ••• » نفسه قائلاً : « هؤلاء أناس عجيب أمرهم » • لقد قال هذه العبارة ربما للمرة المائة منذ أن أصبح يختلف اليهم ، ولكنه ••• كان يحب هؤلاء الناس الذين يرى أن أمرهم عجيب! لعله كان لا يحس هذا الشعور نفسه تماماً تجاه الأمير • وحين خرجوا للنزهة اربد وجهه واكتست هيئته معنى الهم •

ان أوجين بافلوفتش هو الذى كان يبدو أكثرهم ارتياحاً • ولقد ظل طوال الطريق الى الفوكسهول يسلى الكسندرا وآديلائيد • فكانت

هاتان تضحكان ضحكاً فيه من المجاملة والمسايرة لمزاحه أنه انتهى الى الاشتباه فى أنهما ربما كانتا لا تصغيان الى كلامه ، فاذا هو ، دون أن يستطيع تفسير ذلك لنفسه ، ينفجر ضاحكاً ضحكاً فيه من الصراحة مثل ما فيه من الانطلاق الذى لا تكلف فيه ولا اصطناع (ذلك كان طبعه !). كانت الأختان مشرقتى المزاج ، لا تبرحان تنظران الى أختهما الصغرى التى كانت تسير مع الأمير فى طليعة السائرين . كان واضحاً أن وضع آجلايا يبدو لهما لغزاً لا تفهمانه ، أو أحجية لا سبيل الى حلها . وكان الأمير « شتش ... » ما ينفك يجهد فى التحدث الى اليزابث بروكوفيفنا عن أمور لا قيمة لها ، فلعله كان يريد أن يصرفها عن أفكارها وخواطرها ، لكنه لم يستطع الا أن يبث فى نفسها سأماً شديداً وضجراً رهيباً . كان يبدو أنها فى حالة غير طبيعية . فهى تجيب فى كلامها خبط عشواء ، أو هى لا تجيب البتة .

على أن آجلايا ايفانوفنا لم تكن قد فرغت من بث الحيرة فى نفوس من كانوا حولها ذلك المساء . وقد احتفظت للأمير بآخر لغز تحيّره به دون سواه . فحين أصبحت على مسافة مائة خطوة من الفيللا أسرعت تهمس فى اذن مرافقها الذى ما برح صامتاً صمتاً عنيداً ، فتقول له :

- انظر يمنةً .

فأطاعها الأمير ونظر يمنة .

- انظر بمزيد من الانتباه ، هل ترى دكةً ، فى الحديقة ، هناك ، قرب تلك الشجرات الثلاث ... دكةً خضراء ؟

فأجاب الأمير بأنه يرى الدكة . فسألته :

- هل يعجبك ذلك المكان ؟ اننى فى بعض الأحيان أجىء مبكرةً ،

فى نحو الساعة السابعة ، حين يكون الجميع ما يزالون نائمين ، فأجلس هنالك وحيدة •

وافقها الأمير متمتماً على أن المكان رائع •

قالت له :

ــ والآن ابتعد ! لا أريد الآن أن أسير متأبطة ذراعك ! بل هات ذراعك ، ولكن لا تقل لى الآن كلمة واحدة • أريد أن أخلو الى أفكارى •••

الحق أن هذا الطلب كان نافلاً • فان الأمير ما كان له أن ينطق بكلمة واحدة أثناء النزهة ولو لم تأمره هى بالصمت • خفق قلبه خفقاناً شديداً عنيفاً حين سمع كلامها المتعلق بالدكة • ولكنه غيّر رأيه بعد دقيقة ، وخجل من نفسه طارداً الفكرة التى خطرت بباله •

يعرف الناس ، أو يؤكد جميع الناس ، أن الجمهور الذى يرتاد الفوكسهول بمدينة بافلوفسك هو فى غير أيام الأحد « أرقى » منه فى أيام الأحد أو فى أيام الأعياد ، أى الأيام التى يتوافد فيها اليه من بطرسبرج « أنواع شتى » من الناس • ولئن لم تكن الثياب التى يرتديها الجمهور فى تلك الأيام هى ثياب يوم الأحد ، فانها أكثر أناقة وأرفع ذوقاً من الثياب التى يرتديها جمهور يوم الأحد • ان من العادات الراقية أن تأتى الصفوة الى هذا المكان تسمع الموسيقى • ولعل الأوركسترا هنا أن يكون أحسن من جميع الأوركسترات التى تعزف فى الحدائق العامة عندنا ، ومن المعروف أن معزوفاتها تتضمن طرائف جديدة • وان ما يسيطر على هذه الاجتماعات من جو عائلى بل ومن تعارف حميم لا ينفى أن يلتزم صحابها أعلى آداب اللباقة وأقسى أصول التعامل • ولأن الجمهور يكاد يخلو الا من الأسر المصطافة فى بافلوفسك ، فان الجميع يجيئون الى هذا

المكان ليلتقي بعضهم ببعض . ان اناساً كثيرين يجدون متعة كبرى في هذا النوع من تزجية الوقت لا يدفعهم الى المجيء الا هذا الباعث وحده ، غير أن هناك أناساً آخرين انما يجيئون من أجل الموسيقى وفي سبيلها . والفضائح نادرة هنا أشد الندرة ، ولكن لا يخلو أن تقع فضيحة من حين الى حين ، حتى في غير أيام الأحد . ذلك أمر لا يمكن تحاشيه .

كان المساء في ذلك اليوم رائعاً ، وكان الجمهور كبيراً . ان جميع الأماكن المجاورة للأوركسترا مشغولة ، فجلس أفراد جماعتنا على كراسي بعيدة بعض البعد ، قرب باب الخروج الأيسر . ان جمهرة الناس وألحان الموسيقى قد سرّت عن اليزابت بروكوفيفنا قليلاً ، وروّحت عن بناتها وسلّتهن . وقد تبادلت البنات بعض النظرات مع عدد من معارفهن ، وهززن رءوسهن بتحيات صغيرة لطيفة أرسلنها الى آخرين . وقد اتسع وقتهن كذلك لأن يدققن النظر في ثياب الحضور وزيناتهن وأن يلاحظ بعض أنواع الشذوذ والاغراب فيها فعلقن عليها بابتسامات ساخرة . وقد أغدق أوجين بافلوفتش تحيات كثيرة هو أيضاً . كما لوحظ أن آجلايا والأمير كانا معاً . وسرعان ما اقترب من الأم والبنات شباب من معارفهن . وبقي منهم اثنان أو ثلاثة يثرثرون . انهم أصدقاء أوجين بافلوفتش . احدهما ضابط شاب هو فتى وسيم جميل زاخر نشاطاً وحماسة ، سرعان ما عقد حديثاً بينه وبين آجلايا ، وبذل كل جهوده ليأسر انتباه الفتاة التي أظهرت له كثيراً من اللطف والمرح . وقد طلب أوجين بافلوفتش من الأمير أن يأذن له بتعريفه بهذا الصديق ، فلم يدرك الأمير ما طُلب منه الا نصف ادراك ، ولكن التعارف تم ، فحيا الرجلان كل منهما الآخر وتصافحا . وألقى صديق أوجين بافلوفتش على الأمير سؤالاً لم يجب عنه الأمير ، أو قل انه أجاب عنه بجمجمة بلغت من الغرابة أن الضابط حدّق الى عينيه ثم نظر الى أوجين بافلوفتش . فلما أدرك عندئذ لماذا

عرّفه صاحبه بالأمير ابتسم ابتسامة خفيفة لا تكاد تلاحَظ والتفت نحو آجلايا من جديد . فكان أوجين بافلوفتش الشخص الوحيد الذى لاحظ عندئذ أن آجلايا احمرت فى تلك اللحظة فجأة .

أما الأمير فانه لم يلاحظ حتى وجود آخرين يحدثون آجلايا ويلاطفونها ويتوددون اليها . أكثر من ذلك أن هناك لحظات كان يبدو عليه أثناءها أنه ناسٍ وجود آجلايا الى جانبه . وفى بعض الأحيان كانت تستولى عليه رغبة فى أن ينصرف ذاهباً الى أى مكان ، وأن يغيب غياباً تاماً وأن يختفى اختفاءً كاملاً . كان يتمنى أن يلجأ الى ملاذ مظلم معتم يخلو فيه الى أفكاره ولا يستطيع أحد أن يهتدى اليه . أو كان على الأقل يتمنى أن يكون فى داره ، على الشرفة ، شريطة أن لا يكون الى جانبه أحد ، لا ليبديف ولا أولاد . كان يتمنى أن يجد نفسه هناك ، فيرتمى على الديوان دافناً رأسه فى الوسادة ، فلو أتيح له هذا اذن لبقى على تلك الحال يوماً فليلةً فيوماً آخر . وكان فى لحظات أخرى يحلم بالجبال ، ولا سيما بموقع على جبال الألب كان يحب كثيراً أن يستحضر ذكراه ، وهو المكان الذى كان يقوم فيه بنزهته المفضلة عنده الأثيرة لديه حين كان يعيش هناك . فمن ذلك المكان يرى المرء القرية فى حضن الوادى ، ويستشف تساقط مياه الشلال الصغير التى تمازجها الثلوج ، ويبصر السحب البيضاء ، ويلمح قصراً قديماً مهجوراً . لشد ما يتمنى أن يجد نفسه الآن هناك ، وأن يكون رأسه خالياً الا من فكرة واحدة ... فكرة واحدة طوال حياته ، ولو دامت حياته ألف سنة ! لا يهمه فى الواقع أن يُنسى هنا نسياناً تاماً . بل ان هذا لضرورى . ولعله كان من الأفضل أن لا يُعرف هنا قط ، وأن لا تكون جميع الصور التى مرت أمام عينيه الا حلماً ! ومهما يكن من أمر ، ألم يكن الحلم والواقع شيئاً واحداً ؟

ثم أخذ الأمير يلاحظ آجلايا على حين فجأة ، ولبث خمس دقائق

لا يحوّل بصره عن وجه الفتاة ، لكن نظرته كانت غريبة غير مألوفة : فكأنه كان يحدق الى شيء يقع منه على مسافة فرسخين ، أو كأنه كان ينظر الى صورة لا الى الشخص نفسه .

قالت آجلايا تسأله وقد توقفت عن الكلام والضحك مع من حولها فجأة :

ـ ما بالك تتفرس فيّ هكذا يا أمير ؟ انك لتخيفني . يتراءى لي في كل لحظة أنك تريد أن تمد يدك لتلمس وجهي وتحسه . ما رأيك يا أوجين بافلوفتش ؟ أليس هذا ما يحسه المرء حين يرى نظرته ؟

أصغى الأمير الى كلماتها ، وكأنما أدهشه أن يراها تخاطبه هو . بدا عليه أنه أدرك معنى أقوالها ، ولو ادراكاً ناقصاً في أغلب الظن . ولم يجب بحرف واحد ، لكنه اذ لاحظ أن آجلايا تضحك وأن الجميع يضحكون معها ، انفرج فمه وأخذ يفعل مثلهم . وتضاعف الضحك من حوله حينذاك . أما الضابط الذى كان بطبعه شديد المرح فيما يبدو فقد أخذ يقهقه قهقهة شديدة . ودمدمت آجلايا تقول لنفسها وقد استبد بها غضب شديد مفاجيء :

ـ أبله !

فدمدمت اليزابت بروكوفيفنا تقول حانقة :

ـ كيف يمكن ، يا رب ، أن تختار مثل هذا ال ... أتراها فقدت عقلها تماماً ؟

فقالت الكسندرا تهمس في اذن أمها واثقة مطمئنة :

ـ هذه مزحة . هذا تكرار لمزحتها في ذلك اليوم مع « الفارس الفقير » ، لا أكثر من ذلك . لقد عادت تناكده بطريقتها . ولكن هذه

المزحة تفوق وتتجاوز حدود القصد • فيجب أن نضع لها نهاية يا أمي ! منذ قليل أخذت تتلاعب بحركات وجهها كممثلة ، فارتعنا من ذلك أشد الارتياع •

دمدمت اليزابت بروكوفيفنا تقول وقد خففت عنها ملاحظة ابنتها رغم كل شيء :

ـ من حسن الحظ أن من تعامله هذه المعاملة أبله كهذا الأبله •

وكان الأمير قد سمع أنه يوصف بأنه أبله ، وها هو ذا يرتعش ، لكنه لم يرتعش بسبب هذا النعت الذي سرعان ما نسيه فوراً • وانما ارتعش لأنه لمح بين الجمهور ، غير بعيد من المكان الذي كان جالساً فيه ، لمح من جانب (وهو لا يستطيع أن يحدد على وجه الدقة لا الموضع ولا الاتجاه) ، لمح وجهاً شاحباً ، له شعر أدكن مضفور ، وله ابتسامة ونظرة يعرفها حق المعرفة • ان هذا الوجه لم يزد على أن ظهر ظهوراً خاطفاً • ربما كانت هذه الرؤية ثمرة خياله • لم يبق من هذه الرؤية في ذاكرته الا ابتسامة مصعَّرة ، وعينان ، ورباط عنق أخضر فاتح يدل على طموح الى الأناقة لدى الشخص الذي ظهر ذلك الظهور الخاطف • تُرى هل اندس الشخص في الجمهور فغاب فيه أم هو تسلل في الفوكسهول ؟ ذلك ما لا يستطيع الأمير أن يحدده •

لكنه أخذ يتفحص الأمكنة القريبة ، قلقاً مهموماً مغموماً ، بعد لحظة ، على حين فجأة • ان ظهور ذلك الشخص الأول يمكن أن ينذر أو أن ينبىء بظهور شخص آخر • بل ان هذا لأكيد لا شك فيه • كيف نسي امكان حدوث مثل هذا اللقاء حين ساروا متجهين الى الفوكسهول ؟ صحيح أنه لم يدرك عندئذ الى أين كان ذاهباً ، وذلك بسبب ما كان عليه من حالة نفسية خاصة • ولو استطاع أن يكون أكثر انتباهاً ويقظة للاحظ أن آجلايا كانت منذ أكثر من ربع ساعة تتلفت قلقةً من حين الى حين

وكأنها تبحث بعينيها عن شيء ما حولها • أما وقد أصبح هو نفسه متوتر الأعصاب مزيداً من التوتر ، فان انفعال آجلايا واضطرابها قد اشتدا وتفاقما ، فكلما نظر هو الى وراء أسرعت تقوم هي بهذه الحركة نفسها • وما لبثت هذه المخاوف أن وجدت ما يبررها •

فهذه عصبة يبلغ عدد أفرادها عشرة أشخاص على الأقل تلج المدخل الجانبي الذي كان الأمير وآل ايبانتشين قد اتخذوا أماكنهم على مقربة منه ؛ وفي مقدمة هذه العصبة تسير ثلاث نساء كانت اثنتان منهن جميلتين جمالاً ساحراً لا يستغرب المرء أن يجرّ وراءه هذا العدد الكبير كله من العُبَّاد • ولكن هؤلاء العبَّاد ، وشأنهم في ذلك شأن أولئك النساء أنفسهن ، كانت لهم هيئة خاصة تميزهم تمييزاً عن الجمهور المتجمع حول الموسيقى • وقد لاحظهم جميع الحضور تقريباً منذ دخلوا ، ولكن أكثر الناس تظاهروا بأنهم لم يحسوا بحضورهم ، الا عدداً من الشباب ابتسموا وتبادلوا بعض الملاحظات بصوت خافت • وكان من المستحيل على كل حال أن لا يرى المرء هؤلاء القادمين ، لأنهم دخلوا يعرضون أنفسهم ويتكلمون في صخب ، ويضحكون ضحكاً مجلجلاً • من الجائز أن يكون بينهم أفراد سكارى ، رغم أن كثيرين منهم كانوا يرتدون ثياباً فيها كثير من الأناقة والذوق • ولكن الناظر اليهم يلاحظ بينهم كذلك أفراداً يلفتون الانتباه بغرابة سلوكهم وثيابهم معاً ، كما أن وجوههم تبدو ملتهبة التهاباً شديداً • وكان بين أفراد هذه العصبة أخيراً بضعة عسكريين ، بل كان بينهم أيضاً أناس متقدمون في السن • كان بعضهم يرتدي ملابس متأنقة فضفاضة على آخر زي ، ويضعون في أصابعهم خواتم ، ويزينون عري أكمامهم بأزرار فخمة ؛ وعلى رءوسهم ووجناتهم شعر مستعار فاحم السواد • وهم يصطنعون مظهر النبالة ، ولكن هيئاتهم تعبر عن التعالي المفتعل • انهم من أولئك الناس الذين يفر منهم الآخرون ، في المجتمع

الراقى ، فرارهم من الطاعون . طبيعى أن فى مراكز التجمع التى تقع قرب المدن بلادنا ، محلات تتميز بحرص شديد على حسن المعاملة ، وتتمتع بشهرة طيبة وسمعة عطرة . ولكن أشد الناس حذراً وأكثرهم حيطة لا يضمن أن لا تسقط على رأسه فى أى لحظة من لحظات حياته قرميدة من سطح المنزل المجاور . ان هذه القرميدة هى التى ستقع على رأس الجمهور المصطفى المتجمع حول الموسيقى .

للانتقال من الكازينو الى الأرض الممهدة التى يستقر فيها الأوركستر ، يجب هبوط درجات ثلاث . وقد وقفت العصبة أمام هذه الدرجات مترددة أن تهبط . غير أن احدى السيدات تقدمت ، فلم يجرؤ أن يتبعها من صحبها الا رجلان . فأما الأول فهو رجل متوسط العمر متواضع الهيئة حسن المظهر من جميع النواحى ، ولكن الناظر اليه يدرك أنه من أولئك الناس الذين ليس لهم جذور ، فلا يعرفون أحداً ولا يعرفهم أحد . وأما الثانى فهو رجل سيء الهندام مشبوه الهيئة . ولم يصحب السيدة الغريبة الأطوار أحد غير هذين الرجلين . ثم ان السيدة، حين هبطت الدرجات الثلاث ، لم تشأ حتى أن تلتفت الى وراء ، فهى لا تبالى أن يتبعها أحد أو أن لا يتبعها أحد . وما برحت تضحك ضحكاً صاخباً مجلجلاً . ان عيب أناقتها القصوى وثيابها الفاخرة وزينتها الثرية أنها مسرفة فى خطف الأبصار وشد الانتباه . ومرّت أمام الأوركسترا لتنتقل الى الجهة الأخرى من الأرض الممهدة التى يستقر عليها العازفون ، حيث توجد مركبة فخمة ترابط عند حافة الطريق ويبدو أنها تنتظر أحداً .

ان الأمير لم يرها منذ أكثر من ثلاثة أشهر . انه منذ أن عاد الى الى بطرسبرج لم ينقض عليه يوم واحد الا انتوى أن يزورها . لكن لعل توجساً خفياً كان يصده عن ذلك . وهو لم يستطع ، على الأقل ، أن

يدرك الشعور الذى يمكن أن يحسه اذا هو لقيها ، رغم أنه حاول ، مع غير قليل من الخوف ، أن يتصور بخياله ذلك اللقاء . ان الشىء الوحيد الذى كان يبدو له واضحاً هو أن اللقاء سيكون شاقاً أليماً . لقد استحضر عدة مرات خلال هذه الأشهر الستة الاحساس الأول الذى أيقظه فى نفسه وجه هذه المرأة . فحتى حين لم يكن تحت بصره الا صورة ذلك الوجه ، كان احساسه احساساً موجعاً جداً . انه يتذكر هذا . وان الشهر الذى قضاه بالأقاليم وكان يلقاها أثناءه كل يوم تقريباً ، قد أحدث فى نفسه من المخاوف ما جعله يطرد من ذهنه فى بعض الأحيان حتى ذكرى ذلك الماضى القريب . لقد كان فى وجه تلك المرأة دائماً شىء يعذب نفسه عذاباً مبرحاً . انه فى حديث جرى بينه وبين روجوين قد وصف شعوره بأنه « عاطفة شفقة لا نهاية لها » . وهذه هى الحقيقة : ان مجرد النظر الى صورة هذه المرأة الشابة يوقظ فى نفسه جميع آلام الشفقة . ان عاطفة الشفقة هذه التى بلغت حد الألم لم تبارحه فى يوم من الأيام ، وما تزال مستبدة به الى الآن ، بل انها لتشتد مزيداً من الاشتداد يوماً بعد يوم .

ومع ذلك كان التفسير الذى قدمه لروجوين لا يكفيه . فالآن فقط يكشف له ظهورها المباغت ، بحدس مباشر ، عن نقص ذلك التفسير ، وهو نقص لا يمكن أن تملأه الا كلمات يمكن أن تعبر عن ذعره ، نعم عن ذعره ! لقد كانت هنالك أسباب تدعوه الى الاقتناع الكامل المطلق بأنها مجنونة . تصوروا رجلاً يحب امرأة أكثر مما يحب أى شىء فى هذا العالم ، أو يحس ، بما يشبه النبوءة ، أنه يحبها هذا الحب ، ثم اذا هو يتصور هذه المرأة مكبلة بالسلاسل وراء قضبان حديدية على حين فجأة ، يشهر عليها العصا حارس يهم أن يهوى بها فوقها : تلكم هى على وجه التقريب طبيعة الانفعال الذى نشب فى نفس الأمير .

همست آجلايا تسأله بسرعة وهى تنظر اليه وتشده من يده بسذاجة :

ـ ماذا بك ؟

فالتفت اليها وتفرس فيها ورأى فى عينيها السوداوين التماع شعلة لم يفهمها حينذاك . وجهد أن يبتسم للفتـاة ، لكنـه لم يلبث أن نسيها وحوّل عنها بصره يمنةً وقد بهرته رؤية خارقة من جديد .

ففى تلك اللحظة كانت ناستاسـيا فيليبوفنا تمر قرب الكراسى التى تشغلها الآنسات . وكان أوجين بافلوفتش يقص على الكسندرا ايفانوفنا حكاية لا بد أنها كانت شائقة ومضحكة جداً فلقد كان يرويها بكثير من الحـرارة والنشـاط . لقد تذكر الأمير فيما بعد أن آجـلايا قالت عندئذ بصوت خافت : « آ ... ما أروع ... » ثم أمسكت فجأة عن الكلام ولم تكمل جملتها . غير أن ما قالته كان كافياً . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تمر مرور من لا ترى أحداً ، ثم اذا هى تلتفت نحوهما فجأة ، وتتظاهر بأنها تكتشف وجود أوجين بافلوفتش على غير توقع ، فتصيح وهى تتوقف عن السير حالاً :

ـ ها ... تارةً يعجز المرء عن لقائه بأية طريقة من الطرق ، ولو بعث اليه الرسل ، وتارةً يعثر به حين لا يتوقع أن يراه ... كنت أظن هناك ... عند عمك !...

احمر وجه أوجين بافلوفتش احمراراً شديداً ، ورشق ناسـتاسيا فيليبوفنا بنظرة زاخرة بالغضب والحنق ، ثم أشاح بوجهه الى جهة أخرى.

ـ ماذا ؟ ألا تعلم ؟ انه لم يعرف شيئا بعد ! هل تصدقون هذا ؟ لقد انتحر عمك ! أطلق فى رأسه رصاصةً هذا الصباح ! علمت بذلك منذ قليل ، فى الساعة الثانية . ونصف سكان المدينة يعرفون النبأ الآن . لقد اختلس ثلاثمائة وخمسين ألف روبل من خزينة الدولة . بعضهم يقول

انه اختلس خمسمائة ألف . هه ! وأنا كنت أعوّل على أنه سيورثك ثروة طائلة ! لقد أكل كل شيء ، ذلك الشيخ الفاجر الداعر . الخلاصة: وداعاً ، « أتمنى لك التوفيق » * ! ألن تذهب حقاً ؟ لقد عرفت كيف تقدم استقالتك في الوقت المناسب . انك لماكر صاحب حيلة ! ولكن ما هذا الذى أقوله ؟ لا شك أنك كنت تعرف كل شيء ، لا شك أنك كنت تعرف كل شيء سلفاً . ربما كنت على علم بالأمر منذ أمس ...

واضح أن ناستاسيا فيليبوفنا ، اذ اتخذت لهجة الاستفزاز الوقحة هذه ، واذ أعلنت بهذا الأسلوب عن وجود صلة حميمة وهمية بينها وبين من تخاطبه ، انما كانت ترمى الى غاية وتسعى الى هدف . لم يكن فى الامكان أن يبقى ثمة ظل من شك . وقد ظن أوجين بافلوفتش أن فى وسعه أن يخرج من المأزق دون فضيحة اذا هو تظاهر بأنه لا يولى المرأة المستفزة أى انتباه . لكن أقوال ناستاسيا فيليبوفنا سقطت على رأسه ؛ فحين ذكرت أن عمه مات صار وجهه كالأبيض من فرط اصفراره ، والتفت نحو المرأة الوقحة . فما كان من اليزابت بروكوفيفنا الا أن أسرعت تنهض وتنصرف بما يشبه الركض ، مقتادةً كل عالمها ، الا ليون نيقولايفتش وأوجين بافلوفتش اللذين تلبثا برهة : فأما الأول فكان يبدو مرتبكاً متحيراً ، وأما الثانى فكان ما يزال منفعلاً مضطرباً . ولكن ما كاد آل ايبانتشين يقطعون عشرين خطوة حتى وقعت فضيحة رهيبة .

فان الضابط الذى كان يحدث آجلايا ، وهو صديق أوجين بافلوفتش الحميم ، قد استاء استياءً شديداً وامتعض امتعاضاً قوياً ، فها هو ذا يقول بصوت يكاد يكون عالياً :

ـ انما نحن فى حاجة هنا الى سوط . فما من وسيلة أخرى يمكن أن تهدّىء هذه المخلوقة !

(واضح أن أوجين بافلوفتش كان يطلعه على شئونه ، ويبوح له بأموره) •

فما ان سمعت ناستاسيا فيليبوفنا هذا الكلام من الضابط حتى أسرعت اليه متقدة العينين • ثم انتزعت من يدى شاب كان جالساً على مسافة خطوتين وكانت هى لا تعرفه ، انتزعت من يديه عصا دقيقة من خيزران فهوت بها على وجه الضابط الذى أهانها ، بكل ما أوتيت من قوة • وقد حدث هذا المشهد كله بسرعة كسرعة البرق • وخرج الضابط عن طوره فهجم على المرأة الشابة التى سرعان ما تركها تابعاها : فأما الأول ، وهو الرجل المتوسط العمر ، فقد اختفى اختفاءً تاماً ، وأما الثانى فقد انتحى جانباً وأخذ يضحك ملء حلقه • لا شك فى أن الشرطة كانت ستتدخل بعد دقيقة ، ولكن ناستاسيا فليبوفنا كان يمكن أن تلقى أثناء تلك الدقيقة شراً كبيراً لولا أن جاءتها نجدة لم تكن فى الحسبا ن: ان الأمير ، وكان على مسافة خطوتين منها أيضاً ، قد استطاع أن يمسك يدى الضابط من وراء • وقد خلّص الضابط يديه منه ، ولطمه على صدره لطمة بلغت من القوة أن الأمير مضى يسقط على بعد ثلاث خطوات فوق كرسى• ولكن ناستاسيا فيليبوفنا كان قد أصبح الى جانبها الآن مدافعان آخران • فأمام الضابط المهاجم كان قد وقف صاحبنا الملاكم ـ كاتب المقالة التى يعرف القارىء من أمرها ما يعرف ، وأحد الأعضاء العاملين القدامى فى عصبة روجوجين ؟ وها هو ذا يتقدم من الضابط برصانة وثقل ويقول له :

ـ اسمى كيللر ، ليوتنان متقاعد ! فاذا كنت يا كابتن ، تريد استعمال الأيدى وتقبلنى مدافعاً عن الجنس الضعيف فأنا تحت أمرك ورهن اشارتك ! اننى قوى من الطراز الأول فى الملاكمة الانجليزية• لا تدفعنى يا كابتن ! اننى أشاركك ألمك من الاهانة « الدامية » التى تلقيتها ، ولكننى لا أستطيع أن اسمح باستعمال قبضات الأيدى ضد امرأة على مرأى من

الناس . فاذا شئت أن تسوّى الأمر بطريقة أخرى ، كما يليق ذلك برجل مهذ ... مهذب ، فان عليك طبعاً أن تفهمنى ، يا كابتن ...

ولكن الكابتن كان قد ثاب الى نفسه ، وأصبح لا يصغى الى كلام كيللر .

وفى تلك اللحظة خرج روجوين من بين الجمهور فأمسك ذراع ناستاسيا فيليبوفنا بسرعة ، واقتادها . كان يبدو منفعلاً أشد الانفعال هو أيضاً : كان شاحب الوجه وكان يرتجف . وأتيح له وهو يقتاد المرأة أن يقهقه أمام أنف الضابط ، وأن يقول بلهجة بائع منتصر :

ـ هه ! ماذا أخذ من ذلك ؟ دماً فى بوزه !

سيطر الضابط على نفسه سيطرة تامة ، وأدرك نوع هؤلاء الناس الذين يواجههم ، فلم يزد على أن غطى وجهه بمنديله ثم التفت بأدب نحو الأمير الذى كان قد قام من سقطته ، وقال له :

ـ أأنت الأمير ميشكين ؟

ـ انها مجنونة ! انها ملتاثة العقل ! أؤكد لك !

كذلك أجابه الأمير بصوت متقطع وهو يمد اليه يديه المرتعشتين مداً آلياً .

قال الضابط :

ـ لا شك فى أنك أعلم منى بالأمر . ولكن يهمنى أن أعرف اسمك .

ثم حيّا بحركة من رأسه وانصرف ، فما هى الا خمس ثوان حتى كانت الشرطة قد وصلت فعلاً ، ولكن بعد أن كان أواخر ممثلى المشهد قد غابوا عن المسرح . ولم تدم الفضيحة أكثر من دقيقتين على كل حال.

وقد قام جزء من الجمهور وانصرف ، واكتفى عـدد من الأشخاص بأن غيّروا أماكنهم ، وسُرّ بعض الناس بالحادث سروراً عظيماً ، ووجد فيه آخرون موضوعاً مثيراً تدور عليه أحاديثهم ، الخلاصة أن الأمر انتهى كما تنتهى أمثاله عادة ، واستأنف الأوركستر عزفه ،

تبع الأمير أسرة ايباتتشين ، ولو أنه ، بعـد أن ضربه الرجل على صدره فسقط على كرسى ، ولو أنه خطر بباله أن ينظر الى يساره أو اتسع وقته لأن ينظر الى يسـاره ، لكان رأى آجلايا واقفـةً على بعد عشرين خطوة منه ترقب المشهد رغم نداءات أمها وأخواتها اللواتى كن قد قطعن مسـافة طويلة ، وقد هرع اليها الأمير « شتشش ... » ، واسـتطاع أن يحملهـا على الانصراف بأقصى سرعـة ، فأدركت الركب (ان اليزابت بروكوفيفنا قد تذكرت هذا فيما بعد) وهى فى حالة من الاضطراب تبعث على الاعتقاد بأنها لم تكن قد سمعت نداءاتهن ، ولكنها بعد دقيقتين ، عند دخـول الحديقـة ، قالت بلهجة تحمـل معنى الاستخفاف ، وهى لهجة معهودة فيها :

ـ انما أردت أن أعرف كيف يمكن أن ستنتهى المهزلة !

الفصل الثالث

إن الحادث الذى وقع فى الفوكسهول قد صعق الأم والبنات صعقاً ان صح التعبير . فكانت اليزابت بروكوفيفنا ، وهى تحت وطأة الاضطراب والانفعال والقلق ، تقتاد بناتها هاربةً بما يشبه الركض على طول الطريق المؤدى من المحطة الى الدار . وكان فى رأيها أن أموراً كثيرة قد انكشفت أثناء ذلك الحادث ؛ حتى لقد أخذت تنبت فى ذهنها ، رغم الاضطراب والذعر ، أفكار معينة حاسمة . وأدرك الجميع على كل حال أن شيئاً شاذاً غير عادى قد وقع ، وأن هناك سراً خارقاً لعله أخذ ينكشف . ان أوجين بافلوفتش ، رغم التأكيدات والشروح السابقة التى قدمها الأمير « شتش ... » قد « سقط القناع عن وجهه » و « ظهر على حقيقته » ، و « ثبت ثبوتاً قاطعاً أن له علاقة بتلك المخلوقة » . ذلك كان رأى اليزابت بروكوفيفنا ، وحتى رأى بنتيها الكبريين أيضاً . غير أن هذا الاستنتاج لم يزد على أن ضاعف الألغاز والأحجيات . ان الآنستين ، فى قرارة نفسيهما ، قد ساءهما ذلك الذعر الرهيب وذلك الفرار الفاضح من جهة أمهما . ولكنهما لم تشاءا فى غمرة اضطراب اللحظة الأولى ، أن تروّعاها مزيداً من الترويع بأسئلتهما . لقد كانتا تحسان أن أختهما الصغرى ، آجلايا ايفانوفنا ، ربما كانت تعلم من أمر هذه القضية ما لا تعلمان وما لا تعلم أمهما . أما الأمير « شتش ... » ، فكان مكفهر الهيئة مظلم الوجه ، غارقاً فى تأملاته

هو أيضاً . لم توجّه اليه اليزابت بروكوفيفنا ، طوال الطريق ، كلمة واحدة ؛ ولكن لم يبد عليه أنه انتبه الى صمتها هذا . وقد ألقت عليه آديلائيد مراراً هذا السؤال : « من هو ذلك العم ؟ وما الذى حدث ببطرسبرج ؟ » ، فكان لا يزيد على أن يجمجم بلهجة مريرة ، مجيباً اجابة غامضة ، قائلاً ان هناك معلومات يجب السؤال عنها ، وان المسألة كلها عجيبة مستحيلة على كل حال . فقالت آديلائيد تجيبه وقد عدلت عن الالحاح فى السؤال : « لا شك فى هذا » . وأظهرت آجلايا هدوءاً خارقاً . كل ما هنالك أنها أثناء الطريق نبّهت الى أن سيرهم سريع مسرف فى السرعة . وفى لحظة من اللحظات نظرت وراءها فلمحت الأمير محاولاً اللحاق بهم . فابتسمت ابتسامة فيها شىء من السخرية ، ثم لم تلتفت بعد ذلك الى جهته قط .

وعند عتبة الفيللا تقريباً ، التقوا بايفان فيدوروفتش الذى كان قد وصل من بطرسبرج منذ برهة فهبّ الآن الى لقائهم . وكانت الكلمة الأولى التى قالها هى أنه سأل عن أوجين بافلوفتش . ولكن زوجته مرت بقربه متوحشة الهيئة ضاربة السحنة ، دون أن تجيبه بل ودون أن تنظر اليه . وسرعان ما قرأ فى أعين بناته وفى عينى الأمير « شتشش ... » أن عاصفة قد ألمت بالمنزل . وعلى كل حال فقد كان وجهه ، حتى قبل أن يدرك ذلك ، يعبّر هو نفسه عن قلق غير مألوف . فلم يلبث أن أمسك ذراع الأمير « شتشش ... » ، فأوقفه أمام الفيللا ، وتبادل معه بضع كلمات بصوت خافت. فلما صعدا الى الشرفة بعد ذلك للحاق باليزابت بروكوفيفنا كان الناظر اليهما يستطيع أن يعرف من رؤية وجهيهما أنهما قد اطلعا على نبأ خارق .

والتأم الجمع كله أخيراً فى أعلى ، بجناح اليزابت بروكوفيفنا ؛ ولم يبق الا الأمير ، جلس فى ركن كأنه ينتظر شيئاً ما . كان هو نفسه

لا يعلم ما بقاؤه هنالك ، ولم يخطر بباله أن ينصرف وهو يرى هذا الاضطراب الذى شمل المنزل . لكأنه قد نسى السكون بأسره ، وكأنه مستعد لأن يبقى مسمَّراً سنتين متواصلتين فى المكان الذى يمكن أن تضعه فيه . وكانت تصل الى مسامعه من فوق ، بين الفينة والفينة ، أصداء مناقشة حامية الوطيس . لا يدرى كم قضى من الوقت جالساً فى ذلك الركن . ولكن المساء قد جاء ، وأخذ الظلام يعم . وفجأة ظهرت آجلايا على الشرفة . كانت تبدو هادئة ، ولكنها شاحبة الوجه قليلاً . وابتسمت ابتسامة يخالطها شىء من الدهشة حين رأت الأمير الذى كانت لا تتوقع طبعاً أن تراه هنالك جالساً على كرسى .

سألته وهى تدنو منه :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

فتمتم الأمير ببضع كلمات مضطرباً ، وأسرع ينهض . ولكن آجلايا لم تلبث أن جلست قربه فعاد يجلس . تفرست فيه بنظرة سريعة لكنها متفحصة ، ثم سرحت ببصرها من خلال النافذة دون أن تكون لها نية معينة ظاهرة ، وعادت تحدق الى الأمير وتتفرس فيه .

قال الأمير يحدث نفسه : « أتراها تريد أن تأخذ فى الضحك ؟ لا ، لو كانت تريد ذلك لما أمسكت عنه ! » .

قالت بعد صمت :

ـ هل تريد أن تصيب قليلاً من الشاى ؟ ان شئت أمرت لك بشاى .

ـ لا ... لا أدرى ...

ـ كيف لا تدرى أتريد أن تشرب شيئاً من الشاى أم لا تريد ؟

آ ... بالمناسبة : اذا دعاك أحد الى مبارزة فما عساك تفعل ؟ هذا سؤال كنت أريد أن ألقيه عليك .

ـ ولكن من ذا الذى ... لا يمكن أن ينتوى أحد دعوتى الى مبارزة !

ـ هب ذلك حدث ، فهل تخاف ؟

ـ أعتقد اننى سأخاف ... سأرتاع ارتياعاً شديداً ؟

ـ حقاً ؟ أنت اذن جبان ؟

ـ ل ... لا ، قد لا أكون جباناً . فمن خاف ولم يهرب فليس جباناً .

كذلك قال الأمير وهو يبتسم بعد لحظة تفكير . فسألته آجلايا :

ـ وأنت ؟ ألا تهرب ؟

فقال وهو يضحك أخيراً لهذه الأسئلة :

ـ قد لا أهرب .

فقالت بشىء من الغضب :

ـ أما أنا فلا أهرب بحال من الأحوال ، رغم اننى امرأة .ثم انك تسخر منى ، وتتلاعب علاعبك المعهود ، لتزيد الاهتمام بك . قل لى : هل جرت العادة بأن يتم اطلاق النار فى المبارزات على مسافة اثنتى عشرة خطوة ؟ بل وعلى مسافة عشر خطوات أحياناً ؟ اذا صدق هذا كان مؤكداً أن يُقتل المتبارز أو أن يُجرح !

ـ يندر أن لا تطيش الطلقة فى المبارزات .

ـ كيف ؟ لقد قُتل بوشكين .

ـ ربما كان ذلك مصادفة .

ــ لا : كانت المبازة مبارزة موت ، وقتل !

ــ لا شك أن الرصاصة أصابته فى موضع أدنى من النقطة التى صوّب اليها دانتيس ، وهى الصدر أو الرأس . ما من أحد يصوّب الى النقطة التى يصيبها . ولقد كان جرح بوشكين اذن نتيجة مصادفة ، وثمرة خطأ فى التسديد . ان أناساً متخصصين هم الذين قالوا لى هذا الكلام *.

ــ وأنا كلمت فى الأمر جندياً ذكر لى أن النظام يوجب على الجنود أن يصوّبوا الى منتصف الجسم حين يصوّبون . ذلك هو التعبير الوارد فى النظام : « منتصف الجسم » . فالتسديد لا يكون اذن لا الى الصدر ولا الى الرأس ، وانما يكون الى وسط الجسم . وحين سألت أحد الضباط بعد ذلك فى هذا الموضوع أكد لى صحة هذا الزعم .

ــ هذا يصدق على التصويب من مسافة بعيدة .

ــ وهل تحسن أنت التصويب ؟

ــ لم أطلق رصاصة فى حياتى .

ــ هل يمكن أن يكون صحيحاً أن لا تعرف حتى كيف تحشو مسدساً ؟

ــ لا أعرف . بل أعرف الطريقة لكننى لم أحاول أن أمارسها بنفسى .

ــ معنى هذا أنك لا تعرف . فهذه عملية تقتضى ممارسة عملية ! أصغ الىّ واحفظ ما أقوله لك : تشترى فى أول الأمر باروداً من بارود المسدس . يجب أن لا يكون البارود رطباً بل جافاً جداً (يبدو أن هذا ضرورة لا غنى عنها) . ويجب أن يكون مسحوقاً دقيقاً ناعماً . اطلب هذا النوع من البارود ، واياك أن تشترى باروداً من بارود المدفع .

أما الرصاصات فيظهر أن على المرء أن يتولى صبّها بنفسه • هل عندك مسدسات ؟

أجاب الأمير وهو يضحك فجأة :

ـ لا ، ولا حاجة بي اليها !

ـ آه ••• يا للحماقة ! لا تنس أن تشترى مسدسات ، مسدسات جيدة ! اختر منها نوعاً فرنسياً أو انجليزياً • يقال ان المسدسات الفرنسية والانجليزية هي خير المسدسات • وخذ بعد ذلك مقداراً من البارود ، مقداراً يكفي لملء كستبان خياطة ، أو كستبانين اثنين ؛ وأفرغ البارود في ماسورة المسدس ؛ ولأن يكون مقدار البارود أكثر من اللازم خير من أن يكون أقل • ثم احش الماسورة لباداً (يظهر أن اللباد لا غنى عنه ، لا أدرى لماذا)• في وسعك أن تحصل على اللباد من أي مكان ، في وسعك أن تأخذه من فراشٍ مثلاً ، أو من أبازيم الباب • وبعد أن تدس الحشوة تدخل الرصاصة • هل فهمت ؟ البارود أولاً والرصاصة بعد ذلك • والا لم تخرج الطلقة • لماذا تضحك ؟ أريد أن تتمرن على اطلاق النار كل يوم عدة مرات ، وأن تتعلم كيف تسدّد الى هدف فتصيبه • هل ستفعل ؟

كان الأمير ما يزال يضحك • فقرعت آجلايا الأرض بقدمها غاضبةً • تحيّر الأمير من كل هذا الجد في حديث كهذا الحديث• كان يحس احساساً غامضاً بأن عليه أن يستعلمها بعض النقاط ، وأن يلقي عليها بعض الأسئلة عن موضوعات هي أخطر شأناً من طريقة حشو المسدسات على كل حال • ولكنه نسي • لم يبق لديه الا احساس واحد هو أنه يراها جالسةً أمامه وحيدة وأنه ينظر اليها • أما ما قد تحدثه عنه وتكلمه عليه في تلك اللحظة فأمر لا يكاد يعنيه •

وأخيراً نزل ايفان فيدوروفتش نفسه من الطابق الأعلى وظهر على الشرفة . كان يهم أن يخرج ، وكان كالح الهيئة متجهم الوجه مشغول البال ثابت العزم . فلما رأى الأمير هتف يسأله ، رغم أن الأمير لم تبد عليه أية حركة تدل على أنه يريد الانصراف .

ـ آه ... ليون نيقولايفتش ... هذا أنت ... الى أين أنت ذاهب الآن ؟ تعال ... هناك كلمة أريد أن أقولها لك ...

قالت آجلايا وهى تمد يدها للأمير :

ـ الى اللقاء يا أمير !

كانت الشرفه قد خيَّم عليها الظلام بحيث أن الأمير لم يستطع فى تلك اللحظة أن يميِّز قسمات الفتاة تمييزاً واضحاً . وبعد دقيقة ، بينما كان هو والجنرال قد خرجا من الفيللا ، احمر احمراراً رهيباً على حين فجأة وقلَّص يده اليمنى تقليصاً قوياً .

واتفق ان كان على ايفان فيدوروفتش أن يسير فى طريق الأمير ذاته . انه ، رغم تأخر الوقت ، يريد الذهاب الى شخص من الأشخاص بسرعة لابرام صفقة . فأخذ أثناء الطريق يحدث الأمير بلهجة متعجلة وكلام مضطرب مفكك . كان اسم اليزابت بروكوفيفنا يتردد ذكره على لسانه كثيراً . فلو كان الأمير أقدر على الانتباه فى تلك اللحظة ، فلربما استطاع أن يدرك أن محدِّثه كان يحاول أن يستمد منه بعض المعلومات ، أو قل أن يلقى عليه سؤالاً معيناً ، ولكن دون أن يستطيع مواجهة النقطة الأساسية . يجب أن نذكر أن الأمير كان من الاضطراب والبلبلة والذهول بحيث لم يسمع بداية الكلام الذى قاله له الجنرال ، فلما تسمَّر الجنرال أمامه ليلقى عليه سؤالاً حاداً ، اضطر أن يعترف بأنه لم يفهم شيئاً .

فما كان من الجنرال الا أن رفع كتفيه • ثم استأنف كلامه فعاد يقول متدفقاً :

ــ ما أعجبكم كلكم ، من جميع النواحى ! أقول لك اننى لا أفهم شيئاً البتة من خواطر اليزابت بروكوفيفنا وأنواع الجزع والهلع التى تنتابها ! انها تتقلب بين جميع حالات الاضطراب ، وتنشج باكية ، وتقول اننا احتُقِرنا وازدُرينا ، وان سمعتنا ساءت وكرامتنا أهينت وشرفنا تلطخ • من فعل بنا هذا ؟ كيف تم ؟ مع من جرى ؟ متى حدث ؟ لماذا وقع ؟ اننى اعترف بأن لى عيوباً فادحة وأخطاء كبيرة ، ولكن طيش تلك المرأة المضطربة (التى تسلك فوق ذلك سلوكاً شائناً) أمر يمكن أن تضع له الشرطة حداً • اننى أنوى منذ اليوم أن أذهب الى أحد وأن أتخذ اجراءات • وكل شىء يمكن أن يسوَّى بهدوء وسكينة ورفق ، بل وبمداراة ومراعاة ، ودون أية فضيحة أو جرسة ، وذلك بالاعتماد على بعض العلاقات • وانى لأعترف أيضاً بأن المستقبل يحمل أحداثاً كبيرة ، وأن أموراً كثيرة تحتاج الى ايضاح • نحن بصدد مؤامرة • ولكن اذا كان لا يوجد هنا أحد يعرف شيئاً ، واذا كان لا يوجد هناك أحد يعرف شيئاً كذلك ؟ اذا كنت أنا لم أسمع بشىء ، واذا كنت أنت لم تسمع بشىء ، واذا لم يكن ثالث ولا رابع ولا خامس قد سمع بشىء أيضاً ، فانى لأسألك : فمن تُرى يكون على علم بالأمر ؟ كيف تعلل أنت هذا ؟ اللهم الا أن نسلِّم أننا ازاء سراب أو شبه سراب ، وأننا ازاء ظاهرة لا تمت الى الواقع بسبب ، كضوء القمر أو طيوف الأشباح ؟

تمتم الأمير يقول وقد تذكر فجأة ، على ألم شديد ، كلَّ ما جرى فى النهار :

ــ « هى » مجنونة !

ــ لنسلِّم بهذا ، اذا كنتَ عن تلك المرأة تتكلم ! لقد فكَّرت أنا فى

الأمر مثل تفكيرك تقريباً ، وارتحت الى هذا الرأى . لكننى ألاحظ أن تفكيرهم هم كان أسلم ، وأصبحت لا أعتقد بأنها مجنونة . صحيح أن هذه المرأة يعوزها الحس السليم ، ولكنها مجنونة . ان اندفاعتها فى الكلام اليوم بصدد كابيتون الكسيفتش يدل على ذلك دلالة قاطعة . انها تتصرف تصرف وغد حقير ، أو تصرف يسوعى ماكر لتبلغ هدفاً معيناً .

ـ من كابيتون ألكسيفتش ؟

ـ آه ... ليون نيقولايفتش ! انك اذن لا تصغى الىّ البتة ! لقد كانت بداية كلامى اليك عن كابيتون الكسيفتش. لقد بلغت من الاضطراب لهذا الأمر أن ذراعىّ وساقىّ ما تزال ترتعد . وذلك هو السبب فى أننى رجعت اليوم من المدينة متأخراً هذا التأخر كله . كابيتون الكسيفتش رادومسكى ، عم أوجين بافلتش ...

هتف الأمير :

ـ ماذا ؟

ـ اطلق النار فى رأسه هذا الصباح ، عند الفجر ، الساعة السابعة. كان شيخاً محترماً فى نحو السبعين من عمره ، أبيقورياً . وكما قالت هى تماماً ، اختلس من مال الدولة ، اختلس مبلغاً ضخماً !

ـ من أين استطاعت أن ...

ـ أن تعرف هذا ؟ ها ها ... لقد تكونت لها « أركان عامة » بكاملها . هل تعرف أية شخصيات تختلف اليها الآن أو تلتمس « شرف التعرف بها » ؟ فلا عجب أن يكون بعض زوارها الذين وصلوا من المدينة قد أطلعوها على شىء ما ، لأن بطرسبرج كلها تعرف النبأ الآن ، كما يعرفه على كل حال نصف سكان بافلوفسك أو ربما جميعهم . ولكن ما أمكر الملاحظة التى قالتها ، على ما رُوى لى ، عن وظيفة أوجين بافلوفتش ،

أى عن حسن اختياره الوقت المناسب للاستقالة ! يا لها من غمزة جهنمية ! لا ، لا ، ان هذا لا يدل على جنـون ! طبعـاً أنا أرفض أن أصدق أن أوجين بافلوفتش قد أمكنه أن يتنبأ بالكارثة ، أى أن يعلم أنها ستحدث يوم كذا ، ساعة كذا من الصباح ، الخ . ولكن لعله أوجس هـذا قبل حدوثه . هه ! حين أتذكر كيف أن الأمير « شتشش ... » ، وأنا ، ونحن جميعاً ، كنا مقتنعين بأنه سيرث عمه ... هه ! ... شىء فظيع ، فظيع ! على كل حـال ، افهم عنى ما أقول : اننى لا أتهم أوجين بافلوفتش أى اتهام . هأناذا أسارع الى اعلان ذلك لك . غير أن فى الأمر شيئاً مشبوهاً . هذا لا شك فيه . ان الأمير « شتشش ... » قد بلغ ذروة التعجب والذهول . لقد جرت الأمور كلها مجرى غريباً لا حدّ لغرابته !...

ـ ولكن ما هو الشىء المشبوه فى سلوك أوجين بافلوفتش ؟

ـ لا شىء البتة . لقد تصرف تصرفاً سليماً لا غبار عليه . ثم اننى لم أغمز أى غمز يقدح فيه . أظن ان ثروته الشخصية لا مراء فيها . ان اليزابت بروكوفيفنا لا تطيق طبعاً حتى أن تسمع ذكر اسمه ... ولكن الأمر الأخطر هو الكوارث المنزلية كلها أو قل هذه الهموم العائلية ... أوه ... أصبحت لا أعـرف كيف اسـمّيها !... انك أنت يا ليـون نيقولايفتش صديق للأسرة حقاً . فاليك اذن ما عرفناه منذ قليل (رغم أن الأمر ليس مؤكداً محققاً بعد) : لقد عرفنا أن أوجين بافلوفتش قد صارح آجلايا منذ أكثر من شهر ، وأنه فيما يظهر قد تلقى منها رفضـاً قاطعاً !

هتف الأمير قائلاً بحرارة :

ـ غير ممكن !

قال الجنرال وهو يرتعش دهشةً ويقف متسمراً فى مكانه :

ـ ولكن هل أنت على علم بشيء ؟ لعلني يا صديقي العزيز قد أخطأت وجافيت الكياسة واللباقة حين حدثتك عن هذا ... ولكني انما فعلت لأنك ... لأنك شخص ... قد يكون مثله على علم بشيء . أتراك تعرف شيئاً ما ؟

دمدم الأمير يقول :

ـ لا أعرف شيئاً ... عن أوجين بافلتش .

ـ ولا أنا ! أنا ... يا صديقي العزيز قد حلفوا ليدفنني ، ليقبرنني . انهم لا يريدون أن يدركوا أن هذا يشق على نفس رجل ، واني لن أحتمله . منذ قليل قام مشهد رهيب ! انني أكلمك كما يكلم أب ابنه . أقسى ما في الأمر أن آجلايا تشبه أن تسخر من أمها وتهزأ بها . أما الرفض الذي لعلها قابلت به أوجين بافلوفتش منذ شهر ، وأما المصارحة القاطعة التي لعلها تمت بينهما ، فهذه تخمينات أختها .. وهي تخمينات قد تكون صحيحة على كل حال . لكن آجلايا انسانة متسلطة مستبدة غريبة الأطوار ذات نزوات ، الى حد لا يستطيع المرء أن يتصوره . صحيح أنها تملك جميع اندفاعات الروح النبيلة ، وجميع مزايا القلب والفكر اللامعة . انني أسلّم بهذا . لكنها ذات بدوات عجيبة، وسخرية مسرفة . ان لها طبعاً شيطانياً ، وان لها شطحات شاذة ! منذ قليل ، تهكمت صراحةً على أمها ، وعلى أختيها ، وعلى الأمير «شتش ...» ناهيك عني أنا ، أنا الذي قلّما أنجو من سخرياتها ... ولكن من أنا ؟ أنت تعلم مدى ما أحملها لها من حب حتى في سخرياتها . ويخيّل اليّ أن هذا هو السبب في أن هذه الشيطانة الصغيرة تحبني حباً خاصاً ، أعني أنها تحبني أكثر من سائر الآخرين . أراهن انها قد أتيح لها أن تمارس سخريتها عليك أنت أيضاً . لقد رأيتكما منذ قليل منهمكين في الحديث

بعد الزوبعة التى قامت فوق • كانت جالسة الى جانبك كأن شيئاً لم يحدث •

احمر الأمير احمراراً رهيباً ، وقلّص يده ، لكنه لم ينطق بكلمة•

قال الجنرال فجأة ، بحرارة وتدفق :

ـ يا عزيزى الطيب ليون نيقولايفتش !••• أنا ، وحتى اليزابت بروكوفيفنا (التى عادت تحمل عليك وتقول فيك السوء ، وتعاملنى هذه المعاملة نفسها أنا أيضاً بسببك ، لا أدرى لماذا !) ، نحن نحبك مع ذلك ، نحبك حباً صادقاً ونقدّرك رغم كل شىء ، أعنى رغم المظاهر • ولكن اعترف أنت نفسك يا صديقى العزيز ، اعترف أنت نفسك أنه لغز مفاجىء ونبأ فظيع أن نسمع هذه الشيطانة الصغيرة (وكانت عندئذ واقفة أمام أمها هناك ، متسمرة ، تصطنع أعمق الاحتقار لجميع أسئلتنا ، ولا سيما الأسئلة التى كنت ألقيها عليها أنا •• ذلك أننى قد ارتكبت حماقة فتكلمت باللهجة القاسية التى ينبغى أن يتكلم بها رب أسرة ! تباً لى ! لقد كنت أحمق غبياً) أقول أن نسمع هذه الشيطانة الصغيرة تذكر تفسيراً لا يدور بخلد أحد ، تذكره بلهجة باردة وهيئة ساخرة ، فتقول : « ان تلك « المجنونة » (تلك هى الكلمة التى استعملتها ، وقد أدهشنى أن اسمعك تكرر جملتها نفسها) ••• ـ كيف لم تستطيعوا أن تلاحظوا ذلك من قبل ؟ ـ ان تلك « المجنونة » قد وضعت فى رأسها أن تجعلنى أتزوج الأمير ليون نيقولايفتش مهما كلف الأمر ، وذلكم هو السبب فى أنها تحاول اجلاء أوجين بافلوفتش عن بيتنا » • ذلك هو كل ما قالته • ثم انفجرت ضاحكة ضحكاً مجلجلاً قبل ان تضيف أية شروح أخرى • ففغرت أفواهنا من شدة الذهول ، وخرجت هى صافقة باب الغرفة صفقاً قوياً • ثم رُوى لى الحادث الذى وقع اليوم بينها وبينك ، و ••• و ••• اسمع يا صديقى العزيز ، ما أنت بالرجل الذى يتأذى بسرعة ، بل أنت رجل عاقل رصين

كما لاحظتُ أنا ذلك ، ولكن لا تزعل اذا قلت لك انها تضحك عليك . يميناً انها تضحك عليك ! تضحك عليك ضحكَ طفلة ، فما ينبغى لك أن تؤاخذها وأن تحمل لها موجدةً وضغناً . ولكن الأمر هو كذلك . لا يذهبن بك الخيال بعيداً . انها تتسلى بك كما تتسلى بنا نحن أيضاً ، تزجيةً للوقت وملئاً للفراغ لا أكثر . هيّا ، الى اللقاء ! انك تعرف عواطفنا نحوك . وتعرف مدى صدقها . وهى ثابتة لن يغيّرها شيء ... ولكن يجب عليّ أن ادخل هنا . ندر أن كنت فى حياتى معتكر المزاج (أهذا هو التعبير المستعمل ؟) كما كنت اليوم . يا له من اصطياف !

بقى الأمير وحده فى المنعطف ، ثم ألقى نظرةً حواليه ، وأسرع يقطع شارعاً فيقترب من نافذة مضاءة باحدى الفيللات ، فيفضُّ هنالك ورقة صغيرة ظل قابضاً عليها قبضاً قوياً بيده اليمنى طوال مدة الحديث الذى جرى بينه وبين ايفان فيدوروفتش ؟ فيقرأ عليها فى الضوء الضعيف الخارج من تلك النافذة ، ما يلى :

« غداً ، فى الساعة السابعة من الصباح ، سأكون على الدكة الخضراء فى الحديقة ، وسأنتظرك . لقد قررت أن أحدثك فى أمر هام جداً ، يتعلق بك مباشرة » .

« حاشية : آمل أن لا تطلع على هذه الرسالة أحداً . لقد شعرت بشيء من تأنيب الضمير وأنا أسطر لك هذه التوصية بالكتمان ، ولكن اذا فكرنا فى الأمر ملياً وجدنا أنك تستحقها . وحين أضفتها تصورت طبعك المضحك ، فاحمر وجهى شعوراً بالخجل .

« حاشية ثانية : هى تلك الدكة نفسها التى أريتك اياها منذ قليل. لا بد أن تشعر بالخزى من اضطرارى الى التوضيح والتحديد مرة أخرى » .

كانت الرسالة قد كُتبت على عجل ، وطُويت باهمال ، قبل نزول آجلايا الى الشرفة بلحظة قصيرة فى أغلب الظن •

شعر الأمير بانفعال عارم عنيف لا يغالب ، انفعال يشبه أن يكون جزعاً ؛ ثم قبض على الورقة الصغيرة بيده قبضاً قوياً من جديد ، وابتعد عن النافذة المضاءة متعجلاً تعجلَ لص فاجأه أحد • ولكن هذه الحركة المباغتة القته الى سيد كان وراءه تماماً •

قال هذا السيد :

ـ اننى أرقبك وأرصدك يا أمير •

فهتف الأمير يقول مدهوشاً :

ـ أهذا أنت يا كيللر ؟

ـ كنت أبحث عنك يا أمير • انتظرتك عند حواف فيللا أسرة ايبانتشين ، التى لا أستطيع دخولها طبعاً • وتابعتك خطوةً خطوةً أثناء سيرك مع الجنرال • أنا رهن أوامرك يا أمير • لك أن تتصرف بى كما تشاء • اننى مستعد أن أضحى بنفسى ، بل وأن أموت اذا لزم الأمر •

ـ ولكن ••• لماذا ؟

ـ لأن مبارزة ستحدث حتماً ! ان هذا الليوتنان مولوفستوف ، وأنا أعرفه ••• لا معرفة شخصية ••• لن يبلع الاهانة • وهو ينظر الى أمثال روجويين وأمثالى نظرته الى أوغاد طبعاً ، ولعله فى هذا على حق ؛ فستكون أنت المسئول تجاهه اذن • لا بد من دفع الثمن يا أمير • وقد سمعت أنه استعلم عنك ، ولا بد أن يجيئك فى الغد أحد من أصدقائه ، هذا اذا لم يكن فى انتظارك بمنزلك منذ الآن • فاذا شرّفتنى باختيارى شاهداً ،

فانني مستعد حتى لتحمل خطر السجن • من أجل أن أقول لك هذا انما بحثت عنك يا أمير •

صاح الأمير يقول وهو ينفجر مقهقهاً ، على دهشة شديدة من كيللر :

ـ أأنت أيضاً تجيء تحدثني عن مبارزة ؟

وبلغ من شدة الضحك أنه أمسك أضلاع صدره • أما كيللر الذى بدا عليه أنه كان كالواقف على رءوس الابر ما لم يقم بواجبه فيعرض على الأمير أن يختاره شاهداً ، فانه كاد يشعر بأنه يُهان بهذا الضحك الغزير من الأمير •

ـ تذكر يا أمير أنك قد قبضت على ذراعيه فى أصيل هذا اليوم ؟ ما من رجل شريف يمكن أن يحتمل هذا ، ولا سيما اذا حدث على مرأى من الناس •

صاح الأمير يقول وهو ما يزال يضحك :

ـ ولكنه لكمني فى صدرى لكمة قوية • ولا داعى الى أن نقتتل ، فسأعتذر له فينتهى كل شيء • واذا كان لا بد من الاقتتال فسوف نقتتل ! ألا فيلجأ الى السلاح • أنا لا أطلب خيراً من هذا • هأ هأ ! انني أعرف الآن كيف أحشو مسدساً • تصور أنني عُلّمت هذا منذ برهة ! هل تجيد حشو مسدس يا كيللر ؟ يجب أولاً شراء بارود من بارود المسدسات ، أى بارود لا يكون رطباً بل جافاً ، ولا يكون كبيراً كالبارود الذى يُستعمل فى حشو المدافع • فاذا اشتريت البارود وضعته فى ماسورة المسدس قبل كل شيء ، ثم انتزعت لباداً من ابزيم أحد الأبواب ، ثم وضعت الرصاصة بعد اللباد • حذار أن تضع الرصاصة قبل البارود ، لأن الرصاصة لن تنطلق عندئذ • هل فهمت يا كيللر ؟ الرصاصة لن

تنطلق ... هأ هأ !... أليس هذا سبباً رائعاً يا صديقى كيللر ؟ آ ... كيللر ، هل تعلم اننى سأقبّلك فوراً ؟ هأ هأ هأ ! كيف تصرفت حتى استطعت أن تصل اليه فتقف أمامه فجأة ؟ تعال اشرب عندى شمبانيا متى استطعت . سنسكر بشمبانيا ! هل تعلم أن عندى اثنتى عشرة زجاجة فى قبو ليبديف ؟ لقد عرضها علىّ أمس الأول بسعر قال انه « فرصة » ، فاشتريتها منه كلها . حدث هذا غداة وصولى . لسوف أجمع حفلاً بكامله ! قل لى : هل ستنام هذه الليلة ؟

ـ كالعادة يا أمير .

ـ أتمنى لك اذن أحلاماً جميلة ! هأ هأ !...

وقطع الأمير الشارع ، وغاب فى الحديقة ، تاركاً كيللر فى حيرة وبلبلة وشىء من خيبة الأمل . ان كيللر لم يسبق له أن رأى الأمير فى حالة نفسية كهذه الحالة غرابةً ، لا ولا كان فى وسعه أن يتخيله فى هذه الصورة !

قال كيللر يحدث نفسه : « لعله مصاب بحمى ، فانه رجل عصبى قد أثرت فيه هذه الأحداث كلها ، ولكنه لن يخاف حتماً ! يا الهى ! ان أمثال هذا الانسان لا يهابون . هِمْ ... شمبانيا ! هذا خبر شائق . اثنتا عشرة زجاجة ! دستة زجاجات ! مئونة محترمة . أراهن أن ليبديف قد أخذها من أحد الذين يقترضون منه مالاً على رهن . هِمْ ... الحق أنه لطيف ، هذا الأمير . يميناً انه نوع الرجل الذى يعجبنى . على كل حال ، ليس هذا أوان التردد ... فاذا كان هناك شمبانيا ، فيجب انتهاز الفرصة ... » .

لقد كان صحيحاً فى الواقع أن الأمير كان فى حالة قريبة من الحمى .

ظل يطوّف مدة طويلة فى ظلمات الحديقة ، واكتشف أخيراً أنه يذرع ممراً من ممرات الحديقة بين الأشجار . شعر أنه قد قطع هذا الممر ثلاثين أو أربعين مرة بين الدكة وبين شجرة قديمة مرتفعة يسهل تعرفها تقع على بعد مائة خطوة . أما أن يتذكر فيم كان يفكر أثناء هذا التجوال الذى دام ساعةً على الأقل ، فلقد كان يستحيل عليه ذلك ولو أراده . ثم انه قد اهتدى الى فكرة سرعان ما جعلته ينفجر ضاحكاً على حين فجأة . ولم يكن فى الفكرة ما يُضحك مع ذلك ، غير أن كل شىء كان يثير فيه الضحك الشديد . خطر بباله أن افتراض نشوب مبارزة ربما تبت فى رءوس أخرى غير رأس كيللر ، وأن الدرس الذى أُلقى عليه فى طريقة حشو المسدس لم يكن اذن ثمرة مصادفة . قال يحدث نفسه فجأة وهو يتوقف كأنما باغتته فكرة أخرى : « عجيب ! منذ قليل ، حين نزلت الى الشرفة ووجدتنى فى ذلك الركن أذهلها أن ترانى هناك . وابتسمت ... وكلمتنى عن الشاى . ولكن الرسالة كانت مع ذلك فى يدها . هذا دليل قاطع على أنها لم تكن تشك فى أننى هناك ، على الشرفة . فما الذى أدهشها اذن ؟ هأ هأ هأ !...

واستلّ الرسالة من جيبه فقبّلها ، ولكنه سرعان ما توقف وشرد فكره ثانيةً وقال يحدث نفسه بعد دقيقة بلهجة فيها ألم : « أمر غريب جداً ، نعم ، غريب جداً » . انه فى لحظات الفرح الشديد يشعر دائماً بالحزن يجتاح قلبه ، لا يدرى هو نفسه لماذا !

وألقى حواليه نظرة متحيرة ، وأدهشه أن يكون قد جاء الى هذا المكان . وشعرت بتعب شديد واعياء قوى ، فاقترب من الدكة وجلس عليها . كان يرين على الجو حوله صمت عميق . ان الموسيقى قد انقطعت فى الفوكسهول . ولعل الحديقة كلها خلت من كل انسان . الليل ساجٍ هادىء رطب مضىء . هى ليلة من ليالى بطرسبرج فى شهر حزيران

(يونيه) • غير أن الحديقة الكثيفة الظليلة فى ممر الأشجار الذى كان هو فيه ، كانت تامة الظلمة تقريباً •

لو قال له أحـد فى تلك اللحظة انه عاشق ، وانه مولّه ، لرفض هذه الفكرة مذهولاً مشدوهاً ، وربما مستنكراً مستاءً • ولو أضاف أحد الى ذلك أن الرسالة الصغيرة التى كتبتها له آجلايا هى رسالة غرام ودعوة الى لقاء غرامى ، لاحمر خجلاً عن صاحب مثل هذا الافتراض ، وربما دعاه الى مبارزة • كان صادقاً فى هذا كل الصدق ، وانه لم يراوده فيه شك واحد يوماً من الأيام ، ولا ساوره أى لَبْس فى أن تحبه هذه الفتاة بل وفى أن يحبها هو نفسه • فلو خطرت بباله فكرة كهذه الفكرة لملأته شعوراً بالخزى : لقد كان يرى أن احتمال أن تحب فتاة « رجلاً مثله » شىء شاذ غريب • وكل ما يمكن أن تشتمل عليه هذه القضـية من واقع لا يعـدو أن يكون « شيطنةً » من الفتـاة ، وهى « شيطنة » كان الأمير يقبلها غير مكترث ولا عابىء ، لأنه كان يراها من طبيعة الأمور فما ينبغى أن يهتز لها أو أن تثير فيه أى انفعال • وكانت مشاغله وهمومه منصبة على موضوع آخر مختلف كل الاختلاف • لقد صدّق الجنرالَ تصديقاً كاملاً حين كشف له الجنرال بأقواله عرضاً أثناء الانفعال أنها تضحك على الجميع ، وتضحك عليه هو خاصة ، الأمير • لم يجرح شعورَه هذا الكلام ولم يؤلمه أى ايلام • كان فى رأيه أن الأمر لا يمكن أن يكون غير هذا• الشىء الأساسى فى نظره الآن هو أنه فى الصباح الباكر من الغد سـوف يراها الى جانبـه على هذه الدكة الخضراء ، وسـوف يتأملها مصغياً الى ما ستقوله عن طريقة تعبئة المسدسات • ولم يكن فى حاجة الى أكثر من هذا • مرةً أو مرتين تساءل عن الموضـوع الذى تريد أن تكلمه فيه ، وعن تلك المسألة الهامة التى تعنيه مباشرة ما عسـاها تكون ؟ على أنه لم

يراوده فى لحظة من اللحظات أىُّ شك فى حقيقة هذه القضية « الهامة » التى ضربت له موعداً من أجلها . ولكنه لا يكاد يفكر الآن فى هذا الأمر ، ولا كان يغريه أن يتلبث عليه بذهنه .

وهذا وقع خطوٍ بطىء على الرمل فى الممر بين الأشجار يجعله يرفع راسه . وهو رجل يصعب تمييز قسمات وجهه فى انظلام يقترب منه ويجلس الى جانبه .

مال الآمير على الرجل ، حتى كاد يلمسه ، فاذا هو يرى وجه روجويين أصفر شاحباً .

جمجم روجويين يقول من بين آسنانه :

ـ قدرت أنك تحوم ههنا فى مكان ما .

هذه اول مرة يلتقيان فيها منذ لقائهما الأخير فى دهليز الفندق . وقد بلغ الأمير من الدهشة لظهور روجويين المباغت الذى لم يكن فى البال أنه لبث مدة من الوقت شارد اللب لا يستطيع أن يثوب الى رشده . ان احساساً كاوياً قد شب قوياً فى قلبه . وآدرك روجويين الأثر الذى أحدثه فى الأمير . ورغم أنه بدا فى أول الآمر مضطرباً ، فقد تكلم بيسر كأنه مصطنع ، لكن الأمير لم يلبث أن لاحظ أن الأمر ليس اضطراباً ولا اصطناعاً . ولئن كان فى حركاته وفى حديثه خراقة ، فان ذلك ليس الا مظهراً ، آما فى قرارة نفسه فان هذا الرجل لا يمكن أن يكون قد تغير.

سأله الأمير ليقول شيئاً ما :

ـ كيف أمكنك أن تكتشفنى ... هنا ؟

ـ أعلمنى كيللر قائلاً : « ذهب الى الحديقة » (مررت ببيتك) ، فقلت لنفسى : هذا حسن . نلت المطلوب .

ـ ماذا تعنى بقولك : « نلت المطلوب » ؟

كذلك سأله الأمير فى قلق ٠

فابتسم روجويين ابتسامة ماكرة ، وتهرّب من الشرح ، قائلاً :

ـ تلقيت رسالتك يا ليون نيقولايفتش ٠ لا فائدة من تكليف نفسك هذا العذاب كله ٠٠٠ فى غير طائل ٠ أنا الآن آتٍ اليك رسولاً منها ٠ انها تطلب منك أن تذهب اليها حتماً ٠ هناك شىء مستعجل تريد أن تقوله لك ٠ حتى انها تنتظرك فى هذا اليوم نفسه ٠

ـ سأذهب اليها غداً ٠ أنا الآن عائد الى البيت فوراً ٠ هل تجىء ٠٠٠ معى ؟

ـ علام أجىء معك ؟ لقد قلت لك كل شىء ٠ استودعك الله ٠

سأله الأمير فى رفق :

ـ ألن تجىء اذن ؟

ـ انك لرجل عجيب يا ليون نيقولايفتش ٠ لا يملك المرء الا أن يجدك باعثاً على الدهشة والاستغراب ٠

قال روجويين ذلك وابتسم ابتسامة ماكرة ٠

سأله الأمير بحرارة ، ولكن بشىء من الحزن أيضاً :

ـ لماذا هذا الكلام ؟ من أين جاءتك هذه العداوة لى الآن ؟ لماذا تبغضنى هذا البغض كله ؟ هأنت ذا ترى أن جميع تخميناتك كانت لا تقوم على أساس ٠ على اننى كنت أقدّر أن كرهك لى لم ينقض ، وهل تدرى لماذا ؟ لأنك حاولت قتلى ٠ ذلك هو السبب فى أن مقتك باق لا يزول ٠ أما أنا فأقول لك اننى لا أعرف الا بارفيون روجويين واحداً ، هو ذلك الذى تآخيت معه فى ذلك اليوم حين تبادلنا صليبينا ٠ لقد كتبت

لك هذا في الرسالة التي بعثتها اليك أمس من أجل أن تنسى حتى لحظة الهذيان تلك ، فما تكلمني عنها بعد الآن قط • لماذا تبتعد عني ؟ لماذا تخبيء يدك ؟ أكرر لك أنني أرى أن ما حدث في المرة الماضية لم يكن الا لحظة جنون وهذيان • انني أقرأ في نفسك الآن كل ما جرى ذلك اليوم كأنني أقرأ في ذات نفسي • ان ما تخيلتَه لم يوجد ولا كان يمكن أن يوجد • فلماذا العداوة بيننا اذن ؟

قال روجوجين ضاحكاً ساخراً من جديد ، في الجواب على الكلمات الحارة التي انطلقت من الأمير عفوَ الخاطر بلا تصنع :

ــ ولكن أأنت قادر على أن يكون في نفسك عداوة ؟

وكان روجوجين يقف على بعد خطوتين من الأمير ، مخفياً يديه حقاً • وأضاف يقول ، ختاماً للحديث ، بلهجة بطيئة رصينة :

ــ أصبح يستحيل عليَّ استحالة تامةً بعد الآن أن اختلف اليك يا ليون نيقولايفتش •

ــ أتكرهني اذن الى هذا الحد ؟

ــ لا أحبك يا ليون نيقولايفتش • فعلام اختلف اليك ؟ هيه يا أمير ••• ان لك من الطفل كل صفاته • اذا أراد لعبةً أرادها فوراً ، ولكنه لا يفهم من أمرها شيئاً • ان كل ما تقوله لي الآن قد كتبته أمس في رسالتك كما هو ، ولكن أأنا لا أصدّقك ؟ بلى ! انني أصدّق كل كلمة من كلماتك • انني أعلم أنك لم تخدعني في يوم من الأيام ، وأنك لن تخدعني أبداً • ومع ذلك لا أحبك • لقد كتبت لي أنك نسيت كل شيء ، وأنك تتذكر روجوجين الذي بادلته صليبك ، لا روجوجين الذي أشهر عليك خنجراً • ولكن من أين تعرف عواطفي ؟ (قال ذلك وضحك

ضحكة ساخرة من جديد) لعلنى منذ ذلك اليوم لم أشعر بالندم على فعلتى مرةً واحدة ، بينما أنت أرسلت الىّ غفرانك الأخوى • ولعلنى فى مساء ذلك اليوم نفسه قد انصرف فكرى الى شىء آخر تماماً و •••

ـ نسيت ذلك الأمر •••

بهذا أكمل له الأمير جملته وأردف يقول :

ـ أقـدّر هـذا ! بل اننى لأراهن على أنك ذهبت تواً الى المحطة فركبت القطار الى بافلوفسك ، وجئت تسمع الموسيقى ، وتبعتها وتجسست عليها فى الجمهور ، كما فعلت اليوم • أتظن أنك أدهشتنى ؟ ولكن لولا أنك كنت عندئذ فى حالة نفسية لا تسمح لك أن تفكر الا فى شىء واحد، لكان من الجائز أن لا تشهر علىّ خنجرك ••• لقد أوجست ما ستقدم عليه من فعلة منذ الصباح ، حين رأيت وجهك ؟ أتعـرف ما الذى كان يلوح فى هيئتك ؟ لعل هذه الفكرة قد ومضت فى ذهنى لحظةَ تبادلنا فيها صليبينا • لماذا أخذتنى فى تلك اللحظة الى أمك العجوز ؟ هل كنت تأمل أن توقف بذلك ذراعك ؟ لا ، لا يمكن أن يكون هذا ما خطر ببالك • انك مثلى قد أحسست احساساً فحسب ••• لقد احسسنا احساساً واحداً• لولا أنك أشهرت علىّ يدك (والله هو الذى حوّلها) أكان يمكننى أن أحتمل اليوم نظرتك ؟ لقد اشتبهت فيك ، ومعنى ذلك أننا ارتكبنا كلانا اثم الريبة (لا تقطب حاجبيك ! لماذا تضحك ؟) • تقول انك لم تندم • ألا انك ما كنت لتستطيع أن تندم ولو أردت ، لأنك لا تحبنى ، زيادةً على ذلك ! حتى لو كنت ازاءك بريئاً كملاك ، لما أمكنك أن تطيق احتمالى ، وستبقى على هذه الحال ما ظللت تظن أنها لا تحبك أنت بل تحبنى أنا • هذا غيرة • ولكن اليك الفكرة التى شغلت ذهنى فى خلال هذا الأسبوع والتى أحرص على أن أطلعك عليها يا بارفيون : هل تعلم أنها تحبك الآن

أكثر مما تحب أى انسان آخر ، وأن حبها من نوع يجعلها تحبك مزيداً من الحب كلما عذبتك مزيداً من التعذيب • لن تقول هى هذا فى يوم من الأيام ، ولكن يجب على المرء أن يعـرف كيف يفهمـه • لماذا تريد أن تتزوجك رغم كل شىء ؟ سوف تكشف لك عن هذا فى ذات يوم • ان بين النسـاء من يُردن أن يحبهن الرجل هـذا النوع من الحب • وهى واحدة من هاته النساء • لا شك فى أن طبعك وحبك قد فتناها • هل تعلم أن فى وسع امرأة أن تعذب رجـلاً تعـذيباً قاسـياً ، وأن تتخذه أضحوكة وتجعله موضع سخرية وتهكم ، دون أن يشـعر ضميرها من ذلك بأى عذاب ؟ ذلك أنها ، كلما رأتك ، تقول لنفسها : « سوف أعذبه الآن تعذيباً قاتلاً ، ولكننى سأعوّضه عن هذا فى المستقبل حباً ••• » •

أصغى روجويين الى كلام الأمير حتى النهاية ، ثم اذا هو ينفجر ضاحكاً ، ويسأله :

ـ قل لى يا أمير ، أتراك وقعت أنت نفسك على امرأة من هذا النوع؟ هل ما سمعته عنك صحيح ؟

فارتعش الأمير باختلاجة مفاجئة • وسأله :

ـ ماذا ؟ ماذا سمعت عنى ؟

ووقف وقد استبد به اضطراب هائل •

ظل روجويين يضحك • كان قد أصغى الى كلام الأمير بشىء من حب الاطلاع وربما بشىء من التلذذ : ان ما كان يبدو فى الأمير من مزاج مشرق وحماسة حارة قد أثر فيه تأثيراً قوياً وسرّى عنه كثيراً •

قال :

ـ لم أسمع عنك فقط ، وانما اقتنع الآن وأنا أراك أن ما سمعته هو الحقيقة • هل تكلمت فى لحظة من اللحظات كما تكلمت فى هذه اللحظة؟

لكأن رجلاً آخر كان يتكلم الآن بلسانك . لولا انني سمعت عنك شيئاً من هذا القبيل لما جئت الى هنا ساعياً اليك في الحديقة وقد انتصف الليل.

ـ لا أفهم البتة يا بارفيون سيميونتش !

ـ لقد شرحتْ لي أمرك منذ مدة طويلة ، واستطعت أن أتحقق من صدق شروحها حين رأيت ، في هذا اليوم ، المرأة التي كنت جالساً الى جانبها أثناء سماع الموسيقى . لقد حلفتْ لي أمس واليوم أنك مولّه بحب آجلايا ايبانتشين. وهذا أمر لا يعنيني كثيراً يا أمير ، ولا علاقة له بشأني. فلئن أصبحت أنت لا تحبها فانها هي ما تزال تحبك . هل تعلم أنها تريد أن تزوّجك الأخرى مهما كلف الأمر ؟ لقد حلفت لتفعلن ذلك ! هيء هيء ! قالت لي : « لن أتزوجك ما لم يتحقق هذا . ويومَ يذهبان هما الى الكنيسة نذهب نحن أيضاً » . هذا شيء لا أفهمه ولا استطعت أن أفهمه يوماً : فاما أنها تحبك حباً لا حدود له واما ... ولكن اذا كانت تحبك فكيف يمكن أن تريد تزويجك امرأة أخرى ؟... وهي تقول أيضاً : « أريد أن أراه سعيداً » . اذن فهي تحبك .

قال الأمير وقد أصغى الى روجويين متألماً :

ـ قلتُ لك وكتبت انها لا تملك عقلها كاملاً ...

ـ اللهُ أعلم ! قد تكون مخطئاً في هذا !... على كل حال ، حين اصطحبتها اليوم عائدين من سماع الموسيقى ، حدّدت لي اليوم قائلة : « سنتزوج حتماً بعد ثلاثة أسابيع ، وربما بعد أقل من ذلك » . حلفت على ذلك أمام الأيقونة وقبّلتها . هكذا يكون الأمر الآن مرهوناً بك متوقفاً عليك يا أمير . هيء هيء !...

ـ هذا كله هذيان ! ان ما تتنبأ لى به لن يحدث أبداً ، لن يحدث أبداً . سوف أجيء اليك غداً ...

قال روجويين :

ـ كيف تستطيع أن تقول انها مجنـونة ؟ لماذا تكون سليمة العقل في نظر جميع الناس ، وتكون مختلة فى نظرك وحدك ؟ كيف كان يمكنها أن تكتب رسـائل الى هناك ؟ ولو كانت مجنونة للوحظ ذلك من قراءة رسائلها ؟

سأله الأمير مرتاعاً :

ـ أية رسائل ؟

ـ انها تكتب رسـائل الى هنـاك ، الى « الأخرى » ، وهذه تقرأ رسائلها . ألا تعرف هذا ؟ سـوف تعرفه اذن . ستريك الرسـائل هي نفسها حتماً .

هتف الأمير قائلاً :

ـ مستحيل تصديق هذا !

ـ هيه ! أرى يا ليون نيقولايفتش أنك ما زلت فى بداية الطريق . انتظر قليلاً : لسوف تصل من الأمر الى حيث يصبح لك شرطة خاصة تكلفها بالتجسس ، والى حيث تتولى الحراسة بنفسك نهاراً وليلاً ، فتعرف كل خطوة تتم ، متى ...

صاح الأمير يقول :

ـ كفى ! ولا تكلمنى فى هذا مرةً أخرى أبداً . اسمع يا بارفيون :

قبل وصولك بلحظة ، كنت أطوّف هنا . وفجأة أخذت أضحك ، دون أن أعرف لماذا ! تذكرت أن غداً عيد ميلادي . والليل يوشك الآن أن ينتصف . فتعال انتظر معي صبح هـذا اليوم . عندي خمرة ، سوف نشرب . وسوف تتمنى لي ما لا أملك أن أتمناه لنفسي في هذه اللحظة. عنك أنت انما يجب أن يصدر هذا التمني لي . أما أنا فسوف أتمنى لك السعادة الكاملة . اذا لم تقبل أن تجيء معي فهات صليبي ! ردّه الىّ ! انك لم ترجعه الىّ في اليوم التالي . أأنت تحمله الآن ؟

أجاب روجوين :

ـ نعم أحمله .

ـ اذن تعال ! لا أريد أن أدخل حياةً جديدة بدونك ، وان حياةً جديدة لتبدأ بالنسبة الىّ ! ألا تعلم يا بارفيون أن حياتي الجديدة قد بدأت اليوم ؟

ـ الآن أرى وأعرف بنفسي أنهـا بدأت . وسوف أبلغها « هي » ذلك . لست في حالتك الطبيعية يا ليون نيقولايفتش .

الفصل الرابع

حين اقترب الأمير بصحبة روجويين من منزله ، أدهشه أشد الدهشة أن يرى شرفته تسطع بضياء قوى ويملؤها حفل كبير صاخب • كان الحفل يزخر نشاطاً وحماسة ، ويضحك مقهقهاً ، ويتدفق فى الكلام تدفقاً قوياً ، ويتناقش بصرخات عالية • ان المرء ليدرك من أول لحظة أن الحشد يقضى وقتاً مرحاً • فلما صعد الأمير الى الشرفة تحقق تقديره ، اذ وجد الجميع يشربون ، بل وجدهم شربون شمبانيا • ولا بد أن تكون هذه الحفلة قد بدأت منذ وقت غير قصير ، لأن كثيراً من الحضور كان قد أتيح لهم حتى تلك اللحظة أن ينالوا قسطاً كبيراً من الانشراح • وكانوا جميعاً من معارف الأمير ، ولكن الغريب فى الأمر هو أن يراهم مجتمعين اجتماعَ من دُعوا دعوةً ، مع أنه لم يوجه أية دعوة، فهو لم يتذكر عيد ميلاده الا عرضاً منذ برهة قصيرة •

دمدم روجويين يقول للأمير وهو يتبعه على الشرفة :

ـ لا بد أنك ذكرت لأحد أنك ستقدم شمبانيا ، فهرعوا على هذا النحو •

ثم أضاف يقول بلهجة فيها حنق ومرارة ، لأنه تذكر ماضياً غير بعيد فى أغلب الظن :

ـ نحن نعرف هذا ! يكفى أن تصفر لهم •••

أسرع الجمع كله يحيط بالأمير بعد أن استقبله بصيحات وتمنيات. وكان بعض الضيوف مسرفين فى الصخب ، وكان بعضهم الآخر أهدأ كثيراً . ولكن ما ان عُرف أن اليوم عيد ميلاد الأمير حتى اقتربوا منه يهنئونه واحداً بعد واحد بكثير من الحرارة . وقد تعجب الأمير من حضور بعض الأشخاص ، من حضور بوردوفسكى مثلاً . غير أن ما أدهشه أكثر من أى شىء آخر هو أن يجد أوجين بافلوفتش فى صحبة مثل هذا الحشد . حتى انه لم يكد يصدّق عينيه ، وانتابه ما يشبه الذعر حين تعرّفه .

وفى هذه الأثناء ، هرع ليبديف ، وكان شديد احمرار الوجه بل قل كان مشتعل الوجه ، هرع يشرح الأمور ، وكان قد سكر بعض السكر . فقال ان هذا الملأ كله قد اجتمع شمله على نحو طبيعى تماماً ، بل وبمصادفة . فكان هيبوليت أول الوافدين ، لأنه وصل فى بداية المساء . انه وقد شعر بتحسن كبير فى حالة صحته ، واذ أراد أن ينتظر الأمير فى الشرفة ، قد اضطجع على ديوان . ثم التحق به ليبديف الذى لم يلبث أن تبعته أسرته كلها أو قل بناته والجنرال ايفولجين . أما بوردوفسكى فقد وصل مع هيبوليت وكان يصحبه . ومرّت جانيا مع بتسين بالفيللا فدخلا ، منذ مدة قصيرة فيما يبدو ، (دخلا فى الوقت الذى كان يقع فيه حادث الفوكسهول) . وبعد ذلك ظهر كيللر ، فأعلن أن اليوم عيد ميلاد الأمير ، وطالب بشمبانيا . أما أوجين بافلوفتش فانه لم يحضر الا منذ نصف ساعة . وقد ألحّ كوليا ، بكل ما أوتى من قوة ، على ضرورة تقديم الشمبانيا واقامة احتفال. فأسرع ليبديف يأتى بالخمرة.

قال ليبديف يخاطب الأمير :

ـ ولكن هذه خمرتى أنا . أنا أتحمل النفقات ، لأحتفل بعيد ميلادك

ولأهنئك . وسنولم كذلك وليمة صغيرة ، سنقدم عشاء بارداً . ان بنتي تهيىء العشاء . آ ... يا أمير ... ليتك تعرف الموضوع الذى كنا تناقش فيه . هل تتذكر جملة هاملت هذه : « نكون أو لا نكون » ؟ انه لموضوع عصرى ، عصرى جداً ! أسئلة وأجوبة ... والسيد تيرتنيف ممتلىء بالنشاط زاخر بالحماسة ... لا يريد أن يرقد ! على أنه لم يشرب الا جرعة شمبانيا واحدة ، جرعة واحدة ، هذا لا يمكن أن يؤذيه ... اقترب يا أمير ، واحسم المناقشة ! ان الجميع ينتظرونك ، ان الجميع ينتظرونك ، ان الجميع يعتمدون على ثاقب بصرك ، وسديد رأيك ...

ولاحظ الأمير النظرةَ العذبة الملاطفة التى كانت تلقيها عليه فيرا ليبديف وهى تشق لنفسها طريقاً من أجل أن تصل اليه . فكانت أول من مد الأمير اليه يده . فاحمرت سروراً وهنأته بعيد ميلاده متمنيةً له حياة سعيدة « منذ هذا اليوم » . ثم أسرعت تمضى الى المطبخ حيث كانت تهيىء وجبة الطعام الخفيفة . ولكنها كانت ، حتى قبل عودة الأمير ، تجىء الى الشرفة ، متى سنحت لها أول فرصة للتحرر من انشغالها بتهيئة الطعام ، وذلك لتصغى بكل سمعها الى المناقشات الحامية التى تدور بين الضيوف الى غير نهاية بعد أن أهاجتهم الخمرة ، والتى كانت تتناول مسائل مجردة الى أبعد حدود التجريد ، غريبةً عن الفتاة الى أقصى درجات الغرابة . وكانت أختها الصغرى قد نامت فى الغرفة المجاورة ، فاغرة الفم جالسةً على صندوق . أما الصبى ابن ليبديف ، فقد بقى قرب كوليا وهيبوليت . فاذا رأى الرائى وجهه أدرك أن الصبى مستعد لأن يبقى جالساً فى مكانه دون حراك ، عشر ساعات متالية ، مستمتعاً بالحديث .

قال هيبوليت للأمير حين تناول الأمير يده بعد مصافحة فيرا فوراً :

ــ كنت انتظرك على أحر من الجمر ، ويسرنى جداً أن أراك سعيداً هذه السعادة كلها .

ــ وكيف عرفت ابنى « سعيد » ؟

ــ يرى المرء هذا فى وجهك . سلّم على هؤلاء السادة ثم تعال اجلس هنا ، قريباً منا ، بسرعة .

وكرّر يقول ، ضاغطاً على هذه الجملة ضغطاً ذا دلالة :

ــ انتظرتك على أحر من الجمر !

سأله الأمير أليس خطراً على صحته ان يسهر الى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فأجابه بأنه يستغرب هو نفسه أنه لم يشعر يوماً بمثل ما يشعر به فى هذا المساء من تحسن فى صحته ، بينما كان منذ ثلاثة أيام على شفا الموت .

نهض بوردوفسكى فجأة، فغمغم يقول انه جاء «هكذا» ، «مصطحبا» هيبوليت . وانه سعيد برؤية الأمير . وانه كتب فى رسالته « سخافات وحماقات » ولكن يسعده الآن حقاً أن ... لكنه لم يكمل جملته ، وشدّ على يد الأمير مصافحاً بقوة ، ثم جلس .

حتى اذا فرغ الأمير من تحية الجميع ، اقترب من أوجين بافلوفتش، فسرعان ما أمسكه هذا من ذراعه وقال له هامساً :

ــ أريد أن أقول لك كلمتين ... كلمتين لا أكثر . الأمر أمر حادث هام جداً . فلننفرد دقيقة .

وهمس فى الأذن الأخرى، منأذنى الأمير صوت آخر، بينما أمسكته يد ثانية من ذراعه الثانية :

ــ أريد أن أقول لك كلمتين .

فما كان أشد دهشة الأمير حين التفت فرأى أمامه وجهاً مشعثاً ، أحمر ، ضاحكاً ، مكشراً ، سرعان ما عرفه الأمير : انه فردشتشنكو ، لا يدرى أحد من أين انبجس !

سأله فردشتشنكو :

ـ هل تتذكر فردشتشنكو ؟

وصاح كيللر الذى أسرع يقترب منهما ، صاح يقول :

ـ انه نادم . لقد كان مختبئاً لأنه لم يشأ أن يظهر أمامك . كان مختبئاً هناك ، فى ركن . انه نادم يا أمير . يشعر بأنه مذنب .

ـ ولكن ما ذنبه ؟

ـ أنا لقيته يا أمير ، فجئت به فوراً . انه من خيرة اصدقائى . لكنه نادم .

قال الأمير أخيراً ليتخلص منهما :

ـ تشرفت بحضوركما يا سيدىّ ! اتخذا لكما مكاناً بين الحفل .

كان الأمير يستعجل التحدث مع أوجين بافلوفتش .

قال أوجين بافلوفتش :

ـ يبتهج المرء فى بيتك . لقد قضيت فى انتظارك نصف ساعة، فكان وقتاً ممتعاً . اليك المسألة يا صديقى العزيز جداً ليون نيقولايفتش. لقد رتبت كل شىء مع كورمشيف ، فجئت أطمئنك وأهدىء بالك . لا تقلق. لقد نظر الى الأمر نظرة فيها كثير من التعقل . لا سيما وأنه ، فى رأيى ، كان هو المخطىء .

ـ من هو كورمشيف هذا ؟

ـ عجيب ... هو ذلك الذى أمسكت ذراعيه من خلف فىالحديقة العامة ... لقد بلغ من الغضب أنه كان يريد أن يرسل اليك فى الغد شهوده يطلبون منك الاستعداد للمبارزة .

ـ هيّا .. دعك من هذه السخافة !...

ـ هي سخافة طبعاً ••• ولا شك أن الأمر كان سينتهي نهاية سيئة ••• غير أن بلادنا فيها أناس من هذا النوع •••

ـ أتراك قد أتيت لغرضٍ آخر يا أوجين بافلوفتش ؟

قال أوجين بافلوفتش ضاحكاً :

ـ آ ••• طبعاً ! هناك غرض آخر • غداً يا عزيزي الأمير ، عند مطلع الصبح ، سأسافر الى بطرسبرج بسبب تلك الحكاية المشئومة (قضية عمي ، هل تتذكر ؟) • تصوّر أن كل ما قيل صحيح فعلاً ، وأن جميع الناس كانوا يعرفونه الا أنا • وقد بلغت من الاضطراب للأمر أنني لم يتسع وقتي حتى للذهاب الى « هناك » (الى أسرة ايبانتشين) ، لا ولن أستطيع ذلك غداً ، لأنني سأكون غداً ببطرسبرج• هل تفهم ؟ وقد لا أعود من بطرسبرج الا بعد ثلاثة أيام • لا أريد أن أبالغ في تقدير خطورة الحادث ولا أن أضخم شأنه ، ومع ذلك رأيت أن عليّ أن أصارحك في الأمر صادقاً دون مزيد من الارجاء والتأجيل ، أي أن أصارحك في الأمر قبل سفري • اذا سمحت لي فسأبقى الآن هنا أنتظر انصراف الناس • وليس هناك شيء يفضل هذا الانتظار عندي ، لأنني مضطرب اضطراباً شديداً فلا سبيل لي الى نوم • الخلاصة أنني ، رغم ما يشتمل عليه هذا التشبث بأحد الناس من مجافاة للباقة والكياسة والأدب ، أقول لك بصراحة انني انما جئت اليك ملتمساً صداقتك يا عزيزي الأمير • انك انسان لا نظير له ، بمعنى أنك لا تكذب في كل لحظة وربما كنت لا تكذب في أية لحظة • وهناك قضية أحتاج فيها الى صديق صادق وناصح أمين ، فأنا الآن في عداد الأشقياء فعلاً •••

وأخذ يضحك من جديد

قال الأمير بعد دقيقة من تفكير :

ـ ليس هناك الا مزعج واحد : انك تريد انتظار انصرافهم ، ولكن لا يعلم الا الله متى ينصرفون ! أفليس الأفضل أن نمضي الآن الى الحديقة العامة ؟ سوف ينتظرونني حتماً ، فأعتذر لهم .

ـ لا ، لا ، هناك أسباب تجعلني أحب أن لا ينتبهوا الى انني أبغي اجراء حديث غير عادي معك . ان بين هؤلاء الناس أفراداً يهتمون بالعلاقات بيننا اهتماماً شديداً ، ألا تعرف ذلك يا أمير ؟ فالأفضل كثيراً أن يلاحظوا أن علاقتنا هي أطيب العلاقات لا في الظروف الاستثنائية فحسب، بل في الحياة الجارية أيضاً ، هل فهمت ؟ سوف ينصرفون بعد نحو ساعتين. وسأشغل من وقتك قرابة عشرين دقيقة ، أو نصف ساعة في أكثر تقدير ...

ـ عفوك عفوك ! انني سعيد بك جداً . ما كنتَ في حاجة الى مثل هذا الاعتذار . ثم انني أحرص على أن أشكر لك أحرَّ الشكر كلمتك عن علاقات الصداقة بيننا . هل تعلم أنني يستحيل عليَّ استحالة مطلقة في هذه اللحظة أن أركز انتباهي ؟

دمدم أوجين بافلوفتش يقول وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ هذا واضح ! هذا واضح !

كان أوجين بافلوفتش مرح المزاج جداً في ذلك المساء .

سأله الأمير مرتعشاً :

ـ ماذا بك ؟

فتابع أوجين بافلوفتش كلامه دون أن يجيب عن السؤال اجابة مباشرة ، وهو ما يزال يبتسم :

ـ أتراك لا تشتبه ، يا عزيزي الأمير ، في أن لا يكون لزيارتي هذه

من هـدف الا أن أحاصرك وأن استخرج منك بعض المعلومات دون أن يبدو عليّ ذلك ، هه ؟

قال الأمير وقد أخذ يضحك هو أيضاً :

ـ أما أنك جئت لتحملني على الكلام فذلك أمر لا ريب فيه البتة ! بل لعلك آليت على نفسك لتسرفنّ في استغلال سذاجتي . لكنني في الواقع لا أخشاك . ثم انني في هذه اللحظة لا يهمني هذا الأمر ، هل تصدّق ؟ ثم ... لما كنتُ قبل كل شيء مقتنعاً بأنك انسـان ممتاز فسـوف ننتهي دائماً ، في آخـر الأمر ، الى أن نصبح صـديقين ! لقد أعجبتني كثيراً يا أوجين بافلوفتش . لأنك ... في رأيي ... رجل محترم جداً ... جدا !...

قال أوجين بافلوفتش يختم الحديث :

ـ هيّا ... ان التعامل معك ممتع على كل حال ، أيّاً كان الباعث اليه . سوف أشرب كأساً نخبَ صحتك . انني سعيد جداً بلقائك ...

وقطع كلامه ليسأله فجأة :

ـ آ ... هل أقام هذا السيد هيبوليت عندك ؟

ـ نعم .

ـ أظن أنه لن يموت الآن ، أليس كذلك ؟

ـ لماذا هذا السؤال ؟

ـ لا لشيء ! لقد قضيت في صحبته نصف ساعة ...

ان هيبوليت ، الذي كان ينتظر الأمير ، لم يحوّل عينيه ، طوال مدة الحديث الذي جرى بين الرجلين ، لم يحوّل عينيه لا عن الأمير ولا عن أوجين بافلوفتش . فلما عادا نحو المائدة انتعش انتعاشاً محموماً . لقد كان قلقاً ، مهتاجاً اهتياجاً شديداً . وكان العرق يلتمع على جبينـه كحبـات

اللؤلؤ . وكانت عيناه المتقدتين الزائغتين تعبِّران عن خوف متصل لا ينقطع ، وعن نوع من نفاد الصبر لا يمكن تحديده . كانت نظرته تنتقل دون هدف من شيء الى آخر ، ومن شخص الى شخص ، دون أن تثبت على أى موضع . ورغم أنه كان جتى ذلك الحين قد شارك مشاركة فعَّالة في الحديث الصاخب والمناقشة الحامية التى كانت تدور من حوله ، فلقد كانت حماسته حماسة حمى لا أكثر . وحقيقة الأمر أنه لم يكن منصرفاً الى تلك المناقشة . كان تفكيره متقطعاً مفككاً ، وكان يعبِّر عن آرائه بلهجة فيها سخر واهمال ومفارقة . كان لا يكمل جمله ، وينقطع عن الكلام فجأة فى منتصف المناقشة التى يكون قد أثارها هو نفسه بحرارة قبل ذلك بدقيقة واحدة . وقد شعر الأمير بدهشة وأسف حين علم أنهم أباخوا له في ذلك المساء أن يشرب كأسين من الشمبانيا . فالكأس التى توجد على المائدة أمامه والتى تجرع بعضها كانت هى الكأس الثالثة . ولكن الأمير لم يعلم بهذا الا فيما بعد . أما الآن فانه لم يكن قادراً على أن يلاحظ أى شيء .

صاح هيبوليت يقول :

ـ هل تعلم أننى سعيد جداً بأن يقع عيد ميلادك فى هذا اليوم ؟

ـ لماذا ؟

ـ سوف ترى لماذا . اجلس بسرعة الى المائدة . أولاً : لأن جميع أصحابك ... حاضرون . لقد قدَّرتُ أنهم سيجيئون عدداً كبيراً ، وصدق تقديرى لأول مرة في حياتى ! خسارة أننى لم أعلم بيوم عيد ميلادك من قبل ... فلو علمت لحملت اليك هدية ... هأ هأ ! ولكن من يدرى ؟ قد تكون الهدية فى جيبى ؟ هل مطلع الصبح بعيد ؟

قال بتتسين بعد أن نظر فى ساعته :

ـ يطلع الفجر بعد ساعتين فى أكثر تقدير •

قال أحدهم :

ـ ولكن ما شأننا والفجر اذا كان فى وسعنا أن نستغنى عنه الآن لنقرأ فى الخارج * ؟

ـ ذلك أننى أريد أن أرى قليلاً من شمس • هل نستطيع أن نشرب نخب الشمس يا أمير ؟ ما رأيك ؟

كان هيبوليت يلقى أسئلة بلهجة قاسية ، مخاطباً جميع الناس مخاطبة فارس من الفرسان ، كأنه يصدر أوامر • ولكن كان يبدو أنه هو نفسه لا يلاحظ ذلك ولا يشعر به •

ـ ليكن ما تشاء ! فلنشرب ! ولكن يجدر بك أن تسكن وتهدأ يا هيبوليت ، أليس كذلك ؟

ـ أنت تنصحنى دائماً بأن أمضى أنام يا أمير ، فتعاملنى كما تعامل الطفل مربيتُه • متى طلعت الشمس وأخذت « تسطع فى قبة السماء » (من قائل هذا البيت من الشعر : « سطعت الشمس فى قبة السماء » * ؟ ليس لهذا الكلام معنى ، ولكنه جميل) فعندئذ سوف نرقد يا ليديف ؟ هل الشمس ينبوع الحياة ! ما معنى هاتين الكلمتين « ينبوع الحياة » فى رؤيا القديس يوحنا ؟ هل سمعت الكلام عن « الكوكب الأفسنتى » * يا أمير ؟

ـ قيل لى ان ليديف يرى أن الكوكب الأفسنتى هو شبكة السكك الحديدية هذه فى أوروبا •

فانتفض ليديف وصاح يقول ملوحاً بذراعيه كأنه كان يريد أن يلجم الضحك الذى انطلق من صدور الجميع :

ـ ها ••• لا ••• اسمحوا لى ••• اسمحوا لى !

ثم التفت نحو الأمير فجأة فقال له :

ـ مع هؤلاء السادة ••• مع هؤلاء السادة جميعهم •• هناك مسائل لا يمكن أن ••• انهم لا يستحقون الا هذا •••

قال ذلك ونقر المائدة نقرتين ، فما كان من هذا الا ضاعف الضحك وفاقم الهرج والمرج •

كانت حالة ليبديف فى هذا المساء كحالته فى كل مساء ، ولكنه كان فى هذه المرة أشد حرارة واندفاعاً مما يكون فى العادة ، وذلك بسبب تلك المناقشة الطويلة « الفقيهة » التى سبقت • انه فى مثل هذه الحال يبدى لمعارضيه ازدراء لا حدود له •

ـ لا يُستحسن هذا أيها السادة ! لقد اتفقنا منذ نصف ساعة على أن لا نقاطع ولا نضحك حين يكون أحدنا بسبيل الكلام ، وأن نفسح لكل فرد مجال التعبير عن فكره واسعاً كاملاً • وللملحدين أنفسهم بعد ذلك أن يعلنوا اعتراضاتهم اذا حرصوا على ذلك • لقد أقمنا الجنرال رئيساً للمجادلات • فما هذا الذى تعمدون اليه ؟ انكم بهذه الوسيلة تستطيعون أن تجعلوا أى انسان يفقد تسلسل أفكاره مهما تكن رفيعة سامية عميقة !•••

صاح الجميع يقولون بصوت واحد :

ـ ولكن تكلم ، تكلم ! ما من أحد سيمنعك من الكلام !

ـ تكلم ، ولكن لا تهذر وتستطرد !

سأل أحدهم :

ـ ما « الكوكب الأفسنتى » هذا الذى أتيتم على ذكره ؟

فقال الجنرال وقد عاد الى مجلس الرئاسة وقور الهيئة مهيب المنظر :

ـ لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً البتة !

عندئذ تمتم كيللر يقول وهو يتزحزح على كرسيه بحركات قوية ، وهيئة تنم على النشوة والشوق :

ـ اننى أحب هذه المناقشات وهذه المشاجرات حب العبادة !

ثم التفت فجأة الى أوجين بافلوفتش الذى كان جالساً بقربه ، فقال له :

ـ موضوعات علمية سياسية . لشد ما يشوقنى ما أقرؤه فى الصحف من خلاصات عن المجادلات والمناقشات التى تحتدم فى مجلس النواب البريطانى . ليس جوهر هذه المجادلات هو الذى يفتننى (فما أنا سياسى ، تعلم ذلك) ، وانما تفتننى الطريقة التى يتعامل بها الخطباء ، والأسلوب الذى يستعملونه فى القيام بدورهم من حيث سياسيون : « ان الفيكونت النبيل الذى يتخذ مكانه قبالتى .. » ، « ان الكونت النبيل الذى يشاطرنى رأيى .. » ، « ان معارضى النبيل الذى أثار اقتراحه دهشة أوروبا .. » . فهذه العبارات الجميلة كلها ، هذه الروح البرلمانية لدى شعب حر ، هى ما يسحرنى ويأخذ بلبى ! اننى أتلذذ بهذا يا أمير ! لقد كنت فى قرارة نفسى فناناً على الدوام ، أحلف لك يا أوجين بافلوفتش !

صاح جانيا من مكانه قائلاً بلهجة هجومية :

ـ أنت تستنتج اذن أن طرق السكة الحديدية شر لعين ، وأنها ستكون السبب فى هلاك الانسانية ، وانها السم الذى سينزل على الأرض فيلوث « ينابيع الحياة » ؟

كان جبريل آرداليونوفتش ، ذلك المساء ، منتعشاً انتعاشاً خاصاً ، وكان فرح المزاج حتى ليكاد يكون شاعراً بالانتصار والظفر فيما بدا للأمير . وواضح أن سؤاله لم يكن الا مزحة أراد بها استفزاز ليبديف ، ولكنه لم يلبث أن تحمس هو نفسه .

أجابه ليبديف وقد شعر أنه أُخرج عن طوره وأنه فى الوقت نفسه سكران لذةً :

ـ لا ، لا طرق السكة الحديدية ! ان هذه الطرق لا تستطيع بذاتها أن تلوّث ينابيع الحياة . وانما الشر اللعين هو جملة الحال كله ؛ هو هذه الروح العلمية العملية التى سيطرت ميولها فى هذه القرون الأخيرة !

سأل أوجين بافلوفتش :

ـ هل اللعنــة محققة أم هى ممكنة فحسب ؟ لا بد لنا من معــرفة المقصود هنا على وجه الدقة .

قال ليبديف مؤكداً باندفاع وحماسة :

ـ بل اللعنة محققة !

قال بتتسين مبتسماً :

ـ لا تندفع يا ليبديف ! انك تكون فى الصباح أحسن حالاً وأخلى بالاً !

قال ليبديف يجيبه بحرارة وهو يلتفت اليه :

ـ نعم ، ولكننى فى المساء ، أصرح مقالاً ! أنا فى المساء أكثر مودة، وأصدق صدقاً ! أنا فى المساء أبســط وأوضح وأشرف . ولعلنى بهذا أتيح لكم أن تمطرونى بانتقاداتكم . ولكننى أيهـا السـادة لا أعبأ بهذه الانتقادات . وانى لأتحداكم الآن جميعاً أيها الملاحدة : كيف ستنقذون العالم ؟ ما هى الطريق السوية التى شققتموها له نحو السلامة أنتم أيضاً ، يا أيها الصناعيون وأنصار نظام الاشتراك ونظام الأجور وما الى ذلك ؟ بأى شىء ستنقذون العالم ؟ بالتسليف ؟ ما التسليف ؟ الى أين سيؤدى بكم الاقتراض ؟

قال أوجين بافلوفتش :

ـ انك شديد الاهتمام بهذه المسائل !

ـ ورأيي أن من لا يهتم بهذه المسائل ليس الا انساناً تافهاً لا قيمة له ! نعم يا سيدى !

قال بتسين :

ـ التسليف يؤدى على الأقل الى التضامن العام، والى توازن المصالح.

ـ ولكن لا أكثر من هذا ! ان الأساس الأخلاقى الوحيد الذى تقيم عليه رأيك هو ارضاء الأنانية الفردية واشباع الحاجات المادية . السلام الشامل ، والسعادة الجماعية الناشئة عن الحاجة ! اسمح لى أن أسألك : أليس هذا هو ما يجب أن أفهمه من كلامك أيها السيد العزيز ؟

قال جانيا وقد بدأ يتحمس فعلاً :

ـ ولكن الحاجة المشتركة بين جميع البشر الى أن يعيشوا ويشربوا ويأكلوا ، وكذلك الاقتناع المطلق العلمى بأن هذه الحاجات لا يمكن ارضاؤها الا بالاشتراك الشامل وبالتكافل والتضامن فى المصالح ، ذلك فيما يبدو لى رأى قادر على أن يكون دعامة و « ينبوع حياة » للانسانية فى العصور المقبلة .

ـ ضرورة الشراب والطعام ، أى غريزة البقاء وحدها ...

ـ ولكن أليست هذه الغريزة شيئاً ؟ انها قانون الانسانية الطبيعى السوى .

صاح أوجين بافلوفتش فجأة :

ـ من قال لك هذا ؟ هى قانون ، نعم ، ولكن هذا القانون ليس سوياً أو طبيعياً أكثر من قانون التدمير ، وحتى تدمير الذات . هل البقاء هو القانون الطبيعى السوى الوحيد الذى يحكم الانسانية ؟

هتف هيبوليت قائلاً وهو يلتفت بقوة الى جهة أوجين بافلوفتش :

ـ هيه ! هيه !

وتفرس فيه باهتمام قوى واستطلاع شديد ، ولكنه حين لاحظ أنه يضحك ، أخذ يضحك هو أيضاً ، ثم لكز كوليا الذى كان جالساً الى جانبه وعاد يسأله كم الساعة الآن ، حتى لقد شدّ اليه ساعة الفتى الفضية ونظر فى عقربها بشراهة . وتمدّد أخيراً على الديوان كأنما ليغيب فى غياهب النسيان ، جاعلاً يديه وراء رأسه ، وأخذ يحدّق الى السقف . ولكن ما ان انقضى نصف دقيقة حتى عاد يجلس الى المائدة ، منهضاً صدره ، مصغياً الى هذر ليبديف الذى بلغ ذروة الحماسة .

قال ليبديف وهو يتهجم بعنف على الرأى المفارق الذى عبّر عنه أوجين بافلوفتش :

ـ هذه فكرة بارعة ساخرة ، هذه فكرة مثيرة ! ولكنها فكرة صحيحة صادقة ، رغم انك لم تقلها الا فى سبيل أن تضرم المناقشة مزيداً من الاضرام . ان رجلاً ريبياً مثلك ، رجلاً من أبناء المجتمع الراقى ، ضابطاً من سلاح الفرسان (موهوباً على كل حال) لا يستطيع أن يدرك هو نفسه كل ما تشتمل عليه هذه الفكرة من عمق وصواب ! نعم ياسيدى! ان قانون تدمير الذات وقانون المحافظة على الذات لهما فى هذا العالم قوة واحدة . وسيظل يستعملهما الشيطان كليهما للسيطرة على الانسانية خلال زمن لا نعرف له حداً . أتضحكون ؟ ألا تؤمنون بوجود الشيطان ؟ ان انكار وجود الشيطان فكرة فرنسية ، فكرة تافهة ؟ هل تعرفون من هو الشيطان ؟ هل تعرفون اسمه ؟ انكم وأنتم تجهلون حتى اسمه ، تسخرون من صورته ، على غرار فولتير . تضحكون من قدميه المشرومتين ومن ذنبه ومن قرنيه ، وذلك كله من اختراع خيالكم أنتم ، ذلك ان الروح

الشريرة روح ضخمة هائلة لا شأن لها لا بالأقدام المشرومة ولا بالقرون التي تنسبونها اليها . ولكن ليست الروح الشريرة موضوعنا الآن ...

صاح هيبوليت يسأله وهو ينفجر فجأة في ضحك متشنج :

ـ ما يدريك ؟ لعل الشيطان هو موضوعنا الآن !

قال ليبديف مؤيداً :

هذه ملاحظة سديدة موحية ! لكنني أكرر أن الأمر ليس هو هذا الآن . وانما المسألة هي أن نعلم ألم يضعف التطور « ينابيع الحياة » ؟

هتف كوليا سائلاً :

ـ تقصد المواصلات بالسكك الحديدية ؟

ـ لا ، لا المواصلات بالسكك الحديدية ، أيها الفتى المتهور الطائش ، بل الاتجاه الذي يمكن أن تعد السكك الحديدية صورة له ، أو تمثيلاً له ، أو تجسيداً فنياً ان صح التعبير . ان الناس الآن في عجلة من أمرها ، تتحرك هنا وهناك ، وتتخبط وتضج وتصرخ ، وتتزاحم وتتصادم ، وتحث الخطى وتغذ السير ، بدعوى العمل لسعادة الانسانية ! ان مفكراً معتزلاً لهذا العالم قد ندب حظ البشر فقال : « أصبحت الانسانية مسرفة في الجلبة والضوضاء ، مفرطة في الصناعة ، على حطام الهدوء النفسي والغبطة الروحية » . فأجابه مفكر آخر يطوف هنا وهناك ويشيح بوجهه عن الأول منتصراً متعالياً : « ليكن . ولكن ضجة العربات التي تحمل الخبز للبشر الجياع قد تكون أفضل من الهدوء النفسي والغبطة الروحية ! » . أما أنا ، أنا ليبديف الحقير ، فانني لا أؤمن بالعربات التي تحمل الخبز للبشرية ! لأن هذه العربات ، ان لم تقدها فكرة اخلاقية روحية ، يمكنها ببرود وهدوء أن تحرم من حق الخبز الذي تنقله جزءاً كبيراً من النوع الانساني . وقد رأينا هذا فعلاً ...

قال أحدهم معترضاً :

ــ هل العربات هي التي تستطيع بهدوء وبرود أن تحرم ؟..

كرر ليبديف كلامه قائلاً دون أن يتنازل فيولي السؤال أي انتباه :

ــ لقد رأينا هذا فعلاً . لقد كان مالتوس رجلاً من محبي البشر. لكن محب البشر هو من أكلة لحوم البشر اذا كان الأساس الأخلاقي الذي يقف عليه مهتزاً مترنحاً . ناهيك عن غروره ... انه ليكفي أن تجرح كبرياء أي واحد من محبي البشر هؤلاء الذين لا يحصى عددهم حتى يكون مستعداً لأن يحرق على الفور أركان الأرض الأربعة ارضاءً لحقده الصغير !... على أنني يجب أن أضيف ، حتى أكون منصفاً غير متحيز ، أن كل واحد منا ، وأنا في الطليعة ، مستعد لأن يفعل مثل هذا ، فلعلني أكون أول من يحمل حزم الحطب لاضرام النار ، ثم يولي هارباً.. ولكنني أعود فأقول ان المسألة ليست هذه !

ــ فما هي المسألة اذن ؟

ــ انه يزعجنا حقاً !

ــ المسألة هي مسألة حكاية ترجع الى القرون الماضية ، ذلك انني مضطر أن أحدثكم عن عهد بعيد . ففي عصرنا هذا ، وفي وطننا الذي تحبونه ، فيما أرجو ، كما أحبه أنا ... ذلك أنني من جهتي أيها السادة مستعد لأن أبذل في سبيله آخر قطرة من دمي ...

ــ طيب طيب ، وبعد ؟

ــ نعم ... في وطننا ، كما في أوروبا ، تنتاب الانسانية مجاعات عامة شديدة مرةً كلَّ ربع قرن في أكثر تقدير ، اذا صحت الحسابات وصدقت ذاكرتي ، أي كلَّ خمس وعشرين سنة . لست أناقش صحة الرقم ، ولكن الواقع الذي أريد أن أقرره هو أن المجاعات نادرة نسبياً .

ـ نسبياً ؟ تعنى بالنسبة الى ماذا ؟

ـ بالنسبة الى القرن الثانى عشر ، والى القرون التى سبقته وأعقبته. ذلك أن المجاعات العامة ، فى ذلك العهد ، كانت تجتاح الانسانية كلّ سنتين أو كل ثلاث سنين ، على الأقل ـ هذا ما يشهد به المؤرخون ـ حتى ان الانسان فى مثل تلك الظروف كان يعمد الى أكل لحم البشر ، ولكن خفيةً . وقد روى طفيلى من ذلك الزمان ، حين دلف الى الشيخوخة ، روى من تلقاء نفسه ، دون أى ضغط أو اكراه ، أنه فى أثناء حياته الطويلة التعيسة قد قتل وأكل فى السر ستين راهباً وعدة أطفال ، ستةً فى أكثر تقدير ، وهو عدد ضئيل بالقياس الى عدد رجال الدين الذين أكلهم . أما الكبار من غير رجال الدين فيظهر أنه لم يمسس أحداً منهم فى يوم من الأيام .

هتف الرئيس نفسه يقول بلهجة فيها ما يشبه الاستياء :

ـ هذا غير ممكن . اننى كثيراً ما أناقشه وأجادله ايها السادة فى موضوعات من هذا النوع دائماً . فاذا هو يطالعنى بمثل هذه الأضاليل التى تقشعر لها الأبدان ، وتُصمُّ منها الآذان .. أشياء لا يمكن أن يسلّم بها العقل !

ـ يا جنرال ، تذكر حصار كارس * ! وأنتم أيها السادة ، اعلموا ان حكايتى هى الحقيقة صافيةً . وأضيف من جهتى أن الواقع ، رغم خضوعه لقوانين ثابتة لا تتغير ، يكاد يكون دائماً صعب التصديق بعيداً عن المعقول . وفى بعض الأحيان ترى الحادث أبعد عن المعقول كلما كان ألصق بالواقع .

سأله السامعون ضاحكين :

ـ ولكن هل يستطيع امرؤ أن يأكل هكذا ستين راهباً ؟

ـ انه لم يأكلهم دفعةً واحدة بطبيعة الحال، لعله أكلهم خلال خمس عشرة سنة أو عشرين . ففي هذه الحالة يكون الأمر مفهوماً وطبيعياً الى أبعد الحدود ...

ـ وطبيعياً أيضاً ؟

ـ نعم ، طبيعياً !

كذلك أجاب ليديف بعناد المدّعي واصرار المتفيقه . وتابع يقول :

ـ ثم ان الراهب الكاثوليكي هو بطبيعته انسان يحب التواصل بالكلام ويكثر من الاستطلاع ، فلا أسهل من استدراجه الى غابة أو الى مكان ناءٍ ، ليلقى هنالك المصير الذي وصفته آنفاً . ولست أجحد مع ذلك أن عدد الأشخاص المأكولين فيه اسراف ، وأنه يدل على الشراهة .

قال الأمير فجأة :

ـ ربما كان هذا صحيحاً أيها السادة .

كان قد لزم الصمت حتى ذلك الحين، وتابع المناقشة دون أن يتدخل فيها . وقد ضحك من كل قلبه مراراً حين أخذ الجميع يضحكون. كان واضحاً أنه لفتتن بأن يرى نفسه محاطاً بهذا المرح ، وبكل هذه الضوضاء ، بل وأن يلاحظ أن الضيوف يشربون بهذا الاندفاع كله وهذه الحميّا كلها . كان يمكن أن لا يفتح فمه طوال السهرة ، ولكن خطر بباله فجأة أن يقول كلمة ، ففعل ذلك بجدٍ ورصانة يبلغان من الشدة أن جميع الضيوف التفتوا نحوه وفي أعينهم نظرات حيرة وتعجب !

ـ أريد أن أوضّح نقطة أيها السادة ، هي كثرة تكرر المجاعات في الماضي . لقد سمعت عن هذا الأمر أنا أيضاً ، وان كنت لا أعرف التاريخ معرفة جيدة . يبدو لي أن الأمر كان على هذا النحو حقاً . انني

أثناء اقامتي في جبال سويسرا قد أعجبت كثيراً بأطلال القصور الاقطاعية القديمة ، القائمة في جنبات الجبال ، فوق صخور وعرة ، على ارتفاع لا يقل عن نصف فرسخ (أي عدة فراسخ سيراً في الطرقات المؤدية اليها) • تعرفون ما القصر : انه جبل من حجارة حقاً • ان بناءه يتطلب عملاً رهيباً ، عملاً لا يتصوره الخيال ، عملاً لا شك في أنه قد قام به جميع أولئك الفقراء الذين كانوا أقناناً • وكان على هؤلاء ، بالاضافة الى ذلك ، أن يدفعوا انواعاً من الاتاوات وأن يعيلوا رجال الكهنوت • كيف كانوا يجدون في وقتهم متسعاً لأن يقيموا أود أنفسهم وأن يزرعوا الأرض ؟ لقد كان عددهم في ذلك الزمان أقل من أن يستطيعوا النهوض بتلك الأعباء كلها ، وكان أكثرهم يموتون جوعاً ، لأنهم لا يجدون ما يأكلونه فعلاً • حتى لقد اتفق لي أن تساءلت كيف لم يندثر أولئك السكان كافة ، كيف قاوموا واستطاعوا أن يتحملوا تلك الحياة ؟ فاذا قال ليبديف انه حدث في ذلك الزمان أن أكل بعض الناس لحوم بشر ، فصدقوه لأنه على حق حتماً • ولكنني لا أدري لماذا أقحم الرهبان في هذه القضية ، ولا أعلم ما الذي أراده •

قال جبريل آرداليونوفتش :

ـ لا شك أنه أراد أن يقول ان المرء في القرن الثاني عشر كان لا يستطيع أن يأكل من البشر الا الرهبان ، لأن الرهبان وحدهم كانت بهم سمنة •

فصاح ليبديف يقول :

ـ هذه ملاحظة رائعة وصحيحة كل الصحة ، ذلك أن صاحبنا لم يمسس أحداً من غير رجال الدين ! لم يأكل رجلاً واحداً من غير رجال الدين وأكل ستين عينة من هؤلاء : هذه واقعة فظيعة ، لها دلالة تاريخية

وقيمة احصائية • هى واقعة من الوقائع التى يستطيع بواسطتها رجل ذكى أن يتصور الماضى تصوراً صحيحاً ، اذ يبرهن بدقة حسابية على أن رجال الكهنوت كانوا فى ذلك الزمان أكثر رخاء وأفضل تغذية من سائر البشر ستين مرة على الأقل ، وربما كانوا أسمن من سائر البشر ستين مرة أيضا •

صاح بعض الحاضرين يقول وسط انفجارات الضحك :

ـ ما أشد مبالغتك يا ليبديف ، ما أشد مبالغتك !

عاد الأمير يقول سائلاً :

ـ أنا أسلم بأن لهذه الفكرة دلالة تاريخية ، ولكن ما الذى تريد أن تخلص اليه ؟

كان الأمير يتكلم بجد يبلغ من الشدة ، ولهجة تبلغ من خلوها من السخرية أو التهكم على ليبديف الذى كان يتندر به الحضور كافة ، أن التناقض بين لهجته وبين لهجة الآخرين كان يخرج منه تأثير هزلى مضحك بدون قصد ، حتى لقد أوشك أن يصبح الأمير نفسه محل ضحك واستهزاء ، ولكن الأمير لم ينتبه الى هذا •

همس أوجين بافلوفتش يسأل الأمير :

ـ ألا ترى يا أمير أنه مجنون ؟ لقد قيل لى هنا منذ قليل ان الميل الى مرافعات المحاماة وجلسات المحاكم قد فتن عقله وذهب بصوابه وانه يريد أن يتقدم الى امتحان • اننى أتوقع محاكاة مضحكة لمرافعة يتولاها محام من المحامين !

تابع ليبديف كلامه قائلاً بصوت مدوٍ :

ـ اننى أخلص الى نتيجة ضخمة • ولكن يجب أن نحلل قبل كل شىء الوضع السيكولوجى والقضائى لهذا المجرم • اننا نرى أن هذا

المجرم (ولنسمِّه موكلي ان شئتم) ، رغم استحالة عثوره على غذاء آخر، قد أبدى مراراً ، طوال مدة حياته الغريبة ، رغبةً في التوبة وفي العدول عن لحم رجال الدين . وهذا يتجلى واضحاً في وقائع ثابتة : لقد أكل خمسة أطفال أو ستة فيما قيل لنا . صحيح أن هذا الرقم الأخير ضئيل تافة . ولكنه من وجهة نظر أخرى يحمل دلالة بليغة . واضح أن موكّلي قد حاصرته نوبات رهيبة من عذاب الضمير (ذلك أنه كان رجلاً متديناً ، رجلاً ذا وجدان ، أستطيع أن أبرهن على ذلك) : فلقد أراد أن يخفف ذنبه ، في حدود الامكان ، فأحلّ محل النظام الغذائي القائم على أكل لحوم رجال الدين نظاماً غذائياً قائماً على أكل لحوم غير رجال الدين : فعل ذلك ست مرات على سبيل التجربة أو المحاولة . فأما أن ما فعله عندئذ كان تجارب أو محاولات ، فذلك أيضاً أمر لا سبيل الى جحوده . ذلك أنه لو كان لا يريد الا أن يبدل قائمة طعامه من باب التنويع ، لما كان لعدد الستة قيمة ! لماذا كان العدد ستةً ولم يكن ثلاثين ؟ (انني هنا أقسم البشر الذين أكلهم نصفين : نصفاً من رجال الدين ونصفاً من غير رجال الدين) . أما اذا كان الأمر أمر تجربة أو محاولة لم يدفعه اليها الا التألم والجزع من الاعتداء على الدين والاساءة الى الكنيسة ، فان عدد الستة يكون عندئذ معقولاً بل أكثر من معقول . ان ست محاولات يقوم بها لتهدئة ما يعانيه من عذاب الضمير لهي أكثر من كافية ، اذ لا يمكن أن تؤدي الى نتيجة مرضية . أولاً في رأيي لأن الطفل صغير جداً ، أو قولوا هزيل جداً : فلو أكل موكّلي أطفالاً بدلاً من أن يأكل رهباناً خلال مدة معينة لكان عليه أن يبتلع من الأطفال ثلاثة أضعاف بل خمسة أضعاف ما يبتلع من رهبان . وبذلك تكون جريمته قد خفّت من جهة الكيف ، ولكن ثقلت من جهة الكم . لاحظوا أيها السادة أنني اذ أفكر في الأمر على هذا النحو وأناقشه بهذه الطريقة ، انما أضع

ذاتي في الحالة النفسية التي كان عليها انسان القرن الثاني عشر • أما أنا ، رجل القرن التاسع عشر ، فمن الممكن أن أفكّر في الأمر تفكيراً آخر غير هذا التفكير • انني ألفت نظركم الى هذا يا سادتي حتى لا يبقى محل لسخركم مني وتهكمكم عليّ • أما أنت يا جنرال ، فلقد أصبح موقفك غير لائق حقاً • ذلك أولاً ، أما ثانياً فان لحم الطفل ـ وهذا رأي شخصي لي ـ لا يشتمل على غذاء كثير ، وربما كان مذاقه غير لذيذ ، فلا يترك فيمن يأكله الا عذاب الضمير •

« اليكم الآن ، أيها السادة ، النتيجة التي أخلص اليها ، اليكم الخاتمة التي تحل لكم مشكلة من أكبر المشكلات في ذلك الزمان وفي هذا الزمان على السواء • ان المجرم قد انتهى به الأمر الى الوشاية بنفسه للكهنوت ، والمثول بين أيدي السلطة • فلنتصور أنواع التعذيب التي كانت تنتظره في ذلك الزمان ، لنتصور العجلات التي يربط بها ويشد اليها ، لنتصور النيران التي يلقى فيها ! فما الذي دفعه الى الوشاية بنفسه والاعتراف بجريمته ؟ لماذا ، بعد أن وقف عند العدد ستين ، لم يحتفظ بسره الى آخر رمق من حياته ؟ لماذا لم يقتصر على الاستغناء عن أكل لحم الرهبان ، والتكفير عن نفسه بأن يعيش ناسكاً ؟ لماذا لم يصبح راهباً هو نفسه ؟ تلكم هي كلمة السر ! كان هنالك اذن قوة فوق قوة نيران التعذيب ، وفوق قوة العادة التي ترسخت طوال عشرين عاماً ! كان هنالك فكرة أقوى من جميع الكوارث والمجاعات والتعذيب والطاعون والجذام وكل ذلك الجحيم الذي ما كان للانسانية أن تحتمله لولا تلك الفكرة نفسها التي كانت تُخضع القلوب وتوجهها ، وتُخصب ينابيع الحياة ! هيا أروني شيئاً يشبه تلك القوة ، في هذا العصر الذي نعيش فيه ، عصر الرذائل والسكك الحديدية •• كان ينبغي أن أقول: « عصر السفن البخارية والسكك الحديدية » ••• كان ينبغي أن أقول « عصر الرذائل والسكك الحديدية » *، لأنني سكران، ولكنني صادق أقول الحقيقة• أروني في زماننا

هذا فكرة تؤثر في الانسانية نصف التأثير الذى كانت تحدثه تلك الفكرة في ذلك الزمان ! هل تجرؤن أن تقولوا بعد هذا ان ينابيع الحياة لم تضعف ، ولم تضطرب ، تحت ذلك « الكوكب » ، تحت هذه الشبكة التي التفّ بها البشر؟ لا تظنوا أنكم سترهبونني برخائكم وثرواتكم وندرة المجاعات وسرعة وسائل المواصلات ! صحيح أن الثروات أوفر ، ولكن القوى تنقص ! لم يبق ثمة فكر يخلق رابطة بين البشر ! نعم ، اننا جميعاً ، جميعاً ، جميعاً فاسدون !... ولكن كفى ! ليس هذا هو المهم الآن . وانما المهم أن نقدم العشاء الذى أُعدّ لضيوفنا ، أليس كذلك أيها الأمير المحترم جداً ؟

أوشك ليبديف أن يحدث في نفوس بعض سامعيه استياء حقيقياً (يجب أن نذكر أن الحضور استمروا يفتحون الزجاجات أثناء ذلك الوقت كله) . لكنه أسقط في يد جميع خصومه فوراً بهذه الخاتمة غير المنتظرة ، التي تزف بشرى وجبة الطعام ، وهي خاتمة وصفها هو نفسه بأنها « حيلة بارعة يقوم بها محامٍ حاذق لتغيير مجرى قضية » . وتعالت ضحكات فرحات من جديد ، وعاد الحفل الى نشاطه وحميّاه . ونهض الجميع عن المائدة ، وأخذوا يمشون على الرصيف ليحركوا أعضاءهم ويُذهبوا عنها التخدر . وظل كيللر وحده مستاء من خطاب ليبديف ، وانفعل انفعالاً شديداً ، واضطرب اضطراباً كبيراً ، وأخذ يستوقف الضيوف بعضاً وراء بعض ، فيقول لهم بصوت عال :

ــ انه يهاجم الحضارة ، ويمجد تعصب القرن الثاني عشر ؟ وهذا كله تمثيل وتظاهر وتهريج . ان ليبديف لا يملك من طهارة القلب ونظافة اليد أيسر اليسير . قولوا لي : بأى مال أصبح مالكاً لهذا المنزل ؟

وقال الجنرال في الركن المقابل لأشخاص آخرين من الحفل موجهاً الكلام الى بتتسين خاصة وهو يقبض على زر سترته :

ـ لقد عرفت شارحاً حقيقياً لرؤيا القديس يوحنا ، هو المرحوم جريجور سيميونوفتش بورمستروف . كان هذا يُنفذ فى القلوب مايشبه أن يكون سهماً من نار . كان يبدأ أولاً بوضع نظاراته ، ثم يفتح كتاباً كبيراً قديماً مجلداً بجلد أسود . كانت له لحية شائبة ، وكان يزين صدره بوسامين فاز بهما لقيامه بأعمال بر كثيرة . كان يأخذ يقرأ بلهجة شديدة قاسية. وكان الجنرالات ينحنون أمامه وكانت السيدات تقع مغشياً عليها . أما هذا فانه يختم كلامه بالتبشير بعشاء بارد للضيوف ! شيء عجيب !

كان بتتسين أثناءاصغائه الى كلام الجنرال يبتسم محافظاً على هيئةمن يريد أن يتناول قبعته وينصرف . ولكنه كان لا يعزم أمره عليه . وقبل النهوض عن المائدة كان جانيا قد انقطع عن الشراب فجأة ، ودفع الكأس بعيداً عنه ، وطافت بوجهه سحابة فأظلم . حتى اذا نهضوا عن المائدة اقترب من روجوبين وجلس الى جانبه . فلو رآهما راء لاعتقد انهما على خير وفاق ، وأن العلاقات بينهما أحسن ما تكون العلاقات . ان روجوبين الذى أوشك فى البداية أن ينصرف متسللاً بهدوء ورفق ، عدة مرات ، يجلس الآن ساكناً خافض الرأس . كأنه هو أيضاً قد نسى اعتزامه الانصراف متسللاً . انه غارق فى أفكاره . وهو يرفع عينيه فى بعض اللحظات فيتفرس فى جميع الحاضرين واحداً بعد واحد . ان وضعه الآن يحمل على الاعتقاد بأنه قد أرجأ انصرافه بانتظار شيء له عنده شأن خطير .

لم يكن الأمير قد شرب الا كأسين أو ثلاثاً . فكان فرحاً لا أكثر . فلما نهض عن المائدة وقعت عيناه على عينى أوجين بافلوفتش ، فتذكر أن هناك حديثاً يجب أن يجرى بينهما فابتسم هاشاً . فأومأ له أوجين بافلوفتش فجأة بحركة من رأسه ، مشيراً الى هيبوليت الذى كان نائماً على

الديوان والذى كان أوجين بافلوفتش يحدّق اليه فى تلك اللحظة بنظرة فاحصة ٠

ـ قل لى يا أمير ؟ لماذا اندس هذا الصبى فى بيتك ؟

ألقى أوجين بافلوفتش هذا السؤال على الأمير فجأة ، وفى وجهه غضب ظاهر بل وبغض بيِّن ، فلم يسع الأمير الا يُدهش ٠

وأضاف أوجين بافلوفتش يقول :

ـ أراهن أن فى رأسه نيةً مبيتةً وغرضاً سيئاً !

فقال له الأمير :

ـ لقد لاحظت يا أوجين بافلوفتش ، أو خيّل إلىّ ، أنك اهتممت به اليوم كثيراً ، أهذا صحيح ؟

ـ أضف الى ذلك اننى فى الظروف الخاصة التى تحيط بى يجب أن يكون رأسى ممتلئاً بمشاغل أخرى ، لذلك فأنا أول المدهوشين من أننى لم أستطع طوال مدة السهرة أن أحوّل بصرى عن هذه الهيئة المنفّرة الكريهة ٠

ـ ان وجهه جميل ٠٠٠

صاح أوجين بافلوفتش يقول للأمير وهو يجره من ذراعه :

ـ انظر ، انظر ، انظر ٠٠٠

فألقى الأمير على محدّثه نظرة مشدوهة من جديد ٠

الفصل الخامس

إن هيبوليت الذى كان قد نام على الديوان فجأة بعد خطاب ليديف استيقظ الآن منتفضاً ، كان أحداً لكزه فى جنبــه ؟ وارتعش ، وجلس متكئاً على أحد كوعيه ، ونظر فيما حــوله وشحب لونه •

فلما رأى من يحيطون به عبَّر وجهه عن شىء من الجــزع • لكنــه حين ثابت اليه ذاكرته واسترد وعيه ، استحال ذلك الجزع الى ما يشبه الذعر والهول ، فقال مغموماً وهو يمسك يد الأمير :

ـ ماذا ؟ أينصرفون ؟ انتهى ؟ أنقضى كل شىء ؟ هل طلعت الشمس؟ كم الساعة الآن ؟ قل لى كم الساعة الآن ، ناشدتك الله ! لقد نمت • هل نمت مدةً طويلة ؟

أضاف هذه الجملة الأخيرة بلهجة تعبِّر عمــا يكاد يكون ألمًا كبيراً ويأساً شديداً فكأنه قد فاته أثناء النوم أمرٌ يتوقف عليه ويرتبط به مصيره كله على أقل تقدير •

أجابه أوجين بافلوفتش :

ـ نمت سبع دقائق أو ثمانى •

فنظر اليه هيبوليت بشراهة ، وفكَّر بضع لحظات ، ثم قال :

ـ آ ••• فقط ! ••• اذن أنا •••

وتنفس الهواء بقوة كأنه تخلص من حمل ثقيل وعبء هائل. لقد فهم أخيراً أنه « لم ينته كل شيء » ، وأن الفجر لما يسطع بعد ، وأن الحضور لم يقوموا عن المائدة الا ليمضوا الى تناول وجبة العشاء الخفيفة ، وأن الشيء الوحيد الذى انقطع انما هو ثرثرة ليبديف . فابتسم وتخضبت وجنتاه ببقعتين حمراوين تكشفان عما به من مرض السل . ثم لم يلبث أن قال بلهجة ساخرة :

ـ وأنت يا أوجين بافلوفتش ، لقد عددت حتى الدقائق التى قضيتها أنا نائماً ! انك لم تحول بصرك عنى طوال السهرة ... لقد لاحظت ذلك ...

وأردف يهمس فى اذن الأمير ، مقطبا حاجبيه ، مشيراً بحركة من رأسه الى المكان الذين كان يجلس فيه بارفيون سيميونوفتش الى المائدة :

ـ آ ... روجويين ! لقد رأيته الآن فى الحلم ...

وتابع كلامه يقول قافزاً من موضوع الى موضوع فجأة :

ـ آ ... نعم ... أين الخطيب ؟ أين ليبديف ؟ هل انتهى من القاء خطابه اذن ؟ عمَّ تحدث ؟ هل صحيح يا أمير أنك قلت فى ذات يوم ان « الجمال » يمكن أن ينقذ العالم ؟

ثم صاح يقول مُشهداً جميع الحضور :

ـ اشهدوا أيها السادة أن الأمير يدعى أن الجمال سوف ينقذ العالم ! أما أنا فأقول : اذا كان للأمير آراء تبلغ هذا المبلغ من المرح فذلك دليل على أنه عاشق ! أيها السادة ، ان الأمير مولَّه حباً ! لقد أيقنت بهذا منذ دخل علينا قبل مدة قصيرة ! لا تحمرَّ خجلاً يا أمير ، والا أخذتنى بك شفقة ! أى جمال سوف ينقذ العالم ؟ ان كوليا هو الذى نقل الىَّ حديثك

هذا ••• هل أنت مسيحي قوى الايمان ؟ يقول كوليـا انك أنت الذى تنعت نفسك بأنك مسيحى •

تأمله الأمير ملياً ولم يجبه •

فأضاف هيبوليت يقول فجأة بلهجة خشـنة كأن هذه الملاحظة قد فاتته :

ـ ألا تجيب ؟ أتراك تظن أننى أحبك كثيراً ؟

ـ لا ، لا أظن ذلك • أنا أعلم أنك لا تحبنى •

ـ كيف ؟ حتى بعد الذى حدث أمس ؟ لقد كنت صادقاً معك أمس•

ـ أمس أيضاً كنت أعلم أنك لا تحبنى •

ـ هل تعنى أن سبب ذلك هو أننى أحسدك ، هو أننى أغار منك ؟ انك قد ظننت هذا دائمـاً ، وما زلت تظنـه ، ولكن ••• لماذا أكلمك فى هذا ؟ أريد أن أشرب مزيداً من الشمبانيا • يا كيللر ، صب لى شبمانيا !

ـ ما ينبغى أن تشرب أكثر مما شربت يا هيبوليت • لن أدع لك أن تشرب •••

قال له الأمير ذلك ، وأبعد عنه الكأس •

فلم يلبث هيبوليت أن قال موافقاً وقد شرد ذهنه :

ـ صحيح ••• اذا شربت فلا بد أن يقولوا اننى••• ولكن ماشأنى بما قد يقولونه !••• أليس كذلك ؟ هه ؟ ليقولوا فى المستقبل ما شاء لهم هواهم أن يقولوا ، أليس هذا صحيحاً يا أمير ؟ أى ضر يمكن أن يصيبنا، جميعاً ، مما قد يقولونه « بعد »؟ ••• على كل حال ، أنا الآن خارج من حلم • ألا ما كان أفظعه حلماً ! فى هذه اللحظة انما أتذكره • لا أتمنى

لك أحلاماً كهذا الحلم يا أمير ، رغم أننى ربما كنت لا أحبك كثيراً . على كل حال ، اذا كان امرؤ لا يحب شخصاً من الأشخاص فليس حتماً عليه أن يريد له الشر ، وأن يتمنى له الضر ، أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن ما بالى ألقى هذه الأسئلة كلها ؟ فيم هذه الأسئلة جميعها ؟ ناولنى يدك فاشد عليها شداً قوياً . نعم ، هكذا .... هأنت ذا قد مددت الىَّ يدك رغم كل شيء . أنت تشعر اذن أننى أشد عليها صادقاً مخلصاً ... طيب ... لن أشرب أكثر مما شربت . كم الساعة الآن ؟ ولكن لا داعى أن تقولوا لى كم الساعة الآن ... أنا أعرف . لقد دقت الساعة . آن الأوان . أزف الوقت . ماذا ؟ هل تقدمون وجبة العشاء فى ذلك الركن ؟ هل هذه المائدة خالية اذن ؟ عظيم ... أيها السادة ، اننى ... جميع هؤلاء الناس لا يريدون حتى أن يصغوا ... اننى أريد أن أقرأ مقالة يا أمير . صحيح أن وجبة الطعام أهم شأناً وأجل قدراً ، ولكن ...

قال هيبوليت هذا ثم استل من جيبه الجانبى ، بطريقة مفاجئة غير متوقعة ، حزمة عريضة من قياس رسمى ، مختومة بخاتم كبير أحمر ، ووضعها على المائدة أمامه .

أحدثت هذه الحركة المباغتة أثرها فى الحفل ، الذى كان « متهيئاً » ، ولكن ... لا للقراءة .

نهض أوجين بافلوفتش عن كرسيه منتفضاً . واقترب جانبياً من المائدة بحركة سريعة . وتبعه روجويين ، لكنه تبعه مشمئز الهيئة متجهم الوجه كمن يعرف ما مدار القضية وما حقيقة الأمر . وكان ليبديف قريباً فتقدم محملق العينين وأخذ يتفحص الحزمة محاولاً أن يحزر ما تحتويه.

سأله الأمير بلهجة قلقة :

ــ ما هذا الذى معك ؟

صاح هيبوليت يقول :

ـ سأرقد متى طلعت أولى أشعة الشمس يا أمير • لقد قلت ذلك • يميناً • سوف ترى !

ثم أضاف وهو يلقى حوله نظرة تحدٍ كأنه يواجه بها جميع الحضور بغير استثناء :

ـ ولكن ••• ولكن ••• هل تظنون أننى لا أقدر أن أفض هذه الحزمة ؟

لاحظ الأمير أن هيبوليت كان يرتجف بكل جسمه • فتكلم باسم الجميع قائلاً :

ـ لم يدر هذا الخاطر فى ذهن أحد منا ، فلماذا تنسبها الينا وتظن أننا ••• ثم ما أغرب هذه الفكرة التى تراودك ، وهى أن تقرأ لنا مقالة ؟ ماذا بك يا هيبوليت ؟

وتساءل بعضهم من حوله :

ـ ما هذا ؟ ماذا دهاه أيضاً ؟

واقترب الجميع ، وكان بعضهم قد بدأ يأكل • ان الحزمة وخاتمها الأحمر يجذبان الضيوف كالمغناطيس •

قال هيبوليت يخاطب الأمير :

ـ هذا ما كتبته بنفسى أمس ، بعد أن قطعت لك عهداً بأن أجىء اليك لأقيم عندك يا أمير • قضيت فى كتابته طول النهار والليل ، وأنهيته فى هذا الصباح • لقد رأيت حلماً قبل مطلع الصبح •••

قاطعه الأمير يقول فى خجل ووجل :

ـ أليس الأفضل أن ترجيء القراءة الى غد ؟

فردّ عليه هيبوليت قائلاً وهو يضحك ضحكة ساخرة متشنجة :

ـ غداً « لا يكون قد بقي وقت » . ولا تخف على كل حال ، فان القراءة ستستغرق أربعين دقيقة ، أو ساعةً في أكثر تقدير . انظر الى اهتمام الجميع بالأمر : ان كل واحد يقترب ، وان كل واحد ينظر الى حزمتي المختومة . لولا أنني وضعت المقالة في حزمة مختومة لما أثارت أي اهتمام ، ولما أيقظت في نفس أحد أي فضول . هأ هأ ! هذه جاذبية السر !...

ثم هتف يقول ضاحكاً ضحكته الخاصة ، طائفاً على الحضور بنظرات عينيه المتقدتين :

ـ أأفض أم لا أفض أيها السادة ؟ سر ! سر ! هل تتذكر يا أمير من ذا الذي أعلن أنه « لن يكون قد بقي وقت » ؟ انه الملاك الكبير القوى الذي تحدثنا عنه رؤيا يوحنا .

هتف أوجين بافلوفتش فجأة يقول وقد ظهر عليه قلق بلغ من الشدة أنه خطف انتباه كثير من الأشخاص :

ـ الأفضل أن لا تقرأ !

وصاح الأمير يقول أيضاً وهو يضع يده على الحزمة :

ـ لا تقرأ !

وقال أحدهم :

ـ ماذا ؟ الآن نقرأ ؟ اننا نريد أن نتعشى !

وسأل آخر :

ـ مقالة ؟ لا بد أنها مقالة لمجلة ، هه ؟

وسأل الآخرون :

ـ ولكن ما الأمر ، ما المسألة ؟

ان حركة التخوف التى بدرت من الأمير قد أرهبت حتى هيبوليت نفسه ! فقال يسأل الأمير همساً ، بلهجة خائفة ، بينما كانت تلمُّ بشفتيه المزرّقتين ابتسامة متصعِّرة :

ـ ألا أقرأ اذن ؟...

ثم دمدم سائلاً وهو يتفحص حوله جميع الأعين وجميع الوجوه ، محاولاً أن يشدّ اليه الناس ، كما فعل منذ لحظة ، شاعراً بحاجة شرهة الى البوح والافضاء :

ـ ألا أقرأ اذن ؟

وعاد يلتفت نحو الأمير مرة أخرى ويسأله :

ـ أأنت ... خائف ؟

فأجابه الأمير وكانت سحنته تنقلب وتتغير من دقيقة الى أخرى :

ـ ممّ أخاف ؟

فما كان من هيبوليت الا أن وثب عن مكانه على حين فجأة ، كأنه انتُزع من كرسيه انتزاعاً ، وصاح يسأل :

ـ هل يعطينى أحد قرشاً ؟ هل مع أحد منكم قطعة نقدٍ بعشرين كوبكاً ؟

فأسرع ليبديف يناوله قطعة النقد قائلاً .

ـ خذ !

لقد استولى على ذهن ليبديف أن المريض فقد عقله وأصابه جنون.

وسرعان ما صاح هيبوليت منادياً :

ـ فيرا لوكيانوفا . أمسكي هذا القرش وارميه على المائدة ، ثم انظري : هل سقط على وجهه أم على قفاه . فان سقط على قفاه قرأت !

نظرت فيرا ، مذعورةً ، الى القرش فالى هيبوليت فالى أبيها ، ثم رفعت رأسها لاعتقادها بأن عليها أن لا ترى القرش ، ورمته على المائدة بحركة خرقاء . لقد سقط القرش على قفاه .

فدمدم هيبوليت يقول وكأن قرار الحظ هذا قد سحقه سحقاً :

ـ يجب أن أقرأ .

ما كان لهيبوليت أن يصطبغ وجهه بهذه الصفرة الرهيبة ولو سمع قرار الحكم عليه بالاعدام .

هتف يقول مرتعشاً بعد نصف دقيقة من صمت :

ـ ما معنى هذا على كل حال ؟ كيف أمكن أن أقامر بمصيري ؟.

وألقى على الحضور نظرة دائرة تفصح عن تلك الرغبة نفسها في البوح والافضاء ، وفي التماس الانتباه والاهتمام . ثم التفت نحو الأمير فجأة وهتف يقول بلهجة فيها دهشة صادقة :

ـ هذه سمة غريبة من سمات النفس يا أمير ...

وكرر يقول منتعشاً بلهجة انسان ثاب الى نفسه :

ـ سجِّل هذا وتذكَّره ، ما دمتَ تجمع معلومات ومستندات عن الحكم بالاعدام ، فيما قيل لي ... لقد قيل لي هذا ... هأ هأ !... هه.. يا للسخف !..

وجلس على الديوان ، وأسند كوعيه الى المائدة ، وأمسك رأسه بين يديه ، وتابع يقول :

ـ بل ••• ويا للعار !••• ولكن ما يضيرني أن يكون في هذا عار !•••

وسرعان ما رفع رأسه فقال كمن انصاع لقرار مفاجيء :

ـ أيها السادة ، أيها السادة ••• انني أفض حزمتي ، و •• و •• لا أجبر أحداً على الاصغاء !

وبيدين مرتعشتين من شدة الانفعال فضَّ الحزمة وأخرج منها ورقات من ورق الرسائل ، مطرزةً بكتابة صغيرة دقيقة ، فوضعها أمامه وأخذ يفتحها •

دمدم عدد من الحاضرين يقولون عابسين :

ـ ما هذا ؟ ماذا هنالك ؟ ماذا يُراد أن يُقرأ علينا ؟

ولزم آخرون الصمت ، ولكن الجميع ظلوا جالسين يرقبون المشهد باهتمام واستطلاع • لعلهم كانوا ينتظرون وقوع حادث خارق فعلاً • وقد تشبثت فيرا بكرسي أبيها ، وكانت تشعر بخوف يبلغ من الشدة أنها لا تكاد تستطيع أن تحبس دموعها • ولم يكن كوليا أقل ارتياعاً • أما ليبديف الذي كان قد جلس ، فانه نهض فجأة ، فتناول شموعاً وقرَّبها من هيبوليت ليستطيع هيبوليت أن يقرأ بوضوح أكبر •

أضاف هيبوليت يقول ، لا يدري المرء لماذا :

ـ أيها السادة ، هذا ••• سوف ترون ما هذا فوراً •••

ثم انتقل الى القراءة رأساً بلا تمهيد ، فقرأ : « شرح لا غنى عنه » تصدير : « من بعدي الطوفان » * • لكنه لم يلبث أن قال بلهجة من شعر بنار تلسعه : أف ••• كيف أمكن أن أصدِّر مقالتي بقول يبلغ هذا المبلغ من الغباء والحمق ؟••• ثم اتجه الى الحضور فقال لهم :

ـ اسمعوا أيها السادة !... أؤكد لكم أن هذا كله قد لا يكون فى آخر حساب الا تفاهات وترهات شنيعة !... ما هذه الا خواطر جالت فى رأسى أنا ... فاذا كنتم تتوقعون شيئاً سرياً أو ... محظوراً ، أى..

فقاطعه جانيا قائلاً :

ـ الأفضل أن تقرأ بغير تمهيد ...

وأضاف آخر يقول :

ـ انه يلف ويدور .

وقال روجويين الذى ظل أخرس حتى ذلك الحين :

ـ هذا بعينه ما يسمى هذراً وثرثرة !

فنظر اليه هيبوليت فجأة . فلما أن التقت نظرتاهما ابتسم روجويين ابتسامة مرة لاذعة ، ثم نطق بهذه الأقوال الغريبة :

ـ ما هكذا يجب التصرف ، فى هذه القضية ، أيها الصبى ، لا ..

ما من احد فهم ما يعنيه روجويين طبعاً . ولكن جملته أحدثت فى الحضور تأثيراً خاصاً : لكأن فكرة واحدة ساورت أذهانهم جميعاً . أما فى هيبوليت فقد أحدثت هذه الجملة تأثيراً رهيباً : أخذ يرتجف ارتجافاً بلغ من القوة أن الأمير هم أن يمد نحوه يديه ليحميه من السقوط ؟ وكان لا بد ان يصرخ حتماً لولا أن ظل صوته محبوساً فى حلقه . ولبث دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق بكلمة . كان يتنفس بمشقة ، ولا يحول عن روجويين بصره . فلما استطاع أخيراً أن يسترد أنفاسه بجهود كبيرة نطق يقول مجمجماً :

ـ اذن أنت ... الذى ... أنت الذى ...

ـ الذى ماذا ؟

كذلك سأله روجويين بهيئة من لم يفهم •

ولكن هيبوليت احمر احمراراً شديداً ، وصرخ يقول بصوت كاسر وحشي ، يدفعه اليه نوع من حنق مسعور مفاجيء :

ـ « أنت » الذي جئت الىّ في الأسبوع الماضي ، ليلاً ، بعد الساعة الواحدة ، غداة ذلك اليوم الذي زرتك فيه • هو « أنت » ! اعترف بذلك : أأنت أم لا ؟

ـ الاسبوع الماضي ؟ ليلاً ؟ أتراك فقدت عقلك أيها الصبي ؟

سكت « الصبي » لحظةً أخرى ، ثم رفع ابهامه الى جبينه كمن يستجمع خواطره • ولكن تعبيراً عن المكر وحتى عن الفوز برز في وجهه فجاة من تحت ابتسامته الصفراء التي جمّدها الخوف • وكرر يقول بصوت يكاد يكون همساً ، ولكن بلهجة فيها اقتناع كامل مطلق :

ـ أنت ! « أنت » جئت الىّ ! لبثت جالساً على كرسي قرب النافذة ساعةً بل أكثر من ساعة : كان ذلك بين منتصف الليل والساعة الثانية • وانصرفت قبل الساعة الثالثة ••• نعم ، أنت أنت ! لماذا أخفتني ؟ لماذا جئت تعذبني ؟ انني لا أفهم هذا ••• ولكنك أنت الذي جئت الى !•••

واشتعل في نظرته وميض بغض على حين فجأة ، ولكنه ظل يرتعد هلعاً • وقال :

ـ فوراً أيها السادة ، ستعلمون كل شيء ••• انني ••• انني ••• أصغوا اليّ •••

وأسرع يتناول أوراق مخطوطته التي كانت قد تحركت من مكانها وتبعثرت ، فأخذ يحاول ترتيبها • وكانت الأوراق ترتعش بين أصابعه المرتجفة ، فقضى في ترتيبها وقتاً •

غمغم روجويين يقول بصوت لا يكاد يُفهم :

ـ اما أنه مجنون ، واما أنه يهذى ...

وبدأت القراءة أخيراً . ففى الدقائق الخمس الأولى لقى كاتب «المقالة» التى لم تكن فى الحسبان ، لقى عناءً كبيراً فى استرداد أنفاسه ، فكان يقرأ قراءة مفككةً متفاوتة . لكن صوته ثبت وقوى شيئاً بعد شىء ، فاستطاع أن يؤدى معنى ما كان يقرؤه اداءً كاملاً . كل ما هنالك أن سعالاً شديداً كان يقطع القراءة من حين الى حين ؛ ولما وصل من القراءة الى نصفها كان صوته قد أصيب ببحةٍ قوية . وكانت حماسته تشتد مزيداً من الاشتداد لحظة بعد لحظة حتى بلغت الذروة ، وكان الاحساس الأليم الذى يحدثه فى نفوس مستمعيه يقوى لحظةً بعد لحظة بتلك السرعة نفسها . واليكم نص المقالة كاملاً :

« شرح لا غنى عنه »

« من بعدى الطوفان »

« فى صباح أمس ، جاءنى الأمير . فاقترح علىّ ، فيما اقترح ، أن أقيم عنده فى الفيللا . كنت أعلم أنه لن يفوته أن يلحّ على هذه النقطة . كنت على يقين من أنه سيقول لى فوراً « ان الأفضل لى أن أموت محاطاً بالناس والأشجار » ، على حد تعبيره . لكنه فى هذا اليوم لم يستعمل كلمة « أموت » ، بل قال « ان الأفضل لى أن أعيش هناك » ، والأمران فى حالتى أمر واحد على كل حال . سألته ماذا يعنى بكلمة « الأشجار » التى يكثر من استعمالها هذا الاكثار ، ولماذا يصدّع أذنى بها دائماً . فما كان أشد دهشتى حين سمعته يجيبنى بأننى أنا الذى صرحت فى مساء فائت بأننى انما جئت الى بافلوفسك لأرى الأشجار مرةً أخيرة فذكرت له أنه يستوى عندى تماماً أن أموت تحت الأشجار أو أن أموت وأنا أنظر

الى حائط من الآجر أمام نافذتى • فلا حاجة بى الى هذا العناء كله والى هذا الاحتفال كله فى سبيل أسبوعين اثنين بقيا لى فى هذه الحياة • فسرعان ما وافقنى على هذا الرأى ، لكنه قدّر أن الخضرة والهواء الطلق سيؤثران فى حالتى الجسيمة تأثيراً حسناً ولا ريب ، وسيبدّلان « أحلامى » وسيغيّران نتائج فرط اهتياجى حتى لقد يجعلانها محتملة • فاعترضت عليه من جديد وقلت له ضاحكاً انه يتكلم كما يتكلم رجل مادى المذهب• فأجابنى وهو يبتسم ابتسامته المألوفة بأنه كان دائماً مادى المذهب• واذ أنه رجل لا يكذب ، فلا شك أن قوله هذا ليس كلاماً جزافاً ألقاه فى الهواء • ان ابتسامته طيبة • وقد أنعمت النظر فيه عندئذ بمزيد من الانتباه • لا أدرى أأنا الآن أحبه أم لا أحبه • ولا يتسع وقتى الآن لأن أصدّع رأسى بمثل هذا السؤال • ان الكره الذى كنت أحمله له منذ خمسة أشهر ـ لاحظوا هذا ـ قد أخذ يهبط هبوطاً تاماً أثناء هذا الشهر الأخير • من يدرى ؟ لعلنى لم أذهب الى بافلوفسك الا فى سبيل أن أراه • ولكن ••• لماذا تركت غرفتى اذن ؟ ان المحكوم عليه بالاعدام يجب أن لا يبارح الركن الذى هو فيه • فلو أننى لم أتخذ قراراً حاسماً ، لو أننى ـ على عكس ذلك ـ أذعنت لفكرة انتظار ساعتى الأخيرة، اذن لما رضيت أن أجىء « أموت » عنده فى بافلوفسك •

« يجب أن أسارع لأنهى هذا « الشرح » كله حتماً قبل الغد • معنى ذلك أننى لن أملك من الوقت ما يتيح لى اعادة قراءته ويسمح لى بتصحيحه وتنقيحه • سوف أعيد قراءته غداً حين أقرؤه على الأمير وعلى شاهدين أو ثلاثة شهود آمل أن أجدهم عنده • واذ أن هذا الكلام لن يشتمل على كلمة واحدة ليست هى الحقيقة الصافية العليا الصريحة، فاننى ليهمنى كثيراً أن أعرف الاحساس الذى سأشعر به أنا نفسى حين سأقرؤه عليهم • على اننى أخطأت اذ كتبت هذه الكلمات : « الحقيقة العليا

الصريحة » ، فان حياة لن تدوم الا خمسة عشر يوماً لا تستحق أن يحياها المرء (حاشية ـ هذه فكرة يجب أن لا تغيب عن البال : ألست مجنوناً في هذه اللحظة ، أو قولوا في بعض اللحظات ؟ لقد أكد لي بعضهم أن المرضى بداء السل ، حين يصلون الى آخر مرحلة من مراحل مرضهم ، تختل عقولهم في بعض اللحظات . يجب التثبت من هذا غداً بالأثر الذي تخلفه في نفوس السامعين قراءة هذا الكلام . هذه مسألة يجب أن تُحلَّ أدق حل مهما كلف الأمر . وبدون ذلك لا يستطيع المرء أن يشرع في شيء أو أن يعمل شيئاً) .

« يخيل الي أنني قد كتبت الآن سخافة كبيرة . غير أن وقتي لا يتسع للتصحيح ، كما سبق أن قلت ذلك من قبل . ثم انني أتعهد لنفسي عامداً أن أترك هذه المخطوطة خالية من أية تصحيح ، حتى ولو لاحظت أنني أناقض نفسي بنفسي كل خمسة أسطر . فانما أريد أن أمتحن منطقَ تفكيري ، وأن أتأكد من انني ألاحظ أخطائي ، غداً عند القراءة . فبذلك أعرف هل الأفكار التي أنضجتها في هذه الغرفة خلال هذه الأشهر الستة ، حقيقة صادقة أم هذيان باطل .

« لو وجب علي ، منذ شهرين ، أن أهجر غرفتي هجراً تاماً ، كما سأفعل الآن ، وأن أودع حائط ماير ، لكنت شعرت بحزن حتماً . أما الآن فقد أصبحت لا أشعر بشيء رغم أن علي أن أترك هذه الغرفة وهذا الحائط « الى الأبد ! » . معنى هذا أن كياني يستحوذ عليه الآن اقتناع بأن حياة أسبوعين لاتستحق أن تمتلىء نفس المرء فيها بمشاعر الأسف والحسرة، وأن ينقاد المرء أثناءها لأي عاطفة من العواطف . ولعل جميع حواسي أصبحت تخضع لهذا الاقتناع منذ الآن . ولكن هل هذا صحيح حقاً ؟ هل صحيح أن طبيعتي قد تم لي قهرها وتحققت لي السيطرة عليها ؟ لو أُنزل بي تعذيب في هذه اللحظة لأخذت أصرخ حتماً ، ولما قلت ان المرء ماينبغي

له أن يصرخ ولا أن يشعر بالألم اذا لم يكن قد بقى له من الحياة الا خمسة عشر يوماً .

« ومع ذلك ، هل صحيح أننى لم يبق لى من الحياة الا خمسة عشر يوماً لا أكثر ؟ ان ما رويته فى بافلوفسك كان كذباً : ان « ب .. ن » * لم يقل لى شيئاً البتة ، حتى انه لم يرنى فى يوم من الأيام . غير أننى قد جىء لى منذ اسبوعين بالطالب كيسلورودوف . انه شاب مادى المذهب ، ملحد ، عدمى . ومن أجل هذا انما طلبت أن يؤتى به الىّ . كنت فى حاجة الى انسان يقول لى أخيراً الحقيقة صافية صريحة بلا مداراة أو مراعاة ، وبلا تصنع أو تكلف . وذلك ما فعله . ولم يفعله متعجلاً بغير لف ودوران فحسب ، بل فعله وهو يشعر بلذة ظاهرة واضحة أيضاً (لذة جاوزت الحدود فى رأيى) . لقد أعلن لى بغلظة وقسوة اننى قد بقى لى من الحياة نحو شهر ؛ وربما طال عمرى أكثر من ذلك قليلاً اذا ساعدت الظروف ، ولكن قد يكون ما بقى لى من عمر أقل كثيراً من شهر . وهو يرى أن من الجائز أن أموت على حين غرة ، فى غد مثلاً . فهذا أمر رئى مثله . فأمس الأول كانت سيدة شابة مصابة بداء السل ، وهى تقطن حى كولومنا وتشبه حالتها حالتى ، كانت تتهيأ للذهاب الى السوق من أجل أن تشترى مؤناً لها ، فاذا هى تشعر فجأة باعياء ، فلما اضطجعت على أريكة لترتاح زفرت زفرة وأسلمت روحها . لقد روى لى كيسلورودوف هذه التفاصيل كلها وهو يتصنع نوعاً من عدم التأثر وقلة الاكتراث ، كأنه يشرّفنى بأن يعدّنى ، أنا أيضاً ، رجلاً متفوقاً يذهب مذهب الجحود مثله ، ولا يؤلمه البتة أن يبارح هذه الحياة . المهم أن هناك أمراً أصبح ثابتا هو أن ما بقى لى من حياة لا يزيد عن شهر ! فأنا مقتنع بأنه من هذه الناحية لم يخطىء .

« ولقد دُهشت كثيراً حين حزر الأمير أننى أرى أحلاماً ثقيلة ،

وانني اعاني أثناء النوم من كوابيس • فقال ما نصه حرفاً حرفاً « ان نتائج فرط اهتياجي وأحلامي ستتغير في بافلوفسك • لماذا تكلم عن أحلامي ؟ نعم ، انه طبيب ، أو انه يملك فكراً ذا نفاذ خارق قادر على أن يحزر أموراً كثيرة (وأما أنه رغم كل شيء « أبله » ، فهذا لا مجال للشك فيه) • والحق انني قبل وصوله بقليل كنت قد رأيت حلماً جميلاً (من تلك الأحلام التي أرى في هذه الآونة مئات منها !) • كنت قد نمت قبل زيارته بساعة فيما أظن ، فرأيتني في غرفة ليست غرفتي • انها أرحب من غرفتي سعةً ، وأعلى سقفاً ، وأحسن أثاثاً ، ويدخلها النور • الأثاث يتألف من خزانة للملابس ، ومنضدة ذات أدراج ، وديوان ، وسرير • والسرير واسع عريض ، له غطاء أخضر من حرير مضلّع • واني لفي هذه الغرفة اذا أنا أرى حيواناً مرعباً لا عهد لي بمثله ، فهو ليس من الحيوانات الطبيعية • انه يشبه عقرباً ، ولكنه ليس بعقرب • هو شيء أبشع من العقرب وأشنع وأدعى الى النفور وأبعث على الاشمئزاز • واعتقدت أن ثمة سراً في عدم وجود حيوانات من هذا الجنس في الطبيعة ، وفي أن واحداً منها قد ظهر عندي مع ذلك « خصيصاً » ! تفحصت الحيوان ملياً : هو نوع من الزواحف ، يكسوه درع كدرع السلحفاة داكن ، يبلغ طوله نحو عشرين سنتيمتراً ، ويبلغ سمك رأسه اصبعين ، ولكن جسمه يستدق تدريجياً حتى الذنب فلا يكاد يبلغ سمك ذيله نصف سنتمتر • وعلى بعد خمسة سنتمترات من الرأس تخرج من جسمه قدمان يبلغ طول كل منهما عشرة سنتمترات ، وتنفرجان بزاوية قدرُها خمس وأربعين درجة • فاذا نظرتَ من فوق ، ظهر لك الحيوان كله في صورة من ذات ثلاثة أفرع • لم أر رأسه رؤية واضحة جداً ، ولكنني لاحظت في الرأس مجسّين قصيرين جداً ، دكناوين هما أيضاً ، يشبهان ابرتين ضخمتين • وفي آخر الذيل يُرى مجسّان مماثلان ، وكذلك في نهاية كل قدم •

فيكون مجموع المجسّات ثماني . وكان الحيوان يجري جرياً سريعاً جداً في أرجاء الغرفة كلها ، مستعيناً بقدميه وذنبه ؟ وفيما هو يجري ، يتلوى جسمه وتتلوى أعضاؤه كحية من الحيات بسرعة خارقة ، رغم الدرع الذي يكسو ظهره . منظر مروّع رهيب . خفت خوفاً فظيعاً من أن يلسعني هذا الحيوان ، فقد قيل لي انه سام . غير أن ما كان يعذبني أكثر من أي شيء آخر هو أن أعرف من الذي أرسله الى غرفتي ، وما هي المكيدة التي تُدبَّر لي ، وماذا وراء هذا السر . وكان الحيوان يختبىء تحت المنضدة ذات الأدراج ، وتحت خزانة الملابس ، ويعتصم بأركان الغرفة . جلست على كرسي وثنيت ساقيّ تحتي . وأسرع الحيوان يقطع الغرفة على مسار مائل ، ويختفي في مكان ما قرب الكرسي الذي أجلس عليه . بحثت عنه بعينيّ مرتاعاً ، لكنني وقد جعلت ساقيّ تحت جسمي ، كنت آمل أن لا يتسلق الكرسي . فاذا أنا أسمع ورائي زفيراً خفيفاً قرب نقرتي . فالتفت فاذا أنا أرى الحيوان الزاحف يتسلق الجدار . وكان قد وصل من تسلقه الجدار الى مستوى رأسي ، حتى لقد لامس شعري بذنبه الذي كان يتموج بخفة قصوى . فما كان مني الا أن وثبت ، فاختفى الحيوان الغريب . لم أجرؤ أن اضطجع على السرير ، خشية أن يتسلل فيندس تحت المخدة . وعندئذ دخلت الغرفة أمي وامرأة أخرى من صاحباتها لا أعرفها . وأخذتا تطاردان الحيوان الزاحف . كانتا أهدأ مني ، بل كان لا يظهر عليهما أي رعب ، ولكنهما لم تفهما من الأمر شيئاً . وفجأة ظهر الحيوان العجيب من جديد . فكان في هذه المرة يزحف بحركة بطيئة جداً كأنه يضمر نيةً خاصة . ان تلوياته التي تتم على قلة الاكتراث تزيد منظره الآن بشاعة ، وتجعله أبعث على الاشمئزاز . وقطع الغرفة من أولها الى آخرها كالمرة الأولى ، متجهاً نحو العتبة . وفي تلك اللحظة فتحت أمي الباب ، ونادت كلبتنا نورما . ان نورما كلبة

سوداء جعداء الشعر ، ماتت منذ خمس سنين • هرعت الكلبة الى الغرفة ووقفت أمام الحيـوان كالمتجمدة رعبـاً ، وتوقف الحيوان هو أيضـاً عن التقدم ، لكنه ظل يتلوى ويضرب أرض الغرفة بقدميه وطرف ذيله • ان الحيوانات لا تستبد بها مخاوف غيبيـة فيما أظن • ولكن بدا لى فى تلك اللحظة أن فى ارتياع نورما شيئاً غريباً كل الغـرابة ، غيبيـاً الى أبعـد الحدود • فكأنها أدركت مثلى أن ظهور هذا الحيوان أمر يشتمل على سر وينذر بشؤم • فتقهقرت ببطء بينما أخذ الحيوان يتقدم محـاذراً بخطى محسوبة معدودة • كانت هيئته تدل على أنه يستعد للوثوب على الكلبة من أجل ان يلسعها • ولكن نورما ، رغم ذعرها ورغم أن جميع أعضـائها كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً ، حدقت الى الحيوان بعينين تفيضان حنقاً • وأخذت فى لحظة من اللحظات تكشف عن أنيابها المموَّجة الرهيبة شيئاً بعد شيء ، ثم فتحت بوزها الضخم الأحمر ، ووثبت الى أمام ، فانقضت على الحيوان بعزم شديد ، وتلقفته بأسنانها • ويبدو ان الحيوان بذل جهداً كبيراً من أجل أن يخلص نفسه ، لأن نورما انقضت عليه ثانية وتلقفته بفكيها مرتين كأنها تحاول أن تبلعه • وقرقع الدرع متكسراً تحت أسنانها، وظل ذيل الحيوان وقدماه فى خارج فمها تتحركان تحركاً مرعباً • وفجأة صرخت نورما صرخة توجع وشكوى • فقد استطاع الحيوان أن يلسع لسانها رغم كل شيء • وانفرجت أنياب الكلبة وهى تئن من الألم ، فرأيت الحيوان فى فمها شبه مهشم وما يزال يتخبط ؛ ومن جسمه المبتور يسيل على لسان الكلبة سائل أبيض غزير يشبه السائل الذى يخرج من خنفساء حين تُسحق ••• وفى تلك اللحظة انما استيقظت من نومى ودخل علىَّ الأمير » •

هنا قطع هيبوليت قراءته فجأة وكأنه يشعر بخجل :

ــ اننى أيها السـادة لم أرجع المقـالة ، ويخيَّل الىَّ اننى ضمنتها

أشياء كثيرة لا داعي اليها ولا فائدة منها ، اعترف بذلك !... ان هذا الحلم ...

فأسرع جانيا يقول :

ـ اعترافك صحيح .

ـ انني أسلِّم بأن ههنا احساسات شخصية كثيرة مسرفة في الكثرة ... أقصد : احساسات لا علاقة لها الا بشخصي ...

حين قال هيبوليت ذلك كان يبدو عليه الاعياء والارهاق ، وكان يجفف عرق جبينه بمنديله .

قال ليبديف بصوت صافر :

ـ صحيح أيها السيد ! انك مفرط في الاهتمام بنفسك !

ـ ولكني أعود فأكرر أيها السادة أنني لا أجبر أحداً على الاصغاء فالذين لا يريدون أن يسمعوا يستطيعون أن ينسحبوا ...

جمجم روجوين يقول بصوت لا يكاد يُدرَك :

ـ يطرد الناس ... من بيت غيره !

وانبرى فردشتشنكو يقول بعد أن لم أن يتجاسر أن يرفع صوته حتى ذلك الحين :

ـ فما قولك اذا نهضنا جميعاً لننصرف ؟

فخفض هيبوليت عينيه وأمسك مخطوطته . ولكنه لم يلبث أن رفع رأسه فوراً . كانت حدقتاه تسطعان ، وكانت وجنتاه مصطبغتين ببقعتين حمراوين . حدَّق الى فردشتشنكو وقال له :

ـ أنت لا تحبني البتة !

فانطلقت ضحكات ، لكن أكثر الحضور لم يستجيبوا لها . واحمر هيبوليت احمراراً رهيباً .

قال الأمير :

ـ يا هيبوليت ، لمَّ أوراقك واعطنيها • واذهب الى النوم ، هنا فى غرفتى • ستتحدث قبل أن تنام وسنستأنف الحديث غداً ، ولكن على شرط أن لا تعود الى هذه الأوراق • هل تريد ؟

قال هيبوليت وهو يلقى عليه نظرة تعبر عن الدهشة حقاً :

ـ أهذا ممكن ؟

وأضاف يقول صائحاً وقد استبدت به نوبة جديدة من اهتياج محموم :

ـ أيها السادة ، لم يكن ما قرأته عليكم الا جزءاً عرضياً تافهاً من قصتى ، جزءاً لم أستطع أن أسيطر فيه على نفسى وأتحكم بقلمى • لن أقطع قراءتى بعد الآن • فمن أراد أن يصغى فليصغ •••

قال ذلك وأسرع يبلع جرعة ماء ، ويضع كوعيه على المائدة ليتحاشى النظرات ، واستأنف يقرأ فى عناد • على أن خجله لم يلبث أن تبدّد ••

« ان الفكرة التى تذهب الى أن الحياة التى لن تدوم الا بضعة أسابيع لا تستحق من المرء أن يحياها ، انما أخذت تحاصرنى منذ شهر فيما أظن ، وذلك حين أصبحت أقدّر أننى لم يبق لى من الحياة الا أربعة أسابيع • ولكنها لم تستحوذ علىّ استحواذاً كاملاً الا منذ ثلاثة أيام ، فى ذلك المساء الذى عدت فيه من بافلوفسك •

« لقد شعرت بنفاذ هذه الفكرة الى أعمق أعماق نفسى أولَ مرة ، يومَ كنت جالساً على الشرفة فى بيت الأمير فقررت أن أجرّب الحياة تجربة أخيرة • كنت قد أردت أن أرى الناس والأشجار (لنسلّم باننى أنا الذى استعملت هذا التعبير) • وكنت قد تحمست مدافعاً عن بودروفسكى « قريبى » ، متوهماً أن جميع الحضور سيفتحون لى أذرعهم

ويعانقوننى ، وأنهم سيسألوننى الصفح والعفو ، وأننى سأسألهم مثل ذلك أيضاً • باختصار : لقد انتهيت من كلامى غبياً بليداً بلا عبقرية • وعندئذ إنما انكشف فى نفسى ذلك « الاقتناع الكامل » • وانى لأتساءل الآن كيف أمكن أعيش ستة أشهر بكاملها دون أن يتحقق لى ذلك «الاقتناع» ! لقد كنت أعلم علم اليقين اننى مصاب بسل لا شفاء منه ؟ لم أكن مأخوذاً بوهم الصحة والعافية ، بل كنت أرى حالتى رؤية واضحة لكننى كنت ازداد نهماً الى الحياة على قدر ازدياد الوضوح فى معرفة واقعى ورؤية حالتى • كنت أتشبث بالحياة مزيداً من التشبث ، وكنت أريد أن أطيلها على أى نحو من الأنحاء • اعترف باننى لعلنى سخطت حينذاك على القدر الغاشم المظلم ، الذى كان أعمى عن رؤية وضعى وكان أصمّ عن سماع صوتى ، والذى قرر ـ لا أدرى لماذا ـ أن يسحقنى سحق ذبابة • ولكن لماذا لم أكتف بالسخط وحده ؟ لماذا « بدأت » أعيش فعلاً ، مع أننى كنت أعلم أن ذلك غير مباح لى ؟ لماذا انقدت لتلك المحاولة وأنا أعرف أنها لن تثمر ؟ ومع ذلك انتهى بى الأمر الى أن أصبحت لا أستطيع أن أقرأ كتباً ، وعدلت عن القراءة • علام أقرأ ؟ علام أتعلم ولم يبق لى من الحياة الا ستة أشهر ؟ ان هذه الفكرة قد جعلتنى أرمى عدة مرات الكتاب الذى بدأت قراءته •

« نعم ، ان حائط منزل ماير ذاك يستطيع أن يحدّث طويلاً عن هذه الأمور • لقد طبعت عليه أشياء كثيرة • ليس على هذا الحائط القذر بقعة واحدة الا حفظتها على ظهر القلب وصرت أعرفها بالذاكرة • يا للحائط النحس ! ومع ذلك فهو أغلى فى نفسى وأحب الى قلبى من جميع أشجار بافلوفسك ، أو قل لا بد أن يكون كذلك لولا أن جميع الأمور أصبحت فى نظرى سواء !

« اننى أتذكر الآن شدة اهتمامى الشره النهم بمتابعة حياتهم «هم»•

لم أشعر قبل ذلك بمثل ذلك الفضول فى يوم من الأيام . حتى لقد كنت أنتظر عودة كوليا على أحرّ من الجمر من نفاد الصبر وشدة الغضب فى بعض الأحيان ، أيامَ بلغ بى المرض حداً أقعدنى عن الخروج فلا أستطيع أن أغادر غرفتى . وأخذت أتسقط التفاصيل الصغيرة تسقطاً يبلغ من الشراهة ، وأهتم بالأقاويل التافهة اهتماماً يبلغ من القوة ، اننى أصبحت فيما أعتقد كواحد من أولئك الذين يروّجون الشائعات ويذيعون النمائم. كنت لا أفهم مثلاً كيف لا يظفر الناس الذين يملكون كل ما يملكون من حياة ، كيف لا يظفرون بالغنى والثراء (والحق اننى الى الآن لا أفهم هذا) . لقد عرفت رجلاً عجيباً مسكيناً قيل لى ، فيما بعد ، انه مات من الجوع . انى لأتذكر كيف أن هذا النبأ أثار غضبى وأخرجنى عن طورى ، فلو بُعث ذلك الشقى حياً لانقضضت أجهز عليه فى أغلب ظنى.

« كان يتفق لى فى بعض الأحيان أن أشعر بتحسن فى صحتى خلال أسابيع طويلة ، فأستطيع أن أنزل الى الشارع . غير أن الشارع أصبح يثير حنقى حتى صرت أقبع فى بيتى بارادتى أياماً كاملة ، رغم أننى كان فى وسعى أن أخرج كما يخرج سائر الناس . أصبحت لا أطيق أن أرى أولئك الخلق الذين يسعون ويضطربون من حولى على الأرصفة ، ويغورون ويغلون ، مهمومين مغمومين دائماً ، متجهمين قلقين بغير انقطاع . علام يحزنون هذا الحزن السخيف المستمر ، ويضطربون هذا الاضطراب الباطل المتصل ، ويعبسون ذلك العبوس الخانق الذى لا يهدأ ولا يسكن (ذلك أنهم أشرار ، أشرار ، أشرار) ؟ من المذنب اذا هم كانوا أشقياء تعساء ، واذا هم كانوا لا يعرفون كيف يحيون ، مع أن آفاق أملهم فى الحياة تمتد ستين عاماً الى أمام ؟ لماذا رضى زارنتسين أن يموت جوعاً ، مع أن أمامه ستين سنة يمكن أن يعيشها ؟ وهذا كل واحد يبدى أسماله الرثة ويُظهر يديه الكنباوين فيغضب ويصيح متشكياً : « ها نحن أولاء نعمل

كما تعمل الأبقار ، ونتعب ونتصب ، ونجوع ونسغب كالكلاب ، ونجر معنا البؤس جراً ، بينما يوجد أناس آخرون لا يعملون ، ولا يحمّلون أنفسهم أي عناء ثم هم أغنياء ! (الأغنية الأبدية !) . وعلى موازاة هؤلاء ، يسعى ويركض ويتحرك ويضطرب ، من الصباح الى المساء ، كادح بائس ، متغضن الوجه ، لكنه « نبيل المحتد » هو ايفان فومتش سوريكوف القاطن في الطابق الذي يقع فوق طابقنا من المنزل . ان كوعي كمّيه مثقّبان دائماً ، وان أزرار ملابسه مخلّعة . وهو يتولى عن الناس شراء ما يكلفونه بشرائه لهم ، ويقوم بأعمال لا أدري ما هي ، وينفق في ذلك يومه كله من الصباح الى المساء . حاولوا أن تتحدثوا معه : سوف يقول لكم انه « فقير ، بائس ؟ وان زوجته ماتت لأنه لم يجد ما يشتري لها به دواء ، وان ابنه الصغير مات في الشتاء متجمداً من البرد ؟ وان ابنته الكبرى تلتمس رزقها عند الرجال » ... انه يئن ويتوجع ، ويشكو ويبكي بغير انقطاع . آه ... انني لم أشعر بأية شفقة ، لا في ذلك الحين، ولا في هذا الوقت ، نحو هؤلاء الأغبياء الحمقى ... وأقول هذا فخوراً معتزاً ! لماذا لا يكون هذا الفرد رجلاً مثل روتشيلد ؟ من المذنب اذا كان لا يملك ملايين مثل روتشيلد ، اذا كان لا يملك جبلاً من الدنانير الامبراطورية * أو من الليرات الذهبية النابوليونية ، جبلاً لا يقل ارتفاعه عن ارتفاع الجبل الذي نراه في المعرض أثناء الكرنفال ؟ ما دام قادراً على أن يحيا ، فان كل شي في طاقته . من المذنب اذا كان لا يفهم ذلك ؟

« آه ... لقد تساوت في نظري جميع الأمور الآن ، ولم يبق في وقتي متسع لأن أغضب . أما في ذلك الحين ، فقد كنت ، كما سبق أن قلت ذلك ، اعض على وسادتي حنقاً ، وأمزق غطائي سخطاً وغيظاً .

آه ... يا للحلم الذي كنت أحلمه حينذاك ، ويا للأمنية التي كنت أتمناها ! لقد كنت أتمنى راضياً مسروراً أن أ'رمى الى الشارع فوراً ، وأنا

فى الثامنة عشرة من عمرى ، أن أُرمى شبه عار لا يكاد يسترنى شىء ، وأن أُترك وحيداً وحدة مطلقة ، بلا مسكن ولا عمل ولا لقمة عيش ، ولا أهل ولا صاحب واحد ، ولا أى انسان أعرفه ، فى المدينة الكبيرة ، جائعاً مضروباً (لا بأس ! ...) ، ولكن صحيح الجسم غير مريض..

« ما الذى كان يمكننى أن أظهره فى تلك الحالة ؟ »

« آه ... هل تتصورون أننى لا أعى مدى الانحطاط والاسفاف الذى بلغته قبل أن أقول هذا الكلام فى « الشرح » الذى أقدمه ؟ فمن ذا الذى لا يعدُّنى والحالة هذه فتى ساذجاً غراً ، غريباً عن الحياة ، ناسياً أن عمرى ليس ثمانى عشرة سنة فحسب ، لأن الذى يحيا كما حييت خلال هذه الأشهر الستة انما يكون قد عاش الى السن الذى يشيب فيها الشعر ؟ ولكن اسخروا اذا شاء لكم هواكم أن تسخروا ، وانظروا الى هذه الأشياء كلها نظرتكم الى حكايات ! وما هى فى الواقع الا حكايات حكيتها لنفسى ، فملأت بها ليالى بكاملها ، وانى لاتذكرها الآن جميعها .

« ولكن هل يجب علىّ أن أكررها الآن بعد أن انقضى عهد الحكايات حتى بالنسبة الىّ ؟ ولمن أكررها ؟ لقد تلذذت بها حين رأيت بوضوح اننى ممنوع حتى عن دراسة قواعد النحو اليونانى التى خطر ببالى أن أدرسها ؛ فحين قدّرت اننى سوف أموت قبل أن أصل الى تعلم الاعراب، توقفت عن القراءة منذ الصفحة الأولى ورميت الكتاب تحت المائدة . وبقى الكتاب راقداً هنالك . وحظرت على ماتريونا أن تشيله .

« ان من ستقع مقالتى هذه بين يديه ، فيصبر على قراءتها حتى النهاية ، قد يعدنى مجنوناً ، أو قد يظننى تلميذاً فى المدرسة الثانوية ، أو لعله يتصور اننى رجل محكوم عليه بالاعدام يتراءى له بحق أنه ما من انسان غيره يقدر الحياة حق قدرها ، وأن البشر يبعثرون الحياة ويبددونها

بكثير من الخفة والطيش ، وأنهم يستمتعون بها غير واعين ، وغير مبالين أو مكترثين ، وأن الملأ جميعاً ، من أولهم الى آخرهم ، ليسوا اذن جديرين بها ، وليسوا يستحقونها • فماذا أقول ؟ اننى أعلن أن هذا القارىء سيخطىء اذا هو انقاد لهذا الظن ، وأن آرائى ليست متأثرة أى تأثر بكونى محكوماً علىّ بالموت ! اسألوهم ، اسألوهم فقط ، اسألوهم جميعاً بغير استثناء كيف هم يتصورون السعادة ، كيف هم يفهمون السعادة ؟ آه •• ثقوا أن كريستوف كولومب لم يكن سعيداً حين اكتشف أمريكا ، بل حين أشرف على اكتشاف أمريكا ، حين كان على وشك أن يكتشفها • كونوا على يقين من أن لحظة سعادته القصوى كانت قبل اكتشافه العالم الجديد بثلاثة أيام ، أى حين استبد اليأس بصحبه فتمردوا وأوشكوا أن يرجعوا أدراجهم الى أوروبا • لم يكن المقصود هو العالم الجديد • لقد مات كولومب وهو لمّا يكد يراه ؛ وهو لم يعرف فى حقيقة الأمر ماذا اكتشف • فانما الأمر المهم هو الحياة ، الحياة وحدها ••• هو البحث المتصل عن الحياة ، هو السعى الأبدى الى الحياة ، وليس هو اكتشاف الحياة! ولكن علام هذا الهذر ؟ أغلب ظنى أن هذا الكلام له من مظهر الأمور المعروفة الشائعة المبذولة ما لعله يجعل القارىء يعتقد أن مثلى كمثل تلميذ فى الصفوف الدنيا من مدرسة ثانوية مكلف بكتابة موضوع انشاء عنوانه « طلوع الشمس » • سوف يُقال اننى ربما أردت أن أعبّر عن شىء ما ، لكننى رغم كل رغبتى لم أظفر بأن « أشرح » ما بنفسى • ومع ذلك فاننى أضيف أن كل فكرة عبقرية ، وأن كل رأى جديد بل وكل رأى جاد ينشأ فى دماغ انسان ، أقول ان كل شىء من هذا القبيل انما يشتمل على بقية لا يمكن نقلها الى الآخرين ولو وقف المرء على محاولة الافصاح عنها كتباً بكاملها ، أو ظل يقلّب الأمر على وجوهه مدة خمسة وثلاثين عاماً • ان تلك البقية لن تخرج من رأسك بأى حال من الأحوال ، بل ستظل

باقية فيه أبد الآبدين • ستموت أنت قبل أن تستطيع نقلها الى أحد ، وربما كانت هي التي تشتمل على الشيء الجوهري من تفكيرك • فاذا لم أستطع أنا أيضاً أن أجعلكم تشعرون الآن بكل ما قاسيته خلال تلك الأشهر الستة ، فلسوف تفهمون على الأقل انني لعلني دفعت غالياً ثمن ذلك « الاقتناع الكامل » الذي وصلت اليه الآن • ذلكم ما اعتقدت أن من الضروري أن أوضحه في هذا « الشرح » الذي أقدمه اليكم لغاية أعرفها• « ولكن هأنذا أعود الى مجرى قصتي •

الفصل السادس

لا أريد أن أكذب . ان الواقع قد أمسكنى عدة مرات فى أثناء هذه الأشهر ، فجرفنى جرفاً يبلغ من القوة أنه أنسانى موتى المحتم ، أو قل جعلنى لا أريد أن أفكر فيه وجعلنى أشرع فى العمل. وسأصف الآن ، فى هذه المناسبة ، ظروف حياتى حينذاك . منذ قرابة ثمانية أشهر ، عندما تفاقم مرضى قطعت جميع علاقاتى وكففت عن رؤية رفاقى القدامى . واذ كان مزاجى مظلماً حزيناً على الدوام ، فان رفاقى أولئك لم يصعب عليهم أن ينسونى . وعلى كل حال ، كان يمكن أن ينسونى ولو لم أتصف بذلك المزاج المظلم الحزين . أما حياتى فى البيت ، أى « مع الأسرة » فقد كانت حياة اعتزال وانزواء . لقد أغلقت على نفسى الباب منذ نحو خمسة أشهر ، واعتزلت ذوىّ اعتزالاً كاملاً . وكانوا قد اعتادوا طاعة رغباتى والرضوخ لارادتى ، فكان لا يأذن أحد لنفسه بأن يدخل الى غرفتى ، الا فى ساعات محدّدة معينة لتنظيفها وترتيبها ، ولاتيانى بطعامى . كانت أمى ترتعش أمام أوامرى ، ولا تجرؤ حتى أن تبكى وتدمع بحضورى اذا اتفق لى فى بعض الأحيان أن قررت السماح لها بالدخول علىّ . وكانت تضرب الأولاد دائماً حتى لا يحدثوا ضجة فيزعجونى . نعم ، هذه هى الحقيقة . كثيراً ما كنت أشتكى من صراخهم ، اننى أتخيل مدى الحب الذى لا بد أنهم يضمرونه لى الآن ! وأعتقد كذلك اننى عذّبت كثيراً صاحبى « كوليا الأمين » ، (هذا هو اللقب

الذى خلعته عليه) ولقد ثار منى فى الآونة الأخيرة فعذبنى هو أيضاً : ان ذلك فى طبيعة الأمور ، فالناس انما خُلقوا ليعذِّب بعضهم بعضاً . ومع ذلك لاحظت أنه كان يتحمل مزاجى السيء ، كمن آلى على نفسه أن يدارى مريضاً . وقد أحنقنى ذلك بطبيعة الحال . وأحسست أيضاً أنه قد قرر أن يقلد عقيدة « المذلة المسيحية » التى يعتنقها الأمير ، وكان لا بد أن يبدو هذا سخيفاً مضحكاً بعض الشيء . ان هذا الفتى تزخر نفسه بحماسة الشباب ؛ فلعله يقلّد كل ما يقع عليه بصره . ولكن بدا لى أحياناً أنه قد آن الأوان لأن يجعل من نفسه شخصية لها استقلالها . اننى أحبه كثيراً . وقد عذّبت أيضاً سوريكوف ، الذى يقطن فوق مسكننا ، والذى يقضى يومه كله ، من الصباح الى المساء ، فى القيام بمهام يكلفه بها الناس ! لقد انفقت وقتاً طويلاً فى محاولة افهامه أن شقاءه لا يرجع سببه الا اليه وحده ، فخاف فى النهاية حتى أصبح لا يضع قدميه فى غرفتى أبداً . انه انسان شديد المذلة جداً . (حاشية : يزعم بعضهم أن المذلة قوة هائلة . يجب أن أسأل الأمير توضيحاً لهذا الكلام ، لأنه هو صاحب هذا التعبير) . ولكن حين صعدت اليهم فى شهر آذار (مارس) لأرى كيف تركوا ابنهم الصغير يموت «متجمداً» من البرد كما قالوا ، ابتسمت أمام جثة الطفل بغير ارادة ، وعدت أشرح لسوريكوف «أنه هو المذنب». عندئذ أخذت شفتا الرجل المسكين الهزيل ترتعشان فجأة ، ثم وضع يده على كتفى وأشار بيده الأخرى الى الباب قائلاً لى « أخرج يا سيدى ! ». قالها برفق وهدوء ، بصوت يشبه أن يكون همساً . فخرجت . وأعجبتنى فعلتى كثيراً ، أعجبتنى حتى بعد أن طُردت . ومع ذلك ظلت كلماته خلال مدة طويلة ، تحدث فى نفسى كلما تذكرتها أثراً غريباً أليماً ، يشبه أن يكون شعوراً بشفقة مزدرية نحوه ، وهو شعور كنت اتمنى أن لا أحسه . ان هذا الرجل كان عاجزاً عن الغضب حتى حين أُهين تلك الاهانة (أنا أشعر فعلاً بأننى أهنته ، دون أن أقصد ذلك أو أنتويه) .

واذا كانت شفتاه قد اخذتا تختلجان فان ذلك لم يحدث له بتأثير الغضب ، أحلف لكم !... لقد أمسك ذراعى ونطق بجملته الرائعة دون أى غضب : « اخرج يا سيدى ! » كان فى تلك اللحظة زاخراً بالكرامة ، حتى ان تلك الكرامة كانت تتعارض مع جملة هيئته (وكان فى هذا مايبعث على الضحك فى الواقع) لكن نفسه لم تنطو عندئذ على أى غضب أو حنق . لعله شعر نحوى باحتقار مفاجىء . ولقد لقيته بعد ذلك مرتين أو ثلاث مرات على سلّم المنزل . فكان يسارع الى تحيتى برفع قبعته ، وذلك ما لم يكن يفعله من قبل قط ؛ ولكنه أصبح لا يقف لى كما كان يقف فى الماضى ، وانما هو يمر بجانبى مسرعاً خَجلاً مضطرباً . فهو اذا كان يحتقرنى انما يحتقرنى على طريقته ، أى يحتقرنى بنوع من « المذلة ». ولعله كان لا يرفع لى قبعته محيياً الا من قبيل الخوف والخشية ، لأننى ابن دائنته : فهو مدين لأمى دائماً بمبلغ من المال ، وهو عاجز عجزاً مطلقاً عن سداد دينه . ربما كان هذا الافتراض أقرب الى الصحة . وقد خطر ببالى أن أناقشه فى الأمر . انى لعلى يقين من أنه كان سيسألنى العفو والمغفرة لو فعلت . لكننى فكّرت فرأيت أن من الأفضل أن أدعه وشأنه.

« فى تلك الفترة ، أى فى نحو منتصف شهر آذار (مارس) ، حين ترك سوريكوف ابنه « يتجمد » من البرد ، شعرت أنا بتحسن كبير فى صحتى ، ودام هذا التحسن قرابة أسبوعين . فأخذت أخرج ، عند هبوط الليل فى أكثر الأحيان . اننى أحب ساعات الغسق فى شهر آذار (مارس) ، حين يبدأ التجلد ويُشعَل الغاز . وكنت أوغل فى نزهاتى مسافات بعيدة أحياناً . ففى ذات يوم ، مرَّ أمامى فى الظلام ، بشارع « الدكاكين الستة » ، شخص يبدو من هيئته أنه سيد ، لكننى لم اتبين ملامحه تبيناً واضحاً . كان يحمل صرَّة ملفوفة بورق ، وكان يرتدى معطفاً عتيقاً مهترئاً ، عدا أنه معطف خفيف فى مثل ذلك البرد الذى كان

يسود الجو . فلما وصل الى قرب أحد مصابيح الشارع ، رأيت شيئاً يسقط من جيبه . فأسرعت أتناول الشيء الذي سقط ، أسرعت أتناوله في الوقت المناسب ، ذلك أن شخصاً يرتدي قفطاناً طويلاً كان قد هرع يريد تناوله ، فلما رأى أنه صار في حوزتي ، لم يحاول أن ينافسني واكتفى بأن ألقى نظرة على يدي ثم مضى في سبيله . كان ذلك الشيء محفظة أوراق من جلد ، كبيرة الحجم قديمة الطراز ، محشوة بأوراق كثيرة حتى لتكاد تنبعج ؛ لكنني حزرت على الفور ـ لا أدري كيف ! ـ ان المحفظة قد تحتوي كل شيء الا المال . كان الرجل الذي سقطت منه المحفظة قد أصبح على مسافة أربعين خطوة أمامي ، فلن يلبث أن يغيب عني في زحمة الجمهور . فركضت وراءه أناديه . ولكن لما كنت لا أستطيع أن أناديه الا بصرخة « هيه ! » ، فانه لم يلتفت . وغار فجأة على اليسار في بوابة عمارة من العمارات . فلما وصلت الى تلك البوابة التي كان يخيم فيها ظلام حالك ، لم أجد هنالك أحداً . ان العمارة واحدة من تلك المباني الضخمة التي يبنيها التجار جاعلين منها عدداً كبيراً من المساكن الصغيرة . حتى ان بينها مباني تضم الواحدة منها مائة مسكن .

« حين اجتزت بوابة العمارة خيّل الي انني ألمح في الزاوية اليمنى من قرارة فناء واسع رجلاً كان يبتعد ، لكن الظلمات جعلتني لا أرى أكثر من ذلك . فركضت حتى بلغت تلك الزاوية ، فاكتشفت وجود مدخل لسلم ضيق قذر جداً ، بغير اضاءة . واذ سمعت أصوات وقع أقدام في أعلى ، فأدركت أن شخصاً يرقى السلّم اندفعت أصعد آملا أن أدرك أثره حين يُفتح له الباب . وذلك ما حدث . ان فسحات السلّم متقاربة جداً ، ولكن عددها بدا لي بغير نهاية ، حتى لقد تقطعت أنفاسي من شدة التعب بالركض . وسمعت صوت بابٍ يُفتح ويغلق في الطابق الخامس . سمعت هذا حين كنت ما أزال تحت الطابق الخامس بثلاث

فسحات • فقضيت بضع دقائق حتى بلغت الطابق الخامس واستردت أنفاسي وبحثت عن جرس الباب • فجاءت تفتح لي امرأةٌ كانت بسبيل اضرام النار في السماور بمطبخ صغير مفرط في الصغر • فاستمعت الى أسئلتي صامتةً ، ولا شك أنها لم تفهم منها شيئاً ، لكنها ادخلتني الى غرفة مجاورة دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة • هي غرفة صغيرة جداً ، منخفض سقفها انخفاضاً شديداً ، ولا يشتمل أثاثها الفقير الا على الضروري الذي لا بد منه ولا غنى عنه •

« كان يرقد على سرير عريض ذي أسجاف رجلٌ نادته المرأة باسم « تيرنتش » ، وبدا لي ثملاً • وكان ثمة بقية من شمعة تشتعل قرب منضدة في شمعدان من حديد ، الى جانب قنينة من الفودكا توشك أن تكون فارغة • نطق تيرنتش ببضعة أصوات غير جلية يخاطبني بها ، ويومىء لي بيده الى غرفة مجاورة ، دون أن ينهض • كانت المرأة قد غابت ، فلم يبق لي الا أن أدفع ذلك الباب • وذلك ما فعلته : فتحت الباب الذي دلني عليه ودخلت الى الغرفة المصاقبة •

« ان هذه الغرفة الأخرى أقل سعة وأكثر ازدحاماً من الغرفة الأولى ، حتى انني لم أعرف كيف أستطيع التحرك فيها • كان في الزاوية سرير ضيق يكاد يملأ الغرفة كلها • أما باقي الأثاث فلا يعدو ثلاثة كراسي عادية تكدست عليها أنواع شتى من الأسمال البالية والأطمار الخلقة ، ومائدةٌ غليظة من موائد المطابخ وُضعت أمام ديوان عتيق مغطى بقماش مشمَّع ، وقد تقاربت هذه الأشياء كلها تقارباً يكاد يكون التصاقاً ، فلا يدري المرء كيف يتسلل بين المائدة والسرير •

« وعلى المائدة كانت تشتعل شمعة في شمعدان من حديد يشبه شمعدان الغرفة الأخرى ؛ وثمة طفل وليد لا يكاد يتجاوز من عمره ثلاثة أسابيع كان يصرخ راقداً على السرير ، وبقربه امرأة مريضة شاحبة

كانت « تغيّر » له أو قل تعيد تقميطه . ان المرء ليدرك أنها خارجة من فترة النفاس . أما الطفل فهو لا ينقطع عن الصراخ ، بانتظار ثدى أمه الهزيل . وعلى الديوان كان ينام طفل آخر ، هو بنت فى السنة الثالثة من عمرها قد أُلقى عليها رداء يوحى منظره بأنه « فراك » . وقرب المائدة كان يقف رجل يرتدى ردنجوتاً مهترئاً متنسلاً (كان الرجل قد خلع معطفه ووضعه على السرير) ، وهو بسبيل فضّ صرّة ملفوفة بورق أزرق فيها رطلان من خبز أسود وقطعتان صغيرتان من مقانق . وكان على المائدة أيضاً ابريق شاى ملآن ، وبقايا خبز أسود . وتحت السرير يستطيع المرء أن يرى حقيبة مفتوحة ورزمتان محشوتان أسمالاً .

« الخلاصة : فوضى رهيبة ! وقد أوحى الىّ السيد والسيدة منذ النظرة الأولى أنهما شخصان محترمان ، ولكن الفقر المدقع هو الذى هوى بهما الى هذه الحالة من التردى التى تصبح الفوضى فيها أمراً مفروضاً يكف المرء عن مقاومته ثم يألفه ويعتاده ، وينتهى به الأمر لا الى العجز عن الاستغناء عنه فحسب ، بل كذلك الى أن يجد فى تزايده يوماً بعد يوم لذة مريرة من لذائذ الانتقام لا أدرى ما هى !

« كان السيد حين دخلت بعيد دخوله يفض حزمة ما اشتراه من طعام ويتحدث الى امرأته بلهجة فيها كثير من اهتياج الأعصاب . ولم تكن السيدة قد فرغت من تقميط الوليد ، وكانت قد أخذت عيناها تدمعان بكاءً . من الجائز أن الأنباء التى حملها اليها زوجها كانت سيئة كالعادة . وظهر لى السيد رجلاً محترماً يطمأن اليه بل ويؤنس به . انه فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، اسمر اللون ، جاف البشرة ، محلوق شعر الذقن ، الى لحيتين صغيرتين فى العارضين . كان مكفهر الوجه عابس النظرة ، ولكن على شىء من كبرياء مَرَضية يسهل أن تثور . ولقد أحدث وصولى مشهداً غريباً .

« ان من الناس من يجدون في اهتياجهم لذة عظمى ولا سيما حين يبلغ هذا الاهتياج أعلى ذروة له (وهذا ما يحدث لهم بسرعة) ؟ حتى ليمكن أن يُقال ان ايذاءهم واهانتهم فى مثل تلك اللحظة أحب اليهم من أن لا يُلحق بهم أذى ولا تُنزل فيهم اهانة . لكن هؤلاء الأشخاص الغضوبين يشعرون بعد ذلك بآلام الندامة ، هذا اذا كانوا أذكياء طبعاً وكانوا قادرين على أن يدركوا أنهم اندفعوا اندفاعاً أقوى عشر مرات من الاندفاع الذى يقبله العقل .

« نظر الىّ الرجل خلال لحظة مذهولاً ، بينما كان وجه امرأته يعبّر عن الفزع ، كأن ظهور كائن انسانى فى غرفتهم حادث رهيب ! ولكنه لم يلبث فجأة ، قبل أن يتسع وقتى لأن أقول كلمتين ، لم يلبث أن هجم علىّ بنوع من الحنق المسعور . لقد جرح شعورَه كثيراً أن يرى رجلاً حسن الثياب لائق الهندام يسمح لنفسه بأن يدخل الى مسكنه الحقير بغير كلفة أو تحرج ، فيأخذ يتأمل بنظراته هذا البيت الحقير الذى يشعر هو نفسه منه بخجل وعار . ولا شك أن هذه الفرصة التى أتيحت له ، وهى أن يصب على شخص من الأشخاص ما كان يعتمل فى نفسه من غضب سبّبه ضروب الاخفاق التى يمنى بها ، أقول لا شك أن هذه الفرصة قد أحدثت له لذة ؛ حتى لقد اعتقدت فى لحظة من اللحظات أنه سوف يضربنى . وقد شحب وجهه كشحوب وجه امرأة أصابتها نوبة هستريا ، فارتاعت زوجته من ذلك ارتياعاً شديداً .

« صرخ يقول مرتجفاً مرتعشاً حتى ليكاد يعجز عن النطق بكلماته :

« ـ كيف تجاسرت أن تدخل هكذا ! اخرج !

« ولكنه سرعان ما رأى محفظته فى يدىّ .

« قلت بلهجة فيها أكثر ما يمكن من هدوء وجفاف (وتلك هى اللهجة المناسبة فى هذا المقام على كل حال) :

« ــ أحسب أن هذه المحفظة قد سقطت منك •

« ظل الرجل واقفاً أمامي بعض الوقت مروّعاً مذعوراً كأنه لا يفهم شيئاً • ثم تلمّس جيبه بحركة سريعة ، وفتح فمه مشدوهاً ، ولطم جبينه ، وقال :

« ــ عثرت عليها ؟ كيف عثرت عليها ؟

« فشرحت له بكلمات قليلة وبلهجة أكثر جفافاً كيف التقطت المحفظة بعد سقوطها منه ، وكيف ركضت وراءه منادياً اياه بغير طائل ، وكيف تعقبته صاعداً درجات السلم أربعاً أربعاً ، على غير هدى وبدون يقين ، وانما بنوع من الظن والتخمين •

« صاح يقول متجهاً الى امرأته :

« ــ هذه أوراقي ! هذه آخر ما أملك من وسائل ! هي كل ما بقي لي !

« وأضاف يقول لي :

« ــ آه يا سيدي !••• هل تعلم ما أسديت الي من جميل ؟ لولا أنك عثرت لي على هذه الأوراق لضعت وهلكت !•••

« في أثناء ذلك كنت قد أمسكت زر الباب لأخرج دون أن أجيب ، لكنني شعرت باختناق وألمت بي نوبة سعال مفاجئة بلغت من القوة والشدة أنني أصبحت لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي ! ورأيت السيد يلتفت الى كل جهة ليجد لي كرسياً خالياً • ثم يعمد الى أحد المقاعد فينزع كل ما كان ملقى عليه من أطمار ويرميها الى الأرض ويجلسني على الكرسي بسرعة ولكن على حذر • وطال سعالي ثلاث دقائق أخرى على الأقل • فلما ثبت الى نفسي كان جالساً بجانبي على كرسي آخر لا شك أنه أخلاه هو أيضاً مما كان عليه من أسمال ، وكان ينظر اليّ محدقاً •

« قال لى باللهجة التى يتكلم بهـا الأطبـاء عـادة حين يواجهـون مرضاهم :

« ـ ظـاهر عليـك أنك ••• مريض ! اننى ••• طبيب • (لم يستعمل كلمة « دكتور ») •

« قال ذلك وأشار لى الى الغرفة كانمـا ليحتج على ما هو فيـه من ظرف خاص ووضع شاذ • وأضاف :

« ـ أرى أنك •••

« فقلت موجزاً وأنا أنهض :

« ـ أنا مريض بالسل •••

« فنهض هو أيضاً بوثبة • وقال :

« ـ لعلك تبالغ ••• انك اذا عالجت مرضك •••

« لقد كان مضطرباً أشـد الاضطراب فلا يسـتطيع أن يثوب الى نفسه • وكان يحمل المحفظة بيده اليسرى •

« قاطعته من جديد ، وأنا أمسك زر الباب :

« ـ لا تقلق ••• لقد فحصنى الدكتور « ب ••• ين » فى الأسبوع الماضى ، ومسألتى واضحة (هنا أيضاً ذكرت اسم « ب ••• ين.») معذرة!

« وأردت أن افتح الباب فأخرج تاركاً الطبيب خجلان ممتناً يسحقه الشعور بالعار ، لكن سعالى اللعين رجع يمسك بخناقى فى تلك اللحظة نفسها • فعـاد الدكتـور يجلسنى وألحّ علىّ أن أرتاح • والتفت نحو امرأته فوجّهت الىّ امرأته بضع كلمات لطيفة عبّرت بها عن الشـكر والامتنان ، دون أن تتحـرك من مكانها • وقد بلغت من اضطراب أثنـاء ذلك أن خديها الجافين الحائل لونهما تخضبا بحمرة شـديدة • وبقيت •

لكن هيئتي كانت هيئة من يريد أن يظهر في كل لحظة بمظهر من يخاف أن يكون وجوده مزعجاً (تلك هي الهيئة المناسبة اللائقة) • ولاحظت أن الندم قد أخذ يعذب صاحبي الدكتور آخر الأمر •

« بدأ يتكلم فقال وهو يقاطع نفسه في كل لحظة قافزاً من جملة الى جملة قفزاً :

« لو أنني ••• أنا أشكر لك جميلك اجزل الشكر ••• وقد أسأت اليك اساءة بالغة ••• انني ••• أنت ترى ••• (أرانى الغرفة من جديد) ••• انني الآن ••• في وضع •••

« قلت :

« ـ كل شيء واضح • لا جديد في الأمر • لعلك فقدت وظيفتك فجئت الى العاصمة تشرح أمرك وتلتمس وظيفة أخرى ، أليس كذلك ؟

« سألني مدهوشاً :

« ـ من أين ••• عرفت هذا ؟

« قلت بلهجة ساخرة غير مقصودة :

« ـ هذا يُرى من أول نظرة • كثير من الناس يصلون من الأقاليم بآمال كهذه الآمال • يبذلون جهوداً ويقومون بمساعٍ ، ويعيشون حياتهم هكذا ، يوماً يوماً •••

« فأخذ يتكلم بحرارة مفاجئة • وكانت شفتاه تختلجان • يجب أن أقول ان شكاواه وقصته قد أثرت في نفسي • مكثت عنده قرابة ساعة• قص عليّ حكايته ، وهي لا تحوي شيئاً خارقاً على كل حال • انه موظف بالأقاليم في خدمة الدولة ، وقع ضحية دسائس ومكائد أُقحم فيها حتى اسم زوجته • ثارت كبرياؤه وتمردت أنفته وعيل صبره• وحدثت عندئذ

تنقلات فى أعضاء هيئة الموظفين تناسب خصومه ، فأخذ خصومه يدسون الدسائس ويدبرون المكائد . وقُدِّمت في حقه شكوى . واضطر أن يترك وظيفته وأن يمضى بآخر ما يملك من مال الى بطرسبرج ليشرح أمره ، ويبرهن على براءته . وطال مكوثه ببطرسبرج قبل أن يظفر بمقابلة المسئول . ثم أُصغى اليه ، ثم صُرف بخشونة ، ثم بُذلت له وعود ، ثم عومل بقسوة ، ثم أُمر بان يعرض قضيته كتابةً ، ثم رُفض استلام عريضته المكتوبة ، ثم طُلب منه أن يقدم التماساً ، الخ الخ . الخلاصة أنه ظل يركض خمسة أشهر أكل خلالها كل ما كان يملك من بقية مال ، حتى انه رهن أثواب زوجته الى آخر واحد منها . وفى تلك الآونة انما وُلد لهما ولد ! و ... و ... « اليوم أُبلغت رفض التماسى رفضاً حاسماً . لم يبق لى خبز ان صح التعبير ، لم يبق لى شىء البتة ، وامرأتى ناهضة من نفاسها . اننى ... اننى ... » .

وانتصب واقفاً على حين فجأة ، وأشاح وجهه . كانت امرأته تبكى فى أحد الأركان . وعاد يصرخ . ففتحت دفترى الصغير وأخذت أدوّن فيه بضع كلمات . فلما فرغت من ذلك ونهضت ، رأيته مغروساً أمامى ينظر الىّ باستطلاع خائف . قلت له :

« ـ لقد دونت اسمك وسائر الأمور : المكان الذى كنت تعمل فيه ، واسم حاكم الاقليم ، والتواريخ والأشهر . ان بين رفاقى فى المدرسة شاباً اسمه باخموتوف ، وعمه مستشار دولة ومدير قسم ، هو بطرس ماتفئفتش باخموتوف ...

« هتف الطبيب يقول بنوع من الارتجاف :

« ـ بطرس ماتفئفتش باخموتوف ؟ ... ان القضية كلها متوقفة عليه مرهونة به !...

« الحق أن كل شىء فى قصة هذا الطبيب وفى النهاية التى اختُتمت

بها ، وهى نهاية شاركت أنا فيها على هذا النحو الذى لا يخطر بالبال ، ان كل شيء قد تسلسل وترتّب كما تتسلسل الأمور وتترتب في رواية من الروايات وفقاً لخطة موضوعة .

« طلبت من هذين المسكينين أن لا يبنيا أى أمل على كلامى ، لاننى لست أنا نفسى الا تلميذاً فقيراً في المدرسة الثانوية (تعمدت أن أضخم رضاعة شأنى ، والحق أننى كنت قد أنهيت دراستى فى المدرسة الثانوية منذ مدة طويلة) . وأضفت أنهما ليسا فى حاجة الى أن يعرفا اسمى ، ولكننى ذاهب فوراً الى فاسيلفسكى أوستروف لأرى رفيقى باخموتوف ؛ وأنا واثق أن عمه ، مستشار الدولة ، وهو رجل متقدم فى السن ولكنه لم يتزوج وليس له أولاد ، يحب ابن أخيه حباً عظيماً يبلغ درجة الوله ، لأنه يعده آخر نسل الأسرة . وقلت اختم كلامى ان هذا الرفيق سوف يستطيع أن يضع لكما شيئاً بالتأثير فى عمه ، ارضاءً لى .

« هتف الطبيب يقول مرتجفاً كأن به حمى ، بينما كانت عيناه تلتمعان :

« لا أريد الا أن يُسمح لى بشرح أمرى أمام صاحب السعادة ! ليتنى أظفر بأن أستطيع الحصول على شرف عرض ظلامتى وبسط شكواى له !

« نعم ، هذا هو التعبير الذى استعمله : « ليتنى أظفر بأن أستطيع الحصول على شرف ... » . وبعد أن كررت مرة أخرى أن المسعى قد يخفق حتماً ، وأن جميع جهودنا قد تظل عقيمة ، أضفت أعلن أن عليهما ، اذا لم اجىء اليهم فى صباح غد ، أن يفهما أن المسعى لم يثمر ، فلا يتوقعا شيئاً . لن أنسى ، ما حييت ، تعبير وجهيهما حينذاك . وركبت عربة ومضيت الى فاسيلفسكى أوستروف رأساً .

« كنا قد عشنا فى عداوة متصلة ، انا وباخموتوف هذا ، خلال عدة

سنين بالمدرسة . كان يُعدُّ عندنا ارستقراطياً ؟ أو هذا على الأقل ماوصفته أنا به . كان دائماً حسن الهندام أنيق الملبس ، يصل الى المدرسة بمركبته الخاصة . لم يكن متكبراً أو متعجرفاً . كان رفيقاً ممتازاً ، مشرق المزاج حلو المعاشرة دائماً ، فكه الحديث مرح النكتة حاضر البديهة أحياناً ، دون أن يكون ذا ذكاء عظيم ونباهة كبيرة . ومع ذلك كان هو الأول ترتيباً فى الصف على الدوام ؛ ولم أحصل أنا على الدرجة الأولى فى أى شىء يوماً . وكان جميع زملائه يحبونه ، الا أنا . وقد حاول التودد الىَّ مراراً خلال السنين التى قضيناها فى المدرسة معاً ، لكننى كنت فى كل مرة أشيح وجهى عنه متجهماً حانقاً .

« اننى لم أره منذ نحو سنة . هو الآن فى الجامعة . فلما دخلت عليه فى نحو الساعة التاسعة من المساء (ولم أدخل عليه بدون رسميات ، فان الخدم قد هبوا اليه يبلغونه حضورى) ، استقبلنى فى البداية مدهوشاً ، بل استقبلنى بغير كبير بشاشة لكنه لم يلبث أن استرد مرحه المعهود فيه ، وانطلق يضحك فجأة وهو ينظر الىَّ . ثم هتف يسألنى بطريقته المألوفة التى تمتاز برفع الكلفة وروح المودة :

« ــ ماذا أصابك حتى خطر ببالك أن تزورنى ؟

« ان فى لهجته شيئاً من الجسارة وقلة التحرج دائماً ، لكنها لا تكون مهينة أو مؤذية فى وقت من الأوقات . تلك سمة من سماته كنت أحبها فيه ، وكانت مع ذلك سبب كرهى له . وصاح يسألنى مذعوراً :

« ــ ولكن ماذا بك ؟ أأنت مريض الى هذه الدرجة ؟

« كان السعال قد استبد بى ، فتهالكت على كرسى ، ولم أستطع أن استرد تنفسى الا بكثير من العناء .

« قلت له :

« — لا تقلق ! انني مريض بالسل . لي عندك رجاء .

« جلس مدهوشاً ، وأخذت أقص عليه حكاية الطبيب كاملة ، وقلت له انه قد يستطيع أن يصنع لهذا المسكين شيئاً ، وذلك لما له على عمه من نفوذ . قال :

« — سأفعل ، سأفعل حتماً ! سأتوسط لدى عمي منذ الغد . بل انني لمغتبط جداً ؟ ما كان أحلى أسلوبك في سرد القصة كلها . ولكن كيف راودتك فكرة الاعتماد عليّ رغم كل شيء يا تيرنتيف ؟

« — ان كل شيء في هذه القضية متوقف على ارادة عمك ومرتهن بمشيئته . اننا يا باخموتوف قد كنا عدوين دائماً ، لكنني لما أعرفه من نبل قلبك وشهامة طبعك قدّرت أنك لن ترفض رجاءً لعدو .

« كذلك أضفت أقول بلهجة فيها قليل من سخرية . فهتف يقـول وهو ينفجر ضاحكاً :

« — مثل نابوليون الذي اعتمد على كرم انجلترا !...

« واذ رآني أنهض جادّ الهيئة قاسي الوجه ، أسرع يضيف قوله :

« — سأفعل اللازم ، سـأفعل اللازم ! بل سـأذهب الآن فوراً اذا أمكن !

« وبالفعل ، سُوِّيت القضية على نحو لم يكن في الحسـبان قط ، سوِّيت تسوية نالت رضانا كاملاً . فما هي الا ستة أسابيع حتى حصل صاحبنا الطبيب على وظيفة جديدة في اقليم آخر ، مع دفع نفقات الانتقال، بل وتقديم مساعدة مالية . وأظن أن باخموتوف قد حمل الطبيب على أن يقبل منه سلفةً على سبيل الاقتراض . وأخذ يزوره كثيراً (بينما قطعت أنا زياراتي عامداً . وكنت ، اذا اتفق أن زارني الطبيب مصادفة ، استقبله استقبالاً يكاد يكون جافاً) . وقد لقيت باخموتوف أثناء تلك الأسـابيع

الستة مرةً أو مرتين ، ثم التقينا مرة ثالثة حين احتفلنا بسفر الدكتور . لقد دعا باخموتوف صاحبنا الطبيب الى عشاء وداع مع شمبانيا . وحضرت زوجة الطبيب العشاء ، لكنها تركتنا فى ساعة مبكّرة لتمضى الى العناية بالطفل . كان ذلك فى بداية شهر أيار (مايو) . المساء جميل . قرص الشمس الضخم يغيب فى الخليج . أوصلنى باخموتوف الى بيتى عائداً . مررنا بجسر نيقولا ، وكنا ثملين بعض الثمل كلانا . حدثنى عن ابتهاجة العظيم بالنهاية التى انتهت اليها قضية الطبيب . شكر لى لا أدرى ماذا . وصف لى الارتياح الذى يحسه بعد أن صنع خيراً ، وقال ان الفضل فى هذا كله يرجع الى . أعرب عن اعتقاده بخطأ أولئك الكثيرين الذين يذهبون فى هذه الأيام الى أن صنع الخير الفردى لا قيمة له .

« فاستولت علىّ أنا أيضاً رغبة فى الكلام لا سبيل الى مقاومتها . فبدأت أتكلم فقلت :

« ـ ان من يأخذ على عاتقه أن يقوم بعمل برّ فردى ، يسىء الى طبيعة الانسان ويهين الكرامة الشخصية لمن أحسن اليه . على أن تنظيم « الاحسان الاجتماعى » ومسألة الحرية الفردية أمران مستقلان ، لا ينفى أحدهما الآخر . ان أعمال البر الفردية تظل باقيةً لأنها تقابل حاجة لدى الانسان هى حاجة حية الى أن يكون لفرد تأثير مباشر فى فرد آخر . كان يعيش بموسكو جنرال عجوز ، أقصد « مستشار دولة » اسمه اسم ألمانى . لقد قضى حياته يزور السجون والمجرمين . حتى صارت كل مجموعة من المحكوم عليهم بالسجن الذى يستمدون للترحيل الى سيبريا ، تعرف مقدماً أن هذا الشيخ الطيب سيزورها فى « جبل العصافير » *. وكان الرجل يقوم بمهمته تلك فى كثير من الجد والتقوى. يصل الى المكان فيستعرض جميع السجناء المصطفين حوله ، يقف أمام كل واحد منهم ، ويسألهم عن حاجاتهم ، ولا يحاول أن يلقى عليهم دروساً

في الأخلاق ناصحاً أو واعظاً ، ويناديهم جميعاً بقوله « يا أصدقائي » ؛ ويوزع عليهم عليهم مالاً ، ويرسل اليهم أمتعة مما لا غنى عنه : جوارب تدفىء أرجلهم وشيئاً من قماش ، ويأتيهم في بعض الأحيان بكتب دينية صغيرة يسلمها للذين يعرفون القراءة ، مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بأنهم سيقرأونها أثناء الطريق وسينقلون مضمونها للذين لا يعرفون القراءة ... وكان يندر أن يسألهم عن الجرائم التي ارتكبوها . وانما هو يصغي ، في أكثر تقدير ، لكلام أولئك الذين كانوا يحبون من تلقاء أنفسهم أن يسروا اليه بأمرهم . وكان لا يفرّق بين المجرمين أي تفريق ، بل يساوي بينهم مساواة تامة . وكان يكلمهم كما يكلم اخوة ؛ وكانوا ينتهون هم أنفسهم الى أن يعدوه أباً . فاذا لاحظ في جماعة امرأةً تحمل على ذراعيها طفلاً اقترب منها فلاعب الطفل وصفق له بأصابعه كي يضحكه . هكذا قضى حياته الطويلة الى أن مات . وظفر بأن يكون معروفاً في روسيا وفي سيبيريا كلها ، لدى السجناء على الأقل . وقد حدثني رجل كان في سيبيريا فوصف لي كيف كان أعتى المجرمين يتذكرون هذا الجنرال ، مع أن هذا الجنرال كان حين يزور فرن المرحّلين يندر أن يستطيع اعطاء كل واحد منهم أكثر من عشرين كوبكاً . صحيح أن هؤلاء الأفراد كانوا لا يتحدثون عن الجنرال بألفاظ فيها كثير من الحماسة والحرارة ، حتى ولا بلهجة فيها كثير من الجد . كان واحد من هؤلاء « الأشقياء » ، وهو مجرم فظيع لعله قتل دستة رجال أو ذبح ستة أطفال لا لسبب غير حب التلذذ بالقتل (يقال ان هناك أوغاداً من هذا النوع) كان يتنهد من حين الى حين ويهتف متسائلاً : « ترى ماذا الذي صار اليه ذلك الجنرال الطيب ؟ من يدري أما يزال حياً أم مات ؟!... » . كان هذا الخاطر يلم برأسه دون أي سبب ظاهر ، ربما مرةً واحدة خلال عشرين سنة ، وربما مع ابتسامة تطوف بشفتيه أيضاً ، ثم لا شيء غير ذلك ! ولكن من كان يدري أن

« الشيخ الطيب » قد زرع فى هذه النفس بذرة ستبقى فيها الى الأبد ، وسيحتفظ الرجل بذكراها عشرين عاماً ؟ هل تستطيع ان تعرف يا باخموتوف ما يحدثه هذا التواصل بين انسان وانسان من تأثير فى مصير الآخر ؟ ان ههنا حياة بكاملها ، وعدداً لا نهاية له من التفرعات تغيب عنا ولا تبدو لأبصارنا • ان أمهر لاعب من لاعبى الشطرنج وأبعد واحد منهم نظراً لا يستطيع أن يتنبأ الا الا بعدد محدود من الضربات التى سيجىء بها خصمه • لقد حدثونا عن لاعب فرنسى كان يستطيع أن يحسب عشر ضربات سلفاً ، فكان حديثهم عنه يشبه أن يكون حديثاً عن معجزة خارقة • فما أكثر الضربات والتركيبات التى تغيب عنا فلا تظهر لأبصارنا فى الحالة التى نحن بصدد الكلام عليها الآن ! انك حين تزرع البذرة ، حين تقوم بعمل « البر والاحسان » فى أية صورة من الصور ، حين تقوم بفعل الخير الذى تقوم به ، انما تهب جزءاً من شخصيتك وتأخذ جزءاً من شخصية الآخر • فيكون بين وجوديكما تواصل • ويكفى أن تنتبه قليلاً حتى تكافأ عن ذلك بالمعرفة ، تكافأ باكتشافات لم تدر فى خلدك قط • ولا بد أن تنتهى فى الختام حتماً الى أن تعد عملك الطيب علماً ، فهو يسيطر على كل حياتك وربما ملأها ملئاً تاماً •

« ثم ان جميع أفكارك وجميع البذور التى زرعتها ولعلك نسيتها سوف تمتد لها فى الأرض جذور ، وسوف تنمو وتكبر • ان من أخذها عنك سينقلها الى غيرك • من ذا الذى يعرف أىَّ نصيب ستنال من حل المشكلات التى يتوقف عليها مصير الانسانية ؟ واذا استطاعت معرفتك وحياةٌ كاملة موقوفة على هذا النوع من العمل أن ترفعك أخيراً الى ذرى تستطيع وأنت فيها أن تبذر بذوراً كثيرة وأن تورث الكون فكرة كبيرة ، فلسوف ••• الخ الخ ، تكلمت كثيراً فى ذلك اليوم •

« هتف باخموتوف يقول كمن يوجه لوماً عارماً الى شخص ثالث:

« ـ ثم تظن بعد ذلك أن الحياة ممنوعة عنك محظورة عليك !

« كنا في تلك اللحظة متكئين بكوعينا على افريز الجسر ، وكنا ننظر الى نهر نيفا . فقلت وأنا أميل مزيداً من الميل فوق الدربزين :

« ـ أتعرف ماذا خطر ببالي ؟

« فصاح باخموتوف يقول شبه مذعور :

« ـ أن تلقى بنفسك في الماء ؟

« لعله كان قد قرأ هذا الخاطر في وجهي .

« قلت :

« ـ لا . انني الآن اكتفي بالتفكير على النحو التالي : لقد بقي لي من الحياة شهران أو ثلاثة أشهر ، وربما أربعة . ولكن فلننظر ، مثلاً ، الى اللحظة التي لا يكون قد بقي لي فيها الا شهران ، ولنفرض انني في تلك اللحظة أردت أن أقوم بفعل خير يتطلب مني جهداً ، ويقتضيني أن أذهب وأجيء مرات ومرات ، ويسبب لي متاعب من نوع المتاعب التي سببتها لي قضية صاحبنا الدكتور . سوف يكون عليّ في هذه الحالة أن أعدل عن القيام بذلك العمل الطيب لضيق الوقت ، وأن أسعى الى عمل طيب آخر يكون أقل شأناً ويكون في طاقتي أن أعمله (هذا اذا كان هوى القيام بأعمال الخير قد استبد بي الى هذا الحد !) . فكرة مسلية ، أليس كذلك؟

« كان باخموتوف المسكين شديد القلق عليّ . فأوصلني الى مسكني ، وكان لبقاً فلم يعتقد أن عليه أن يعزّيني ويواسيني ، بل لزم الصمت طول الوقت تقريباً . وحين ودّعني شدّ على يدي بحرارة واستأذنني في أن يزورني . فأجبته بأن مجيئه اليّ ، اذا كان يريد أن يجيء اليّ « مواسياً ومعزياً » (ذلك أن زيارته ، وان كانت صامتةً ، سيكون هدفها المواساة والعزاء ، وقد شرحت له هذا) لن يكون في نظري أكثر من تذكير

بالموت الوشيك • فهزّ كتفيه ، ولكنه وافقني على صواب رأيي • وافترقنا على بشاشة ومجاملة ، وذلك ما لم أكن أتوقعه •

« في أثناء ذلك المساء ، وفي خلال الليلة التي أعقبته ، انما نبت في نفسي « اقتناعي الأخير » • تشبثت تشبثاً نهماً بتلك الفكرة الجديدة ، وأخذت أحللها بحرارة وحماسة ، وأقلّبها على جميع وجوهها ، وأتعقبها في جميع انعطافاتها (لم أنم في تلك الليلة) • فكلما تعمقتها مزيداً من التعمق ، وكلما نفذت اليّ مزيداً من النفاذ ، امتلأت من ذلك بمزيد من الجزع • ثم استولى عليّ ذعر فظيع لزمني ولم يبارحني طوال الأيام التالية• انني في بعض الأحيان ، ما ان أتذكر ذلك الذعر حتى ينتابني هلع جديد يجمدني تجميداً • وخلصت من ذلك الى أن « اقتناعي الأخير » قد ترسخ في نفسي ترسخاً يبلغ من القوة أنه يستحيل أن لا يصل بي الى خاتمة • ولكنني لم أملك من الجرأة ما يكفيني لأعزم أمري وأتخذ قراري • وبعد ذلك بثلاثة أسابيع كانت تلك التعللات والتهربات قد انقطعت ، ورجعت الى جرأتي ، ولكن ذلك انما حدث في أعقاب ظرف غريب كل الغرابة •

« انني أذكر هنا ، في هذا الشرح ، جميع هذه الأرقام وجميع هذه التواريخ • ولا شك أن ذلك لن يعنيني فيما بعد ، أما « الآن » (وربما في هذه اللحظة وحدها) ، فانني أريد من أولئك الذين سيحكمون على عملي أن يتصوروا تصوراً واضحاً تسلسل الاستنتاجات المنطقية التي بها الى « اقتناعي الأخير » •

« قلت انني اكتسبت الجرأة الحاسمة التي كانت تعوزني لأضع ذلك « الاقتناع الأخير » موضع التنفيذ ، اكتسبتها لا بطريق الاستنتاج المنطقي فيما أعتقد بل في أعقاب صدمة غير متوقعة ، على أثر حادث غير عادي كان يمكن أن لا يكون له أي صلة بمجرى القضية •

« فمنذ نحو عشرة أيام زارني روجويين بمناسبة مسألة تتعلق به ولا مجال للحديث عنها هنا . لم أكن قد رأيته قبل ذلك في يوم من الأيام ، ولكنني كنت قد سمعت عنه كلاماً كثيراً . أعطيته جميع المعلومات التي كان في حاجة اليها ، فلم يلبث أن انصرف . واذ أن ذلك كان هو الهدف الوحيد من مسعاه ، فقد كان يمكن أن تقف الأمور بيننا عند هذا الحد . لكن الرجل أثار اهتمامي اثارة قوية ، فظللت طوال النهار فريسة خواطر وأفكار بلغت من الغرابة انني قررت أن أزوره في الغد . فلما دخلت عليه لم يخف استياءه من رؤيتي ، وأفهمني « بكياسة ولباقة » أن علاقاتنا يجب أن لا تطول . ومع ذلك قضيت عنده ساعة كانت شائقة لي وله على السواء فيما أظن . ان التعارض بيننا يبلغ من القوة أننا لم نستطع لا أنا ولا هو الا أن نلاحظ ذلك ، وقد لاحظته أنا خاصة . أنا انسان أيامه معدودة ، وهو رجل زاخر بحياة مندفعة ، مستسلم استسلاماً تاماً لهوى اللحظة الحاضرة ، لا تهمه الاستنتاجات « الأخيرة » أو الأرقام أو أي شيء ، ولا يعنيه أمر مما ... مما ... مما لا شأن له بموضوع هواه وجنونه . فليغفر لي السيد روجويين هذا التعبير وليرجعه الى الخراقة لدى كاتب ضعيف في الافصاح عما يجول فكره . لقد أحسست أثناء لقائي بالسيد روجويين ، رغم قلة بشاشته وتودده ، أنه رجل ذكي ، قادر على أن يفهم أموراً كثيرة ، وان كان لا يعنيه شيء مما لا يتصل به مباشرة . لم أشر أمامه أية اشارة الى « اقتناعي الأخير » ، لكنني أدركت من بعض العلامات أنه قد كفاه أن يسمع كلامي حتى يحزره . لقد كان ساكتاً لا يتكلم . ان هذا الرجل صموت صمتاً هائلاً . وقلت له عند انصرافه انه هو نفسه ، رغم الفروق التي بيننا ورغم التعارض الذي يفصلنا ـ الأطراف القصوى تلتقي كما يقول الفرنسيون ـ (ترجمت له هذا التعبير الفرنسي الى الروسية) ، اقول انه رغم ذلك قد لا يكون بعيداً عن هذا

« الاقتناع الأخير » الى الحد الذى يُظن ، فلم يجبنى الا بتصعيرة فى وجهه زاخرة بالمرارة ، ثم نهض ومضى يأتينى بقبعتى متظاهراً بالاعتقاد أننى أتهيأ للانصراف • وبحجة أنه يوصلنى الى الباب أدباً ولباقة ، لم يزد فى الواقع على أن طردنى من بيته المتجهم طرداً • ولقد عجبت لبيته هذا فعلاً : لكأنه مقبرة • ولكننى أظن أنه يعجبه ويرضيه • وهذا شىء يفهمه المرء بسهولة : فان روجويين يعيش حياة أزخر بالعنف وأقوى اتصالاً بالأمور المباشرة من أن يشعر بحاجة الى جو فى البيت أبهج وألطف •

« أرهقتنى زيارتى تلك لروجويين • ثم اننى كنت أشعر بتعب منذ الصباح • حتى اذا كان المساء أحسست باعياء شديد وضعف كبير فتمددت على سريرى • كانت حمى عنيفة تنتابنى فى بعض اللحظات حتى لتجعلنى أهذى • ولبث كوليا بقربى حتى الساعة الحادية عشرة • وأنا أتذكر مع ذلك كل ما قاله لى وكل الأمور التى تكلمنا عنها • ولكن حين كانت تطبق أجفانى من حين الى حين فأغفو قليلاً ، فان صورة ايفان فومتش كانت تعود الىّ دائماً ، فأراه فى الحلم وقد أصبح مليونيراً ، وأراه لا يدرى ماذا يصنع بملايينه ، فهو لا يبرح يحفر فى رأسه باحثاً لها عن مكان ، ثم يخطر بباله أن من الممكن أن تُسرق فيرتجف خوفاً وينتهى به الأمر الى أن يقرر دفنها • فأنصحه بأن يصهر هذه الثروة بدلاً من أن يدفنها فى غير طائل ، ثم يصنع منها تابوتاً ذهبياً صغيراً للطفل الذى تركه يموت « متجمداً » من البرد ، وذلك بعد أن يخرج رفاته من القبر ؛ فيستقبل سوريكوف هذه النصيحة الساخرة بدموع شكر وعرفان ، ويسرع يضعها موضع التنفيذ • فأبصق على الأرض تعبيراً عن الشعور بأنه امرؤ لا سبيل الى اصلاحه ، وأدعه حيث هو وأمضى • وقد أكد لى كوليا ، حين استرددت وعيى استرداداً كاملاً ، أننى لم أنم البتة ، وأننى ما انفككت أكلمه عن سوريكوف طوال الوقت • ومرّت لحظات اجتاحتنى فيها نوبات

غم رهيب واضطراب فظيع لذلك تركني كوليا وهو يشعر بقلق• ونهضت اغلق الباب وراءه بالمفتاح ، فتذكرت فى تلك اللحظة ، على حين فجأة ، لوحةً كنت رأيتها فى ذلك الصباح عند روجويين ، فى احدى الصالات المعتمة المظلمة من منزله فوق باب من الأبواب • لقد أرانيها هو نفسه حين مررنا بها ، فلبثت واقفاً قرابة خمس دقائق ـ فيما أذكر ـ أمام تلك اللوحة التى ألقتنى الى حالات اضطراب عنيف رغم خلوها من أية قيمة فنية •

« كانت اللوحة تمثل المسيح لحظة انزاله عن الصليب • ان الرسّامين ، اذا لم يخطىء ظنى ، انما اعتادوا أن يصوروا المسيح اما على الصليب واما بعد نزوله عنه ، مع وميض جمالٍ فى وجهه يفوق الطبيعة• انهم يحرصون على أن يحتفظوا له بذلك الجمال حتى فى وسط أشد أنواع العذاب قسوة • أما اللوحة التى رأيتها عند روجويين فلم يكن فيها شىء من هذا • انها تصوير كامل لجثمان انسانى يعبّر عن جميع العذابات التى لا حدود لها مما احتمله المسيح حتى قبل صلبه • ففيها آثار الجروح وآثار اللطمات والضربات التى أمطره بها حراسه والناس حين كان يحمل صليبه ويسقط على الأرض تحت وطأة ثقله ؛ وفيها أخيراً آثار الصلب خلال ست ساعات (اذا صدق حسابى أنا على الأقل) • هذا حقاً وجه انسانٍ أُنزل عن الصليب « منذ برهة » • انه ما يزال يحتفظ بكثير من الحياة والحرارة • ولم يكن التجمد قد فعل فعله بعد ، فكان وجه الميت ما يزال يصوّر الألم كأنه ما انفك يعانيه (لقد أدرك الفنان هذا ادراكاً قوياً) • زد على ذلك أن الوجه كان يعبّر عن الحقيقة صارمة لا تراعى ولا تدارى : فكل شىء فيه طبيعى • انه حقاً وجه أى انسان عانى تعذيباً كذلك التعذيب •

« أنا أعرف أن الكنيسة المسيحية قد ذهبت ، منذ القرون الأولى ،

الى أن آلام المسيح لم تكن رمزية بل واقعية ، وان جسمه كان يخضع وهو على الصليب لجميع قوانين الطبيعة بدون أى تحديد أو تضييق . فكانت اللوحة اذن تمثل وجهاً شوهته الضربات تشويهاً فظيعاً ، فتورم وتنفخ ، وامتلأ خدوشاً وجروحاً نازفة رهيبة ، وحملقت عيناه ، وانقلبت حدقتاهما ، واتسع بياضهما الذى يلتمع التماعاً زجاجياً يعكس الموت . غير أن أغرب ما فى الأمر هو هذا السؤال العجيب المثير الذى يوحيه منظر جثمان ذلك الانسان الذى عذّب هذا التعذيب : اذا كان جميع مريديه ، اذا كان جميع الذين سيصبحون حوارييه ، اذا كانت النساء التى تبعته وتعلقت بأسفل الصليب ، اذا كان الذين آمنوا به وعبدوه ، اذا كان جميع هؤلاء قد رأوا أمام أبصارهم جثة كتلك الجثة (ولا بد أن الجثة كانت على الصورة التى وصفناها) فكيف أمكنهم أن يصدقوا وهم يرون هذه الرؤية أن الشهيد سيبعث حياً ويقوم ؟ ان المرء ليقول لنفسه رغم أنفه : اذا كان الموت أمراً فظيعاً الى هذا الحد ، اذا كانت قوانين الطبيعة قوية هذه القوة ، فكيف يمكن الانتصار عليها ؟ كيف يمكن تذليلها فى حين أنها لم تلق حتى أمام ذلك « الذى » أخضع الطبيعة أثناء حياته ، وجعلها تنصاع له ، وقال : « قومى طليثا » * فاذا الصبية تقوم ، وقال « اخرج لعازر » * فاذا الميت يخرج من القبر . حين يتأمل المرء هذه اللوحة فانه يتخيل الطبيعة فى صورة وحش ضخم حاقد أخرس . أو قل ، مهما يكن التشبيه غريباً غير متوقع ، ان من الأصح كثيراً أن تشبه الطبيعة هنا بآلة حديثة من آلات البناء الضخمة ، صماء لا تحس ، بلهاء لا تفهم ، تلقفت ثم طحنت ثم ابتلعت « كائنا » لا يعادله كائن ، يساوى وحده كل الطبيعة وكل القوانين التى تحكم الطبيعة ، وكل الأرض التى لعلها لم تُخلق الا ليظهر ذلك « الكائن » !

« ان ما بدا لى أن تلك اللوحة تعبر عنه انما هو فكرة وجود قوة

غامضة غاشمة أبدية يخضع لها كل شيء ، وتحكمكم رغم أنوفكم • ان الناس الذين كانوا يحيطون بالميت ، رغم أن اللوحة لم تصور أي واحد منهم ، لا بد أنهم شعروا بغم فظيع وانصعاق رهيب في ذلك المساء الذي حطَّم ، دفعةً واحدة ، جميع آمالهم ، وكاد يحطم ايمانهم • لا بد أنهم افترقوا على هلع هائل ملأ جوانب أنفسهم ، رغم أن كل واحد منهم حمل في قرارة نفسه فكرة كبيرة ترسخت في أعماقه فلا سبيل الى انتزاعها منها بعد ذلك قط • سؤال آخر : ترُى لو استطاع « المعلم » أن يرى صورة نفسه عشية تعذيبه ، أفكان يمشي الى الصلب والى الموت كما مشى اليهما ؟ ذلكم سؤال آخر يخطر ببالكم على غير ارادة منكم حين تنظرون الى تلك الصورة •

« حاصرت هذه الخواطر فكري بعد انصراف كوليا خلال ساعة ونصف ساعة • وكانت مفككة ، وأغلب الظن أنها كانت تشتمل على هذيان ، لكنها كانت كذلك تكتسي في بعض الأحيان مظهراً محسوساً • هل يستطيع الخيال أن يضفي شكلاً معيناً على ما ليس له في الواقع شكل؟ كان يخيَّل اليَّ في بعض اللحظات أنني أرى تلك القوة التي لا نهاية لها ، أن أرى ذلك الكائن الأصم المظلم الأخرس يتجسد تجسداً مادياً على نحو غريب لا سبيل الى وصفه • أذكر أنني أحسست بأن أحداً حاملاً شمعة قد أمسك يدي فأراني عنكبوتة ضخمة كريهة ، مؤكدا لي أن هذه العنكبوتة الضخمة هي بعينها ذلك الكائن المظلم الأصم القادر على كل شيء ، ضاحكاً من الاستياء التي أظهرته •

« يضيء غرفتي في الليل دائماً مصباحٌ صغير أمام الأيقونة • ورغم أن ضوء هذا المصباح كامد مهتز فانه يتيح تمييز الأشياء ، حتى ليستطيع المرء أن يقرأ اذا هو دنا من الضياء • أظن أن الوقت كان بعد منتصف

الليل بقليل . لم أكن نائماً البتة ، وكنت مضطجعاً مفتّح العينين . وفيما أنا كذلك اذا بباب غرفتي يُشق فجأة فيدخل روجويين .

« دخل وأغلق الباب ثانية ، ونظر الىّ دون أن يقول كلمة ، واتجه متئداً نحو الكرسي الذي يوجد في زاوية الغرفة تحت المصباح تقريباً . دُهشت أشد الدهشة ، وأخذت أرقبه منتظراً ما سوف يفعله . وضع كوعيه على منضدة صغيرة ، وحدّق الىّ بنظرة ثابتة صامتاً . انقضت ثانيتان أو ثلاث ثوان على هذه الحال . وأذكر أن صمته قد أهانني كثيراً وأثار حنقي . لماذا لا يحزم أمره فيتكلم ؟ وقد استغربت طبعاً أن يجيء في ساعة متأخرة هذا التأخر كله ، ولكنني لا أذكر أن هذا شدهني وأذهلني كثيراً في حد ذاته. بالعكس : صحيح أنني لم أعرب له في الصباح عن فكرتي اعراباً واضحاً ، لكنني كنت أعلم أنه حزرها وأدركها . ولقد كانت تلك الفكرة تستحق فعلاً أن يجيء لمعاودة الكلام فيها ، ولو في ساعة متأخرة جداً . لذلك قرّرت أنه انما جاء لهذا الغرض . كنا قد افترقنا في الصباح على غير وفاق ووئام ، حتى انني أذكر أنه رشقني مرة أو مرتين بنظرة فيها كثير من السخرية والاستهزاء. وهذا التعبير نفسه عن السخرية والاستهزاء هو ما أقرؤه الآن في نظرته، وهو ما أشعر أنه يجرح شعوري ويهين كرامتي . أما أنني كنت أرى أمامي روجويين نفسه فعلاً ، وأنني لا أرى حلم نومٍ أو أشباح هذيان فذلك ما لم يراودني فيه أيسر شك في أول الأمر ، حتى ان هذه الفكرة لم تخطر ببالي أصلاً .

« ويظل روجويين جالساً ، ويظل ينظر الىّ مبتسماً ابتسامته الساخرة تلك . انقلبت على سريري غاضباً ، ووضعت كوعي على وسادتي وقررت أن أقلّد صمته ، ولو طال هذا الصمت الى غير نهاية . لا أدري لماذا أردت أن يكون هو البادىء بالكلام حتماً . أظن أن نحو عشرين

دقيقة انقضت على هذه الحال . وفجأة ومضت فى ذهنى فكرة : من يدرى؟ قد لا يكون هذا روجويين ، بل شبحاً لا أكثر !

« لم يكن قد تراءى لى أى شبح لا أثناء مرضى ولا قبل مرضى . وأنا منذ طفولتى حتى هذه اللحظة ، أى حتى الآونة الأخيرة ، رغم اننى لم أومن قط بأشباح تظهر ، كان يبدو لى دائماً اننى سأموت فوراً اذا اتفق أن ظهر لى شبحٌ مرةً . ومع ذلك أذكر اننى حين خطر ببالى أن هذا ليس روجويين بل هو شبح ، لم أشعر من ذلك بأى رعب . وأكثر من هذا اننى شعرت بغضب . أمر غريب : ان التساؤل عما أراه أمامى أهو شبح أم هو روجويين بشخصه لم يشغلنى ولا أقلقنى ، كما كان طبيعياً أن يحدث ذلك . ويبدو لى أن فكرى كان منصرفاً الى غير هذا. من ذلك مثلاً اننى كنت على أحر من الجمر رغبةً فى أن أعرف لماذا كان روجويين يرتدى الآن رداء « فراك » ، وصديرة بيضاء ، وربطة عنق بيضاء بينما كان فى الصباح يلبس ثوباً للمنزل وينتعل خفين . وقلت لنفسى : اذا كان ما أراه شبحاً فاننى غير خائف منه . فلماذا لا أنهض فأقترب منه لأتحقق بنفسى ما هو ؟ أترانى مع ذلك خائفاً لا أجسر أن أفعل ؟ ولكن ما ان خطر ببالى اننى خائف حتى شعرت بصقيع فى جسمى كله ، وسرت فى ظهرى رعدة ، وأخذت ركبتاى تصطكان ارتجافاً . وكأن روجويين أدرك رعبى ، فاذا هو ، فى تلك اللحظة نفسها ، يسحب ذراعه التى كان متكئاً على كوعها ، وينتصب قائماً ، ويفتح فمه يهم أن يضحك . وكان يحدّق الىَّ فى اصرار وعناد . فاجتاحنى حنق بلغ من قوة الاستعار أننى أردت أن أهجم عليه . لكننى وقد آليت على نفسى أن لا أكون البادىء بقطع الصمت ، لم أتحرك عن سريرى . ثم اننى لم أكن واثقاً من أن ما أراه هو روجويين بشخصه ، وليس طيفاً أو شبحاً .

« لا أذكر كم طال هذا المشهد . لا ولا أستطيع أن أقول هل كنت

أغفو أثناء ذلك من حين الى حين . وتهض روجـوبين أخيراً ، فتأملني بهدوء وانتباه ، كما فعل حين دخل ، ولكن دون ضحك ساخر في هذه المـرة ، ثم اتجـه بخطى لا تكاد تلمس الأرض ، على رءوس الأصابع تقريباً ، اتجه نحو الباب ففتحه وخـرج وأغلق وراءه . لم أنهض من مكاني . ولا أذكر كم من الوقت ظللت على هذه الحال مضطجعاً ، مفتّح العينين ، غارقاً في أفكاري ، مستسلماً لخواطري . ماذا كانت تلك الأفكار والخواطر ؟ الله أعلم ! ولست أذكر أيضاً كيف غفوت .

« واستيقظت في الغد بعد الساعة التاسعة ، حين سمعت قرعاً على بابي . ان من المتفق عليه في بيتنا أن تقرع ما تريونا بابي اذا لم أفتحه من تلقاء نفسي بعد الساعة التاسعة ولم أنا أحداً لاتياني بالشاي . فلما فتحت الباب لماتريونا أسرعت أتساءل : كيف أمكنه أن يدخل اذا كان هذا الباب مغلقاً . واستطلعت الأمر فأيقنت أنه ما كان لروجويين أن يستطيع دخول غرفتي لأن جميع أبوابنا تكون في الليل مقفلة بالمفتاح .

«ان هذا الحادث الذي وصفته لكم بجميع هـذه التفاصـيل الكثيرة هو الذي حضني على أن أتخذ «قراري» نهائياً . ان هذا القرار لا يصدر اذن عن منطق الاستدلال العقلي بل عن شعور الاشمئزاز العاطفي . انني لا أستطيع أن أبقى في حياة تكتسي أشـكالاً غريبـة وجارحة الى هذا الحـد . ان ذلك الشـبح قد تركني تحت وطأة احسـاس بالذل . انني لا أشعر بأنني أرضى الخضوع لقوة تستعير مظاهر عنكبوت ضخم . أنا لم أحس بشيء من التخفف الا حين رأيتُني أخيراً ، عند الغسق ، أمام قرار كامل نهائي . ومع ذلك لم يكن هذا الا مرحلةً أولى : وكنت سأجتاز المرحلة الثانية في بافلوفسـك ، ولكن هذا قد سـبق أن شرحته شرحاً كافياً » .

الفصل السابع

كان عندى مسدس صغير للجيب ، حصلت عليه حين كنت طفلاً ، فى تلك السن المضحكة التى يأخذ فيها الطفل بالتحمس لقصص المبارزات وهجمات قطاع الطرق. كنت أحلم بأن أُدعى الى مبارزة، فأقف أمام مسدس خصمى رابط الجأش ثابت الجنان . وقد فحصت هذا المسدس منذ شهر وسلَّحته . ففى العلبة التى كانت تضمه وجدت رصاصتين ووعاءً صغيراً يحتوى على بارود يكفى لطلقتين أو ثلاث . ان المسدس ردىء لا قيمة له ، فهو ينحرف ولا يتجاوز مداه خمس عشرة خطوة ، لكنه اذا وُضع على الصدغ رأساً فلا شك أنه يكفى لتحطيم الجمجمة .

« قررت أن أموت فى بافلوفسك ، عند طلوع الشمس ، بعد أن أنزل الى الحديقة العامة حتى لا أحدث اضطراباً فى الفيللا . ان «الشرح» الذى أتركه بعد موتى سيكون كافياً لتوجيه التحقيق الذى ستقوم به الشرطة . وسوف يستطيع عشاق علم النفس والمهتمون بالأمر أن يستخلصوا من ذلك كل ما يحلو لهم أن يستخلصوه . ومع ذلك لا أحب أن تُنشر هذه المخطوطة فى الصحف . اننى أرجو الأمير أن يحتفظ بنسخة عنده وأن يوصل النسخة الأخرى الى آجلايا ايفانوفنا ايبانتشينا . هذه ارادتى . وأنا أوصى بهيكلى العظمى لأكاديمية الطب خدمةً للعلم .

« لا أعترف لأحد بحق الحكم عليّ ، وأعلم أنني الآن في منجى من كل قضاء . منذ مدة قصيرة راودتني فكرة مضحكة . تساءلت : لو بدا لي فجأة أن أقتل أحد الناس ، أو أن أذبح عشرة أشخاص مرة واحدة ، أو أن أقترف أية جريمة فظيعة ، أن أرتكب أفظع جريمة يمكن أن يتحدث عن هولها الناس ، فما أشد الارتباك الذي سأضع فيه المحكمة وأنا لم يبق لي من الحياة الا أسبوعان أو ثلاثة ، وقد أُلغي الاستجواب والتعذيب ؟ لو فعلت هذا لأتيح لي أن أموت مرفّهاً مدلّلاً في المستشفى ، محاطاً بعناية الأطباء ، وقد يتوفر لي من الراحة والدفء هناك اكثر كثيراً مما يتوفر لي في بيتي . لا أفهم كيف لا تخطر هذه الفكرة ببال الناس الذين يكونون في مثل حالتي ، ولو من قبيل المزاح . لعل الفكرة خطرت ببالهم فعلاً ، فليس الفكهون هم الذين ينقصوننا أو ينقصون غيرنا .

« ولكن اذا كنت لا أعترف بقضاة يحكمون عليّ ، فهذا لا ينفي أنني أعرف أن الناس سيحكمون عليّ ، حتى حين أكون قد أصبحت متهماً أصمّ أبكم . لذلك لا أريد أن أمضي قبل أن أترك رداً حراً بغير اكراه ، لا لأبرر نفسي ، لا ، لا ! فما أنا في حاجة الى أن أطلب غفراناً من أحد ، بل لأنني أحب أن أترك رداً ، ولأنني أجد في ذلك لذة .

« اليكم أولاً هذه الفكرة الغريبة : من ذا الذي يستطيع - وبأي حق ولأي سبب ؟ - أن ينكر عليّ حرية التصرف في حياتي خلال هذين الأسبوعين أو هذه الأسابيع الثلاثة ؟ أية محكمة يمكن أن تكون جهة الاختصاص في هذا ؟ وما عسى أن تكون الفائدة لا من أن أكون مقضياً عليّ بالموت فحسب ، بل كذلك من أن أحتمل المدة الباقية لتنفيذ الحكم بالموت مذعناً عاقلاً ؟ هل يمكن أن ينتفع أحد بهذا حقاً ؟ هل تستفيد قضية الأخلاق من هذا فعلاً ؟ كان يمكن أن أقبل هذا الكلام لو كنت

أنتظر ، وأنا فى تمام العافية وفى كمال القوة ، أن يأتى حين « أكون فيه نافعاً لأخى الانسان » الخ الخ ... ان الأخلاق تستطيع عندئذ أن تتهمنى، منقادة لروتين عتيق بال ، بأننى تصرفت فى حياتى دون استئذان ، أو أن تتهمنى باقتراف ذنب آخر من هذا النوع !... أما الآن وقد أبلغت موعد موتى ، فبماذا يمكن أن أتهم ؟ ما هى تلك الأخلاق التى تطلب منك بالاضافة الى حياتك ، تلك الحشرجة الأخيرة التى تلفظ أثناءها آخر ذرة من روحك ، سامعاً تلك الكلمات المواسية المعزية التى لن يفوت الأمير أن يقولها لك وأن يصل منها الى براهين مسيحية على أن من الأفضل لك حقاً أن تموت ؟ (ان أمثاله من المسيحيين يصلون دائماً الى تلك الفكرة ، فهى موضوع هوسهم !) . ما الذى يريدونه من حديثهم المضحك عن « أشجار بافلوفسك » ؟ أيريدون أن يجعلوا ساعاتى الأخيرة أرفق وألطف ؟ أهم لا يدركون اذن أننى على قدر ما أنسى نفسى فأنقاد لغواية هذا الشبح الأخير من الحياة والمحبة الذى يأملون أن يخفوا به عن بصرى حائط منزل ماير وكل ما هو مسجل عليه بصراحة كبيرة وسذاجة تامة، أننى على قدر ذلك يزداد شقائى وتتفاقم تعاستى؟ فيم تهمنى الطبيعة الجميلة وحديقة بافلوفسك العامة ، وفيم يهمنى شروق الشمس وغروبها ، والسماء الزرقاء والوجوه الرضية الرخية ، اذا كنت الشخص الوحيد الذى يعد غير مفيد ، واذا كنت الشخص الوحيد الذى أبعد عن هذه الوليمة منذ البداية ؟ ما حاجتى الى كل ذلك السناء وكل تلك الروعة اذا كان يجب على فى كل دقيقة ، وفى كل ثانية ، أن أعلم مجبراً أن تلك الذبابة الصغيرة التى تدندن الآن حولى فى شعاع شمس ، يحق لها أن تشارك فى تلك الوليمة وأن تشارك فى جوقة الطبيعة هذه . انها تعرف المكان المحفوظ لها ، وهى تحبه وهى سعيدة به . أما أنا فاننى وحدى المنبوذ ؟ ولم يمنعنى عن فهم ذلك حتى الآن الا الجبن .

« اننى أعلم أن الأمير وسائر الآخرين يريدون أن يحملونى على العدول عن هذه التعابير « الحاقدة الكارهة » ، ويودون لو يسمعوننى أنشد ، باسم انتصار الأخلاق ، تلك الأبيات الشعرية الكلاسيكية الشهيرة التى أنشدها ميلفوى اذ قال :

ألا فليرَ جمالك المقدس
أصدقاء كثيرون ، صُمَّت آذانهم عن سماع وداعى !
ولتطلْ أعمارهم ، ولتُذرف لموتهم الدموع
ولتطبق أجفانَهم يدا صديق

« ولكن صدِّقوا أيها البسطاء ، صدِّقوا كل التصديق ، أن فى هذه الأبيات الواعظة وفى هذه المباركة الأكاديمية للعالم بشعر فرنسى ، كثيراً من المرارة الخبيثة ، وكثيراً من البغضاء التى لا يشفى لها غليل ، البغضاء التى تتلذذ بنفسها ؟ وأن تلك المرارة وهذه البغضاء بلغتا من القوة والشدة أن الشاعر نفسه يمكن أن يكون قد انطلى عليه الأمر فحسب الكره والحقد دموع حنان وعبرات عاطفة . ولا شك أن الشاعر مات وهو على ذلك الوهم . رحمه الله ! اعلموا أن هناك حداً للغم والقهر والنكد الذى يحدثه فى نفس الانسان شعوره بأنه لا شىء ، وبأنه عاجز ، فاذا تجاوز الانسان ذلك الحد غرق فى لذة خارقة .

« صحيح أن المذلة هى بهذا المعنى قوة ضخمة . اننى اسلم بهذا . ولكن هذه القوة ليست القوة التى يجدها فيها الفن .

« آه ... الدين ! اننى أسلِّم بالحياة الأبدية . ولعلنى كنت أسلِّم بها دائماً . أحب فعلاً أن أعتقد أن الشعور شعلة أوقدتها ارادة قوة عليا ، وأنه يعكس فى ذاته الوجود ، وأنه يقول : « أنا موجود » . وأحب أن أومن أيضاً بأن هذه القوة العليا نفسها تأمره دفعة واحدة بأن ينطفىء ،

لحكمة بعيدة غامضة ، وبدون أي تفسير • لكن • انني اسلّم بهذا كله• ولكن يبقى السؤال الأبدي : لماذا يجب عليّ أن أضيف الى هذا الاجبار اذعاني وذلي ؟ ألا يكفي أن أُلتهم فحسب ، دون أن أتغنى بمدح ذلك الذي يلتهمني ؟ هل يمكن أن يوجد هناك في الملأ الأعلى أحد يسيء اليه حقاً ويؤذيه فعلاً أن لا أريد انتظار ساعتي أسبوعين؟ لا ، لا أصدق هذا ! بل افترض ـ وذلك أقرب كثيراً الى الصحة ـ أن تكون حياتي المسكينة التي هي حياة ذرة ، قد وُجدت حاجة الى زوالها لاكمال انسجام كلي شامل ، لتحقيق زيادة معينة أو نقص معين ، لايجاد نوع من تضاد أو تعارض أو شيء من هذا القبيل ، كما توجد حاجة الى التضحية كل يوم بملايين الكائنات التي لا يمكن أن يبقى العالم ما لم تمت (لاحظوا أن هذه الفكرة ليست سمحة في ذاتها) • ولكن فلننتقل من هذا • لنسلّم بأنه اذا لم يأكل البشر بعضهم بعضاً ، يستحيل بناء العالم ؟ بل ولأرتض أن لا أفهم من هذا البناء شيئاً • ولكن اليكم ما أعلمه حتماً : اذا كنت قد أوتيت أن أدرك أنني « أوجد » ، فهل أنا مسئول عن كون هذا العالم قد بُني مقلوباً وأنه لا يمكن أن يوجد الا بهذه الطريقة وعلى هذا النحو ؟ من ذا سيحكم عليّ بعد هذا ، والى أي شيء سيستند ليحكم عليّ ؟ فكروا في الأمر ما شئتم أن تفكروا ، فلن تستطيعوا أن تنكروا أن هذا كله يستحيل تصوره ، وأنه كله ظلم لا عدل •

« على أنني لم أستطع في يوم من الأيام ، رغم كل رغبتي في ذلك ، أن أتصور أن الحياة الآخرة والعناية الالهية لا وجود لهما • فأغلب الظن أن ذلك كله موجود ، ولكننا لا نفهم شيئاً لا عن الحياة الآخرة ولا عن القوانين التي تحكمها • ولكن اذا كان هذا يصعب بل يستحيل فهمه ، فهل أُحاسَب أنا على عجزي عن ادراك ما لا يمكن تصوره ؟ صحيح أنهم يدعون ـ وهذا رأى الأمير قطعاً ـ أن من الواجب علينا هنا أن

نخضع ونطيع دون تفكير ، بداعي الحس الأخلاقي وحده ؟ وهم يضيفون الى ذلك أن طواعيتي ستجد في الحياة الآخرة مكافأتها . ألا أننا نخفض قيمة العناية الالهية كثيراً حين ننسب اليهـا أفكارنا غضـباً من العجز عن فهمها . ولكنني أعود فاكرر قولي بأن الانسان اذا عجز عن فهم العنـاية الالهية فمن الصعب أن يتحمل تبعة عجز عن الفهم فُرض عليـه فرضاً وجُعل له قانوناً . واذا كان الأمر كذلك فكيف يحـكم عليّ لأنني لم أستطع أن أفهم ارادة العناية الالهية وأن أدرك قوانينها ؟ لا ! الأَوْلى أن ندع الدين جانباً .

« وكفى هذا ، على كل حال ! حين سأصل الى هذه الأسطر ستكون الشمس قد طلعت ، وستأخذ « تترجَّح في السموات » مغدقةً على الكون كله قوى واسعة لا تعد ولا تحصى ! لتكن مشيئة الله ! سوف أموت متأملاً وجه ينبوع القوة والحيـاة هذا ، ينبوع هذه الحيـاة التي لن أريدها بعد اليوم. لو كانت ولادتي مرهونة بارادتي، لرفضت الوجود في ظل ظروف ساخرة الى هذا الحد . ولكنني ما أزال أقدر أن أموت ، وان كنت لا أملك الا بقية حياة أصبحت أيامها منذ الآن معدودة . هذه قدرة ضئيلة ؟ وليس تمردي أقل ضآلة منها .

« شرح أخير : اذا مت فان ذلك لا يرجع الى انني لا أملك الشجاعة اللازمة لاحتمال هذه الأسابيع الثلاثة . ان في وسعي حتمـاً أن أجـد القوى الضرورية لاحتمالها ؟ ولو شئت لكان في امكاني أن أستمد عزاءً كافياً من الشعور بالاهانة التي أُلحقت بي . لكنني لست شاعراً فرنسياً ، ولا أحرص على هذا النوع من العزاء . ثم ان هناك اغراء : ان الطبيعة حين قضت بأن لا أعيش الا ثلاثة أسابيع قد بلغت من تضييق ساحة عملي أن الانتحار ربما كان الآن هو الفعل الوحيد الذي أستطيع أن أقوم به وأن انفذه بارادتي الحرة . فلماذا لا أستغل هذه الامكانية الأخيرة التي

تتاح لي من أجل أن « أعمل » ؟ رب احتجاج له قيمته في بعض الأحيان ... »

أنهى هيبوليت أخيراً قراءة « الشرح » ، فوقف ...

ان الانسان العصبي ، اذا غضب غضباً شديداً وخرج عن طوره ، يمكن في حالات قصوى أن يمضي في الصراحة الى درجة الاستخفاف والاستهتار . فلا يخشى بعدئذ شيئاً ، ويكون مستعداً لاثارة أية فضيحة ، حتى لقد يفتنه هذا ويخلب لبه . انه يهجم على الناس وقد عقد النية بصورة غامضة لكنها حاسمة على أن يلقي بنفسه بعد دقيقة واحدة من أعلى برج ناوس ، فيصفّي بذلك ، دفعةً واحدة ، جميع الارباكات والمشكلات التي يكون قد خلقها سلوكه . وهذه الحالة يسبقها في العادة وينذر بها انهاك يعتري القوى الجسمية شيئاً بعد شيء . ان التوتر الشديد ، غير السوي ، الذي سند هيبوليت حتى ذلك الحين ، كان قد بلغ تلك المرحلة. فجسم هذا المراهق الذي يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، والذي هدّه المرض ، كان يبدو ضعيفاً ضعف ورقة مرتجفة انتُزعت من الشجرة . لكنه ما ان نظر الى سامعيه ـ لأول مرة منذ ساعة ـ حتى عبَّرت نظرته وابتسامته فوراً ، عن أكبر اشمئزاز متعال ، وعن أشد احتقار جارح . لقد كان يتعجل أن يتحداهم ، لكن هؤلاء قد امتلأوا استياء وانزعاجاً . فنهضوا عن المائدة يضجون غضباً . ان التعب والخمرة وتوتر الأعصاب ، ان ذلك كله قد فاقم الفوضى وزاد عكر المشاعر في هذا الاجتماع .

نهض هيبوليت عن كرسيه بوثبة ، نهض نهوضاً مفاجئاً كأنما هو انتزع انتزاعاً . فلما رأى ذرى الأشجار تسطع بالنور هتف يقول للأمير وهو يشير له اليها ، كما لو كان ذلك معجزة من المعجزات :

ـ طلعت الشمس ! طلعت الشمس !

قال فردشتشنكو :

ـ أتُراك كنت تظن أنها لن تطلع ؟

ودمدم جانيا يخول معبِّراً عن الضجر وقلة الاكتراث ، متناولاً قبعته بيده ، متمطياً ومتثائباً :

ـ الجو يؤذن بنهار آخر محرق . هل أمامنا شهر آخر من جفاف ؟.. أننصرف أم نبقى يا بتتسين ؟

أصغى هيبوليت الى هذه الكلمات بدهش يشبه أن يكون انشداهاً . وشحب لونه على حين فجأة شحوباً فظيعاً ، وأخذت أعضاؤه كلها ترتعش .

قال لجانيا وهو يحدق الى بياض عينيه :

ـ تتصنع قلة الاكتراث لتهينني ! أنت رجل تافه !

قال فردشتشنكو :

ـ يا سلام ! ما هذا الانطلاق فى الكلام بغير تحرج ؟ يا للاسترسال الهائل الذى لا يعرف الكلفة !

قال جانيا :

ـ ما هو الا شاب غبى لا أكثر !

استرد هيبوليت شيئاً من سيطرته على نفسه وكظم غيظه ، وبدأ يتكلم فقال وهو ما يزال يرتعش ويقاطع نفسه فى كل لحظة :

ـ اننى أفهم أيها السادة أن أكون جديراً بحقدكم الشخصى ، و.. يؤسفنى أننى أزعجتكم بقراءة هذا الهذيان لكم (قال ذلك وهو يظهر مخطوطته) . ولكن يؤسفنى من جهة أخرى أننى لم أضايقكم مزيداً من المضايقة (قال هذا وابتسم ابتسامة بلهاء) . أليس صحيحاً يا أوجين بافلوفتش أننى كنت مزعجاً مضجراً ؟ أكنت مضجراً أم لا ؟ تكلم !

أجاب أوجين بافلوفتش :

ـ كانت المقالة طويلة بعض الطول ، ولكن ... على كل حال ..

فقال هيبوليت وهو ما يزال يرتجف :

ـ قل فكرتك كلها ، لا تكذب ! مرةً واحدة فى حياتك على الأقل ...

قال أوجين بافلوفتش وهو يشيح وجهه مشمئزاً :

ـ أوه ! يستوى عندى تماماً ... دعنى وشأنى ، أرجوك .

قال بتسين وهو يقترب من المضيف :

ـ طابت ليلتك يا أمير .

وهتفت فيرا تقول مسرعةً نحو هيبوليت :

ـ لكنه سيطلق النار فى رأسه ، ما بالكم ! انظروا اليه ! قال انه سينتحر عند طلوع الشمس ، ماذا تفعلون ؟

كانت فيرا فى ذروة الذعر حتى لقد أمسكت يديه .

فدمدمت عدة أصوات ، منها صوت فانيا ، تقول بلهجة كارهة :

ـ لن ينتحر !

صاح كوليا وقد أمسك يد هيبوليت هو أيضاً :

ـ حذار أيها السادة انظروا اليه ! أمير ، أمير ، كيف تبقى غير مكترث ؟

تجمع حول هيبوليت كل من فيرا وكوليا وكيللر وبوردوفسكى ، وتشبث الأربعة به .

تمتم بوردوفسكى يقول :

ـ هذا من حقه ، هذا من حقه !...

ولكن بوردوفسكى كان يبدو عليه أنه فاقد عقله تماماً .

وقال ليبديف للأمير يسأله :

ـ اسمح لى يا أمير ؟ ما هى الاجراءات التى تنوى اتخاذها ؟

كان ليبديف مخموراً ، وكان اندفاعه يستحيل الى وقاحة .

سأله الأمير :

ـ أية اجراءات تعنى ؟

ـ لا ، اسمح لى ! أنا هنا سيد الدار ، وان كنت لا أريد أن أقلل ما احمله لك من اعتبار !... اننى أسلِّم بأن هذا البيت بيتك أيضاً ... ولكننى لا أريد مشاكل من هذا النوع تحت سقفى ... لا ... لا أريد !...

وصاح الجنرال ايفولجين يقول فجأة بلهجة فيها ثقة وامتعاض على قدر سواء :

ـ لن ينتحر . هذا الصبى مهرِّج !

فصاح فردشتشنكو يقول مجنداً :

ـ مرحى يا جنرال !

قال ليبديف :

ـ أنا أعرف أنه لن ينتحر يا جنرال ... أيها الجنرال المحترم جداً ... ولكننى مع ذلك ... أنا هنا سيد الدار .

ودَّع بتتسين الأمير ، ومدَّ يده الى هيبوليت . وقال له بغتةً :

ـ اسمع يا سيد تيرنتيف : ورد فى كتابك ذكرٌ لهيكلك العظمى فيما أظن ، وورد أنك تورثه أكاديمية الطب ، أليس كذلك ؟ فهل تقصد هيكلك العظمى أنت ؟ أعظامك تورث ؟

ـ نعم ، عظامي •••

ـ آ ••• طيب • ذلك أن من الممكن أن يحدث سوء فهم • يظهر أن شيئاً من هذا سبق أن وقع •

تدخل الأمير فجأة يسأل بتسين :

ـ لماذا تغيظه ؟

وأضاف فردشتشنكو قائلاً :

ـ لقد أبكيته !

لكن هيبوليت لم يكن يبكي البتة • وقد هم أن يفلت ، لكن الأشخاص الأربعة الذين كانوا يحيطون به ، لم يلبثوا أن قبضوا عليه • وانطلقت ضحكات •

قال روجوين :

ـ كان يأمل أن نوثق يديه لنصده عن الانتحار ، لذلك قرأ لنا دفتره • استودعك الله يا أمير • لقد طال جلوسنا حتى أصبحنا نحس بألم في عظامنا •

وقال أوجين بافلوفتش ضاحكاً :

ـ لو كنت في مكانك يا تيرنتيف ، وكان في نيتي أن أنتحر فعلاً ، لعدلت عن الانتحار بعد هذه الأماديح التي كالوها جزافاً ، ولو لأغاظتهم على الأقل !

فقذفه هيبوليت بقوله وكأنه يريد أن ينقض عليه من فرط غضبه :

ـ انهم يتمنون أن يروني أنتحر !

قال أوجين بافلوفتش :

ـ انهم ليغيظهم كثيراً ان لا يروا هذا المنظر !

ـ أأنت أيضاً تظن اذن أنهم لن يروه ؟

فأجاب أوجين بافلوفتش بلهجة بطيئة يصطنع فيها مظهر الحماية له:

ـ لا أريد أن أحضك عليه . بالعكس : أنا أعتقد بأنك قادر على أن تنتحر ، لكننى أرجوك خاصةً أن لا تغضب ...

قال هيبوليت وهو ينظر الى أوجين بافلوفتش بلهجة تبلغ من الثقة المفاجئة أنه كان كمن يطلب نصيحة من صديق :

ـ لم أدرك الا الآن الخطأ الضخم الذى ارتكبته اذ قرأت عليهم دفترى !

فأجابه أوجين بافلوفتش قائلاً وهو يبتسم :

ـ وضعك عجيب مضحك !... بصراحة : لا أدرى ما هى النصيحة التى يمكن أن أسديها اليك !

فحدّق اليه هيبوليت صامتاً ، بنظرة وحشية عنيدة . كان يبدو كمن يفقد ادراك ما يجرى حوله من حين الى حين .

قال ليبديف :

ـ آ ... لا ... اسمحوا لى يا سادة ! ما هذه طريقة فى التصرف. هو يصرخ بأنه « سيطلق النار فى رأسه بالحديقة العامة حتى لا يزعج أحداً » ، فهل يعتقد اذن بأنه لن يزعج أحداً اذا هو انتحر فى الحديقة على بعد ثلاث خطوات من هنا ؟

وأراد الأمير أن يتكلم فقال :

ـ أيها السادة ...

ولكن ليبديف قاطعه غاضباً يقول :

ـ لا ، اسمح لى ، أيها الأمير الجليل ! انك لترى بنفسك أن هذا ليس مزاحاً . ان نصف ضيوفك على الأقل يشتركون فى الاقتناع بأن

الشرف يوجب عليه ، بعد الذى سمعناه من كلام ، أن يبادر الى الانتحار . ولما كنت أنا رب المنزل ، فاننى أطلب معونتك وأناشدك أن تهب الى مساعدتى أمام شهود .

ـ ما الذى يجب أن نعمله يا ليديف ؟ أنا مستعد لمساعدتك .

ـ اليك ما يجب أن نفعله : يجب أولاً أن يسلمنا المسدس الذى افتخر بأنه يحمله ، وأن يسلمنا ذخيرته . فاذا وافق على ذلك ، وافقت أنا على أن يقضى الليلة هنا ، مراعاةً لمرضه ، ولكن على شرط أن أراقبه ؛ ثم يكون عليه أن يمضى فى الغد الى حيث يشاء أن يمضى . معذرةً يا أمير ! اذا لم يسلم سلاحه ، فسأقبض أنا على احدى ذراعيه ، ويقبض الجنرال على ذراعه الأخرى ، ونرسل فى طلب الشرطة حالاً ، فتتولى هى الأمر وتمسك بزمام القضية . وسيتولى السيد فردشتشنكو ابلاغ الشرطة بصفته صديقاً .

وقامت جلبة : ليديف يتحمس ويتعدى حدود القصد والاعتدال ؛ وفردشتشنكو يتهيأ للذهاب الى الشرطة ؛ وجانيا يكرر مصراً ملحاً أن هيبوليت لن يحاول الانتحار . أما أوجين بافلوفتش فقد لزم الصمت .

قال هيبوليت يسأل الأمير بصوت خافت :

ـ هل اتفق لك يا أمير أن سقطت يوماً من أعلى برج ناقوس ؟

فأجابه الأمير بسذاجة :

ـ لـ ... لا !

وعاد هيبوليت الذى كانت عيناه تلتمعان ، عاد يهمس من جديد قائلاً :

ـ أتظن أننى لم أتنبأ بهذه الكراهية كلها ؟

ثم صاح يقول على حين فجأة ، مخاطباً الجمع كافة :

ـ كفى ! لقد أخطأت ••• أكثر من أى شخص آخر ! يا ليبديف، اليك المفتاح (قال ذلك واستل من محفظته حلقة من الفولاذ تتدلى منها ثلاثة مفاتيح صغيرة أو أربعة) ، أقصد هذا المفتاح ••• الذى هو قبل الأخير ••• سيريك كوليا ••• يا كوليا ! أين كوليا (كذلك صاح ينادى وهو ينظر الى كوليا دون أن يراه ••) آ •• نعم !••• طيب ! هو الذى سيريك ••• لقد ساعدنى منذ قليل فى ترتيب حقيبتى • اذهب معه يا كوليا • فى حجرة الأمير ، تحت المنضدة ••• ستجد حقيبتى ••• وبواسطة هذا المفتاح ستجد فى الصندوق الصغير الموجود فى قاع الحقيبة ••• مسدسى ووعاء البارود • ان كوليا نفسه هو الذى رتب لى الحقيبة منذ قليل • سيريك كل شىء يا سيد ليبديف • ولكننى اشترط أن تردّ الىّ المسدس فى صباح الغد ، حين أسافر • هل تسمع ؟ اننى لا أفعل هذا ارضاءً لك أنت ، بل ارضاءً للأمير •

قال ليبديف وهو يمسك المفتاح :

ـ فهذا أفضل !

قال ليبديف ذلك وركض الى الغرفة المجاورة وهو يبتسم ابتسامة مسمومة• ووقف كوليا كمن يريد أن يعترض، لكن ليبديف جرّه معه•

رأى هيبوليت الضيوف يضحكون • ولاحظ الأمير أن أسنانه كانت تصطك كأنما هو يعانى حمى شديدة •

ودمدم هيبوليت يقول فى اذن الأمير من جديد بلهجة غاضبة :

ـ ما أحقر هؤلاء الناس جميعاً !

كان من أجل أن يكلم الأمير ، يميل عليه دائماً ، ويخاطبه بصوت خافت ، همساً •

قال له الأمير :

ـ دعهم وشأنهم ! انك ضعيف جداً •••

ـ فوراً ، فوراً ، سأمضى فوراً •••

قال هيبوليت ذلك وقبّل الأمير فجـأة • وأضـاف وهو ينظر اليه ضاحكاً ضحكة خاصة :

ـ لعلك تظن اننى مجنون ، أليس كذلك ؟

ـ لا ، ولكنك •••

ـ فوراً ، فوراً ، اسكت • لا تقل شيئاً ••• انتظر ••• أريد أن أنظر الى عينيك ••• ابق كما أنت ، حتى أستطيع أن أنظر اليك • اننى أودّع انساناً •

وتوقف عن الكلام وتأمل الأمير ساكناً صامتاً خلال عشر ثوان • كان شديد الاصفرار ، وكان العرق يتقـاطر فى صدغيـه ، وكانت يده متشبثة بالأمير تشبثاً عجيباً كأنه يخاف أن يفلت الأمير منه •

صاح الأمير يسأله :

ـ هيبوليت ! هيبوليت ! ماذا بك ؟

ـ فوراً ، حالاً •• سوف أنام ••• أريد أن أشرب كأساً ، نخب الشمس •• أريد هذا •• أريد هذا ••• دعنى أفعل !

ومن مكانه ، أمسك الكأس بسرعة ، ثم رفعها ومضى بوثبة واحدة الى مدخـل الشرفة • وهمّ الأمير أن يركض وراءه • ولكن شـاءت المصادفة ، بما يشبه العمد ، أن مدّ اليه أوجين بافلوفتش يده فى تلك اللحظة نفسها مودّعاً • فما انقضت دقيقة واحدة ، حتى كان يدوّى فى الشرفة صراخ عام على حين فجأة ، أعقبه اضطراب شديد •

اليكم ما حدث :

حين وصل هيبوليت الى مهبط الشرفة ، توقف عن السير ممسكاً الكأس بيده اليسرى ، وأدخل يده الأخرى في الجيب الأيسر من معطفه. وقد أكدّ كيللر فيما بعد أن يده كانت في تلك الجيب منذ أن كان يتحدث مع الأمير ممسكاً كتفه وتلبيبه باليد اليسرى . حتى ان حركته هذه باليد اليسرى هي التي أثارت فيه ، هو كيللر ، أول اشتباه . ومهما يكن من أمر فان كيللر قد اندفع يلاحق هيبوليت ، يحضه على ذلك نوع من التخوف . لكنه هو أيضاً لم يدركه في الوقت المناسب . كل ما هنالك أنه أبصر شيئاً يلتمع في يد هيبوليت اليمنى ؛ ثم رأى فوهة مسدس صغير للجيب تطبق على صدغ المريض . وقد هرع اليه ليمسك ذراعه ، لكن هيبوليت كان قد ضغط على الزناد في تلك اللحظة نفسها ؛ فسُمعت قرقعةُ كلبِ المسدس ، لكن الطلقة لم تخرج . وهجم كيللر على هيبوليت . واستسلم هيبوليت للسقوط كمن أُغمي عليه ، ولعله كان يظن أنه مات فعلاً . وأصبح المسدس في يدى كيللر ، واستولى الآخرون على هيبوليت وقربوا اليه كرسياً أجلسوه عليه ، وتحلقوا جميعاً حوله يصرخون ويسألون . انهم بعد أن سمعوا قرقعة الزناد ، رأوا الرجل حياً سليماً حتى من أى خدش. وكان هيبوليت جالساً لا يعرف ماذا يجرى، ويُجيل على ما حوله نظرة زائغة. وفى تلك اللحظة دخل ليبديف وكوليا مسرعين كهبوب الريح .

كان الحضور يسألون من هنا ومن هناك :

ــ هل خابت الطلقة ؟

وقال بعضهم :

ــ لعل المسدس لم يكن محشواً منذ البداية !

فصاح كيللر يقول بعد أن فتش السلاح :

ــ بل المسدس محشو . لكن ...

ـ فكيف أمكن أن تخيب الطلقة ؟

قال كيللر :

ـ لم يكن ثمة كبسولة •

يصعب على المرء أن يصف المشهد الأليم الذى أعقب ذلك •

ان الذعر العام الذى سيطر فى اللحظة الأولى لم يلبث أن حل محله مرح شامل• حتى ان بعض الأشخاص ضجوا بالضحك صاخبين، ووجدوا فى الموقف مجالاً لتندر خبيث وتفكه ماكر • كان هيبوليت يبكى ناشجاً ، ويعقف ذراعيــه متألماً ، كأنما اعترته نوبة عصبية ، ويرتمى على جميع الناس حتى على فردشتشنكو معانقاً اياه بكلتا يديه حالفاً بأغلظ الأيمان أنه نسى وضع الكبسولة نسياناً « عرضياً طارئاً بغير ارادة » ، مضيفاً أن جميع الكبسولات ، وعددها ست ، موضوعة هنا فى جيب صديرته ، فهذه هى ، لكنه تركها فى مكانها مخافة أن تنطلق الطلقة من المسدس مصادفة فى الجيب ، على أساس أن فى وسعه أن يضع الكبسولة فى الوقت الذى يشاء ، غير أنه نسى فجأة أن يفعل ! كان هيبوليت يتجه بكلامه الى الأمير والى أوجين بافلوفتش واحداً بعد واحد ؛ ويضرع الى كيللر أن يرد اليه المسدس ليستطيع أن يبرهن فوراً على أن « شرفه •• نعم •• شرفه •• » ••• لكن شرفه « قد تلطخ الآن الى الأبد ! » •••

ثم تهاوى مغشياً عليه بالفعل • فنُقل الى حجـرة الأمير • وكان ليبديف قد زايله سكره تماماً فأرسل فى طلب طبيب على الفور ، وبقى هو وابنته وابنه وبوردوفسكى والجنرال حول سرير المريض •

حين نُقل هيبوليت الى حجرة الأمير مغشياً عليه ، وقف كيللر فى وسط الغرفة وصاح يقول على رءوس الأشهاد ، بلهجة جازمة قاطعة ، مفصّلا كل كلمة من كلماته :

ـ أيها السادة ، اذا أعلن أحد منكم مرةً أخرى ، بحضورى ، الافتراض القائل بأن هيبوليت تعمّد أن ينسى الكبسولة ؟ اذا ادعى أحد منكم أن الشاب الشقى المسكين كان يمثّل تمثيلاً ، فليكوننّ له معى شأن !...

لم يجبه أحد . وكان الضيوف قد تفرقوا أخيراً جماعات ، وانصرفوا مسرعين . ومضى بتتسين وجانيا وروجويين معاً .

أدهش الأميرَ أن يرى أوجين بافلوفتش يغيّر رأيه ويمضى قبل أن يتحدث اليه كما طلب . فسأله :

ـ ألم تكن تريد أن تتحدث معى قبل انفضاض الحفل ؟

فأجابه أوجين بافلوفتش وهو يجلس فجأة ويُجلس الأمير الى جانبه :

ـ صحيح . لكننى غيّرت رأيى الآن . اعترف لك باننى منفعل ، وأعرف أنك منفعل أنت أيضاً . أفكارى مشتتة مضطربة . ثم ان المسألة التى كنت أريد أن أكاشفك فيها تهمنى الى أبعد الحدود ، وتهمك الى أبعد الحدود . لقد أردت يا أمير أن أقوم ، ولو مرةً واحدة فى حياتى ، بعمل شريف كل الشرف ، أعنى بعمل خالٍ من كل غرض خبيء ، مبرأ من أية فكرة مبيتة ! واذ أننى لا أملك الآن ، فى هذه الدقيقة ، أن أكون قادراً على ذلك كل القدرة ؟ واذ أنك قد تكون أنت أيضاً فى مثل حالتى ... ف ... ف ... فلنرجىء تلك المكاشفة الى وقت آخر . من الجائز أن تتضح الأمور لى ولك على السواء ، اذا تركنا الأمر يومين أو ثلاثة ، وهذه هى المدة التى أنوى أن أقضيها فى بطرسبرج .

قال أوجين بافلوفتش ذلك ونهض عن كرسيه من جديد ، فلا يفهم

المرء لماذا جلس قبل ذلك . أحس الأمير أنه كان مستاءً غاضباً ، ولاحت له فى نظرته عداوة لم تعبر عنها من قبل . وسأل الأميرَ فجأة :

ـ بالمناسبة ، أأنت ذاهب الى المريض الآن ؟

فقال الأمير :

ـ نعم ... أنا خائف عليه !

ـ لا تخف ! سيعيش ستة أسابيع أخرى ، حتى لقد يشفى هنا . ولكن الأفضل أن تطرده منذ الغد .

ـ لعلنى قد حرّضته أنا أيضاً بصمتى دون أن أشعر ... لعله ظن أننى كنت أنا أيضاً أشك فى صدق عزمه على الانتحار . ما رأيك يا أوجين بافلوفتش ؟

ـ لا ، بتاتاً ! انك تسرف فى طيبة القلب اذا ظللت تكترث بهذا الأمر ! لقد سمعت من يقول ، دون أن تتاح لى فرصة التحقق من هذا الرأى فى يوم من الأيام ، أن الانسان قد ينتحر خصيصاً ليجتذب اليه مدح الآخرين له ، أو لأنه غاضب من أن أحداً لم يمدحه . وما كان لى أن أصدق خاصةً أن المرء يمكن أن يبدى ضعفه ابداءً يبلغ هذا المبلغ من الصراحة. ولكن مهما يكن من أمر ، يجب عليك أن تطرده منذ الغد!

ـ هل تعتقد أنه سيكرر محاولة الانتحار ؟

ـ لا ، لن يكررها . ولكن يجب عليك أن تحذر الروسى الذى ينتمى الى نوع « لاسنير » ! أعود فأقول لك : ان الجريمة هى الملاذ المألوف الذى يلجأ اليه أمثال هؤلاء التافهين العاجزين الذى يحرقهم نفاد الصبر ويأكلهم الحسد أكلاً !

ـ أهو اذن من نوع « لاسنير » ؟

ـ الجوهر واحد ، ولكن ربما كان الظرف مختلفاً . لسوف ترى

هل يتورع هذا السيد عن ذبح عشرة أشخاص ، ولو لمجرد أن « يدبِّر مقلباً » ، على حد التعبير الذى استعمله هو نفسه حين قرأ دفتره ★ • ان أقواله ستحرمنى الآن من النوم •

ـ لعلك تغالى فى مخاوفك •

ـ ان أمرك لعجيب يا أمير • ألا تصدِّق أنه لا يتورع عن أن يقتل «الآن» عشرة أشخاص ؟

ـ أخشى أن أجيبك • هذا كله عجيب • ولكن ، ولكن •••

ختم أوجين بافلوفتش الكلام قائلاً بلهجة ساخطة :

ـ طيب • لك ما تشاء ! ثم انك رجل شجاع ! ولكن حاول أن لا تكون أنت نفسك احدى ضحاياه !

قال الأمير وهو ينظر الى أوجين بافلوفتش شارد الذهن :

ـ الأرجح أنه لن يقتل أحداً •

فضحك أوجين بافلوفتش ضحكة ساخرة ماكرة • وقال :

ـ الى اللقاء • آن الأوان • بالمناسبة : هل لاحظت أنه يورث آجلايا ايفانوفنا نسخة من اعترافه ؟

ـ نعم ، لاحظت ذلك ••• و ••• ودعانى هذا الى التفكير •

قال أوجين بافلوفتش وهو يضحك ساخراً من جديد :

ـ ذلك ما يؤدى بنا الى الضحايا العشر •

ثم خرج •

بعد ساعة ، بين الثالثة والرابعة من الصباح ، نزل الأمير الى الحديقة العامة • كان قد حاول أن ينام فى بيته ، ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلاً ،

بسبب دقات قلبه الشديدة العنيفة . ثم ان كل شيء في بيته قد عاد الى النظام والهدوء . نام المريض ، وأعلن الطبيب الذى جاء يعوده أنه غير معرَّض لأى خطر مباشر . وقد نام ليبديف وكوليا وبوردوفسكى فى غرفته ليتناوبوا السهر عليه . فلا خوف اذن على شيء .

ومع ذلك كان قلق الأمير يزداد دقيقة بعد دقيقة . ضرب فى الحديقة على غير هدى ، ملقياً حواليه نظرات ذاهلة ، ثم توقف مدهوشاً حين وصل من غابة الحديقة الى البقعة الجرداء التى تقع أمام الفوكسهول ، فرأى صفوف المقاعد الخالية ومساند دفاتر الأوركستر . خطف بصره منظر هذا المكان اذ وجده قبيحاً قبحاً رهيباً ، لا يدرى لماذا ! وعاد أدراجه ، وسار فى الطريق الذى كان قد اتبعه أمس مع أسرة ايبانتشين للذهاب الى الفوكسهول . فلما وصل الى الدكة الخضراء ، مكان الموعد المضروب ، جلس وانفجر يضحك ضحكة مفاجئة صاخبة سرعان ما لام نفسه عليها مستاءً أشد الاستياء . لم يبارحه غمه وقلقه . ودَّ لو يضرب فى الأرض على غير هدى ... أن يذهب الى أى مكان بغير هدف ، وغرَّد على الشجرة فوقه عصفور صغير . فأخذ يبحث عنه بعينيه بين أوراق الأغصان . وطار العصفور صافقاً جناحيه على حين فجأة . فذكّره رأساً بتلك « الذبابة الصغيرة المدندنة فى شعاع من الشمس محرق » ، التى كتب هيبوليت بصددها « أنه يعرف مكانه فى جوقة الطبيعة هذه » حيث لا يوجد دخيل غيره ، هو هيبوليت . ان تلك الجملة التى سبق أن خطفت انتباهه حينذاك ، تعود الآن الى فكره . واستيقظت فى نفسه ذكرى نائمة منذ زمن بعيد ، فاذا هى تشرق فى هذه اللحظة بضياء مفاجيء .

كان ذلك بسويسرا ، أثناء السنة الأولى بل أثناء الأشهر الأولى من معالجة مرضه . كان يُعدُّ فى ذلك الحين أبله تماماً . كان لا يستطيع حتى

أن يعبِّر عما يريد التعبير عنه ، بلغة سليمة ، وكان في بعض الأحيان لا يفهم ما يُطلب منه أو يسأل عنه . ومضى ذات يوم الى الجبل ، وكان النهار واضحاً وكانت الشمس متلألئة . ظل مدة طويلة يطوّف على غير هدى ، تعذّبه فكرة أليمة كاوية لكنه لا يتوصل الى صياغتها بكلام . كان يرى أمامه سماء ساطعة ، ويرى تحت قدميه بحيرة رائعة ، ويرى من حوله أفقاً نيراً مضيئاً يبلغ من السعة أنه يبدو بغير حدود . تأمل هذا المنظر مدة طويلة مهصور القلب غماً وهماً. انه يتذكر الآن أنه مدّ يديه الى ذلك الأقيانوس من الضياء واللازورد ، وانه ذرف دموعاً غزيرة. كان يعذبه أن يتصور أنه غريب عن هذا كله. ما هذه الوليمة ، ما هذه الحفلة التي لا نهاية لها ، والتي كان يحس أنه منجذب اليها منذ الأزل، منذ طفولته، دون أن يستطيع المشاركة فيها قط ؟ الشمس تطلع مشرقة في كل صباح. وفي كل صباح يرتسم قوس قزح فوق الشلال . حتى اذا غابت الشمس، التهبت بنار كالأرجوان ، في كل مساء ، عند الأفق ، الذروةُ المغطاة بالثلج من أعلى جبل حول هذه الأراضي . ان كل « ذبابة صغيرة تدندن حوله في شعاع محرق من شمس، فتشارك في جوقة الطبيعة هذه : انها تعرف مكانها ، وتحبه ، وهي سعيدة به » . كل عشبة تنمو وتسعد ! لكل كائن طريقه الذي يعرفه . يصل ويرحل مغنياً ! أما هو ، فهو الوحيد الذي لا يعرف شيئاً ، ولا يفهم شيئاً ، لا البشر ، ولا أصوات الطبيعة ، لأنه غريب اجنبي في كل مكان ، ولأنه في كل مكان دخيل منبوذ . صحيح أنه كان في ذلك الحين لا يستطيع أن يعبر عن شعوره بهذه الألفاظ ، ولا أن يصوغ سؤاله بهذه العبارات . كان ألمه أصمَّ أبكم . ولكنه يتخيل الآن أنه في ذلك الحين كان يقول هذا كله بهذه العبارات نفسها . وخيِّل اليه أن كلام هيبوليت عن « الذبابة الصغيرة » ، انما هو مأخوذ عنه ومستمد من الدموع التي كان يذرفها في تلك الأيام . انه مقتنع بهذا ، لا يدري لماذا ؟ وكانت هذه الفكرة تجعل قلبه يخفق .

وغفا على الدكة ، لكن اضطرابه لاحقه حتى فى النوم . تذكر ، حين نام ، ما افترضــه أوجين بافلوفتش من أن هيبوليت يمكن أن يقتل عشرة أشخاص ، فابتسم لهذه الفكرة المستحيلة السخيفة . وكان يرين حــوله صمت مضيء جليل . وكان حفيف أوراق الشجر يقــوى الهدوء والعزلة. ورأى الأمير أحــلاماً كثيرة كانت كلها مقلقــة تبعث على الغم ، وتُجرى فى الجســم رعدات لا تنقطع . وأخيراً اقتربت منه امرأة . انه يعرفها ، يعرفها الى حــد الألم . انه ما يزال يســتطيع أن يسميها ، أن يعيِّنها ، ولكن الشيء الغريب هو أن لها الآن وجهــاً آخــر مختلفــاً كل الاختلاف عن الوجه الذى رآه فيها دائماً. شعر بنفور أليم من رؤيتها فى هذه الملامح الجديدة . أن الوجه يعبِّــر عن النــدم والذعر تعبيراً يبلغ من القوة أن المرء يمكن أن يشعر أن هذه المرأة مجرمة رهيبة ، وأنها آتية الآن من اقتراف جرم فظيع. كانت ترتجف على وجهها الشــاب عبرة . نادته بحركة من يدها ووضعت اصبعاً على شفتيها ، كأنما هى تدعوه أن يتبعها بغير ضجة. انهار قلبه . كان لا يريد أن يرى فيها مجرمة ، بأية من الأحوال ، ولكنه أحس أن حادثاً هائلاً يوشك أن يقع ، وأن هذا الحادث سيؤثر فى مجرى حياته كلها. كان يبدو أنها تريد أن تريه شــيئاً ما ، فى مكان غير بعيد ، بالحديقة العامة. نهض ليتبعها ، ولكن ضحكة رائقة نضيرة رنَّــت فجأةً قربه ؟ واذا يد تصير فى يده على حين بغتــة . أمســك اليد بقوة ، واستيقظ من نومه .

كانت آجلايا أمامه تضحك مقهقهة .

الفصل الثامن

كانت تضحك ، ولكنها كانت مستاءة فى الوقت نفسه. صاحت تقول بلهجة الدهشة والازدراء :

ـ انه نائم ! أكنت نائماً ؟

فتمتم الأمير يقول قبل أن يسترد وعيه ، وقد تعرفها مدهوشاً :

ـ هذا أنت ؟ ها ... نعم ... بيننا موعد مضروب ... لقد نمت هنا !

ـ لاحظتُ ذلك طبعاً !

ـ ألم يوقظنى أحد غيرك ؟ ألم يجىء الى هنا أحد سواك ؟ ظننت أن قد كانت هنا ... امرأة أخرى .

ـ امرأة أخرى هنا ؟

واسترد الأمير وعيه كاملاً آخر الأمر . فقال شارد الذهن :

ـ لم يكن ذلك الا حلماً. ولكنه حلم غريب ، فى هذه اللحظة . اجلسى .

وشدها من يدها وأجلسها على الدكة ، وجلس هو الى جانبها ، وغرق فى أفكاره وخواطره . لم تقطع آجلايا الصمت واكتفت بأن تحدق اليه . وكان ينظر اليها هو أيضاً ، ولكنه ينظر اليها فى بعض الأحيان وكأنه لا يراها أمامه . أخذ وجهها يحمر .

قال الأمير مرتعشاً :

ـ أطلق هيبوليت فى صدغه طلقة مسدس •

فسألته دون أن تظهر عليها دهشة شديدة :

ـ متى ؟ عندك ؟ أمس مساءً ، كان ما يزال حياً فيما أظن !

ثم هتفت تقول بحرارة :

ـ كيف أمكنك أن تجىء تنام هنا بعد حادث كهذا الحادث ؟

قال الأمير :

ـ لكنه لم يمت • لم تنطلق الطلقة •

وطفق الأمير ، تلبيةً لرجاء آجلايا ، يقص عليها فوراً ، بتفاصيل كثيرة ، كل ما جرى فى الليلة الماضية • فكانت تستعجله سرد التتمة بغير انقطاع ، ولكنها تقاطعه هى نفسها بالقاء أسئلة كثيرة متصلة لا تكاد تتعلق بالموضوع • وقد اهتمت اهتماماً خاصاً بما قاله أوجين بافلوفتش ، حتى لقد سألت الأمير مراراً حول هذا • فلما انتهى من سرد القصة قالت :

ـ كفى هذا ! يجب أن أسرع ! ليس أمامنا الا ساعة واحدة نقضيها هنا ، ويجب أن أكون بالمنزل فى الساعة الثامنة قطعاً ، حتى لا يعلموا أننى جئت الى هذا المكان • وأنا انما جئت هنا لأمر • ثمة أشياء كثيرة يجب أن أنقلها اليك • لكنك قطعت علىَّ تسلسل فكرى • ففيما يتعلق بهيبوليت أعتقد أن مسدسه ما كان يمكن الا أن يخيب • فهذا يتفق وطبيعة الشخص • ولكن أأنت موقن أنه أراد أن ينتحر حقاً ، وأن ذلك لم يكن تمثيلاً ؟

ـ لا ، لم يكن ذلك تمثيلاً !

ـ هذا هو الأرجح فعلاً • وقد أوصى ، كتابةً ، بأن عليك أن تحمل الىَّ « اعترافه » ؟ فلماذا لم تجئنى به ؟

ـ ألم أقل لك انه لم يمت ؟ سأطلبه منه .

ـ جئنى به حتماً ، ولا تطلب منه شيئاً . أنا أعلم أن ذلك لا يمكن الا أن يسرّه ، ولعله لم يشأ أن ينتحر الا لأقرأ أنا بعد ذلك اعترافه . أرجوك يا ليون نيقولايفتش ، لا تضحك مما أقوله لك : ان هذا التفسير قد يكون هو التفسير الصحيح .

ـ لست أضحك ، فأنا نفسى أعد هذا التفسير جائزاً جداً .

ـ أنت أيضاً ؟ أيمكن أن تكون قد ساورتك هذه الفكرة نفسها ؟

كذلك سألته آجلايا بدهشة مفاجئة .

كانت تساؤله متعجلة ، وتتكلم بسرعة ، ويظهر عليها الاضطراب فى بعض الأحيان ، وكثيراً ما تسكت قبل أن تتم جملتها . وهى فى كل لحظة تبادر الى ابلاغه هذا الأمر أو تحذيره من ذاك . فكان اضطرابها شديداً على وجه العموم ، رغم أن نظرتها واثقة بل ومتحدية ، ولعلها كانت فى قرارة نفسها وجلة .

انها جالسة فى أقصى الدكة ، تكسوها ثياب بسيطة ، فهى ترتدى ثوباً مما يُلبس كلّ يوم ، لكنه يناسبها كثيراً . وقد ارتعشت واحمرت مراراً . وقد دهشها أعمق الدهشة أن تسمع الأمير يؤكد أن هيبوليت انما أطلق على رأسه النار من أجل أن تقرأ هى اعترافه .

قال الأمير شارحاً :

ـ ولا شك أنه كان يريد ، بغض النظر عنك أنت ، أن نغدق عليه المديح ...

ـ المديح ؟ كيف ؟

ـ أقصد ... كيف أشرح لك هذا ؟ ان التعبير عن هذا الأمر صعب

جداً . لا شك أنه كان يرغب في أن يرى جميع الناس يسرعون اليه فيحتشدون حوله ويعربون له عن عواطف المحبة والتقدير ، ويضرعون اليه أن لا يقتل نفسه . جائز جداً أنه فكّر فيك أكثر مما فكّر في الآخرين ، فانه في لحظة كتلك اللحظة قد سمّاك أنت ... وان يكن من المحتمل أنه لم يدرك هو نفسه أنه كان يفكر فيك ...

ـ أصبحت لا أفهم شيئاً : يفكر فيَّ دون أن يدرك أنه يفكّر فيَّ !

بلى ، بلى ! فهمت ! أظن انني فهمت . هل تعلم أنني أنا نفسي ، حين كنت بنيةً في الثالثة عشرة من العمر ، قد خطر ببالي ثلاثين مرة أن أتجرع سماً ، وأن أشرح كل شيء في رسالة أتركها لأبوي ؟ كنت أتصور نفسي مسجاةً في التابوت ، وأتصور جميع أهلي يبكون من حولي ، ويلومون أنفسهم على أنهم كانوا قساة تلك القسوة كلها معي ...

ثم أضافت تقول بقوة وهي تقطب حاجبيها تقطيباً شديداً :

ـ لماذا تبتسم أيضاً ؟ في أي شيء تفكر أنت اذن حين تخلو الى نفسك وتخلد الى العزلة في أحلامك ؟ أتراك تتصور نفسك مارشالاً يقاتل نابوليون ؟

فأجاب الأمير ضاحكاً :

ـ يميناً ان هذا بعينه هو ما أفكر فيه ، ولا سيما حين أنام . ولكنني لا أقاتل نابوليون بل أقاتل النمسويين .

ـ انني لا أمازحك البتة يا ليون نيقولايتش . سوف أرى هيبوليت بنفسي ، فأرجوك أن تبلغه رغبتي هذه . أما أنت فانني أرى أن نظرتك الى نفس فتى مثل هيبوليت وحكمك عليها تشتملان على شر قبيح ، لأن فيهما فظاظة وغلظة . انك امرؤ خال من عاطفة الحنان . انك لا ترى الا الحقيقة وحدها ، فأنت لهذا ظالم .

أخذ الأمير يفكر • ثم قال :

ـ بل أنت الظالمة فى حكمك علىّ ، فأنا لا أرى أى بأس فى أن تكون تلك الفكرة قد خطرت بباله • ان جميع الناس يجنحون الى أن تراودهم هذه الفكرة • ثم ان من الجائز أن لا تكون تلك الفكرة قد ملكت عليه نفسه ، وانما هى خاطرة ومضت فى ذهنه لا أكثر ! لقد أراد أن يوجد فى المجتمع مرةً أخيرة ، وأن يستحق اعتبار الناس ، وأن يكون جديراً بمحبتهم • وتلك عواطف عظيمة رائعة • لكن ذلك كله لم يتهيأ له • ومرد هذا الى المرض ، والى ما لا أدرى أيضاً ! ••• ان هناك أناساً يظفرون بما يريدون ، وأناساً يضلون السبيل الى ما يشتهون ، فيخفق كل ما يحاولون •••

قالت آجلايا :

ـ لا شك أنك فكّرت فى نفسك وأنت تقول هذا الكلام !

فتابع الأمير كلامه دون أن ينتبه الى ما اشتملت عليه ملاحظة آجلايا من مكر :

ـ نعم •

ـ على كل حال ، لو كنت أنا فى مكانك لما نمت • أما أنت فتستسلم للنوم حيثما توجد • وليس بالمستحسن أن يصدر هذا عنك •

ـ ولكننى ظللت سهران طول الليل ، ثم مضيت أطوّف هنا وهناك ، وذهبت الى مكان الموسيقى •••

ـ أية موسيقى ؟

ـ المكان الذى كانت تُعزف فيه الموسيقى مساء أمس ؟ ثم جئت الى هنا ، وجلست ، وفكرت طويلاً ، ثم غفوت •••

ـ ها ••• حقاً ؟ هذا يغيّر الأمر بحيث يشرّفك ولا يضيرك •••
ولكن لماذا ذهبت الى مكان الموسيقى ؟

ـ لا أدرى ••• ذلك ما حدث •••

ـ طيب طيب ، سنتحدث عن هذا فيما بعد • انك تقاطعنى دائماً •
فيم يهمنى أن تكون قد ذهبت الى مكان الموسيقى ؟ قل لى : من هى المرأة
التى رأيتها فى الحلم ؟

ـ انها ••• انها ••• لقد رأيتها أنت •••

ـ فهمت ••• فهمت • انك تحمل لها كثيراً من ••• على أية حال
رأيتها ! فى أية صورة ظهرت لك ؟

ثم أضافت تقول بشىء من غضب مفاجىء :

ـ على كل حال ، لا أريد أن أعرف عن هذا شيئاً • انك تقاطعنى
دائماً • لا تقاطعنى •

وتوقفت عن الكلام لحظةً كأنما لتسترد أنفاسها أو لتحاول كظم
غضب شبّ فى نفسها • ثم أضافت تقول شبهَ حانقة :

ـ اليك الأمر الذى من أجله طلبت منك أن تجىء : أريد أن أعرض
عليك أن تكون صديقى • ما بالك تنظر الىّ هكذا ؟

كان الأمير ، فى تلك اللحظة ، ينظر اليها فعلاً بكثير من الانتباه ،
لأنه لاحظ أنها عادت تحمر احمراراً شديداً • وهى فى مثل هذه الحالة
يزداد غضبها من نفسها على قدر ازدياد احمرارها ، فذلك يُقرأ فى
التماعات عينيها ؛ حتى اذا انقضت دقيقة صبت غضبها على محدثها فى
العادة ، سواء أكان مذنباً أم كان غير مذنب ، فهى تأخذ تناكده باحثةً عن
أى وسيلة لمشاجرته • انها لمعرفتها بطبعها المتوحش وبحيائها قلما تتدخل

فى الحديث ، فهى صموت أكثر من أختيها ، حتى ان عيبها هو الافراط فى الصمت • حتى اذا كانت فى ظرف حرج دقيق ، كالظرف الذى توجد فيه الآن ولا تستطيع أن تستغنى فيه عن الكلام ، فانها تتكلم بتمال مفتعل وتكبر مصطنع وهيئة فيها شىء من التحدى • وهى تتنبأ دائماً باللحظة التى ستحمر فيها أو ستأخذ فيها بالاحمرار •

قالت للأمير وهى ترشقه بنظرة متغطرسة :

ـ أتراك لا تريد قبول ما أعرضه عليك ؟

فقال الأمير خجلان مضطرباً :

ـ بالعكس ، أريد جداً • ولكن ••• ولكن هذا لم يكن ضرورياً البتة ••• أقصد اننى لم أكن أتصور أن من الضرورى أن يُصاغ هذا العرض بالكلام •

ـ فماذا كنت تظن اذن ؟ ما عسى يكون السبب الذى دعانى أن أطلب منك المجىء الى هنا ؟ ألعلك تنظر الىّ نظرتك الى صغيرة حمقاء ، كما يفعل الجميع فى بيتنا ؟

ـ لم أكن أعلم أنهم ينظرون اليك نظرتهم الى حمقاء • أنا ••• أنا لا أنظر اليك هذه النظرة •

ـ أنت لا تنظر الىّ هذه النظرة ؟ هذا يدل على ذكاء كبير من جانبك • وقد قلت كلامك بكثير من براعة الفكاهة على كل حال !

تابع الأمير كلامه فقال :

ـ بل قد تكونين على قدر كبير من عمق الفهم وسداد الفكر أحياناً• من ذلك أنك قلت كلمة ملأى بالحكمة منذ قليل : « أنتَ لا ترى الا الحقيقة وحدها، فانت اذن ظالم »• سأظل أذكر هذه الملاحظة وأتأمل فيها،

احمرت آجلايا لذةً ونشوة على حين فجأة . كانت هذه التغيرات كلها تحدث في نفسـها بسرعة خارقة وانطلاق كامل . وسرَّ الأمير هو أيضاً ، وأخذ يضحك فرحاً وهو ينظر اليها .

وعادت تتكلم فقالت :

ـ اسمع . لقد انتظرتك طويلاً لأروى لك هذا كله . انتظرتك منذ اللحظة التي كتبتَ اليَّ فيها رسالتك من هناك ، بل وقبل ذلك ... ولقد سمعتَ في مساء الأمس نصف ما كان عليَّ أن أقوله لك : انني أعدك أشرف انسان وأصدق انسان . واذا قيل عنك ان في عقلك ... ان في عقلك مرضاً ، فهذا ظلم . انني مقتنعة بما أقول ، وقد دافعت عن اقتناعي هـذا . ولئن كان في عقلك مرض حقـاً (لا تؤاخذني ان قلت هذا ، فأنا أفهم هذه الكلمة من وجهـة نظر سـامية) ، فانك تملك من الذكاء الأساسي ما لا يملكه أي واحد منهم ، بل انك تملك من هذا الذكاء قدراً يعجزون حتى عن تصوره . ذلك أن الذكاء ذكاءان : فذكاء أساسي وذكاء ثانوي . أليس كذلك ؟ أليس هذا حقاً ؟

تمتم الأمير يقول بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

ـ قد يكون الأمر كما تقولين .

وكان قلبه يدق دقاً قوياً ، ويخفق خفقاناً عنيفاً .

وتابعت هي كلامها فقالت بلهجة جليلة :

ـ كنت على يقـين من أنك سـتفهمني . ان الأمير « شتش ... » وأوجين بافلتش لا يفهمان شيئاً من هذا التميز بين الذكاءين . وكذلك الكسندرا . ولكن هل تتصور أن ماما قد فهمته ؟

قال الأمير :

ـ انك تشبهين اليزابت الكسندروفنا كثيراً •

فسألته آجلايا مدهوشة :

ـ كيف ؟ حقاً ؟

ـ أؤكد لك •

قالت بعد لحظة من تفكير :

ـ أشكرك • يسعدني كثيراً أن أشبه « ماما » •

ثم أضافت تسأله دون أن تدرك سذاجة سؤالها :

ـ فأنت تقدرها اذن كثيراً ؟

ـ كثيراً • واني لسعيد أن أرى أنك قد فهمت ذلك حالاً •

ـ أنا أيضاً سعيدة ؟ ذلك أنني لاحظت أنهم ••• في بعض الأحيان ••• يسخرون منها ، ولكن اسمع : ان الأمر الجوهري هو أنني فكّرت ملياً قبل أن يقع اختياري عليك • لا أريد أن يسخروا مني في البيت ، ولا أن يعاملوني فيه معاملة بنت صغيرة طائشة العقل • لا أريد أن يناكدوني ويغيظوني ••• لقد فهمتُ هذا كله دفعةً واحدة ؟ ورفضتُ أوجين بافلوفتش رفضاً قاطعاً لأنني لا أريد أن يكون همهم الدائم أن يزوجوني ! أريد ••• أريد ••• نعم ••• أريد أن أهرب من البيت ! وقد اخترتك أنت لتساعدني في الهروب •

هتف الأمير يسألها :

ـ تهربين من البيت ؟

فصاحت تقول له بحركة عنيفة مفاجئة من غضب :

ـ نعم ، نعم ، ثم نعم ••• لا أريد بعد الآن ، لا أريد بعد الآن أن يجعلوني أحمرُ خجلاً بغير انقطاع • لا أريد أن أحمر لا أمامهم ،

ولا أمام الأمير « شتشت ... » ولا أمام أوجين بافلتش ، ولا أمام أى انسان ؟ ولذلك وقع اختيارى عليك . معك أستطيع أن أتكلم فى كل شىء . فى كل شىء ، حتى فى أخطر الأمور شأناً اذا حلا لى ذلك . وعليك أنت ، من جهتك ، أن لا تخفى عنى شيئاً فى يوم من الأيام . أريد أن يكون هناك انسان ، على الأقل ، أستطيع أن أكلمه فى كل شىء كأننى أكلم نفسى . لقد أخذوا يقولون فجأة أننى انتظرك واننى أحبك. بدأ هذا قبل وصولك ، ولم أكن قد أريتهم رسالتك . وهم الآن يرددون جميعاً هذه النغمة . أريد أن أكون جسورة فلا أخشى شيئاً . لا أريد أن أذهب الى حفلات الرقص التى يقودوننى اليها. أريد أن أكون نافعة. منذ مدة طويلة أريد أن أرحل . ها قد حبسونى عشرين عاماً كاملة ، ثم أصبحوا لا يفكرون الا فى تزويجى ، لم يكن عمرى الا أربعة عشر عاماً حين أخذت أحلم بالهروب . كنت ما أزال صبية حمقاء . والآن رتبت كل شىء ، وانتظرتك لأحصل منك على جميع المعلومات عن الحياة فى الخارج . لم أرَ فى حياتى كاتدرائية قوطية . أريد أن أذهب الى روما ، أن أزور مراكز علمية . أريد أن أدرس بباريس . لقد أعددت نفسى لهذا فعملت طوال السنة الماضية . قرأت عدداً كبيراً من الكتب ، بينها جميع الكتب المحظورة . ان الكسندرا وآديلائيد تستطيعان أن تقرءا كل شىء . ذلك مسموح لهما به ؛ أما أنا فهذا محظور علىّ ؛ وهم يراقبوننى . لا أريد أن اختصم مع أختىّ ، ولكننى أعلنت لأمى وأبى منذ مدة طويلة أننى أنوى تغيير حياتى تغييراً جذرياً. لقد قررت أن أُعنى بالتربية ، وانى لأعتمد عليك ، فقد قلت لى انك تحب الأطفال . هل تعتقد أن فى وسعنا أن نُعنى معاً بالتربية ، ان لم يكن الآن ففى المستقبل على الأقل ؟ سنقوم معاً بجهد مفيد وعمل نافع . لا أريد أن أكون بنت جنرال ... قل لى : أأنت رجل غزير العلم واسع الثقافة ؟

ـ لا ، بتاتاً ...

ـ خسارة . كنت أنا أظن ... كيف تخيلت هذا ؟ لا ضير ، ستوجهنى وسترشدنى ، على كل حال ، ما دام اختيارى قد وقع عليك .

ـ هذا مستحيل يا آجلايا ايفانوفنا .

صاحت آجلايا تقول وقد أخذت عيناها تتقدان من جديد :

ـ أريد ، أريد أن أهرب من البيت ! فاذا لم توافق أنت ، فسأتزوج جبريل آرداليونوفتش . لا أريد أن تنظر الىّ أسرتى نظرتها الى فتاة شريرة ، وأن تتهمنى بما لا أدرى من تهم !

هتف الأمير وهو يكاد يثب من مكانه :

ـ أأنت تملكين عقلك أم لا ؟ بماذا يتهمونك ، ومن ذا يتهمك ؟

ـ جميع من بالبيت : أمى ، أختاى ، أبى ، الأمير « شتش ... » ، وحتى صاحبك السيء كوليا ! واذا كانوا لا يقولون لى شيئاً أمام وجهى ، فهذا لا ينفى أنهم فى دخائل أنفسهم يفكرون فى ذلك .

لقد صارحتهم جميعاً بهذا . وصارحت به أمى . فمرضت أمى من ذلك طوال النهار ، وفى الغداة قالت لى الكسندرا ، هى وأبى ، اننى لا أدرك حتى معنى هذا الهذر السخيف وهذه الكلمات التى استعملها . فرددت عليهما قائلةً بلهجة القطع والجزم اننى الآن أدرك كل شيء ، وأدرك معني جميع الكلمات ، واننى لست الآن بنيةً صغيرة ، واننى قرأت منذ سنتين روايتين من تأليف بول دى كوك ، قرأتهما خصيصاً لأطلع على كل شيء ، وأعرف كل شيء . فحين سمعت أمى هذا الكلام أوشكت أن يُغمى عليها .

ومضت فى ذهن الأمير فكرة غريبة . حدّق الى آجلايا وابتسم . كان يصعب عليه أن يصدّق أن أمامه تلك الفتاة المتعالية نفسها التى قرأت له فى الماضى ، بكثير من الكبرياء المستفزة ، رسالة جبريل آرداليونوفتش. لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن تنكشف فى فتاة جميلة لها ذلك الطبع المتغطرس المتوحش ، كيف يمكن أن تنكشف فيها على حين فجأة طفلةٌ لعلها لا تدرك حقاً معنى « جميع الكلمات التى تستعملها » .

سألها :

ـ هل قضيت حياتك كلها فى البيت يا آجلايا ايفانوفنا ؟.. أقصد ... ألم تذهبى الى المدرسة ، ألم تلتحقى بمدرسة داخلية ؟

ـ لا ، لم أذهب فى حياتى الى أى مكان . حُبست دائماً فى البيت حتى لكأننى حُبست فى زجاجة ، ولن أخرج من البيت الا لأتزوج. لماذا تظل تبتسم هذه الابتسامة الساخرة ؟ ألاحظ أنك أنت أيضاً تسخر منى وتتحيز لهم ...

أضافت آجلايا هذه الجملة الأخيرة وقد قطبت حاجبيها وظهرت فى هيئتها علائم التهديد . وتابعت كلامها فقالت :

ـ لا تحنقنى . أنا نفسى لا أعلم ماذا يحدث فى نفسى ... انى لواثقة بأنك جئت الى هنا مقتنعاً كل الاقتناع بأننى أهواك واننى ضربت لك موعداً ...

أضافت هذه العبارة بلهجة غضب .

فقال الأمير معترفاً بسذاجة ، وكان يشعر بانفعال شديد :

ـ حقاً لقد كنت بالأمس خائفاً من هذا. أما اليوم فأنا مقتنع بأنك ..

صاحت آجلايا تقول وقد أخذت شفتها السفلى تختلج على حين فجأة :

ـ ماذا ؟ كنت خائفاً من أن ••• هل تجرأت أن تظن أنني •••
رباه ! لعلك كنت تفترض انني دعوتك الى هنا ليفاجئونا فتكون مضطراً أن
تتزوجني •••

ـ آجلايا ايفانوفنا ! كيف لا تخجلين من قول هذا الكلام ؟ كيف
يمكن أن تنبت في قلبك الطاهر البريء فكرة تبلغ هذا المبلغ من الحطة ؟
أراهن أنك أنت نفسك لا تصدقين كلمة واحدة مما قلته ••• بل وأنك
لا تعرفين معنى هذه الأقوال التي تخرج من فمك !•••

ظلت آجلايا خافضةً رأسها ، ساكنةً لا تتحرك ، كأنها مروّعة
مما قالته • ثم تمتمت تقول :

ـ لا ، لا أخجل البتة ! ثم من أين عرفت أن لي قلباً بريئاً ؟ وكيف،
والحالة هذه ، تجرأت أن تبعث اليَّ رسالة حب ؟

ـ رسالة حب ؟ رسالتي رسالة حب ؟ لقد كانت تلك الرسالة تعبيراً
عن أعمق الاحترام • وقد خرجت من قرارة قلبي في لحظة من آلم لحظات
حياتي • فكرت فيك حينذاك كما يفكر المرء في ضياء ••• انني •••

قاطعته آجلايا فجأة ، ولكن بلهجة أخرى تختلف عن لهجتها الأولى
كل الاختلاف ، لهجةٍ تكشف عن ندم عميق يشبه أن يكون روعاً :

ـ طيب ••• طيب ••• كفى !•••

حتى لقد مالت عليه ، وأجرت بيدها حركةً كأنها تريد أن تلمس
كتفه لتدعوه بأحسن طريقة مقنعة أن لا يزعل ، مع استمرارها على غض
بصرها حتى لا تنظر اليه • وعادت تكرر قائلة باضطراب شديد :

ـ طيب ، طيب ••• أحس بانني استعملت تعبيراً فيه غباء • وانما
قصدت من ذلك أن ••• أن أمتحنك • افرض انني لم أقل شيئاً • اذا

كنتُ قد آذيت شعورك فاغفر لى • أرجـوك : لا تنظر الىّ محدقاً فى عينى • أشح وجهك عنى • لقد صرّحتَ منذ لحظة بأنها فكرة منحطة • وانا انما عبّرت عنها عامدة لألسعك • يتفق لى أحياناً أن أخاف مما أحب أن أقوله ، ثم اذا هو يفلت من لسانى فجأةً • وقد أضفتَ أنك كتبت الىّ تلك الرسالة فى لحظة من آلم لحظات حياتك •

ثم قالت وهى تخفض صوتها وتعود تطرق الى الأرض :

ـ اننى أعرف ما هى تلك اللحظة التى عنيت •

ـ ليتك تعرفين كل شيء !

ـ أعرف كل شيء !

كذلك صاحت تقول فى نوبة انفعال جديدة • وتابعت كلامها فقالت :

ـ فى ذلك العهد كانت تشـاركك بيتك تلك المرأة السـيئة التى هربت معها •••

حين نطقت آجلايا بهذه الكلمات زايلت وجهها حمرتـه ، وشحب لونها شحوباً شديداً • ونهضت فجـأة كأنمـا حركتها اندفاعة قوية بغير شعور منها ، ولكنها سرعان ما ثابت الى وعيها وسيطرت على نفسها فعادت تجلس • ظلت شفتها تختلج مدة طويلة • وشُده الأمير من هذه الاندفاعة التى لم يكن يتوقعها ، ولا عرف الى ماذا يعزوها •

قالت فجأة بلهجة قاطعة :

ـ أنا لا أحبك البتة !

فلم يجب الأمير • وساد الصمت دقيقةً من جديد •

قالت بصوت متعجل لا يكاد يُفهم وهى تخفض رأسها مزيداً من الخفض :

ـ أنا أحب جبريل آرداليونوفتش •••

قال الأمير يرد عليها بما يشبه الهمس :

ـ غير صحيح •

ـ أأنا أكذب ؟ تلك هي الحقيقة بعينها • وقد قطعت له عهداً ، على هذه الدكة نفسها ، أمس الأول •

ذُعر الأمير وبقي شارد الذهن لحظة ، ثم قال بلهجة قاطعة :

ـ هذا غير صحيح • لقد لفقت هذه القصة تلفيقاً •

ـ انك لعلى أدب جم وتهذيب عظيم ! أريد أن تعلم أن جبريل آرداليونوفتش قد تغير وتحسن • انه يحبني أكثر من حياته • وقد حرق يده أمامي لا لشيء الا أن يبرهن لي على ذلك •

ـ حرق يده ؟

ـ نعم ، يده ! ويستوى عندى أن تصدق وأن لا تصدق !

صمت الأمير • لم تكن آجلايا مازحة • انها الآن غاضبة •

ـ غريب ! أيكون قد أتى الى هنا بشمعة ليحرق يده ؟ لست أرى وسيلة أخرى يمكن أن يحرق بها يده •••

ـ نعم ، أتى بشمعة • أى غرابة في هذا ؟ أهذا غير معقول ؟

ـ أشمعة كاملة أم عقب شمعة في شمعدان ؟

ـ نعم ••• لا ••• نصف شمعة •• عقب شمعة •• شمعة كاملة• لا فرق • لا تلح ! حتى لقد أتى بعيدان كبريت ، وأبقى اصبعه فوق اللهب نصف ساعة • أيبدو لك هذا مستحيلاً ؟

ـ لقد رأيته أمس ، فلم يكن في أصابعه أى أثر من آثار حرق •

انطلقت آجلايا تضحك ضحك طفلة . ثم التفتت نحو الأمير بخفة، وفي وجهها ثقة كثقة الأطفال ، بينما ألمت بشفتيها ابتسامة . وقالت :

ـ هل تعلم لماذا قصصت عليك هذه الكذبة ؟ لأنني لاحظت أن أحسن طريقة يعمد اليها المرء من أجل أن يجعل كذبه معقولاً بعد أن يكون قد أخذ يكذب ، هي أن يدخل في كذبته ، على نحو بارع ، عنصراً يخرج عن المألوف ، عنصراً شاذاً ، عنصراً نادراً ، بل عنصراً لم يسمع أحد بمثله . ولكنني لم أنجح ، لأنني لم أعرف كيف ...

واكفهر وجهها فجأة كأن ذكرى قد ومضت في ذهنها . ثم استأنفت كلامها فقالت له وهي تلقي عليه نظرة رصينة بل وحزينة :

ـ لقد أنشدتك في يوم من الأيام قصيدة « الفارس الفقير » ، وكنت أهدف من ذلك الى ... الى مدحك ، ولكنني كنت أهدف في الوقت نفسه الى أن أفضح سلوكك وأن أبيّن لك أنني على علم بكل شيء ...

ـ انك يا آجلايا تظلمينني كثيراً ... وتظلمين تلك الانسانة الشقية التي وصفتها منذ لحظة بكلمات قاسية شديدة القسوة ...

ـ أنا انما عبّرت عن رأيي بتلك الألفاظ ، لأنني أعرف كل شيء ، كل شيء ! أعرف أنك عرضت عليها الزواج على رؤوس الأشهاد ، منذ ستة أشهر . لا تقاطعني : أنت ترى أنني أروي وقائع ولكنني لا أعلق عليها . وبعد ذلك انما هربت مع روجوجين . ثم عشت معها في قرية من القرى أو ضاحية من الضواحي . ثم هجرتك والتحقت برجل آخر . (هنا احمرت آجلايا احمراراً رهيباً) . وبعد ذلك عادت الى روجوجين الذي يحبها ... يحبها حب جنون ! ثم ها أنت ذا تصل الى هنا وراءها ، زحفاً ، منذ علمت أنها عادت الى بطرسبرج ، كما يليق برجل بارع الذكاء ! وفي مساء أمس ، انبريت تدافع عنها وتحميها ؛ ومنذ لحظة كنت

تراها فى الحلم ••• أرأيت أننى أعرف كل شىء ؟ من أجلها ، من أجلها انما رجعتَ الى هنا ، أليس كذلك ؟

حنى الأمير رأسه حزيناً مفكراً ، دون أن يدور بخلده أن آجلايا كانت ترشقه بنظرة ملتهبة • وقال بصوت خافت :

ـ نعم من أجلها ، من أجلها ، ولكن لكى أعلم أن •• أنا لا أعتقد بأنها يمكن أن تسعد مع روجويين ، رغم أن ••• الخلاصة : اننى لا أرى ماذا أستطيع أن أفعل فى سبيلها ، ولكننى جئت •••

قالت آجلايا أخيراً :

ـ اذا كنت قد جئت دون أن تعرف لماذا جئت ، فهذا دليل على أنك تحبها كثيراً •

فردَّ عليها الأمير قائلاً :

ـ لا ، لا ، أنا لا أحبها ! ليتك تعرفين مدى الهول الذى أعانيه حين أتذكر الزمن الذى قضيته معها !

وما ان قال هذه الكلمات حتى سرت فى جسمه رعدة •

أجابته آجلايا :

ـ قل لى كل شىء •

ـ ليس فى القصة كلها ما لا يمكنك أن تسمعيه • لا أدرى لماذا كنت أنت ، أنت بعينك ، الشخص الوحيد الذى أردت أن أقص عليه الحكاية كاملة • ربما كان مرد ذلك الى اننى أحمل لك فى الواقع كثيراً من العاطفة • ان تلك المرأة الشقية مقتنعة اقتناعاً عميقاً بأنها أسقط انسانة وأفسد مخلوقة على وجه الأرض • لا تنعتيها بالعار ، لا ترميها بحجر !

حسبها ما تلقى هى نفسها من عذاب الشعور بحطة تصف بها نفسها ظلماً ! ما ذنبها يا رب ؟ هى فى نوبات حماستها تصيح قائلة انها لا تعرف لنفسها أية خطيئة أو ذنب ، وانها ضحيــة الرجال ، ضحية رجـل داعر وغـد حقير ! ولكن عليك أن تعلمى ، مهما تعلن لك من رأى ، أنها أول من لا يصدق ما تقول . بالعكس : انها لا تتهم أحداً غير نفسها ... انها تتهم نفسها وحدها ، واعيةً كل الوعى . وحين كنت أحاول أن أبدد من نفسها هذه الظلمات كانت تشعر بآلام وتباريح تبلغ من القوة والشدة أن قلبى لن يشفى يوماً ، ما ظل محتفظاً بذكرى تلك اللحظات الأليمة . اننى أحس أن قلبى قد طُعن الى الأبد . لقد هربت منى ، فهل تعلمين لماذا هربت ؟ انها لم تهرب الا لتبرهن لى على خستها ودناءتها . على أن أفظع ما فى الأمر أنها هى نفسها ربما كانت تجهل أن الدافع الذى كان يحركها انما هو تقديم هذا البرهان لى وحدى . لقد كانت تظن أنها تهرب خضوعاً لرغبة عارمة لا تقاوَم فى أن تقارف عملاً مشيناً يتيح لها أن تقول لنفسها بعد ذلك : « وهذه خسة جديدة تدينك . ألا انك لمخلوقة دنيئة منحطة ! ».. لعلك لا تفهمين هــذا يا آجـلايا ! هل تعلمين أن شـعورها الدائم ذاك بخستها ربما كان يخفى وراءه لذة فظيعة مخالفة للطبيعة هى لذة اشباع نوع من الانتقام من أحد الناس؟ كنت أنجح أحياناً فى أن أردَّها الى رؤية الضياء من حولها ، لكنها سرعان ما كانت تتمرد ، وتمضى فى ذلك الى حد اتهامى بأننى أريد الارتفاع فوقها والعلو عليها (وكان هذا فى الواقع بعيداً عن ذهنى كل البعــد) ؛ ثم تعلن لى أخيراً بغير لف أو دوران ، حين أعرض عليها الزواج ، أنها لا تطلب من أحد لا شفقة عليها ولا رأفة بها ولا معونة لها ، وانها ترفض أن يحاول أحد « رفعها اليه » . لقد رأيتها أنت بالأمس . هل تظنين أنها سعيدة بصحبة أمثال هؤلاء الناس، وأن تلك

البيئة هى البيئة التى تناسبها ؟ انك لا تعرفين مدى سعة ثقافتها ، ورحابة فكرها ! لطالما أدهشنى هذ فيها !

ـ هل كنت تلقى عليها هناك ... مواعظ كالتى تلقيها علىّ الآن ؟

تابع الأمير كلامه دون أن ينتبه الى لهجة السؤال :

ـ لا . كنت أصمت طول الوقت تقريباً . كنت أريد فى كثير من الأحيان أن أتكلم ، ولكننى لا أجد فى الواقع شيئاً أقوله . هل تعلمين أن خير ما يفعله المرء أحياناً هو أن يصمت ؟ آ ... نعم ... كنت أحبها .. كنت أحبها كثيراً ... ولكن ... بعد ذلك ... بعد ذلك حزرت هى كل شىء .

ـ حزرت ماذا ؟

ـ أننى لا أضمر لها الا الشفقة ... أننى أصبحت لا أحبها !

ـ ما يدريك ؟ لعلهـا أحبت فعـلاً ذلك ... ذلك المالك الذى هربت معه ؟

ـ لا ،أنا أعرف كل شىء . انها لم تزد على أن ضحكت عليه ؟

ـ وعليك أنت ، ألم تضحك قط ؟

ـ لا ! أقصـد ... أحيـاناً ... كانت تسـخر منى ... تخابثاً ومكراً ! كانت فى تلك اللحظات ترهقنى بملامات حانقة ، وكانت هى نفسها تتألم ! ولكنها ، بعد ذلك ... آه ... لا توقظنى هذه الذكريات فى نفسى ، لا تذكرينى بهذه الأشياء !

قال الأمير ذلك وأخفى وجهه بيديه .

سألته آجلايا :

ـ وهل تعلم أنها تكتب الىّ كل يوم تقريباً ؟

فهتف الأمير يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

ـ أهذا صحيح اذن ؟ لقد ذُكر لى أنها تكتب اليك ، ولكننى أبيت أن أصدّق .

فسألته آجلايا خائفة :

ـ من ذكر لك ذلك ؟

ـ روجويين . ان روجوبين هو الذى حدثنى فى هذا أمس ، ولكن بكلمات غامضة .

ـ أمس ؟ أمس صباحاً ؟ فى أى وقت من النهار ؟ أقبل الموسيقى أم بعدها ؟

ـ بعد الموسيقى . فى السهرة ، بين الحادية عشرة ومنتصف الليل.

ـ آ ... طيب ... ما دام هو روجويين ... ولكن هل تعرف عمّ تكلمنى فى تلك الرسائل ؟

ـ لا استغرب شيئاً . انها مجنونة !

ـ اليك الرسائل (استلت آجلايا من جيبها ثلاث رسائل مغلقة وألقتها أمام الأمير) . انها ، منذ أسبوع كامل ، تتوسل الىّ ، تضرع الىّ ، تبتهل الىّ أن أتزوجك . انها ... نعم ... ذكية ، وان تكن مجنونة . أنت على صواب حين تقول انها أذكى كثيراً منى . تقول لى فى رسائلها انها تهوانى ، وانها تبحث كل يوم عن فرصة ترانى فيها ولو من بعيد ، وهى تؤكد لى أنك تحبنى ، وأنها تعلم ذلك علم اليقين ، وأنها لاحظته منذ زمن طويل ، وأنك حدثتها عنى حين كنتما هناك . انها تريد أن تراك سعيداً ، وتوقن أننى أستطيع وحدى أن أُسعدك !... وهى تكتب بطريقة غريبة ... غريبة جداً . لم أُظهر على رسائلها أحداً . كنت أنتظرك. هل تدرى ماذا يعنى كلامها ؟ ألا تدرك ماذا يعنى كلامها ؟

ـ هو جنون . كلامها يدل على أنها فقدت عقلها .

كذلك قال الأمير وقد أخذت شفتاه تختلجان . سألته :

ـ ألست تبكي ؟

فأجاب :

ـ لا آجلايا ! لست أبكي !

ـ ما الذي يجب عليّ أن أفعله ؟ بماذا تنصحني ؟ انني لا أستطيع أن أستمرّ في تلقي هذه الرسائل .

هتف الأمير يقول :

ـ دعيها ، أرجوك ! ماذا تستطيعين أن تفعلي في هذه الظلمات ؟ سأحاول أن أجعلها لا تكتب اليك بعد الآن !

صاحت آجلايا قائلة :

ـ اذا كنت تقول هذا الكلام ، فمعنى ذلك أنك رجل لا قلب له . ألست ترى ان أنها لا تهواني أنا ، وانما هي تهواك أنت . انك أنت الذي تحبه ! كيف يمكن أن تكون قد لاحظتَ فيها كل شيء الا هذا ؟ هل تعلم ماذا وراء كلامها ؟ هل تدرك عمّ تكشف رسائلها ؟ انها تكشف عن الغيرة ، بل تكشف عمّا هو شر من الغيرة !... انها ... أتظن أنها ستتزوج روجويين فعلاً كما تزعم ذلك في رسائلها ؟ لسوف تنتحر غداة زواجنا اذا نحن تزوجنا !

ارتعش الأمير وانهدّ قلبه . ونظر الى آجلايا مدهوشاً : لقد شعر باحساس غريب حين لاحظ أن هذه الطفلة قد غدت امرأة منذ مدة طويلة .

ـ شهد الله يا آجلايا أنني مستعد لأن أضحي بحياتي في سبيل أن

أُدخل الى نفسها الراحة والسلام والطمأنينة والسعادة • ولكنني ••• لا أستطيع بعد اليوم أن أحبها ، وهي تعرف ذلك !

ـ طيب ••• ضحِّ بحياتك ما دام هذا يناسبك كثيراً ! انك محسن عظيم • ولا تناديني باسم « آجلايا » • • أنت منـذ لحظة قلت « آجلايا » فحسب !••• يجب عليك أن تحاول بعثها بعثاً جديداً • أنت مضطر أن تفعل هذا • الواجب يملي عليك أن تسافر معها ثانيةً ، لكي تدخل الهدوء والسكينة الى قلبها • ثم انك تحبها هي !

ـ لا أسـتطيع أن أضحي بنفسي ، رغم أن هذه النيـة قد قامت في فكري ، ولعلها ما تزال قائمة في فكري !•• ولكنني أعلم علماً « لا سبيل الى الشك فيه » أنها ان بقيت معي ضاعت وهلكت !••• وذلك هو السبب الذي يحدوني الى الابتعاد عنها • ينبغي أن أراها اليوم في الساعة السابعة• ولكن قد لا أذهب اليها • ان كبرياءها لن تغفر لي حبي في يوم من الأيام، وسيكون في هذا ضياعها وضياعي اذا نحن بقينا معاً ! ليس هذا طبيعياً ، غير أن كل شيء هنا مخالف للطبيعة • تقولين انها تحبني • ولكن هل هذا حب ؟ هل يمكن أن يكون ثمة عاطفة كهذه العاطفة بعد كل الذي عانيت وقاسيت ؟ لا ، ليس هذا حباً • هو شيء آخر غير الحب !

قالت آجلايا بارتياع مفاجيء :

ـ ما أشد هذا الشحوب الذي اعتراك !

ـ ما ذلك بشيء • انني لم أنم كثيراً • أشعر بأنني ضعيف • تلك هي الحقيقة • لقد تحدثنا عنك حينذاك يا آجلايا •••

ـ ذلك حق. اذن ؟ هل تحدثت « عني معها » فعلاً ؟ و ••• كيف أمكن أن تحبني بعد أن لم ترني الا مرةً واحدة ؟

ـ لا أدرى • فى الظلمات التى كانت تحف بى حينذاك ، رأيت ما يشبه أن يكون حلماً •• لعل فجراً جديداً قد أشرق أمام عينىّ • لا أدرى لماذا انصرف فكرى اليك أنت أول ما انصرف • لم أكذب عليك حين كتبت اليك قائلاً اننى أجهل كيف حدث الأمر • لم يكن ذلك الا حلماً هربت اليه من ذعرى حينذاك ••• وبعدئذ ، أخذت أدرس ••• وكان فى نيتى أن لا أعود قبل ثلاث سنين •••

ـ أمن أجلها اذن عدت ؟

ـ نعم ، من أجلها •

انقضت دقيقتان فى صمت • ثم نهضت آجلايا • وقالت بصوت متردد :

ـ اذا كنت تقول ، اذا كنت تعتقد أنت نفسك أن هذه ••• أن صاحبتك هذه مجنونة ، فان ما تأتيه من أعمال شاذة لا يعنينى ولا يهمنى فى شىء • أرجوك يا ليون نيقولايفتش أن تأخذ منى هذه الرسائل الثلاث فترميها فى وجهها نيابةً عنى !

ثم صاحت آجلايا تقول بخشونة :

ـ وقل لها اننى ، اذا سمحت لنفسها بأن تكتب لى مرةً أخرى سطراً واحداً ، سأشكوها الى أبى الذى سيعرف كيف يودعها فى مأوى للمجانين •••

انتفض الأمير ، ونظر مرتاعاً الى هذا الغضب الشديد الذى اجتاح آجلايا على غير توقع • ثم سقط أمام عينيه نوع من ضباب ، على حين فجأة وتمتم يقول لها :

ـ لا ، لا يمكن أن تحملى عواطف كهذه العواطف ••• لا ••• ليس حقاً ما تقولين !

ـ بل هو حق ، هو الحقيقة بعينها !...

كذلك صرخت آجلايا كالخارجة عن طورها .

فاذا بصوت مذعور يسألها على مقربة منها :

ـ أى شىء هو حق ؟ عن أية حقيقة تتكلمين ؟

كانت اليزابت بروكوفيفنا أمامهما .

فاندفعت آجلايا تجيب أمها قائلة :

ـ عن حقيقة أننى قررت أن أتزوج جبريل آرداليونوفتش ، وأنى أحبه ، وأننى سأهرب معه غـداً من البيت . هل سـمعت ؟ هل ارتوى فضولك الآن ؟ هل يكفيك هذا ؟

وركضت عائدة الى البيت .

قالت اليزابت بروكوفيفنا وهى توقف الأمير :

ـ لا يا صديقى الطيب ، لن تنصرف الآن . هلاَّ تفضلت فصحبتنى حتى تشرح لى تصرفك . آه ... ما هذا العذاب يا رب ! وكل ذلك بعد ليلة لم يغمض لى فيها جفن !...

تبعها الأمير .

الفصل التاسع

حين وصلت اليزابت بروكوفيفنا الى الدار توقفت فى الحجرة الأولى . واذ لم تقوَ على المضى الى أبعد من ذلك ، تهافتت على ديوان منهكةً منهدّة ، حتى لقد نسيت أن تدعو الأمير الى الجلوس .

هى قاعة كبيرة ذات مدفأة ، وفى وسطها مائدة مستديرة . ان ازهاراً كثيرة تتكدس على رفوف فيها تحت النافذة . وفى آخر القاعة باب ذو زجاج ، يفضى الى الحديقة .

وسرعان ما ظهرت آديلائيد وآلكسندرا تنظران الى الأمير والى أمها مدهوشة سائلة مستطلعة .

لقد اعتادت الآنسات أن يستيقظن فى الصيف فى نحو الساعة التاسعة ؛ لكن آجلايا أصبحت منذ يومين أو ثلاثة أيام تستيقظ قبل التاسعة بقليل ، وتمضى تتنزه فى الحديقة ، لا فى الساعة السابعة على كل حال ، بل فى الثامنة وحتى بعد الثامنة .

حقاً لم تعرف اليزابت بروكوفيفنا سبيلاً الى النوم طوال الليل من كثرة الهموم التى كانت تملأ رأسها . وقد نهضت فى الساعة الثامنة لتذهب الى الحديقة وتلحق بآجلايا التى كانت اليزابت بروكوفيفنا تعتقد أنها صحت من نومها وقامت من فراشها . لكنها لم تجدها لا فى الحديقة ولا فى غرفة نومها . فشعرت بروع شديد وأيقظت ابنتيها الأخريين .

وقالت الخادم ان آجلايا ايفانوفنا قد ذهبت الى الحديقة العامة قبل الساعة السابعة . فضحكت الأختان ضحكاً ماكراً حين علمتا بأمر هذه النزوة الجديدة التى بدت لأختهما الصغرى ذات الخيال الجامح ، ولفتتا نظر أمهما الى أن آجلايا يمكن أن تغضب اذا مضى أحد يبحث عنها فى الحديقة العامة ؛ وقالتا انها لا بد أن تكون الآن جالسةً الى كتاب بيدها على الدكة الخضراء التى تكلمت عنها منذ ثلاثة أيام وأوشكت أن تشتجر فى شأنها مع الأمير « شتشب ... » ، الذى زعم أنه لا يجد فى المكان الذى تقع فيه تلك الدكة أى جمال خاص .

فلما وقعت اليزابت بروكوفيفنا على ابنتها متواعدةً مع الأمير ، وفاجأتها تنطق بتلك الأقوال الغريبة ، شعرت برعب شديد له فى الواقع أسباب كثيرة تبرره وتسوّغه . ولكنها بعد أن جرّت الأمير معها ، خشيت نتائج مبادرتها ، اذ تساءلت : « لماذا لا يجوز أن تلتقى آجلايا بالأمير فى الحديقة وان يجرى بينهما حديث ، ولو على سابق موعد ؟ » .

قالت أخيراً وهى تحاول أن تسيطر على نفسها :

ــ لا يذهبنْ بك الظن ، يا عزيزى الأمير ، أننى جئت بك الى هنا لكى استجوبك ... ولعلنى ، يا صديقى الطيب ، كنت أوثر ، بعد الذى جرى فى مساء أمس ، أن لا أراك مرة أخرى ، خلال مدة طويلة .

وانقطعت عن الكلام لحظة . فبادرها الأمير بقوله :

ــ لكننى أقدّر أنك تحبين أن تعرفى كيف التقينا اليوم أنا وآجلايا ايفانوفنا ...

فأجابته اليزابت بروكوفيفنا باندفاع :

ــ طبعاً أحب أن أعرف ذلك . أنا لا أخشى أن أقابَل بالحقيقة . اننى لا أسيء الى أحد ، ولم أشأ أن أسيء الى أحد ...

ـ طبعاً .. ان الرغبة في معرفة ذلك لا تشتمل على اساءة الى أحد. لقد التقينا اليوم ، أنا وآجلايا ايفانوفنا ، قرب الدكة الخضراء ، في الساعة السابعة تماماً ، على موعد ضربته لي أمس . لقد أعطيتني في مساء أمس رسالة تقول فيها انها تريد أن تراني وأن تكلمني في أمر هام . فالتقينا وتكلمنا خلال ساعة في شئون لا تتعلق الا بها وحدها . ذلك كل شيء .

قالت اليزابت بروكوفيفنا بلهجة رصينة :

ـ طبعاً هذا كل شيء يا صديقي . لا يساورني أي شك في أن هذا كل شيء .

قالت آجلايا وهي تدخل الغرفة فجأة :

ـ أحسنت جداً يا أمير . أشكر لك من أعماق قلبي أنك اعتبرتني عاجزة عن الانحدار الى حيث ألفق كذبة . أأنت راضية الآن يا ماما ، أم تراك تريدين أن تمضي في الاستجواب الى أبعد ذلك ؟

ردت عليها اليزابت بروكوفيفنا بلهجة من يلقي دوساً :

ـ تعلمين حق العلم أنني لم يتفق لي في يوم من الأيام أن احمر وجهي أمامك ... رغم أن ذلك كان يمكن أن يحدث لك لذة .

ثم التفت تقول للأمير :

ـ استودعك الله يا أمير ! اغفر لي ازعاجي اياك . آمل أن تظل مقتنعاً بأن تقديري لك ثابت لا يتغير .

فسرعان ما حيًا الأمير أمّ الفتاة ثم انسلّ صامتاً لم لا ينبس بكلمة. وارتسمت ابتسامة على شفتي كل من آديلائيد والكسندرا ، وأخذتا تتهامسان . فألقت عليهما اليزابت بروكوفيفنا نظرة قاسية .

قالت آديلائيد ضاحكة :

ـ ان ما يحملنا على الابتسام هو أن نرى الأمير يلقى تحيته بهذا الجلال وهذه الفخامة ! انه فى العادة ، من فرط خراقته ، أشبه بكيس ، ثم اذا هو يصطنع الآن آداباً وحركات فكأنه أوجين بافلوفتش •

قالت اليزابت بروكوفيفنا بوقار :

ـ رفعة الذوق ورهافة الحس والشعور بالكرامة أمور تنبع من القلب ولا يعلّمها أساتذة الرقص •

وصعدت الى غرفتها حتى دون أن تلقى نظرة على آجلايا •

وحين عاد الأمير الى بيته فى نحو الساعة التاسعة وجد على الشرفة فيرا لوكيانوفا وخادمة • كانتا قد رتبتا المكان وكنستا الأرض بعد سهرة البارحة الصاخبة •

قالت فيرا مرحةً :

ـ الحمد لله ! انتهينا من العمل قبل عودتك •

ـ صباح الخير • ان بى بعض صُداع • لم أنم نوماً مريحاً • أودُّ لو ارقد قليلاً •

ـ هل تحب أن ترتاح هنا ، على الشرفة ، كأمس ؟ هذا حسن • سأقول للجميع أن لا يوقظوك • بابا خرج •

انصرفت الخادم • وتظاهرت فيرا بأنها تتبعها ، لكنها عدلت عن ذلك، واقتربت من الأمير مهمومة وقالت له :

ـ أمير ، اشفق على هذا ••• البائس • لا تطرده اليوم •

قال الأمير :

ـ لن أطرده بحال من الأحوال ، سيفعل ما يحلو له أن يفعله •

ـ الآن لن يفعل شيئا ... لا تكن قاسياً معه !

ـ طبعاً لن أكون قاسياً معه ، علام أكون قاسياً ؟

ـ ثم ... لا تضحك عليه ... لا تستهزىء به ... ذلك هو الأمر الأساسى .

ـ حتماً لن أفعل .

قالت فيرا وقد احمر وجهها :

ـ سخفٌ منى أن أقول هذا الكلام لرجل مثلك .

ثم أضافت تقول ضاحكةً وقد استدارت نصف استدارة نحو الباب :

ـ رغم أنك متعب مكدود ، فان عينيك فى هذه اللحظة تعبران عن أبلغ الطيبة وأعظم السعادة ...

سألها الأمير بحرارة :

ـ أهما تعبران عن سعادة عظيمة حقاً ؟

وانطلق يضحك ضحكة صريحة واضحة .

ولكن فيرا التى تتصف بالبساطة ، وتتصف برفع الكلفة وعدم التحرج كأنها صبى ، سرعان ما خجلت خجلاً كبيراً واضطربت اضطراباً شديداً وازداد احمرار وجهها كثيراً ؛ ثم اذا هى تخرج فجأة دون أن تنقطع عن الضحك .

قال الأمير يحدث نفسه : « يا لها ... من فتاة رائعة ... » ، ثم سرعان ما نسيها . وانسحب الى ركن من الشرفة فيه السرير ، وجلس قبالة مائدة صغيرة ، وغطى وجهه بيديه ، ولبث على هذا الوضع زهاء عشر

دقائق . وفجأةً ، دسَّ يده في جيبه الجانبي قلقاً ، فأخرج منه ثلاث رسائل .

لكن الباب فُتح من جديد ، ودخل كوليا ، فشعر الأمير بما يشبه الفرح لهذه الفرصة التي تتيح له أن يعيد الرسائل الى جيبه ، وأن يرجىء قراءتها .

جلس كوليا على السرير .

ولم يلبث أن انبرى يدخل في الموضوع دفعةً واحدة ، بما هو معهود في أمثاله من انطلاق :

ـ يا له من حادث ! ما رأيك الآن في هيبوليت ؟ هل فقد اعتبارك ؟

ـ علام يفقد اعتباري ؟ ... ولكنني متعب ... يا كوليا ... ثم ان العودة الى هذا الموضوع أليمة . كيف حاله الآن مع ذلك ؟

ـ انه نائم . وأغلب الظن أنه لن يستيقظ قبل ساعتين . أنا فاهم : انت لم تبت ليلتك بالدار ، بل ذهبت الى الحديقة العامة . شيء طبيعي .. لأنك كنت متأثراً مضطرباً !... لا أقل من هذا !

ـ كيف عرفت أنني ذهبت الى الحديقة العامة ، وانني لم أبت ليلتي بالدار ؟

ـ قالت لي فيرا هذا منذ لحظة . وقد أوصتني بأن لا أدخل . لكنني لم أطق صبراً . أردت أن أراك ، ولو دقيقة ! لقد قضيت هاتين الساعتين قائماً على المريض . والآن يقوم عليه كوستيا ليديف . أما بوردوفسكي فقد مضى . الخلاصة : ارقد يا أمير ؛ أتمنى لك ليلةً... بل يوماً سعيداً ! ولكن ... هل تعلم ؟ أنا مشدوه مذهول !

ـ لا غرابة في ذلك ، بعد كل الذي ...

ـ لا يا أمير ، لا . ان ما يشـدهني ويذهلني هو « الاعتراف » ؟ ولا سيما الجزء الذي يتحدث فيه عن العناية الالهية والحياة الآخرة . ههنا فكرة ضخ ... مة !...

نظر الأمير الى كوليا بعاطفة وحنان . لا شك في أن كوليا انما جاء ليتحدث مع الأمير في تلك الفكرة الضخمة .

قال كوليا :

ـ لكن الشيء الأساسي ، الشيء الأسـاسي ، ليس الفكرة ذاتها بل الظروف التي نبتت هذه الفكرة في ظلها . فلو أن الذي عبَّر عن هذه الفكرة فولتير أو روسو أن برودون ، لقرأتها ولاحظتها دون أن تدهشني الى ذلك الحد من الادهاش . أما أن يقول هذا الكلام انسان موقن من أنه لم يبق له أن يحيا على وجه هـذه الأرض الا عشر دقائق ، فذلك مثال رهيب على الكبرياء والجبروت ! ان هذا أسمى مظهر من مظاهر الاستقلال والكرامة الشخصية ! ان هذا اقتحامٌ جسـور ... بل هو قوة نفسـية ضخمة ! فاذا قيل بعد هذا انه تعمد أن ينسى الكبسولة تعمداً ، كان ذلك حطة وخسة ، بل كان سخفاً واستحالة ! ولكن هـل تعلم ؟ لقد خدعنـا هيبوليت أمس . انه ماكر . أنا لم أشاركه في ترتيب حقيبته ، لا ولا رأيت مسدسه في يوم من الأيام ، انه هو الذي حزم كل شيء . لذلك دُهشت وتحيَّرت حين سمعته يزعم ذلك الزعم . تقول فيرا انك ستبقيه هنا . أؤكد لك أن لا خطر البتة ، لا سيما وأننا نراقبـه مراقبـة دقيقـة في كل لحظة .

ـ من الذي سهر عليه هذه الليلة ؟

ـ كوستيا ليبديف ، وبوردوفسكي ، وأنا . وقد جاء كيللر برهةً ، لكنه لم يلبث أن ذهب ينام عند ليبديف ، اذ لم يكن في غرفتنا مكان يرقد

فيه • وهناك انما بات فردشتشنكو كذلك ، ثم خرج في الساعة السابعة• وما يزال الجنرال في بيت ليبديف • والآن خرج هو أيضاً ••• أظن أن ليبديف ينوى أى يجيء اليك بعد هنيهة • لقد بحث عنك ـ لا أدرى لماذا ! ـ وسأل مرتين أين أنت • أيجب أن نسمح له بالدخول ، أم يجب أن نطلب منه الانتظار ، اذا كنت تريد أن ترتاح ؟ أنا نفسى سوف أمضى أنام • ها ••• نعم ••• يجب أن لا أنسى أن أذكر لك ما يلى : لقد شهدت ، منذ قليل، عملاً غريباً من أعمال الجنرال• أيقظنى بوردوفسكى قبيل الساعة السادسة ، بل فى الساعة السادسة تماماً ، لأباشر نوبتى فى القيام على المريض • فخرجت دقيقة ، فما كان أشد دهشتى حين التقيت بالجنرال وقد بلغ من السكر أنه لم يعرفنى ، ولبث جامداً أمامى كأنه وتد مغروس فى الأرض ، ثم ثاب الى رشده ، فانبرى يسألنى : « هيه ! كيف حال المريض ؟ لقد جئت أسأل عن صحته ! » • فذكرت له كيت وكيت • فأضاف يقول : « هذا كله حسن ! ولكننى انما نهضت من فراشى وجئت خاصة لأنبهك • هناك أسباب تدعونى الى الاعتقاد بأن من غير الممكن أن يقال كل شيء بحضور فردشتشنكو •• وان من الواجب أن يكون المرء على حذر منه • • » • أتفهم يا أمير ؟

ـ هل هذا ممكن ؟ على كل حال ••• نحن لا يهمنا ذلك ولا يعنينا •

ـ طبعاً لا يهمنا ولا يعنينا ، فنحن لسنا من « الماسونيين الأحرار » ! حتى لقد أدهشنى أن يكون الأمير قد أراد أن يوقظنى هذه الليلة ليقول لى هذا الكلام •

ـ تقول ان فردشتشنكو خرج ؟

ـ فى الساعة السابعة• جاء الىّ وأنا قائم على المريض ، فذكر لى أنه

سينهى ليلته عند فلكين ـ انه سكير مشـهور ، فلكين هذا ! ـ هيًا ! أنا منصرف ! ولكن هذا هو لوكيان تيموفئتش ••• ان الامير يريد أن ينام يا لوكيان تيموفئتش ، فارجع من حيث أتيت !

فأجاب ليبديف وهو يحيى بكثير من الاحتفال :

ـ لا أكثر من دقيقة واحدة أيها الأمير المعظم • ان الأمر أمر قضية لها عندى شأن هام •

كان ليبديف يتكلم بصـوت خافت ولهجة رصينـة ، ولكن صوته ممتلىء بخطورة القضية التى جاء يتحدث فيها • لقد رجع الآن الى البيت، حتى انه لم يذهب الى غرفته بعد ، فما يزال ممسـكاً قبعته بيده • كان وجهه مهموماً ، وكانت هيئته تعبِّر عن خطورة الأمر تعبيراً قوياً •

رجاه الأمير أن يجلس •

ـ هل سـألت عنى مرتين ؟ أتراك ما تزال قلقـاً بسبب حـوادث البارحة ؟

ـ أأنت تعنى موضـوع فتى الليلة الماضـية يا أمير ؟ لا ، لا : لقد كانت أفكارى مضطربة أمس • أما اليوم فلست أريد أن أعاكس نواياك فى أى شيء •••

ـ أعاك ••• ماذا قلت ؟

ـ قلت : أعاكس • هذه كلمة فرنسية كغيرها من الكلمات الفرنسية الكثيرة التى دخلت على لغتنا الروسية ، ولكننى لا أحرص عليها حرصاً كبيراً •

قال الأمير وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ ماذا أصابك اليوم يا ليبديف حتى صرت شـديد الرصانة كثير الاحتفال الى هذه الدرجة ؟ أراك تتمهل فى الكلام مقطّعا كلماتك وازناً ألفاظك .

فاتجه ليبديف الى كوليا وقال له بلهجة يكاد يكون فيه حنان :

ـ نيقـولاى آرداليـونوفتش ! علىّ أن أبلغ الأمير قضـيـة تتعلق خاصة بـ ...

ـ طيب ... فهمت !... قضية لا تتعلق بى . الى اللقاء يا أمير !

كذلك قال كوليا وانصرف فوراً .

قال ليبديف وهو يتابعه بنظره :

ـ أحب هذا الصبى حقاً ، فهو حاد الذكاء سريع الفهم ؛ وهو يقظ نشيط ، وان يكن مزعجاً بكثرة الحاحه . لقد حلّت بى مصيبة كبرى أيها الأمير المعظم ، حلّت بى مساء أمس أو هذا الصباح فى وضح النهار .. لا أستطيع أن أحدّد الوقت تحديداً دقيقاً بعد .

ـ ماذا حدث ؟

ـ اربعمائة روبل اختفت من الجيب الداخلى من ردائى .

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة مرة :

ـ خُدعت أيها الأمير المعظم !

ـ فقدت اربعمائة روبل ؟ خسارة ...

ـ لا سيما بالنسبة الى رجل فقير يعيش من عمله بشرف ونبل .

ـ طبعاً ، طبعاً . كيف وقع الأمر ؟

ـ الذنب ذنب الخمرة . اننى اتجه اليك اتجاهى الى العناية الالهية أيها الأمير المعظّم . ان مبلغ الاربعمائة روبل هذا قد ردّه الىّ مدين

فى الساعة الخامسة من مساء أمس • وعدت الى هنا بالقطار • وكانت محفظة أوراقى فى جيبى • فلما خلعت بزّتى لأرتدى ردنجوتى وضعت المال فى جيب الردنجوت حرصاً منى على الاحتفاظ بالمال معى • كنت أنوى أن أسلم المال فى السهرة لرجل من رجال الأعمال كان قد طلبه منى • وكنت انتظر ذلك الرجل •••

ـ بالمناسبة يا لوكيان تيموفتش : هل صحيح أنك نشرت فى الجرائد اعلاناً أنك تقرض مالاً برهن أشياء ذهبية أو فضية ؟

ـ هذا الاعلان قد تم ارساله بواسطة رجل من رجال الأعمال • فهو لا يحمل اسمى ولا عنوانى • وانا امرؤ لا أملك الا رأس مال صغير، وقد ازداد عدد أفراد أسرتى ، فأظن أنك توافق على أن فائدة شريفة•••

ـ طبعاً ، طبعاً ! أنا لم ألق عليك هذا السؤال الا من باب العلم بالشىء !••• اغفر لى اننى قاطعتك •

ـ لم يأت رجل الأعمال الذى كنت أنتظره • ثم جىء الى هنا بذلك البائس الشقى • وبعد العشاء كنت قد انتعشت • ثم جاء زوارنا • فشربنا ••• شاياً ••• و ••• من سوء حظى أننى أفرطت فى المرح • فلما وصل كيللر فى ساعة متأخرة من السهرة فأعلن لنا أن اليوم عيد ميلادك وأن علينا أن نقدم شمبانيا ، اعتقدت يا عزيزى الأمير المعظم ، اعتقدت أنا الذى أملك قلباً لا أقول انه عاطفى ولكننى أقول معتزاً انه قلب يعترف بالجميل (وأغلب ظنى أنك لاحظت ذلك ، لاننى استحق أن تلاحظه) ، نعم ••• اعتقدت أن من واجبى أن أخلع ثيابى القديمة البالية وأن أعود أرتدى بزتى الرسمية انتظاراً للحظة التى أعبّر لك فيها عن تهنئتى ، وأحتفل فيها بعيد ميلادك بمزيد من المهابة والفخامة • ذلك ما فعلته يا أمير ، ولا بد أنك لاحظت أننى لبثت مرتدياً بزتى الرسمية

طوال السهرة • ولكنني حين بدلت ثيابي نسيت المحفظة في جيب ردنجوتي • صدق من قال : اذا أراد الله أن يعاقب أحداً جرّده من عقله أولاً • وفي هذا الصباح ، في الساعة السابعة والنصف ، حين استيقظت من نومي ، وثبت نحو ردنجوتي كالمجنون • فاذا أنا أجد الجيب خالياً • فلا أثر للمحفظة •

ـ آه ••• هذا مزعج !

ـ هذه هي الكلمة : مزعج •

كذلك قال ليبديف ثم أضاف بشيء من المكر :

ـ انك بما تملك من كياسة تتميز بها قد وجدت التعبير المناسب فوراً •

قال الأمير قلقاً بعد لحظة من تفكير :

ـ ولكن ••• مع ذلك ••• كيف ••• هذا خطير !

ـ تلك هي الكلمة : خطير ! لقد جئتَ ، يا أمير ، مرةً أخرى ، بالتعبير الموفّق الذي يحدّد ال •••

ـ أوه ••• لوكيان تيموفئتش ! ما لنا وللكلمات الآن ! ليست الكلمات هي الأمر المهم • هل تعتقد أن من الجائز أن تكون المحفظة قد سقطت من جيبك دون أن تنتبه أنت الى ذلك بسبب سكرك ؟

ـ جائز • كل شيء في السكر جائز ، على حد التعبير الذي استعملته بكثير من الصراحة أيها الأمير المعظم • ولكن احكم في الأمر بنفسك : لو أنني أسقطت محفظتي من جيبي حين خلعت ردنجوتي لكان يجب العثور على المحفظة في أرض الغرفة •• فأين هي المحفظة ؟

ـ ألا يجوز أن تكون قد دسستها في درج منضدة ؟

ـ نبشت كل شيء • بحثت في كل موضع • ثم انني لم أضعها في أي مكان ، ولم أفتح أي درج • أتذكر هذا تذكراً تاماً •

ـ هل بحثت في الخزانة الصغيرة ؟

ـ ذلك أول شيء فعلته، حتى لقد بحثت فيها عدة مرات هذا الصباح ••• ثم ما الذي كان يمكن أن يدفعني الى دسّ المحفظة في الخزانة الصغيرة أيها الأمير المعظم ؟

ـ أعترف لك يا ليديف أن الأمر يقلقني كثيراً • أيكون أحد قد عثر بها اذن على الأرض ؟

ـ أو استلها من جيبي ! ليس هناك تفسير آخر •

ـ هذا يقلقني قلقاً شديداً ! من ذا الذي يمكنه أن يفعل هذا ؟•• ذلك هو السؤال !

ـ لا شك أن ذلك هو السؤال الأساسي • انك أيها الأمير المعظّم توفّق توفيقاً مدهشاً محكماً الى الكلمات والأفكار والتعاريف التي تصور الوضع •••

ـ آه ••• لوكيان تيموفئفتش ••• كفى سخرية ! هنا •••

صاح ليديف وهو يرفع ذراعيه قائلاً :

ـ سخرية ؟

ـ هيّا ••• هيّا ••• طيب •• لست أزعل ••• ان اهتمامي منصرف الى غير هذا تماماً •• انني أخشى أن أرى أناساً يُتهمون • فيمن تشتبه ؟

ـ السؤال محرج جداً ••• و ••• معقد جداً ! لا أستطيع أن أتهم الخادمة ، فلقد لبثت في مطبخها طول الوقت • ولا يمكن الشك في أولادي أيضاً •••

ـ طبعاً .

ـ ينتج عن ذلك أن الفاعل لا يمكن أن يكون الا أحد الزوار .

ـ ولكن هل هذا ممكن ؟

ـ هذا مستحيل استحالة مطلقة كاملة ، ولكن لا يمكن أن يكون قد حدث غير هذا . وانني لأسلّم مع ذلك ، بل انني لمقتنع أيضاً بأن السرقة ـ اذا كان ثمة سرقة ـ انما حدثت لا في السهرة ، حين كان الزوار مجتمعين ، بل في ساعة متأخرة من الليل ، أو حتى عند مطلع الصبح ، وان الشخص الذي ارتكبها هو أحد الذين باتوا ليلتهم هنا .

ـ آه ... رباه !...

ـ أنا لا أشك طبعاً في بوردوفسكي ولا في نيقولاي آرداليونوفتش؛ وهما لم يدخلا عليّ ، في كل حال .

ـ هذا بديهي ، حتى ولو دخلا عليك ! من بات ليلته عندك ؟

ـ نحن أربعة بتنا في غرفتين متلاصقتين : الجنرال ، كيللر ، السيد فردشتشنكو ، وأنا . فالفاعل لا بد اذن أن يكون أحدنا .

ـ تقصد أنه لا بد أن يكون أحد الثلاثة . ولكن من هو ؟

ـ لقد عددت نفسي بين المعدودين ، لأكون عادلاً ، ولأضع الأمور في نصابها . ولكنك توافقني يا أمير على أنني لا يمكن أن أسرق نفسي بنفسي ، وان تكن هذه الحالة قد سبق أن شوهد مثلها في هذا العالم ...

صاح الأمير يقول وقد نفد صبره :

ـ آه .. ليبديف ... ثرثرتك مضجرة جداً . انتقل الى الوقائع. لماذا هذه المواربات ؟...

ـ بقي اذن ثلاثة أشخاص . فلنبدأ أولاً بالسيد كيللر ، وهو رجل متقلب لا يعرف الاستقرار ، وهو رجل سكير مدمن على الشراب ، وهو

فى بعض الأحوال يوصف بأنه لبرالى ، فيما يتعلق بمسألة الجيوب هذه على الأقل . والأَوْلى على كل حال أن يوصف بأن طبعه يشبه طبع فارس من العصر القديم أكثر مما يشبه طبع لبرالى من الزمان الحاضر . لقد قضى النصف الأول من الليل معنا فى غرفة المريض ثم لم يبارحنا الا فى ساعة متأخرة بحجة أنه لا يستطيع أن ينام على الأرض .

ـ هل تشتبه فيه ؟

ـ اشتبهت فيه ، وحين وثبت عن فراشى كالمجنون بعد الساعة السابعة ولطمت جبينى ، مضيت على الفور أوقظ الجنرال الذى كان ينام نوماً هادئاً بريئاً . فلما تأملنا أنا والجنرال فى أمر اختفاء فردشتشنكو ذلك الاختفاء الغريب ، وهذا أمر خليق وحده بأن يثير فينا الشبهات والشكوك ، قررنا كلانا أن نفتش كيللر الذى كان راقداً مثل ... مثل ... مثل مسمار تقريباً . نبشنا جيوبه نبشاً دقيقاً فلم نجد قرشاً واحداً ، حتى ان جميع جيوبه كانت مثقوبة لا يُستثنى منها جيب واحد . وعثرنا فى أحد الجيوب على منديل من قطن أزرق ذى مربعات يأنف المرء من أن يشيله بملقط . ووجدنا رسالة غرام من خادمة ما ، فيها مطالبة بمال وفيها تهديد . ووجدنا صفحات من المقالة التى تعلم من أمرها ما تعلم . ذلك كل ما وجدناه فقرر الجنرال أن كيللر برىء . ومن أجل أن نزيد الأمر وضوحاً ، أيقظنا الرجل من نومه ، ولقينا فى ايقاظه بعض العناء ، فلما بسطنا له القضية لم يكد يفهم عمّ نتكلم : كان أمامنا فاغر الفم ، ثمل الهيئة ، غبىّ الوجه ، برىء النظرة . ليس هو الفاعل اذن !

صاح الأمير يقول وهو يتنفس الصعداء فرحاً :

ـ آه ... ما أعظم سرورى ! كنت خائفاً عليه !

قال ليبديف غامزاً بمكر :

ـ كنت خائفاً عليه ؟ أكان هناك اذن أسباب تدعوك الى الخوف عليه؟

فأجابه الأمير :

ـ لا ، لا ... فانما أنا قلت هذا بغير تفكير . لقد عبَّرت عن تفكيرى تعبيراً أحمق أخرق حين قلت اننى كنت خائفاً عليه . أرجوك يا ليبديف أن لا تنقل كلامى هذا الى أحد .

ـ أمير ! أمير ! سوف يبقى كلامك مدفوناً فى قلبى ، فى القاع من قلبى . هو من قلبى فى قبر .

كذلك قال ليبديف بمهابة وجلال ، ضاغطاً بقبعته على صدره .

سأله الأمير :

ـ طيب ... طيب .. هل الفاعل اذن هو فردشتشنكو ؟ أقصد هل تشتبه فى فردشتشنكو ؟

فأجاب ليبديف خافضاً صوته محدقاً الى الأمير :

ـ هل هناك من يمكن أن أشتبه فيه غيره ؟

ـ نعم ... طبعاً ... من يمكن الاشتباه فيه غيره ؟ ولكن ، أين الأدلة ؟

ـ الأدلة موجودة . أولاً : اختفاؤه فى الساعة السابعة أو حتى قبل الساعة السابعة من الصباح .

ـ أعلم : لقد حكى لى كوليا أن فردشتشنكو قد دخل عليه ليبلغه أنه سوف ينهى ليلته عند ... نسيت الاسم ... المهم : عند أحد أصدقائه.

ـ فيلكين . اذن سبق أن حدثك نيقولاى آرداليونوفتش عن هذا الأمر ؟

ـ لم يقل لى عن السرقة شيئاً .

ـ هو لا يعلم بها ، لأننى أكتم الأمر الآن . اذن ذهب فردشتشنكو الى عند فيلكين : لا غرابة فى أن يذهب سكير الى سكير ، حتى فى مطلع الصبح ، بدون أى داع ، أليس كذلك ؟ ولكن هنا يرتسم مسار يمكن اقتفاؤه . ان فردشتشنكو ، حين انصرف ، قد ذكر المكان الذى كان ذاهباً اليه . اصغ الىّ يا أمير ، وتابع سير تفكيرى . لماذا فعل فردشتشنكو ذلك؟ لماتعمد أن يدخل على نيقـولاى آرداليونوفتش ، رغم أن الطريق اليه فيه دورة طويلة ، ليبلغه أنه « سيختم ليلته عند فيلكين » ؟ من ذا الذى يهمه أن يعرف أنه خارج ، وأنه ذاهب خاصةً الى فيلكين ؟ لماذا الابلاغ عن هذا ؟ لا ، لا ، ان ذلك شطارة ، شطارة لص! ذلك معناه : « انظروا : اننى لم أحاول اخفاء أثرى ، فكيف يمكن بعد ذلك أن تنصب علىّ شبهة سرقة ؟ هل يدل سارق على المكان الذى يذهب اليه ؟ » . هذه زيادة فى الاحتياط والحذر لتحويل الأنظار وصرف الشبهات ، ومحو آثار الخطوات على الرمل ان صح التعبير ... هل فهمت عنى يا أميرى المعظم ؟

ـ فهمت ، فهمت جيداً ، ولكن هذا دليل واهن كل الوهن .

ـ اليك دليلاً آخر : لقد ظهر أن المسار كاذب ، وأن العنوان الذى تركه فردشتشنكو غير صحيح . فلقد ذهبت أقرع باب فيلكين بعد ساعة، أى فى الساعة الثامنة . انه يسـكن هنا ، فى « الشـارع الخامس » وأنا أعرفه على كل حال . لم أجد عنده فردشتشنكو . صحيح أننى استطعت أن أعلم من خادمة صماء كأنها جرة ماء ، أن أحـداً قد جاء منذ سـاعة فعلاً ، وأنه بذل جهـوداً كبيرة ليدخل حتى لقد خلع الجرس ، ولكن الخادمة لم تفتح الباب اما لأنها لم تشأ أن توقظ فيلكين ، واما لأنها لعلها لم تستطب أن تنهض عن سريرها . هذا واضح .

ـ أهذه براهينك كلها ؟ انها قليلة .

ـ حول من يمكن أن تحوم شبهاتي اذن يا أمير ؟

هكذا ختم ليبديف كلامه بلهجة فيها مراعاة شديدة ، وبصوت يوشك أن يكون دامعاً ، ولكن على ابتسامة لا تخلو من بعض المكر .

قال الأمير مهمومَ الهيئة بعد لحظة من تفكير :

ـ يجب عليك أن تفتش الغرف والأدراج تفتيشاً جديداً .

فقال ليبديف متنهداً ، معبراً بوجهه عن مزيد من التأثر :

ـ فعلت !

فهتف الأمير يقول وهو يضرب المائدة غضباً :

ـ هِمْ ... ولكن لماذا ، لماذا خلعت ردنجوتك ؟

قال ليبديف :

ـ هذا سؤال مستمد من مسرحية هزلية قديمة . ولكنني أرى أيها الأمير المعظم المبجل أنك تسرف في التألم لمصيبتي ! أنا لا أستحق كل هذا . أقصد : أنا لا أستحق هذا ، وحدي ! على أنني أرى أنك تتألم للجاني أيضاً ... لذلك الرَّجل التافه الذي يسمى فردشتشنكو !

فقاطعه الأمير يقول ذاهلاً مستاءً :

ـ نعم ... فعلاً ... لقد ملأت نفسي هماً . الخلاصة : ماذا تنوي أن تفعل .. اذا كنت مقتنعاً هذا الاقتناع كله بأن فردشتشنكو هو الجاني؟

قال ليبديف وهو يتلوى ويتعقف ويصطنع لهجة ما تنفك تزداد امتلاءً بالتأثر والعاطفة :

ـ يا أمير ، أيها الأمير المعظم ، من ذا الذي يمكن أن أتهمه سواه ؟ يستحيل أن ينصرف التفكير الى شخص آخر ، وان استحالة الاشتباه في

أى انسان عدا فردشتشنكو هى فى ذاتها قرينة أخرى تشير الى أنه هو الجانى . ذلك دليل ثالث ! ذلك اننى أكرر هذا السؤال : من ذا الذى يمكن اتهامه عداه ؟ اننى لا أستطيع أن أشتبه فى السيد بوردوفسكى ، هىء هىء ؟

ـ دعك من هذا السخف !

ـ لا ولا الجنرال ، هىء هىء ؟

ـ هذه أيضاً حماقة !

قال الأمير هـذه الجملة الأخيرة بلهجـة تكاد تشتمل على غضب ، وانقلب على مضجعه الى الجهة الأخرى متململاً نافد الصبر .

ـ هى حماقة طبعاً ! هىء هىء هىء ! ما أغرب شأن هذا الجنرال ! لشد ما أضحكنى ! لقد ذهبنا منذ قليل ، نبحث عن فردشتشنكو عند فيلكين .. يجب أن أقول لك انه كان أشد دهشة منى حين مضيت أوقظه بعد أن تبيّن لى ضياع المال ؟ فسرعان ما انقلبت سحنته ، وتبـدل وجهـه ، فاحمر ثم اصفر ، واستبدت به آخر الأمر نوبة نبيلة من الاستياء والغضب بلغت من الشدة والعنف حداً لم أكن أتوقع مثله البتة ! ان له طبعاً من أنبل الطباع . صحيح أنه لا ينفك يكذب ، ضعفاً ، ولكنه انسان رفيع العواطف سامى المشـاعر ؟ وهو الى ذلك يبلغ من الغبـاء والبراءة ما يجعل المرء يمحضه ثقة كاملة لا تشوبها شائبة من شك . سبق أن قلت لك ، أيها الأمير المعظم ، اننى لا استلطفه فحسب ، بل أحمل له عاطفة طيبة ومحبة كثيرة . لقد وقف فى وسط الشارع على حين فجأة ، وفتح رداءه ، وكشف لى عن صدره قائلاً : « فتشنى ! لقد فتشت كيللر ، فلماذا لا تفتشنى ؟ ان العدل يوجب ذلك ! » . وكانت ذراعاه وساقاه ترتجف ، وكان وجهه شديد الشحوب حتى ليشعر الناظر اليه بخوف . أخذت أضحك وقلت له :

« اسمع يا جنرال ، لو قال هذا الكلام أحد عنك ، لبادرت أقطع رأسى بيدىّ ، ثم أضعه على طبق كبير وأمضى أعرضه بنفسى على جميع أولئك الذين يمكن أن يشتبهوا فيك ، قائلاً لهم : « هل ترون هذا الرأس ؟ اننى مستعد لأن أقدّمه رهناً على أن الجنرال صادق لا يكذب ، بل اننى مستعد لأن ألقى بنفسى الى النار فى سبيله ! » . فما كان من الجنرال الا أن ارتمى بين ذراعى ، ونحن مانزال فى وسط الشارع، نذرف بضع عبرات ، وبلغ من قوة شدّى الى صدره معانقاً أننى كدت اختنق من نوبة سعال . قال لى : « أنت الصديق الوحيد الذى بقى لى فيما أنا فيه من شقاء » . انه انسان حساس جداً ! وقد انتهز الفرصة طبعاً ليقص علىّ أثناء الطريق حكاية تنفق وهذه المناسبة ، فقال انه قد اتهم ذات يوم أثناء شبابه بأنه سرق خمسمائة ألف روبل . لكنه فى غداة ذلك اليوم نفسه رمى نفسه فى لهب منزل يحترق ، فأنقذ الكونت الذى كان قد اتهمه ، وأنقذ فى الوقت نفسه نينا الكسندروفنا التى كانت فى ذلك الأوان فتاة لم تتزوج . وقد عانقه الكونت وقبّله ؛ وفى أعقاب هذا الحادث انما تزوج نينا ألكسندروفنا . أما المال المفتقد فقد اكتُشف فى اليوم التالى بين انقاض المنزل المحترق ، داخلَ علبة حديدية كان مودعاً فيها . ان تلك العلبة الحديدية ، وهى صناعة انجليزية ذات قفل خفى ، كانت قد اندست تحت أرض الغرفة — لا يدرى أحد كيف ! — فلم يمكن العثور عليها الا بعد الحريق . القصة ملفقة طبعاً ، ولكن هذا لا ينفى أن عينيه قد دمعتا حين جاء على ذكر نينا ألكسندروفنا . انها لامرأة محترمة جداً ، نينا ألكسندروفنا هذه ، رغم أنها غاضبة منى حاقدة علىّ

— أليس لك بها صلات ؟

— تقريباً . ولكننى أتمنى أن تكون لى بها صلة ، ولو لأبرىء نفسى فى نظرها . ان نينا ألكسندروفنا حانقة علىّ لأنها تظن أننى أدفع زوجها

الآن الى الادمان على السكر . والحق أنني لا أحضه على الفساد بل أصده عنه ، ولعلني أقيه من رفاق السوء ، وأجنّبه مزالق بيئة خطرة . هذا وانني أعده صديقاً ، وأعترف لك بانني لن أهجره بعد اليوم أبداً ؛ ولأذهبنّ الى حيث يذهب ، لأنه لا سبيل الى التأثير فيه الا بالعاطفة . لقد انقطع الآن عن التردد الى صاحبته « الكابتينه » انقطاعاً تاماً ، وان يكن في سرّه يحترق شوقاً الى الذهاب اليها ، حتى انه في بعض الأحيان يتنهد تنهداً قوياً بل يئن أنيناً حين يفكر فيها ، ولا سيما في الصباح ، حين يقوم من فراشه ويضع قدميه في حذاءيه . لا أدري لماذا يستبد به هذا الأمر في تلك اللحظة بعينها . والبلية أنه لا يملك قرشاً واحداً ، وهو لا يستطيع أن يذهب اليها بغير مال . ألم يسألك أن تنفحه بعض المال ، أيها الأمير المعظم ؟

ـ لا ، لم يسألني شيئاً .

ـ انه متحرج . كان يريد أن يطلب منك مالاً . حتى لقد اعترف لي بأنه ينوي مضايقتك بهذا الأمر . ولكنه لم يجرؤ ، لأنك أقرضته منذ مدة قصيرة ، فقدّر أنك ربما رفضت اقراضه ثانيةً . لقد أفضى اليّ بهذا افضاء صديق يبوح لصديقه بما في نفسه .

ـ وأنت ، ألا تعطيه مالاً ؟

ـ يا أمير ، أيها الأمير المعظم ، أنا مستعد لأن أعطي هذا الرجل لا مالاً فحسب ، بل حياتي أيضاً ان صح التعبير ... حين أقول حياتي فانني أبالغ . ولكنني مستعد في سبيله لأن أتحمل الحمى ، أو أن أتحمل دمّلاً أو زكاماً ، هذا طبعاً اذا كان ثمة حاجة مطلقة الى ذلك . انني أعده

رجلاً عظيماً لكنه انحدر وهوى . هذا رأيي ؟ فمن باب أولى ، اذا كان الأمر أمر مال ...

ـ اذن فأنت تعطيه مالاً !

ـ لا ، لا أعطيه مالاً . لم أعطه مالاً ، وهو يعرف انني لن أعطيه. ولكنني لا أمنع عنه المال الا لهدف واحد هو أن أحمله على الاعتدال ، وأن أصلح ما فسد من شأنه . ان الفكرة الثابتة التي تستبد به الآن هي أن يصحبني الى بطرسبرج في رحلتي التي ألاحق فيها السيد فردشتشنكو ، لاعتقادي بأنه هناك حتماً . فالجنرال يغلي ويفور الآن ، لكنني أتنبأ بأنه متى وصل الى بطرسبرج سيتركني ليمضي الى صاحبته أرملة الكابتن . أعترف لك بأنني سأدع له عامداً أن ينصرف ، وبأننا متفقان على أن نفترق متى وصلنا بطرسبرج ليكون حظنا من النجاح في التقاط فردشتشنكو بطرق مختلفة ووسائل شتى ، أكبر . سأدع له اذن أن ينصرف ، ثم أسقط عليه عند أرملة الكابتن على حين فجأة ، متلبساً بالجرم المشهود ، لأنني أنتوي خاصة أن أُخجله من نفسه ، مذكراً اياه بواجباته كرب أسرة ، وبكرامته كانسان عامة .

قال الأمير بصوت خافت وقد استولى عليه قلق شديد :

ـ ولكن لا تحدث ضجة يا ليبديف ، لا تحدث ضجة ، ناشدتك الله !...

ـ لا ، لا ، انني لا أقصد الا أن أُخجله ، وأن أرى كيف يكون وجهه حينذاك ، لأن الوجه يمكن أن يكشف عن أشياء كثيرة ، أيها الأمير المعظم ، و لاسيما في رجل مثله ! آه يا أمير ! مهما تكن مصيبتي الآن كبيرة ، فانني لا أستطيع ، حتى في هذه اللحظة ، أن امتنع عن التفكير فيه

وفى اصلاحه . لى رجاء كبير أريد أن أتقدم به اليك أيها الأمير المعظم ؛ حتى اننى اعترف لك بأن هذا هو السبب الذى حضنى على المجىء اليك. انك تعرف أسرة الجنرال ، حتى لقد أقمت عندهم ، فليتك تقبل ، أيها الأمير المعظم ، أن تيسِّر لى عملى وتسهِّل علىَّ مهمتى فى سبيل مصلحة الجنرال وسعادته لا أكثر ...

قال ليبديف ذلك وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى على وضع الضراعة والابتهال .

قال الأمير :

ـ ما هو الأمر ؟ فى أى شىء أستطيع أن أساعدك ؟ ثق اننى أتمنى جداً أن أفهم فكرتك وأن أدرك ما يدور فى ذهنك يا ليبديف ...

ـ ان ثقتى هذه وحدها هى التى قادتنى اليك ! ان فى امكاننا أن نعمل بواسطة نينا ألكسندروفنا لنحيط صاحب السعادة الجنرال برقابة محكمة متصلة فى منزله نفسه . يؤسفنى أننى لست على صلة ... ثم ان نيقولاى آرداليونوفتش ، الذى يحبك حباً يبلغ العبادة ان صح التعبير ، ويتعلق بك تعلقاً فيه كل ما فى سنه الشابة من حرارة وحمياً ، يستطيع أن يساعدنا ولا شك ...

ـ لا ! ... لا ! ... أنقحم نينا الكسندروفنا فى هذا الأمر ؟ وقانا الله شرَّ ذلك !... لا ولا نقحم فيه كوليا .. ولكن ... لعلنى لمَّا أنفذ الى فكرتك بعد يا ليبديف .

صاح ليبديف قائلاً وهو يثب عن كرسيه :

ـ لا شىء يحتاج الى نفاذ !... ما نحن فى حاجة الى أكثر من العطف عليه والرقة فى معاملته ! ذلك هو كل الدواء اللازم لمريضنا . هل تسمح لى ، يا أمير ، أن أعده مريضاً ؟

ـ هذا يدل على طيب قلبك وسداد رأيك •

ـ سأستعين على شرح رأيي بمثال مستمد من المشاهدة ، التماساً لمزيد من الوضوح • انك ترى اى انسان هو هذا الرجل : ان ضعفه الوحيد الآن هو ذلك التعلق الشديد بأرملة الكابتن التى لا يمكنه أن يذهب اليها بغير مال ، والتى آمل أن أفاجئه عندها هذا اليوم نفسه في سبيل خيره • بل فلنفرض أنه لا يوصم بهذا الضعف وحده ، وانما هو متهم بارتكاب جريمة أو بمقارفة فعل منافٍ للشرف (مع أنه لا يمكن أن يفعل شيئاً من ذلك البتة) : أنا أقول ، حتى فى هذه الحالة ، ان فى امكاننا أن نصل به الى كل ما نبغيه له من خير ، لأننا نستطيع أن نناشد فيه مشاعر الحنان النبيل وعواطف الرقة الرفيعة ، فهو انسان حسّاس الى أبعد الحدود • صدقنى اذا قلت لك انه لن يصمد خمسة أيام ، ثم اذا هو يأخذ يتكلم ويعترف بكل شيء ذارفاً أحرّ الدموع ؟ ولا سيما اذا خاطبناه بمهارة ونبل فى آن واحد ، واذا استطعتم ، أنت وأفراد أسرته ، أن تراقبوا خطاه ان صحّ التعبير ، وأن ترصدوا جميع حركاته وسكناته •

ثم قال ليبديف منتفضاً عن كرسيه كأنما هبط عليه وحى مفاجيء :

ـ أنا لا أجزم طبعاً أنه هو بغير شك ••• وما أزال مستعداً لأن أسفح فى سبيله كل دمى على الفور ••• ولكن لا شك فى أنك توافقنى على أن الفجور والسكر وأرملة الكابتن ، أن ذلك كله مجتمعاً يمكن أن يمضى به الى بعيد جداً •••

قال الأمير وهو ينهض :

ـ ما زلت مستعداً لأن أساعدك فى هذه القضية بطبيعة الحال • لكننى أعترف لك يا ليبديف أن فى نفسى خشية رهيبة • عجيب أمرك : انك لا تزال تقدّر أن ••• أقصد ••• انك تقول أنت نفسك ان اشتباهك ينصرف الى السيد فردشتشنكو ، أليس كذلك ؟

ـ ففيمن أشتبه اذا لم أشتبه فيه، أيها الأمير المخلص الصادق ؟ فيمن اشتبه اذن ؟

كذلك عاد يقول ليبديف مبتسماً ابتسامة عذبة ضاماً يديه احداهما الى الأخرى برقة وملاطفة .

فاكفهر وجه الأمير ونهض . ثم قال :

ـ انك لتعـرف يا لوكيان تيموفئفتش أن الظن الخطأ فى مثل هذه الأحوال شىء فظيع . ان فردشتشنكو هذا ... أنا لا أريد أن أقول فيه سوءاً ... ولكن ... ولكن فردشتشنكو هذا ... من يدرى ؟ ربما كان هو الفاعل ... أقصد .. ربمـا كان أقدر من غيره على فعل هذا الأمر دون تورع .

حملق ليبديف بعينيه وأرهف السمع بأذنيه . وكان الأمير يزداد وجهه اربداداً ، وكان يذرع الغرفة طولاً وعرضاً ، محاولاً أن لا ينظر الى محدثه . ثم قال وقد تفاقم ارتباكه :

ـ هل تعلم ؟... لقد قيل لى عن السيد فردشتشنكو انه ، عدا ذلك، قد يكون رجلاً ينبغى للمرء أن يحذره فلا يقول بحضـوره شيئاً ... أكثر مما يجب أن يقـال . هـل فهمت ؟ أنا أنقل اليك هذا الكلام لأن السيد فردشتشنكو قد يكون ، بالفعل ، أقدر من غيره على أن ... فأنا أنقل اليك هذا الكلام اتقاء لارتكاب خطأ ... ذلك أن هذا هو الشىء الأساسى ، فهمت ؟

قال ليبديف سائلاً باهتمام قوى :

ـ ولكن من ذا الذى ذكر لك هذه الملاحظة عن السيد فردشتشنكو؟

ـ همس لى أحدهم بها عرضاً . وأنا على كل حال لا أصدق من ذلك

شيئاً ... وانه ليسوءني أني وجدت نفسي مضطراً الى أن أنقل اليك ذلك الحديث . أؤكد لك أنني لا أولي هذا الكلام أي ثقة .. .فهو لا يعدو أن يكون من باب الأقاويل السخيفة ... آه ... ما كان أغباني حين نقلته !...

قال ليبديف وهو يرتجف من شدة الانفعال :

ـ هذا أمر هام جداً يا أمير ، هام جداً الآن ، لا فيما يخص السيد فردشتشنكو ، بل من جهة المصدر الذي وصل منه هذا الأمر الى علمك..

كان ليبديف ، وهو يقول هذا الكلام ، يركض حول الأمير ، جاهداً أن يوفق بين خطوه وخطوه .

وتابع يقول :

ـ اليك يا أمير ما يجب عليّ أن أطلعك عليه الآن : في هذا الصباح، بينما كنا ذاهبين معاً ، أنا والجنرال ، الى ذلك الرجل الذي يسمى فيلكين أخذ الجنرال ، بعد أن حكى لنا قصة الحريق تلك ، أخذ يطلق ، على حين فجأة ، غمزات في حق السيد فردشتشنكو ، وكان ما يزال يرتعش استياءً بطبيعة الحال . لكن الكلام الذي قاله في حق فردشتشنكو قد بلغ من التفكك والاضطراب أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من القاء بعض الأسئلة عليه . فأقنعتني أجوبته بأن جميع تلك المعلومات التي أوردها صاحب السعادة الجنرال انما لفّقها واخترعها هو نفسه ... تلك ثمرة من ثمرات حبه للكلام والافضاء والبوح . فهو اذا كذب، لا يكذب الا لأنه لا يستطيع أن يكظم ميله الى الافصاح عما يعتمل في قلبه . واني لألقي عليك الآن هذا السؤال طالباً منك أن تقضي في الأمر بنفسك : اذا كان الجنرال قد كذب ، وهذا ما أنا مقتنع به ، فكيف أمكن أن تصل كذبته الى مسمعك ؟ لاحظ ، يا أمير ، أن ذلك الحديث انما كان ابن لحظته ، انما كان من وحي

تلك اللحظة ، فمن ذا الذي أمكنه أن يطلعك عليه ؟ هذه نقطة هامة ...
انها ، ان صح التعبير ...

ـ كوليا هو الذي نقل اليّ ذلك الكلام ؛ والملاحظة ذكرها له أبوه الذي صادفه في حجرة المدخل بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، بينما كان خارجاً لا يدري أحد لماذا ...

وقصّ الأمير على ليبديف كل شيء تفصيلاً .

قال ليبديف وهو يفرك يديه سروراً ويضحك ضحكاً صامتاً :

ـ آ ... هـذا ما يصح أن يسمى أثراً يجب اقتفـاؤه ... ذلك ما كنت أقدّره ! معنى ذلك أن صـاحب السـعادة الجنرال ، في السـاعة السادسة من الصباح ، قد قطع نومه البريء ، خصيصاً ، ليمضي يوقظ ابنه الحبيب ويبلغه أن صحبة السيد فردشتشنكو تعرّض المرء لخطر خارق ! فما أكبر خطر فردشتشنكو بعد ذلك في نظر الابن ، وما أعظم العنـاية الأبوية التي يظهرها صاحب السعادة ! هيء هيء هيء !...

قال الأمير قلقاً أشد القلق :

ـ اسمع يا ليبديف ، اسـمع : يجب أن تعمـل برفق وهـدوء . لا تحدث ضجة ! أرجوك يا ليبديف ، أضرع اليك ... فاذا تقيدت بهذا الشرط ، فيميناً لأساعدنّك . ولكن يجب أن لا يعرف شيئاً أي انسان ، أي انسان !

هتف ليبديف يقول بالهام حاسم ونشوة كبرى :

ـ ثق أيها الأمير المخلص الكريم أن هذا كله سيُدفن في قلبي النبيل دفناً . يجب أن نسير متكاتفين بخطى لا يُسمع لها صوت ! نعم ، متكاتفين بخطى لا يُسمع لها صوت ! انني مستعد لأن أهب دمي كله ..

أيها الأمير العظيم ، ان لى نفساً خسيسة وفكراً منحطاً ، ولكن اسأل أى انسان منحط ، بل اسأل أى وغد حقير أهو يفضّل أن يتعامل مع وغد من نوعه أم هو يؤثر أن يتعامل مع انسان مثلك يتمتع بكمال النفس وعظمة القلب ، أيها الأمير المخلص ؟ لسوف يجيبك بأنه يفضّل الثانية ، هنا انما تنتصر الفضيلة ! أستودعك الله أيها الأمير المبجّل ! بخطى ليس لها صوت ... بخطى ليس لها صوت ... متكاتفين !

الفصل العاشر

أدرك الأمير أخيراً لماذا كان يتجمد كلما مدَّ يده الى تلك الرسائل الثلاث ، ولماذا كان يرجىء قراءتها الى المساء . فى الصباح ، حين استلقى على مضجعه دون أن يستطيع أن يعزم أمره على فض أى ظرف من ظروف الرسائل الثلاثة ، كان قد نام نوماً ثقيلاً مضطرباً ، ووافاه حلم آخر مزعج أليم رأى فيه تلك « المجرمة نفسها » مقبلةً عليه ، متقدمةً نحوه . كانت تنظر اليه والدموع تلتمع على أهدابها الطويلة ، وكانت تدعوه من جديد أن يتبعها ، وكما حدث له فى الليلة الماضية ، استيقظ على ذكرى ذلك الوجه الأليمة ، فأراد أن يذهب «اليها» فوراً ، ولكنه لم يقوَ على ذلك ؛ وانتهى به الأمر ، بعد أن استولى عليه ما يشبه أن يكون يأساً ، الى أن يفض الرسائل ويأخذ فى قراءتها .

ان تلك الرسائل تشبه ، هى أيضاً ، أن تكون حلماً . ان المرء يرى فى بعض الأحيان أحلاماً غريبة ، لا تخطر بالبال ولا يتصورها الخيال ، أحلاماً تخالف الطبيعة ؛ فاذا استيقظ تذكرها واضحةً جليةً ، فاستغرب أمرها كل الاستغراب . انك تتذكر خاصة أن عقلك لم يبارحك فى أية لحظة من لحظات الحلم ، بل انك لتتذكر أنك تصرّفت بكثير من براعة المكر وحسن الحيلة وسلامة المنطق ، خلال مدة طويلة ، بينما كان القتلة يحدقون بك ويمدون لك الفخاخ ، ويدبرون المكائد ، ويخفون

أهدافهم ؟ حتى لقد يتوددون اليك ، على حين أن أسلحتهم موهَّبة ، وأنهم لا ينتظرون الا اشارة لينقضوا عليك • وانك لتتذكر ما عمدت اليه من براعة المكر ، لتخدعهم عن أنفسهم ، وتتوارى عن أبصارهم ؟ ولكنك تحزر بعد ذلك أنهم يعرفون حيلتك ، فهم يتظاهرون بجهل مخبئك تظاهراً ؟ فتلجأ عندئذ الى مخادعة أخرى ، وتظفر بتضليلهم مرة ثانية • ذلك كله تتذكره تذكراً واضحاً، ولكن كيف تتصور أن عقلك ، خلال تلك الفترة من الوقت ، قد أمكنه أن يسلّم بسخافات واستحالات تبلغ من وضوح سخفها واستحالتها ما تبلغه تلك الأمور التى يزخر بها حلمك ؟ ان واحداً من القتلة قد تحول الى امرأة على مرأى منك ، ثم تحوّلت هذه المرأة الى قزم ماكر كريه أمام عينيك ، فسرعان ما سلّمت أنت بهذا كله تسليمك بواقع ، دون أى اندهاش تقريباً ، بينما كان عقلك فى الوقت نفسه يبذل جهداً قوياً وطاقة عظيمة فيحسن المكر ، ويجيد الفهم ، ويدرك تسلسل الأحداث ومنطق الأمور ؟

ولماذا أيضاً ، حين تستيقظ من النوم وتعود الى الاندماج فى الحياة الواقعية ، لماذا تشعر ، فى جميع الأحوال تقريباً ، وبقوة خارقة احياناً ، أنك بخروجك من ميدان الحلم قد خلّفت وراءك لغزاً لم يُحل ؟ انك تبتسم استهزاءً بسخافة حلمك واستحالته ، ولكنك تحس فى الوقت نفسه بأن ذلك الركام من الأباطيل المتداخلة المتشابكة ينطوى على نوع من فكرة ••• فكرة واقعية تنتمى الى حياتك الراهنة ، ينطوى على شىء يوجد فى قلبك وقد وُجد دائماً فى قلبك ؟ فكأن كشفاً من كشوف النبوة قد تنزّل عليك فى حلمك وكنت تنتظره ! انك تحتفظ منه بانفعال قوى ، انفعال فرح أو انفعال ألم ، ولكنك لا تستطيع أن تفهمه ، ولا أن تتذكر تذكراً واضحاً ماذا كان !

ذلك هو على وجه التقريب ما جرى فى فكر الأمير بعد قراءة تلك

الرسائل الثلاث . ولكنه ، حتى قبل أن يفضَّها ، كان قد شعر بأن وجودها وحده ، بأن امكان وجودها وحده ، هو في ذاته أشبه بأن يكون حلماً ثقيلاً ، كابوساً أليماً . قال يسأل نفسه وهو يتجول في المساء وحيداً (دون أن يتذكر أين ، في بعض الأحيان) : كيف « هي » قررت أن تكتب « اليها » ؟ كيف أمكنها أن تكتب « في هذا الموضوع » ، كيف أمكن أن ينبت في رأسها حلم يبلغ هذا المبلغ من الطيش والجنون ؟ ولكن هذا الحلم كان قد صار الى حقيقة واقعة ؛ والأمر الذي أدهش الأمير أكثر من ذلك أيضاً ، أثناء قراءة الرسائل ، أنه هو نفسه لم يكن بعيداً عن الاعتقاد بأن هذا الحلم ممكن وبأنه مشروع . نعم ، لا شك في أن هذا حلم ، في أنه كابوس ، في أنه جنون . غير أن ثمة كذلك شيئاً مؤلم — الواقعية ، قاسيَ الصحة والصدق ، يسوِّغ الحلم والكابوس والجنون ، ويجعلها كلها مشروعة .

ولبث الأمير عدة ساعات في حالة قريبة من الهذيان ، وهو يتذكر ما قرأ . انه يتذكر بعض العبارات بغير انقطاع ، فيقف عليها فكره ويمضي يتأملها ملياً . حتى لقد كان يهم أن يقول لنفسه في بعض الأحيان انه أوجس هذا كله من قبل وانه تنبأ به . كان يخيَّل اليه أنه سبق له أن قرأ هذه الرسائل في ماضٍ بعيد، وأن هذه الرسائل هي بذور كل ماعاني منذ ذلك الحين من أنواع القلق وفنون العذاب وألوان المخاوف .

كانت الرسائل الأولى تبدأ هكذا :

« حين ستفضين هذه الرسالة ، ابحثي أولاً عن التوقيع الذي يذيِّلها . ان هذا التوقيع سيقول لك كل شيء ، وسيُفهمك كل شيء ، فلا أكون في حاجة الى أن أبرر نفسي ، ولا أن أعتذر عن عملي ، فلو كنت أساويك أقلَّ مساواة لكان في وسعك أن تستائي من جرأتي ، ولكن ما أنا بالقياس اليك ؟ أين أنا منك ؟ اننا لنبلغ من شدة التعارض ، وانني

لأبلغ من فرط الصغر بالنسبة اليك ، أننى لا أستطيع أن أوذى كرامتك ولو نويت أن أفعل » .

وهى تكتب بعد ذلك قائلة :

« لا تَرىْ فى أقوالى حماسة مرضيةً تصدر عن فكر مختل اذا أنا قلت لك اننى أرى فيك الكمال كله مجسداً . لقد رأيتك ، وانى لأراك فى كل يوم . لاحظى أننى لا أقضى فيك برأى . فليس التفكير هو الذى يقودنى الى اعتبارك كاملة ، وانما يقودنى الى ذلك ايمان بسيط . ولكننى مخطئة فى حقك : اننى أحبك . وما ينبغى للمرء أن يحب الكمال ؛ وانما حسبه من الكمال أن يعرف أنه كمال وكفى ، أليس هذا صحيحاً ؟ ومع ذلك أشعر نحوك بحب . صحيح أن الحب ينشىء مساواة بين الناس . ولكن لا تقلقى : فاننى حتى فى أخفى خفايا تفكيرى لم أُنزلك الى مستواى ، ولا قرنت نفسى بك فى يوم من الأيام . قلت الآن : «لا تقلقى»، ولكن هل يمكن أن تشعرى أنت بقلق ؟.. لو أمكن ذلك لقبّلت الأرض التى تدوسها قدماك . آه ... اننى لا أعدُّ نفسى نداً لك بحال من الأحوال . انظرى الى التوقيع الذى أذيّل به هذه الرسالة ، أسرعى فانظرى اليه ! » .

وهى تكتب فى رسالة أخرى :

« ألاحظ مع ذلك أننى أجمع بينكما دون أن أكون قد ألقيت على نفسى فى يوم من الأيام هذا السؤال : هل تحبينه ؟ لقد أحبك هو ، يوم لم يكن قد رآك الا مرةً واحدة . فكانت صورتك فى خياله صورة «الضياء» . ذلك هو التعبير الذى استعمله . سمعت هذا التعبير من فمه . على أننى لم أكن فى حاجة الى هذا لأدرك أنك الضياء فى نظره . لقد عشت بقربه شهراً كاملاً ؛ وفى تلك الأثناء انما فهمت أنك تحبينه أيضاً. فانتما فى نظرى واحد لا اثنان » .

« ما معنى هذا ؟ مررت أمس بقربك ، فتراءى لى أنك تحمرين ؟ مستحيل . لا يمكن أن يكون هذا الا احساساً خطأ . أنت لو أخذوك الى أحط المواخير ، وأروك الرذيلة عارية كل العرى ، لما أمكن أن تحمرى: أنت لا يمكن أن تغضبى من اساءة أو اهانة . قد تبغضين جميع السافلين المنحطين ، ولكنك لا تبغضينهم من حقد شخصى عليهم ، بل من رأفة بالآخرين ومن عطف على الآخرين الذين ينالهم أولئك باساءة أو اهانة. لأنك أنت لا يستطيع أحد أن يجرح كرامتك أو أن يؤذى شعورك . حتى اننى أحس ـ هل تعلمين ؟ ـ أنك لا بد أن تحبينى . أنت فى نظرى ما أنت فى نظره : روح من ضياء . والملاك لا يمكن أن يبغض ، بل ولا يملك الا أن يحب . هل يستطيع المرء أن يحب جميع اقرانه البشر بغير استثناء ؟ ذلك سؤال طرحته كثيراً على نفسى . فكان جوابى : لا ، حتماً ! حتى ان ذلك ينافى الطبيعة . وما حب الانسانية الا معنى مجرد ، من خلاله لا يحب المرء الا نفسه . ولكن اذا كان هذا الحب يستحيل علينا نحن ، فليس يستحيل عليك أنت . اذ كيف يمكن أن لا تحبى جميع البشر ، ما دمت فوق جميع البشر ، فما من أحد يرقى الى مستواك ، وما من اهانة يمكن أن تنالك ، وما من استياء يمكن أن يساور نفسك ! أنت وحدك تستطيعين أن تحبى بغير أنانية . أنت وحدك تستطيعين أن تحبى لا من أجل نفسك بل من أجل من تحبينه . آه ... لسوف يؤلمنى أقسى الألم أن أعلم أنك بسببى تشعرين بخجل أو غضب ! فلو حدث هذا لكان فيه ضياعك ، لأنك تهبطين عندئذ الى مستواى !...

« أمس ، بعد أن لقيتك ، عدت الى منزلى وتخيلت لوحة . ان الفنانين يرسمون المسيح دائماً على أساس المعلومات الواردة فى الانجيل. أما أنا فلو كان علىّ أن أرسم المسيح لصوّرته غير هذا التصوير . لو كان علىّ أن أرسم المسيح لصوّرته وحيداً (لقد كان مريدوه يتركونه وحيداً

فى بعض الأحيان على كل حال) ، ولما وضعت بقربه الا طفلاً صغيراً، والطفل يلعب من حوله • ولعل الطفل قد قصّ عليه بلغته الساذجة شيئاً من الأشياء ، فأصغى اليه المسيح فى أول الأمر ، لكنه الآن يتأمل ، ومازال يده مستريحة على الشعر الوضىء من رأس الصبى بحـركة نسـيان لم يقصدها • وهو ينظر الى بعيد ، الى الأفق• وفى عينيه تنعكس فكرة رحيبة رحابة الكون • ووجهه حزين • لقد صمت الطفل • انه واضعٌ كوعيه على ركبتى المسيح ، مسندٌ خده الى يده الصغيرة ، رافعٌ رأسه يحدق الى المسيح بنظرة ثابتة ، وقد لاح على وجهه ذلك التفكير الذى يلاحَظ أحياناً فى وجوه الصغار الصغار • والشمس تغرب ••• تلك هى اللوحة التى كان يمكن أن أرسمها • انك نقية ، وكمالك كله فى نقائك • آه ••• تذكرى هذا وحده ! لا يهمَّنك هيامى بك ! أنت بعد اليوم لى ، وسأبقى قريبة منك طول حياتى • سوف أموت وشيكاً » •

وكتبت فى الرسالة الأخيرة تقول :

« لا تسيئى الظن فىّ، ناشدتك الله ! لا ولا تحسبى اننى أُذلُّ نفسى بالكتابة اليك على هذا النحو لأننى من أولئـك البشر الذين يجـدون فى خفض أنفسـهم لذةً بل ويلتمسـون فيه عجباً وزهواً • لا • ان لى ما يعزينى • ولكن يصعب علىّ أن أشرحه لك ؛ بل لقد يصعب علىّ أن أدركه أنا نفسى ادراكاً واضحاً ، رغم أن هذا يعذبنى • لكننى أعلم أننى لا يمـكن أن أذلّ نفسى حتى بدافع فرط العجب والزهو • أما المـذلة التى تنشأ عن نقاء القلب فأنا عاجزة عنها • معنى ذلك أننى لا أذل نفسى لا بهذه الصورة ولا بتلك •

« لماذا أريد أن أجمع بينكما ؟ أمن أجلكما أم من أجلى ؟ من أجلى طبعاً • كل شىء يرتد الى هذا فيما يتعلق بى ؛ قلت ذلك لنفسى منذ مدة طويلة • لقد علمت أن أختك آديلائيد قالت فى ذات يوم ، وهى تنظر الى

صورتي ، ان المرء يستطيع بجمال كهذا الجمال أن يحدث في العالم ثورة. ولكنني عدلت عن العالم ، عزفت عن العالم . لا بد أن يبدو لك مضحكاً أن أكتب هذا الكلام بينما أنت تصادفينني مكسوة بالملابس المخرّمة ، مزدانةً بالحلى الثمينة، في صحبة سكّيرين وأوغاد ، أليس كذلك ؟ لا تلقي بالاً الى هذا . أنا منذ الآن لا وجود لي تقريباً ، واني لأعرف ذلك ولا أجهله . الله يعلم من ذا الذي احتلّ في ذاتي مكانَ شخصي . انني أقرأ مصيري كل يوم في الأعين الرهيبة المحدّقة اليّ دائماً ، حتى حين لا تكون أمامي . ان تلك الأعين « تصمت » الآن (تصمت دائماً) ، لكنني أعرف سرّها . ان منزله قاتم كالح من الضجر . ان هذا المنزل يخفي سراً . انا مقتنعة أن عنده ، في درج من الأدراج ، سكيناً قد لُفّ نصلها بالحرير كسكين ذلك القاتل من موسكو ، الذي كان يعيش هو أيضاً مع أمه ويفكّر في ذبح عنق . لقد ظللت أحس ، طوال الوقت الذي قضيته في منزلهم ، أنه لا بد أن تكون مخبأةً ، في مكانٍ ما ، تحت الأرض ، جثةٌ لعل أباه خبأها هناك ملفوفةً بقماش مشمّع ، كتلك الجثة التي اكتُشفت بموسكو ، وأحيطت كذلك بقوارير من اكسير جدانوف ؟ بل انني لأستطيع أن أدلك على الركن الذي لا بد أن تكون الجثة مخبأةً فيه . انه يصمت دائماً ، ولكنني أعلم حق العلم أن تولهه بي يبلغ من القوة أنه لا يمكن الا أن يستحيل الى كره . سيتم زواجكما وزواجنا في يوم واحد . هذا ما تمّ عليه الاتفاق بيننا . وليس لديّ سرٌّ بالنسبة اليه . انني قد أقتله من شدة الخوف ... لكنه سيقتلني قبل أن أعزم أمري على ذلك ... لقد ضحك الآن حين رآني أكتب هذا الكلام ؟ وهو يزعم أنني أهذر . وهو يعلم أنني اليك اكتب . » .

لقد ضمت الرسائل أفكاراً أخرى هاذية كثيرة . وكانت احدى هذه

الرسائل الثلاث ـ وهى الثانية ـ تملأ بكتابة دقيقة جداً أربع صفحات كبيرة •

خرج الأمير أخيراً من ظلمة الحديقة التى طوّف فيها مدة طويلة كما فعل البارحة • بدا له الليل الشاحب الشفاف أوضح مما يكون فى العادة • قال يسأل نفسه : « هل يمكن أن لا يكون قد انقضى من الوقت زمن طويل ؟ » (كان الأمير قد نسى أن يحمل ساعته) • وخيِّل اليه أنه يسمع موسيقى بعيدة • فقال يحدث نفسه مرة أخرى : « لعلها فى الفوكسهول • لا شك أنهم لم يذهبوا اليوم الى هناك • » • وانه ليقول لنفسه هذا الكلام ، اذا هو يلاحظ أنه أمام منزلهم • لقد كان يقدّر حقاً أن الطواف كان سينتهى به أخيراً الى هناك • واجتاز الشرفة منهارَ القلب •

الشرفة خالية • لم يأت للقائه أحد • انتظر لحظة ، ثم فتح الباب الذى يفضى الى الصالة • أسرع يقول لنفسه : « هذا الباب لا يُغلق أبداً » • الصالة خالية • يكاد يكون الظلام فيها كاملاً • وقف الأمير فى فى وسط الغرفة متردداً • وفيما هو كذلك ، اذا بباب يُفتح فتدخل الكسندرا ايفانوفنا حاملةً بيدها شمعة • فلما رأت الأمير بدرت منها حركة استغراب ودهشة ، وتوقفت توقف من يسأل ويستفهم • طبعاً ، لم تكن تريد الكسندرا الا أن تجتاز الصالة من باب الى باب ، ولم تكن تتوقع أن تجد أحداً •

قالت أخيراً :

ــ ما جاء بك الى هنا ؟

ــ دخلت عابراً •

ــ ماما متعبة ، وكذلك آجلايا • وآديلائيد توشك أن ترقد على

سريرها ، وذلك ما سأفعله أنا أيضاً . لقد بقينا بالمنزل وحدنا طول السهرة . بابا والأمير « شتش ... » فى بطرسبرج .

ـ أتيت اليكن ... أتيت اليكن .. الآن ...

ـ هل تعلم كم الساعة الآن ؟

ـ لا ...

ـ هى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل . ونحن ننام دائماً فى الساعة الواحدة .

ـ ها ... وأنا الذى كنت أظن أن الساعة هى التاسعة والنصف.

قالت ضاحكة :

ـ لا ضير ! ولكن لماذا لم تجىء قبل هذا الوقت ؟ أظن أنك كنت تُنتظر .

تمتم يقول وهو ينصرف :

ـ كنت ... أقدّر ... كنت .. أُظن ...

ـ الى اللقاء ! سيضحك الجميع من هذا فى الغد .

رجع الأمير الى بيته سالكاً الطريق الذى يدور حول الحديقة . كان قلبه يخفق ، وكانت أفكاره مضطربة مشوشة ، وكان كل شىء يكتسى فى نظره مظهر الحلم . وفجأةً ، ظهرت لعينيه تلك الرؤيا نفسها التى سبق أن ظهرت له مرتين حين كان يستيقظ من النوم. تلك المرأة نفسها خرجت من الحديقة ، ووقفت جامدةً أمامه ، كأنما كانت مرابطةً فى ذلك المكان تنتظره . ارتعش ووقف . تناولت يده ، وشدت عليها شداً قوياً . « لا ، ليست هذه رؤيا ! ليس هذا طيفاً ! » .

ها هى ذى معه أخيراً ، وجهاً لوجه ، لأول مرة بعد افتراقهما . انها تكلمه ، ولكنه ينظر اليها صامتاً . انه يشعر بألم فى قلبه الطافح . لن

ينسى هذا اللقاء في يوم من الأيام ، وسيظل يشعر بذلك الألم نفسه كلما تذكر هذا اللقاء . ركعت على ركبتيها أمامه في وسط الطريق كمجنونة . تراجع مذعوراً الى وراء ، بينما هي تحاول أن تمسك يده لتقبّلها . وكما سبق أن رأى ذلك قبل اليوم في الحلم ، ها هي ذي دموع تتلألأ على أهدابها الطويلة .

همس يقول لها خائفاً وهو يحاول انهاضها :

ـ قومي ، قومي ، قومي بسرعة !

فقالت تسأله :

ـ هل أنت سعيد ؟ هل أنت سعيد ؟ قل لي كلمة واحدة : هل أنت سعيد الآن ؟ اليوم ؟ في هذه اللحظة ؟ هل ذهبت اليها ؟ ماذا قالت لك ؟

لم تنهض ، ولم تصغ اليه . كانت تسأله مرتجفة محمومة ، وكانت تتكلم بلهجة سريعة متعجلة ، كأن أحداً يلاحقها ويطاردها . تابعت تقول :

ـ سأسافر غداً ، كما أمرت . ولن أظهر بعد اليوم أبداً ... أراك الآن آخر مرة ، آخر مرة ! هي الآن آخر مرة فعلاً !

قال الأمير بلهجة تدل على غاية الكرب :

ـ هدئي نفسك ! قومي ! انهضي !

وكانت تتأمله بشراهة وتعانق يديه . وقالت أخيراً :

ـ وداعاً !

ونهضت ، وابتعدت مسرعة تكاد تركض ركضاً . ورأى الأمير روجوين ينبجس الى جانبها فجأة ، فيمسك يدها ويقتادها .

وصاح روجوين يقول للأمير :

ـ انتظرني يا أمير ، سأرجع بعد خمس دقائق .

وعاد بعد خمس دقائق فعلاً ، وكان الأمير ينتظره فى ذلك المكان نفسه .

قال روجويين :

ـ أركبتها العربة . العربة تنتظرها هناك ، فى ناصية الطريق ، منذ الساعة العاشرة . كانت تقدر أنك لا بد أن تقضى السهرة كلها عند الأخرى . لقد أبلغتها ما كتبته الىَّ منذ قليل ، بدقة . فلن تبعث اليها بعد اليوم رسائل . هذا وعد . وستنفذ رغبتك فتغادر بافلوفسك غداً . أرادت أن تراك مرةً أخيرة ، رغم علمها بأنك سترفض لقاءها اذا هى طلبت ذلك ، فانتظرناك هنا ، على هذه الدكة التى كان عليك أن تمر بها فى طريق عودتك الى بيتك .

سأله الأمير :

ـ أهى التى جاءت بك ؟

فأجاب روجويين :

ـ لم لا ؟ ان ما رأيته هنا لم يطلعنى على جديد . ألم تقرأ اذن رسائلها ؟

فسأله الأمير وقد بغتته هذه الفكرة :

ـ وأنت ، هل قرأتها حقاً ؟

ـ هى نفسها أطلعتنى عليها كلها . هل تتذكر الاشارة الى السكين؟ هى. هى. !..

صاح الأمير يقول وهو يعقف يديه أسفاً :

ـ انها مجنونة !

فدمدم روجويين يقول بصوت خافت ، كأنه يخاطب نفسه على حدة .

ـ من يدرى ؟ قد لا تكون مجنونة •

فلم يجب الأمير •

قال روجوبين :

ـ هيًّا ! وداعاً ! أنا أيضاً مسافر فى الغد • لا تحمل ذكرى سيئة عنى !

ثم أضاف قائلاً وهو يستدير على حين فجأة :

ـ ولكن قل لى يا عزيزى : لماذا لم تجب عن سؤالها ؟ أأنت سعيد أم لا ؟

فصاح الأمير يقول معبّراً عن لوعة كبيرة :

ـ كلا ، ثم كلا ، ثم كلا !

فقال روجوبين وهو يضحك ساخراً :

ـ لا ينقص الا أن تقول لى « نعم » !

وانصرف دون أن يلتفت الى وراء •

الجزء الرابع

الفصل الأول

زهاء أسبوع على اللقاء الذى تمّ بين بطلى قصتنا عند الدكة الخضراء .

وفى ذات صباح مشرق ، خرجت باربارا الكسندروفنا بتسينا تقوم بزيارة بعض صاحباتها ثم رجعت الى منزلها كاسفة البال حزينة النفس فى نحو الساعة العاشرة والنصف من النهار .

هناك أناس يصعب على المرء أن يقول فيهم شيئاً يصفهم ويصوّرهم دفعةً واحدة فى أبرز ما يخصهم وأوضح ما يميزهم . أولئك هم الذين اصطُلح على تسميتهم باسم « العاديين » ، وهم أكثرية المجتمع فى الواقع. ان الأدباء يجهدون ، فى رواياتهم وأقاصيصهم ، أن يختاروا نماذج اجتماعية وأن يرسموا هذه النماذج الاجتماعية فى أقوى صورة جذابة وأجمل أداء فنى . وهذه النماذج لا توجد فى الحياة كاملةً ذلك الكمال الا استثناءً، غير أن هذا لا ينفى أن الأفراد الذين يصوّرون هذا التصوير هم أقرب الى الواقع من الواقع نفسه ان صح التعبير . ان شخصية بودكوليوسين * قد تشتمل على مبالغة من حيث هى نموذج ، ولكنها ليست وهماً صنعه الخيال . ما أكثر الأذكياء الذين ما ان عرفوا شخصية بودكوليوسين التى صوّرها جوجول فى مسرحيته حتى وجدوا بين أصدقائهم ومعارفهم عشرات بل مئات من الأفراد يشبهون هذه الشخصية كما تشبه قطرةٌ من الماء قطرةً من الماء ! بل ان هؤلاء الأذكياء كانوا ،

حتى قبل قراءة جوجول ، يعرفون أن أصدقاءهم يشبهون بودكوليوسين. وانما كان الشيء الذي يجهلونه هو الاسم الذي يجب أن يسمى به هذا النموذج . في الواقع ، يندر أن يهرب خطيبٌ من النافذة لحظةَ الزواج، ذلك أن هذه الحركة لا يستطيعها كل فرد من الناس ، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر . ومع ذلك ما أكثر العرسان من أناس يستحقون التقدير ولا يعوزهم الذكاء ، الذين أحسوا لحظةَ زواجهم بالحالة النفسية التي أحسها بودكوليوسين . كذلك لا يصرخ جميع الأزواج في كل مناسبة قائلين : « لقد أردتها يا جورج داندان * » . ومع ذلك ما أكثر ملايين وملايين المرات التي كرر فيها أزواج الكون بأسره تلك الصيحة الصادرة عن القلب ، بعد انقضاء شهر العسل أو حتى غداةَ يوم الزفاف !

لا حاجة بنا الى الافاضة في الكلام على هذه المسألة ، وحسبنا أن نقرر أن الخصائص البارزة المميزة التي تتصف بها هذه الشخصيات تكون في الحياة الواقعية أقل نتوءاً ، ولكن جميع أمثال جورج داندان وجميع أشباه بودكوليوسين موجودون في الواقع : يضطربون من حولنا ويسعون أمام أعيننا ، ولكن بسمات مخففة وملامح مطففة . ويجب أن نضيف الى ذلك ، لنختم هذه القضية ونستنفد هذا الموضوع ، أن النموذج الكامل لجورج داندان ، على نحو ما خلقه موليير ، يمكن أن يصادف في الحياة فعلاً ، ولكن نادراً . ولنختم هنا هذا الكلام الذي يوشك أن يصير الى مقال في النقد الأدبي .

غير أن هناك سؤالاً يطرح نفسه علينا دائماً : ما الذي يجب أن يفعله كاتب الرواية الذي يقدم لقرائه اشخاصاً « عاديين » تماماً ، في سبيل أن يثير اهتمام هؤلاء القراء بهم ولو قليلاً ؟ انه ليستحيل على كاتب الرواية أن يحذفهم من قصته ، لأن هؤلاء الناس العاديين هم في كل لحظة وفي أكثر الأحوال النسيج الذي لا غنى عنه ، والذي عليه تتسلسل وقائع

الحياة وأحداث الأيام ؟ فاذا حذفناهم كنا نجرد الرواية من صفة الصدق ونحرمها من ميزة الانطباق على الحقيقـة • هذا عـدا أن ملء الروايات بنماذج أو حتى بشخصيات غريبة خارقة انما يبعدها عن الواقع فلا تحظى بتصديق القارىء وقد لا تثير شوقه • وفى رأينا أن الكاتب يجب عليه أن يحاول اكتشاف ألوان طفيفة فيها اثارة للاهتمام وفيها ايحاء والهام ، حتى لدى الأشخاص العاديين • ولـكن حين يحـدث مثـلاً أن تكون الصفة الأساسية لبعض الأشخاص العاديين هى أنهم عاديون على نحو ثابت دائم مستمر ، أو أنهم رغم جميع جهودهم التى يبذلونها للخروج من العادية والعامية ما ينفكون يرجعون الى العادية والعامية رجوعاً لا برء منه ، فان هؤلاء الأشخاص العاديين يكتسبون بذلك صفة النمـوذج ، ويصبح لهم ما للنموذج من قيمة ، فهم عندئذ يمثلون العـادية التى لا تريد أن تبقى ما هى ، وانما تهدف الى بلوغ الأصالة بأى ثمن ، وتسـعى الى تحصيل الاستقلال مهما كلف الأمر ، دون أن تملك للوصول الى ذلك أية وسيلة من الوسائل •

فالى هذه الفئة من الناس « العاميين » أو « العاديين » ينتمى بعض أشخاص قصتنا هذه ، الذين اعترف بأن القارىء لم يوضِّحوا له حتى الآن• أولئك هم على وجه الخصوص باربارا آرداليونوفنا بتتسينا ، وزوجها السيد بتتسين ، وأخوها جبريل آرداليونوفتش •

لا شيء أدعى الى انزعاج المرء ، مثلاً ، من أن يكون غنياً ، وابن أسرة كريمة ، وحسن الهيئة ، وعلى جانب من ثقافة ، وغيرَ غبى ، بل وطيباً ، ولكنه لا يملك أية موهبة ، ولا ينفرد بأية سمة شخصية ، حتى ولا بأية صفة مميزة ، وأن لا يكون له أى تفكير خاص ، أى يكون شخصاً « كسائر الأشخاص » تماماً : فهو غنى ولكنه ليس مثل روتشيلد ، وهو ذو اسم محترم لكنه لم يتميز فى يوم من الأيام بشيء يجعله مرموقاً ؛

وهو حسن الهيئة لكنه لا يحدث فيمن يراه أثراً كبيراً ؛ وهو قد نال حظاً مناسباً من التعليم لكن هذا التعليم لا يجديه نفعاً فى شيء؛ وهو لا يخلو من ذكاء لكنه لا يملك أفكاراً شخصية ؛ وهو صاحب قلب حساس لكنه لا يتمتع بنفس كبيرة عظيمة ، وهكذا دواليك من جميع النواحي .

وبين الناس عدد كبير من هذا النوع من الأفراد ، أكبر كثيراً مما يمكن أن نتصور . وهم ينقسمون كسائر البشر الى فئتين أساسيتين : فأما الأولى فهى فئة الأفراد المحدودين وأما الفئة الثانية فأفرادها « أكثر ذكاء » . ان أفراد الفئة الأولى أسعد من أفراد الفئة الثانية . ان الانسان « العادي » المحدود الذكاء يستطيع بسهولة أن يظن أنه فذ وأنه أصيل ، ويمكن أن يطمئن الى هذا الظن ويسعد به . لقد كفى بعض آنساتنا أن يقصصن شعرهن ، وأن يضعن على أعينهن نظارات زرقاء ، وأن يعلن أنهن من أنصار المذهب العدمى ، حتى يقتنعن فوراً بأن هذه النظارات الزرقاء تهب لهن « آراء » شخصية ، و « اعتقادات » خاصة . وكفى فلاناً من الناس أن يكتشف فى قلبه ذرة عاطفة انسانية وطيبة حتى يتأكد فوراً من أنه لا أحد يشعر بمثل هذه العاطفة وأنه رائد من رواد التقدم الانسانى . وكفى فلاناً الآخر أن يتمثل فكرة سمعها من أحد الناس أو قرأها فى أحد الكتب دون أن تكون لها بداية أو نهاية ، حتى يتخيل أن هذه الفكرة خاصة به ، نابعة منه ، قد نبتت فى فكره وخرجت من رأسه. هذه حالة مدهشة يمكن أن نصفها بأنها وقاحة السذاجة ان صح التعبير. ونحن نصادفها دائماً ، رغم ما قد يبدو من أنها لا يُصدَّق وجودها فى الواقع . ان هذا النوع من الايمان الساذج المتكبر الذى يلاحَظ لدى رجل أحمق لا يساوره شك فى نفسه ولا فى موهبته ، قد وصفه جوجول وصفاً رائعاً فى النموذج المدهش ، نموذج الليوتنان بيروجوف * . ان بيروجوف لا يراوده شك فى أنه عبقرى بل أكثر من عبقرى . وهو يبلغ

من قلة شكه فى هذا أن السؤال كله أنه لا يطرحه على نفسه أصلاً ؟ عدا أنه لا شك لديه البتة . وقد رأى الكاتب الكبير نفسه مضطراً ، آخر الأمر ، الى أن يؤدبه بعقوبة الجلد ، ارضاءً للشعور الأخلاقى لدى القارىء . ولكنه لاحظ أن بطله لم تؤثر فيه العقوبة كبير تأثير ، ولم يزد بعدها على أن نفض جسمه ، وأخذ يأكل فطيرة صغيرة استرداداً لقواه ، لذلك لم يملك الكاتب الا أن يهز كتفيه ويترك قراءه حيث هم . لطالما أسفت على أن جوجول جعل رتبة بطله بيروجوف رتبةً منخفضة ، ذلك أن هذا الشخص يبلغ من امتلائه بنفسه أنه لا شيء يمنعه من أن يظن نفسه قائداً عظيماً على قدر ما تضخم الشارات على كتفيه بحكم القدم فى الخدمة والارتقاء فى الوظيفة .

ماذا قلت ؟ أقلت يظن نفسه ؟ ألا انه كان سيؤمن بذلك ايماناً لا يراوده فيك أى شك : فما الذى ينقصه ، اذا هو سُمِّيَ جنرالاً ، من أن يكون قائداً عظيماً ؟ وما أكثر الذين يخفقون بعد ذلك اخفاقاً رهيباً فى ساحات المعركة ؟ وما أكثر أمثال بيروجوف الذين وُجدوا بين الأدباء والعلماء وأصحاب الدعوات منا ! وُجدوا ؟ بل وما زالوا يوجدون حتماً !...

ان جبريل آرداليونوفتش ايفولجين ، وهو أحد أبطال روايتنا هذه ، ينتمى الى الفئة الثانية من العاديين ، فئة العاديين الذين أوتوا « ذكاء أكبر » ، وان يكن قد ظل من أخمص قدميه الى قمة رأسه يحترق رغبةً فى أن يكون رجلاً ذا أصالة وتفرد . لقد ذكرنا من قبل ان أفراد هذه الفئة الثانية أشقى كثيراً من أفراد الفئة الأولى . ومردُّ ذلك الى أن الانسان « العادى » الذى يملك « ذكاء » ، حتى وان ظن نفسه فى بعض الظروف (بل وطوال حياته) انساناً أوتى عبقرية وأصالة ، يظل محتفظاً

في قرارة قلبه بدودة شك تظل تأكله الى أن ترميه أحياناً في هوة اليأس الكامل . فان أذعن مع ذلك متسمماً بعاطفة الغرور المكبوح المكظوم .

على أننا أخذنا هنا حالة قصوى . أما في أغلب الأوقات فان مصير هذه الفئة « الذكية » من الرجال العاديين لا يكون فاجعاً الى هذا الحد . وكل ما يحدث لهم في أكثر تقدير هو أن يصابوا بمرض في الكبد بعد عدد من السنين ، فالى هذا يصير عذابهم كله . ومع ذلك فانهم قبل أن يهدأوا وأن يذعنوا يظلون ، خلال مدة طويلة ، منذ سن الشباب الى سن النضج ، يرتكبون حماقات تلو حماقات ، لا يدفعهم الى ذلك شيء غير الرغبة في التفرد والبحث عن الأصالة .

حتى لنرى حالات غريبة. فرب أناس منهم يتصفون بالشهامة ولكنهم يتوقون الى الأصالة ، فاذا هم لا يتورعون أحياناً عن ارتكاب حقارة من الحقارات . هذا واحد من هؤلاء الأشقياء يمكن أن يعد رجلاً شريفاً بل وطيباً ، وهو عند أسرته أشبه بالعناية الالهية ، يعول بعمله وحده لا ذويه فحسب ، بل أناساً غرباء أيضاً . فماذا يحدث له ؟ انه لا يهدأ له بال ولا تطمئن له نفس طوال حياته ! فشعوره بأنه قام بواجباته على أكمل نحو لا يصل به الى راحة القلب وسكينة الضمير . بالعكس : فهو حين يفكر في ذلك يغضب ويسخط . انه يقول لنفسه : « ذلك ما ضيعت حياتي في سبيله ! ذلك ما حال بيني وبين اختراع البارود ! فلولا تلك الواجبات والالتزامات ، لكان يمكنني أن اخترع البارود أو أن اكتشف أمريكا . لا أدري ما الذي كان في وسعي أن أكتشفه ، ولكنني كنت سأكتشف شيئاً من الأشياء قطعاً ! » .

ان أبرز ما يميز هؤلاء الناس هو أنهم يقضون حياتهم فعلاً دون أن يتوصلوا الى معرفة ما يجب عليهم أن يكتشفوه معرفة دقيقة ، وأنهم يظلون ينتظرون أن يكتشفوا شيئاً في الغد : البارود أو أمريكا ! غير أن

حنينهم المعذّب الى تحقيق هذا الاكتشاف يمكن أن يكون فى الحقيقة كافياً لرجل مثل كولومب أو مثل جاليله .

كان جبريل آرداليونوفتش قد دخل فى هذا الطريق ، ولكنه لم يسر فيه الا الخطوات الأولى فى يوم من الأيام . كان يمتد أمامه أفق بعيد من الآمال ممتلىء بالأشياء المتعارضة المتناقضة . وهو منذ طفولته تقريباً كان قلبه قد قرّحه شعورٌ عميق مستمر بأنه انسان عادى ، مع رغبة قوية عارمة فى أن يقنع نفسه بأن له استقلالا تاماً . كان فتى جسوداً ، عنيف الرغبات ، وكأنه خُلق عصبياً نزقاً . وكان يحسب عرامة اندفاعاته قوة وطاقة . وكان طمعه المسعور فى أن يتميز وأن يكون شخصاً مرموقاً يدفعه أحياناً الى التفكير فى القيام بأعمال طائشة ، ولكنه ما ان يهمّ أن يثب حتى ينتصر العقل ويتغلب الذكاء دائماً . كان هذا يقتله . ولعله كان يمكن اذا سنحت الفرصة أن يقرر اقتراف أحط الحقارات والدناءات لتحقيق هذا الحلم أو ذاك من أحلامه . لكنه كان متى اقتربت اللحظة الحاسمة يمتنع عن اجتراح مثل تلك السفالة لأن الشعور بالشرف كان ينتصر فى نفسه (ومع ذلك كانت الأفعال الدنيئة الصغيرة تلقى منه قبولاً دائماً فى الواقع) . وكان الفقر والهوان اللذين هوت اليهما أسرته يوقظان فى نفسه الاشمئزاز والكره . فكان يصطنع التعالى والاحتقار حتى ازاء أمه ، رغم شعوره الكامل بأن ما تتمتع به أمه من سمعة طيبة وما تنعم به من طبع قوى هو الآن سنده الأول ودعامته الأساسية فى حياته وعمله. وما ان دخل فى خدمة أسرة ايبانتشين حتى قال لنفسه : « ما دامت الأعمال الحقيرة لا بد منها ، فلنرتكبها الى آخرها ، شريطة أن أجنى منها نفعاً ! » ولكنه كان لا يرتكب تلك الأعمال الدنيئة الى آخرها أبداً . ثم : لماذا رسخ فى رأسه أن عليه أن يقوم بأعمال سافلة حتماً ؟ ان آجلايا لم تزد برفضها على أن أخافته . ولكنه ما يزال يطمع فى الفتاة ، وما يزال ينتظر

فرصة من الفرص صابراً ، دون أن يعتقد جاداً مع ذلك بأنها يمكن أن تتنازل فتقبل تقربه منها وتودده اليها •

ثم ارتأى فجأةً ، أثناء قصته مع ناستاسيا فيليبوفنا ، أن المال هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى « كل شيء » • وفي ذلك الأوان كان لا ينقضي يوم دون أن يردد على نفسه قوله : « اذا كان لا بد من اقتراف دناءة ، فلنقترفها ! » • وكان اذ يستعمل هذه اللغة يشعر برضى يداخله شيء من خوف • فكان لا ينفك يكرر في كل لحظة من أجل أن يتشجع : « اذا لزمت دناءة فلتمض الدناءة الى آخرها • ان الروتين يتردد في مثل هذه الحالة ، أما نحن فلن نتردد ! » •

واذ أخفق مع آجلايا وأرهقته الظروف ، فقدَ كلَّ شجاعة ، وحمل الى الأمير المال الذي رمته اليه امرأة مجنونة بعد أن أخذته من رجل لا يقل عنها جنوناً • وقد ندم بعد ذلك ألف مرة على أنه ردَّ المال ، لكنه لم يكفَّ عن الشعور من ذلك بافتخار واعتزاز • لقد ظل يبكي فعلاً خلال الأيام الثلاثة التي قضاها الأمير ببطرسبرج • ولكنه خلال هذه المدة أيضاً انما نضج كرهه للأمير وحقده عليه • انه لن يغفر للأمير أنه نظر اليه مشفقاً حين رآه « يقوم بعمل لا يجرؤ كثير من الناس أن يقوموا به » ألا وهو رد مبلغ ضخم كهذا المبلغ •

وكان يعترف لنفسه بصدق ونبل أن السبب الوحيد لكل ما يعانيه من قلق وغم هو هذا التمزق المتصل المستمر في غروره ، فكان هذا الشعور يعذبه عذاباً أليماً • ولم يستطع الا بعد مدة طويلة أن يدرك وأن يقتنع بأن أموره كانت ستجري مجرى خطيراً مع انسانة تبلغ ما تبلغه آجلايا من براءة وطهارة وغرابة ، فأخذ الندم عندئذ يهده هداً ، فترك العمل وسقط في هوة الكآبة والانهيار •

انه يعيش الآن عند بتتسين الذي يعوله كما يعول أباه وأمه • وهو

يظهر الاحتقار لصهره بتسين ، ولكنه يتبع نصائحه ، بل ويملك من التعقل والحكمة ما يحضه على التماس هذه النصائح منه دائماً • كان ثمة شيء يغضبه بين الأشياء الأخرى التي تغضبه ، وهو أن يرى أن بتسين لا يعنيه أن يصبح رجلاً مثل روتشيلد ، ولا يضع لطموحه هذا الهدف• « ما دمت مرابياً ، فكن مرابياً الى النهاية ؛ اعتصر الناس اعتصاراً ، اسلبهم مالهم ، كن قوي الشكيمة ؛ صر ملكاً في اسرائيل » •

وكان بتسين رجلاً متواضعاً مسالماً موادعاً : فكان يكتفي بالتبسم • ومع ذلك رأى في ذات يوم أن من الضروري أن يصارح جانيا وأن يناقشه مناقشة جادة ، ففعل ذلك بشيء من الرصانة والوقار ، مبيناً له أنه لا يأتي عملاً غير شريف ، فلا داعي الى وصفه بأنه يهودي ؛ وأنه اذا كانت نسبة الفائدة عالية فلا شأن له هو في ذلك ؛ وأن طريقته في المعاملة سليمة صادقة شريفة ؛ وأنه على وجه الاجمال ليس الا وسيطاً في هذا النوع من الأعمال ، وأنه بفضل تقيده بالمواعيد وصدقه في المعاملة قد أخذ يتمتع بشهرة ممتازة لدى أناس محترمين مرموقين ، وأن ميدان أعماله قد أخذ بسبب ذلك يتسع ويتسع • وأضاف يقول مبتسماً : « لن أصبح مثل روتشيلد ، ولا حاجة بي الى أن أصبح مثل روتشيلد ، ولكنني سأملك منزلاً وربما منزلين في ليتانيا ، وحسبي هذا ! » • وكان يقول بينه وبين نفسه : « ومن يدري ؟ قد أملك ثلاثة منازل » ، لكنه كان لا يفصح عن هذا الحلم ، بل يحتفظ به سراً مكتوماً في قرارة نفسه • ان الطبيعة تحب هذا النوع من الناس وتدلّله ، ولسوف تكافيء بتسين لا بثلاثة منازل بل بأربعة ، لأنه منذ طفولته أدرك أنه لن يصبح مثل روتشيلد • ولكن الطبيعة في مقابل ذلك لن تمضي في الاغداق على بتسين الى أبعد من هذا الحد ، وهو امتلاك أربعة منازل ، وستكون هذه المنازل الأربعة كل ثروته•

أما أخت جبريل آرداليونوفتش فقد كان لها طبع يختلف عن هذا الطبع كل الاختلاف • انها هي أيضاً ذات رغبات مصطخبة عنيفة ، ولكن رغباتها تتصف بالعناد والثبات أكثر مما تتصف بالجموح والعرامة • كانت باربارا آرداليونوفتش تملك كثيراً من سلامة الحس وسداد الرأى فى قيادة عمل من الأعمال ، ولا تهجر هذا العمل حين يشارف على نهايته • الحق أنها كانت ، هى أيضاً ، من أولئك الناس «العاديين» الذين يحلمون بالتفرد والأصالة • ولكنها ، فى مقابل ذلك ، لم تلبث أن أدركت أنها لا تملك شيئاً من أصالة ، ولم يحزنها هذا حزناً بالغاً يجاوز الحدود • ومن يدرى ؟ لعل ذلك كان ثمرة شعور خاص بالكبرياء والزهو • لقد خطت خطواتها الأولى فى الحياة العملية بكثير من العزم والحزم فتزوجت السيد بتسين • لكنها لم تقل لنفسها فى هذه المناسبة : « ما دامت الأعمال الدنيئة ضرورية ، فلنمض فيها الى النهاية ، شريطة أن أنال بغيتى وأحقق هدفى » ، كما كان لا بد أن يقول مثل هذا فى مثل هذه الحالة أخوها جبريل آرداليونوفتش (ان هذه الكلمات هى تقريباً الكلمات التى قالها لأخته حين وافق ، كأخ أكبر ، على أن تتزوج بتسين) • أكثر من ذلك أن باربارا آرداليونوفنا انما تزوجت بعد أن تأكدت من أن زوجها المقبل رجل متواضع ، مريح ، مثقف تقريباً ، عاجز عن اقتراف حقارة ضخمة بحال من الأحوال • أما الحقارات الصغيرة فلا ضير فيها ولا خوف منها ، فهى سفاسف وترهات ، ومن المبرأ منها على كل حال؟ ان المرء لا يستطيع أن يطمع فى المثل الأعلى ! وكانت باربارا آرداليونوفنا تعلم ، عدا ذلك ، أنها بزواجها تضمن مأوى لأمها وأبيها وأخوتها • فهى حين رأت أخاها شقياً أرادت أن تساعده ، رغم كل ما حدث فى الأسرة قبل ذلك من أنواع سوء التفاهم • وكان بتسين يحض فانيا ، بمودة وصداقة طبعاً ، على أن يلتمس وظيفة فى الحكومة • وكان يقول له فى بعض الأحيان

بلهجة المزاح : « أنت تحتقر الجنرالات ورتبة الجنرال • ولكن أنعم النظر : « انهم » جميعاً ينتهون الى أن يصبحوا هم أيضاً جنرالات • لسوف ترى اذا عشت ! » • فكان جانيا يسأل نفسه ساخراً : « ولكن من أين جاءهم انني أحتقر الجنرالات ورتبة الجنرال ؟ » •

ومن أجل أن تستطيع مساعدة أخيها ، قررت باربارا آرداليونوفنا أن توسّع ساحة تأثيرها • فتسللت الى أسرة ايبانتشين ، معتمدةً في الدرجة الأولى على ذكريات طفولة • لقد لعبا ، هي وأخوها ، مع الآنسات ايبانتشين حين كانا في سنّ الطفولة • يجب أن نلاحظ هنا أنها لو كانت تلاحق وهماً من الأوهام أو حلماً من الأحلام حين سعت الى أن تُستقبل في منزل آل ايبانتشين ، لكان يمكن أن تخرج من الفئة التي انتسبت هي نفسها اليها والتحقت بها • ولكن الواقع أن باربارا لم تكن تلاحق وهماً أو حلماً • وانما كان يقود خطاها حساب معقول كانت تقيمه على أساس معرفتها بطبيعة هذه الأسرة وطريقة حياتها • لقد ظلت تدرس طبع آجلايا بغير توقف ، ثم أخذت على عاتقها مهمة أن تجمع بين اثنين ، أخيها وآجلايا • ولعلها حصلت على بعض النتائج • ولعلها أيضاً قد ارتكبت خطأ الاسراف في الاعتماد على جانيا ، فانتظرت منه ما لم يكن في وسعه أن يفعله في أي وقت ولا على أي شكل • ولكنها ، على كل حال ، قد أحسنت الحيلة والتدبير لدى آل ايبانتشين : قضت أسابيع طويلة لا تذكر أمامهم اسم أخيها ولا تشير اليه ؛ أظهرت استقامة تامة وصدقاً كاملاً في جميع الأحيان ؛ وكان وضعها يتسم بالبساطة لكنه يتصف كذلك بالرصانة والكرامة• وكانت باربارا آرداليونوفنا لا تخشى أن تنبش قرارة ضميرها ، اذ ليس فيه ما يمكن أن تلوم عليه نفسها ، فكان ذلك يهب لها مزيداً من القوة • كل ما هنالك أنها كانت تكتشف أحياناً أن بها هي أيضاً شيئاً من الميل الى الغضب ، وأنها هي أيضاً تزخر بالكبرياء الجريحة ، وربما

بالغرور المدوس • كانت تلاحظ هذا فى بعض الأحيان خاصة ، ومن تلك الأحيان ، اللحظاتُ التى تخرج فيها من عند آل ايبانتشين •

ها هى ذى ، فى هذه المرة أيضاً ، تعود من عندهم معتكرة المزاج حزينة النفس ، كما قلنا ، غير أن سخرية مُرة تخالط الآن ذلك المزاج الحزين •

كان بتتسين يقيم بپافلوفسك فى منزل خشبى حقير المظهر لكنه رحب السعة ، يطل على شارع كثير التراب • ان هذا المنزل ستئول ملكيته الى بتتسين بعد قليل ، حتى انه قد شرع منذ الآن فى بيعه لشخص ثالث•

حين اجتازت باربارا آرداليونوفنا درجات المدخل ، سمعت صخباً شديداً خارقاً ، فى الطابق الأعلى • لقد كان أبوها وأخوها يتصايحان • فلما دخلت الصالة رأت جانيا يركض فى الغرفة من طرف الى طرف ، أصفرَ اللون من شدة الغضب ، يكاد ينزع شعر رأسه شداً • فاكفهر وجهها حين رأت هذا المشهد وتهالكت على ديوانٍ متعبة الهيئة مهدودة القوى ، دون أن تخلع قبعتها • وكانت تعلم أنها اذا صمتت دقيقة واحدة أخرى ولم تسأل عن سبب هذا الاضطراب ، ستُغضب أخاها حتماً ؛ لذلك أسرعت تسأله قائلة :

ــ أهى الحكاية نفسها ؟

فصاح جانيا يقول :

ــ الحكاية نفسها ؟ لا ••• ليست هى الحكاية نفسها • الأمر الآن أمر آخر ! العجوز أصبح مسعوراً ، والأم لا تكف عن البكاء • أرجوك يا فاريا ، فكّرى كما تشائين ، ولكننى سأرميه وراء الباب •••

ولكن لعله لاحظ أن المرء لا يجوز له أن يطرد أحداً من بيت ليس بيته ، فأضاف يقول مستدركاً :

ـ أو ••• أترككم أنا •••

دمدمت فاريا تقول :

ـ يجب على المرء أن يتصف بالتسامح •

ردّ جانيا يقول مشتعلاً بالغضب :

ـ التسامح في ماذا ؟ التسامح مع من ؟ التسامح تجاه نذالاته ؟ لا ، لا ، لك أن تقولى ما تشائين ••• هذا مستحيل ، مستحيل ، مستحيل ، مستحيل !••• ويا لها من أساليب !••• الذنب كله ذنبه ، ثم هو يصرخ: « لا أريد الدخول من الباب ••• هدّم الحاجز ! » • ولكن ما بك يا فاريا ؟ ان وجهك منقلب مربد !

أجابت فاريا غاضبة :

ـ ليس في وجهى شيء خارق •

فتفرس فيها جانيا بمزيد من انعام النظر ثم سألها فجأة :

ـ هل كنت هناك ؟

ـ نعم •

ـ انتظرى لحظة • استؤنف الصراخ • يا للعار ! وفي مثل هذه اللحظة أيضاً !

ـ في مثل هذه اللحظة ؟ لا تتميز هذه اللحظة بأى شيء خاص •

حدّق جانيا الى أخته بنظرة فيها مزيد من النفاذ • وسألها :

ـ هل علمت شيئاً ؟

ـ لم أعلم شيئاً غير منتظر • علمت أن كل ما كان يُفترض

صحيح . لقد كان زوجي أبصر منا كلينا . ان ما تنبأ به منذ البداية قد تحقق الآن . أين هو ؟

ـ خرج . ما الذي تحقق ؟

ـ أصبح الأمير خطيباً رسمياً . انتهى الأمر . الأختان الكبريان قالتا ذلك لي . وافقت آجلايا . حتى ان الأمر لم يبق سراً مكتوماً (قبل الآن كان كل شيء هناك يحاط بجو السر) . وقد أُرجيء زواج آديلائيد حتى يتم زفاف العروسين معاً في يوم واحد . يا له من شعر ! هذه قصيدة حقاً ! أوثر لك أن تنظم قصيدة تهنئة بالعرس على أن تركض في الغرفة دون طائل . سيستقبلون في مساء هذا اليوم بيلوكونسكاياه لقد وصلت في الوقت المناسب . سيكون هناك مدعوون . وسوف يُقدِّم الأمير الى الأميرة بيلوكونسكايا ، وان كانت تعرفه من قبل. يظهر أنهم سيعلنون نبأ الخطبة في هذه المناسبة . لكنهم يخشون عليه اذا هو دخل الصالون الذي يحفل بالمدعوين أن يُسقط على الأرض شيئاً أو أن يكسر آنية ، أو أن ينبطح هو نفسه على الأرض . لا يُستغرب ذلك من مثله !

أصغى جانيا باهتمام شديد ، ولكن ما كان أشد دهشة أخته حين لاحظت أن هذا النبأ الذي كان ينبغي أن يصعقه صعقاً لم يلق منه انشداهاً خارقاً .

قال بعد لحظة تفكير :

ـ نعم ... كان ذلك واضحاً ...

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة ويرمق أخته بنظرة ماكرة وهو ما يزال يذرع أرض الغرفة طولاً وعرضاً ، ولو باضطراب أقل :

ـ اذن انتهى كل شيء !

قالت فاريا :

ـ يسعدني أن أراك تستقبل الأمر كما يستقبله فيلسوف . حقاً ان هذا ليريحني كثيراً .

ـ نعم ، تخلّص المرء من هذا الموضوع ؟ أنت على الأقل ...

ـ أظن أنني خدمتك صادقةً مخلصة ، دون أن أناقشك ، ودون أن أزعجك . أنا لم أسألك ما هي السعادة التي كنت تعوّل على أن تجدها مع آجلايا .

ـ ولكن هل أنا ... نشدت السعادة مع آجلايا ؟

ـ دعك من هذا الكلام ، أرجوك . لا تمثل دور الفيلسوف ! لا شك في أن الأمر كان كذلك . ولكن حسابنا صُفّي : خُدعنا . أعترف لك بأنني لم أنظر الى هذا الزواج في يوم من الأيام على أنه جد . ولئن شُغلت به فلقد فعلت ذلك من باب « تجريب الحظ » ، معتمدةً على طبع آجلايا الغريب الشاذ . وانما أردت خاصةً أن أسرّك . كان نصيب هذا المشروع من الاخفاق تسعين في المائة . وما زلت حتى الآن لا أعلم أنا نفسي ماذا كنت تنتظر منه أو تتوقع له ؟

ـ الآن ستحضانني أنت زوجك على التماس عمل والسعي الى وظيفة؟ سأسمع خطباً ومواعظ عن فائدة الدأب وقوة الارادة وضرورة الاكتفاء بالقليل ، وهلمّ جرا ... حفظت هذا الكلام على ظهر القلب !...

كذلك قال جانيا وهو ينفجر ضاحكاً .

قالت فاريا تخاطب نفسها : « ان في رأسه فكرةً جديدة ! » . وسألها جانيا فجأة يقول :

ـ والأبوان هناك ، كيف ينظران الى الأمر ؟ أهما مسروران ؟

ـ لا يبدو عليهما السرور كثيراً . على كل حال ، تستطيع أن تحكم

فى ذلك بنفسك • اذا كان ايفان فيدوروفتش راضياً ، فانّ الأم تراودها مخاوف • ولقد كانت من قبل لا تحب أن ترى فى الأمير خطيباً لابنتها • ذلك معروف •

ـ ليس هذا ما يهمنى • ان الأمير خطيب مستحيل ، خطيب لايتصور الخيال أن يكون خطيباً • هذا واضح • لكننى أتكلم عن الوضع الحالى : الى أين وصلا ؟ هل أبدت موافقتها القطعية ؟

ـ حتى الآن لم تقل « لا » • ذلك كل شيء • لكن الأمر لا يمكن أن يجرى معها غير هذا المجرى • أنت تعلم أنواع الأعمال العجيبة التى دفعها اليها خجلها وحياؤها حتى الآن ! كانت فى طفولتها تحبس نفسها فى الخزائن فتظل لاطيةً فيها ساعتين أو ثلاثاً ، لا لشيء الا رغبتها فى تحاشى الظهور للناس • وقد كبر بعد ذلك جسمها ، لكن طبعها لم يتغير• هل تعلم ؟ يخيَّل الىّ أنه لا بد أن يكون ثمة شيء خطير هناك ، حتى من جهتها « هى » • يبدو عليها أنها تسخر من الأمير ما استطاعت أن تسخر، من الصباح الى المساء ، حتى لا تُظهر أنها تجد السبيل حتماً الى أن تقول له كل يوم بضع كلمات خفيةً ؟ ذلك أنه يبدو مشرقاً وضاءً كمن يتنزه فى السماء !••• يُقال انه مضحك ! منهن انما سمعت هذا الكلام • ولقد ظهر لى أيضاً أن الأختين الكبريين تسخران منى صراحةً •

أخيراً أخذ وجه جانيا يكفهر • لعل فاريا قد تعمدت الافاضة فى هذا الموضوع لتسبر فكر أخيها ، وتعرف ما يدور فيه من خواطر • ولكن العياط والزياط استؤنفا فى الطابق الأعلى •

زأر جانيا يقول وكأنما سرّه أن يجد متنفساً لغضبه :

ـ سأطرده من الدار •

ـ فيمضى يستأنف الشكوى منا والتشهير بنا والاساءة الى سمعتنا فى كل مكان ، كما فعل أمس ؟

سألها جانيا مرتاعاً من جديد :

ـ كيف أمس ؟ ما معنى هذا ؟ هل ...

فأجابت فاريا :

ـ ها ... أأنت لا تعلم ؟

فصاح جانيا يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً من الشعور بالعار والغضب :

ـ كيف ؟ ... اذن ... ذهب الى هناك ؟ رباه !... ولكن أنت التى ترجعين الآن من عندهم ، هل علمت شيئاً ؟ هل ذهب العجوز اليهم؟ أذهب أم لا ؟

قال ذلك واسرع نحو الباب . فاندفعت فاريا وراءه ، وأمسكته من يديه ، وقالت له :

ـ ماذا ؟ الى أين تذهب ؟ اذا طردته فى هذه اللحظة ، فلسوف يفعل أسوأ مما فعل . سيمضى يفضحنا لدى جميع الناس !...

ـ ماذا فعل هناك ؟ ماذا قال ؟

ـ لم يستطعن أن يكررن لى ما قاله بوضوح ، لأنهن لم يفهمنه . ولكننى أعلم أنه أخافهنَّ جميعاً . كان آتياً الى ايفان فيدوروفتش ، ولكن هذا كان غائباً عن البيت . فطلب أن يرى اليزابت بروكوفيفنا . فلما لقيها بدأ يرجوها أن تجد له عملاً ، أن تبحث له عن وظيفة فى الحكومة ؟ ثم أخذ يشكونا اليها ، يشكونى أنا ، ويشكو زوجى ، ويشكوك أنت خاصة ... قال كلاماً كثيراً .

سألها جانيا وقد هزته ارتعاشة متشنجة :

ـ ألم تستطيعى أن تعرفى ماذا قال ؟

ـ ليس هـذا بالأمر السـهل • أغلب الظن أنه لم يكن يفهم ماذا يقول • ولعلهن لم يقصصن عليّ كل شيء •

أمسـك جانيا رأسـه بيديه ، وركض نحو نافذة • وجلست فاريا قرب النافذة الأخرى •

قالت فاريا فجأة :

ـ مضحكة آجـلايا هذه ! لقـد استوقفتنى لتقول لى : « انقلى الى أبويك أصدق مشاعر الاعتبار منى • ولن يفوتنى أن انتهز فرصة لرؤية أبيك فى يوم من الأيام القليلة القادمة » • وقد نطقت ذلك بلهجة فيها كثير من الجد ! غريب جداً •••

ـ ألم يكن ذلك سخرية ؟ أأنت واثقة بأن ذلك لم يكن سخرية ؟

ـ لا ، لم يكن ذلك سخرية ، وهذا وجه الغرابة •

ـ أهى على علم بقصة العجوز أم لا ؟ ما رأيك ؟

ـ القصة مجهولة هناك • ذلك أمر لا أشك فيه • ولكنك تجعلنى أقدّر الآن أن آجلايا قد تكون على علم بالقضية ، قد تكون وحدها على علم ، لأن أختيها دُهشتا هما أيضاً حين سمعتاها تحملنى تحيةً الى أبينا ، جادةً ذلك الجد كله ؟ ولولا أنها على علم ، فما الذى يمكن أن يحضها على ارسال تحية اليه هو ؟ واذا كانت على علم بالقضية ، فان الأمير يكون هو الذى رواها لها •

ـ لا حاجة بالمرء الى كثير من المكر حتى يعرف من الذى رواها لها ! لص ! سـارق ! لم يكن ينقصـنا الا هذا ! لص فى أسرتنـا ، لص هو « رب أسرتنا » !

هتفت فاريا تقول غاضبة :

ـ دعك من هـذه السخافات ! لا يعـدو الأمر أن يـكون حكاية

سكّير ! ومن الذى اخترعها ؟ ليديف ، الأمير ••• يا للشخصيات العظيمة ، يا للأذكياء العباقرة !••• اننى لا أقيم لهذا الحادث أى وزن !

تابع جانيا كلامه يقول بمرارة :

ـ أبونا لص وسكير ؟ وأنا متسول شحاذ ؟ وزوج أختى مراب • ان لدينا ما نغرى به آجلايا : أسرة عظيمة حقاً !•••

ـ ان زوج أختك هذا ، ان هذا المرابى يـ •••

ـ يطعمنى ، أليس كذلك ؟ لا تتحرجى من قول ما تريدين قوله ، أرجوك !

قالت فاريا وقد ثابت الى صوابها ، وسيطرت على نفسها :

ـ لماذا تزعل ؟ انك لا تفهم شيئاً • أنت تلميذ مدرسة حقاً ! أتظن أن هذا كله قد أساء اليك فى نظر آجلايا ؟ انك لا تعرف طبعها • انها لا تتورع عن أن تدير ظهرها لأحسن الخاطبين فى سبيل أن تهرب الى طالب من الطلاب مغتبطة ، وأن تموت معه جوعاً فى غرفة تحت السطح ! ذلك هو حلمها ! انك لم تستطع أن تفهم فى يوم من الأيام مدى ما كان يمكن أن تثيره فيها من الاهتمام بك والانجذاب اليك لو أنك عرفت كيف تتحمل وضعنا بصلابة وكبرياء • ان الأمير لم يصطدها الا لأنه من جهة أولى لم يحاول قط أن يستولى عليها ، ولأنه من جهة ثانية يُعدُّ أبله فى نظر جميع الناس • يكفيها أن تقلب حال الأسرة عاليها سافلها مبتهجة ! هيه ! انكم معشر الرجال لا تفهمون من هذه الأمور شيئاً البتة !

دمدم جانيا يقول بهيئة ملغزة :

ـ طيب • سنرى هل نحن نفهم أم نحن لا نفهم • ولكننى كنت أود مع ذلك أن لا تعرف عن قصة العجوز شيئاً • لقد ظننت أن الأمير سيصون

لسانه فلا يذيع شيئاً • لقد استطاع أن يمنع ليديف عن التحدث فى الأمر • ولم يرض أن يقول لى ، أنا نفسى ، كلّ شىء ، رغم الحاحى ••

ـ هأنت ذا ترى اذن بنفسك أن كل شىء قد عُلم بدون أن يتدخل• ولكن ما بالك تهتم هذا الاهتمام كله الآن ؟ ماذا تأمل ؟ واذا بقى لك أمل، فلن يهب لك هذا فى نظرها الا هالة شهيد !

ـ دعيك من هذا الكلام • فانها ، رغم كل هذه الرومانسية ، كان يمكن أن تخاف من الفضيحة • ان لكل شىء حدوداً ؛ وان لكل امرىء حدوداً لا يتجاوزها • أنتن جميعاً كذلك •

ـ آجلايا تخاف ؟

كذلك صاحت فاريا وهى ترشق أخاها بنظرة احتقار • ثم تابعت كلامها تقول :

ـ ان نفسك لدنيئة حقاً ! لا أحد منكم خير من أحد • انتم جميعاً سواء • أن تعدُّوا آجلايا شاذة غريبة الأطوار ، فهذا جائز • ولكنها فى مقابل ذلك أنبل طبعاً وأسمى نفساً منا جميعاً !

فدمدم جانيا قائلاً بلهجة الاكتفاء مرة أخرى :

ـ طيب • لا بأس • لا تزعلى !

وتابعت فاريا كلامها فقالت :

ـ لكننى أرثى لحال أمى • اننى أخشى أن تكون قصة أبى قد بلغت مسمعها • اننى خائفة حقاً !

قال جانيا :

ـ لا شك فى أنها تعرفها !

كانت فاريا قد نهضت لتصعد الى الطابق الأعلى ، الى عند نينا

ألكسندروفنا • فلما سمعت ما قاله أخوها توقفت ونظرت اليه متحيرة ، وسألته :

ـ من ذا يمكن أن يكون قد حكى لها القصة ؟

لعله هيبوليت • انني أقدّر أنه منذ أقام عندنا لم يكن له من هم مستعجل الا أن يروى لأمنا الحكاية •

ـ ولكن قل لي أرجوك ، كيف يمكنه أن يعلم بهذه القضية ؟ ان ليديف والأمير قد اتفقا على أن لا يتحدثا عنها الى أحد ؟ كما أن كوليا نفسه يجهلها •••

ـ هيبوليت ؟ لقد عرف هذا كله بنفسه • لا تستطيعين أن تتصوري مدى ما يتصف به هـذا المخـلوق من مكر وخبث وميل الى الوشـاية والنميمة ؟ ولا تستطيعين أن تتخيلي مدى ما يتمتع به من قوة حاسة الشم التي تمكنه من أن يكتشف بنفسه جميع الحكايات السيئة ، وجميع ما له طابع الفضيحة والجرسة ! لك أن تصدقي وأن لا تصدقي ، لكنني أعتقد أنه استطاع أن يقبض على ناصية آجلايا بيـديه • واذا لم يكن هذا قد حدث فسـوف يحـدث • حتى روجـويين أصبح على علاقة به • كيف لا يلاحظ الأمير هذا ؟ وما أشـد ما يضطرم في نفس هيبوليت الآن من رغبة قوية في أن يدبر لي مكيدة ! انه يعدني عدواً شخصياً • لقد أدركت ذلك منذ زمن طويل • ولكنني أتسـاءل ما الفـائدة التي يجنيها من هذا انسانٌ أصبح في مرحلة الاحتضار ؟ ذلك ما لا أفهمه • ولكنك سترين: سترين انني سأنتصر عليه • لن تكون الكلمة الأخيرة له بل لي •

ـ لماذا أتيت به الى هنـا ، اذا كنت تكرهه هذا الكره كله ؟ وهل يستحق الأمر أن تنتصر عليه ؟

ـ أنتِ نصحتني أن آتي به الى هنا •

ـ كنت أقدّر أن ينفعنا . ولكن هل تعلم أنه هو نفسه مولّه بحب آجلايا ، وأنه كتب اليها ؟

لقد سُئلت فى هـذا الموضـــوع ... وكاد يكتب الى اليزابت بروكوفيفنا .

قال جانيا وهو يضحك ضحكاً ساخراً فيه مكر :

ـ من هذه الناحيـة ، ليس خطراً . ثم ان الأمر لا بد أن يكون غير هذا . أن يقع فى غرام آجلايا ، فهذا جائز ، لأنه صبى ! ولكنه ... لن يبعث رسائل غير موقعة الى العجوز . انه فتى حقير تافه شرير ، ومغرور بنفسه أشد الغرور !... انى لعلى ثقة ، انى لعلى يقين من أنه صوّرنى لها شاباً محتالاً متآمراً . بهذا انما بدأ . اعترف بأننى كنت غبيـاً أشـد الغباء حين أطلقت لسانى حـراً معه . كنت أظن أنه سيخدم مصالحى ، ولو انتقـاماً من الأمير على الأقل . انه شخص ماكر . كشـفت خبيثـة نفسه ! أما مسألة السرقة تلك فقد عرفها من أمه ، أرملة الكابتن . من أجل تلك المرأة انمـا قرر أبونا أن يفعل فعلتـه . لقد أعلمنى هيبوليت فجـأة ، بدون أى سبب ، أن « الجنرال » وعد أمه باربعمـائة روبل . أعلمنى هذا من تلقاء نفسه ، بدون مبالاة ، بدون تحرج . عندئذ فهمت كل شىء . كان يحدّق الى عينىّ متلذذاً . ولا شك أنه قال هذا الكلام نفسه لأمنا ، لا لشىء الا التلذذ بتمـزيق قلبها . ولماذا لا يموت ؟ هلاّ قلت لى هذا ، من فضلك ؟ ألم يتعهد بأن يموت فى غضون ثلاثة أسابيع ؟ لقد سمن منذ أقام عندنا . وأخذ سـعاله يهدأ . حتى لقد قال فى مسـاء أمس انه أصبح منذ يومين لا يبصق دماً .

قالت فاريا :

ـ اطرده .

فأجاب جانيا متعالياً :

ـ اننى لا أكرهه ، بل أحتقره !

ثم لم يلبث أن صاح يقول فجأة وقد استولى عليه غضب قوى :

ـ ثم ••• نعم ••• اننى أكرهه •• أكرهه ! لأقولنّ له هذا فى وجهه ، ولو كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ! ليتك استطعت أن تقرئى اعترافه ! ما أغربها من وقاحة ساذجة ! انه الليوتنان بيروجوف ، انه نوزدريوف * على مأساة ! وهو خاصةً صبى ! ما أعظم اللذة التى كان يمكن أن أشعر بها لو ضربته على قفاه حينذاك ، لا لشىء الا أن أُدهشه ! انه يريد الآن أن ينتقم من الجميع لاخفاقه فى ذلك اليوم !••• ولكن ماذا يجرى هناك ؟ ان الجلبة قد اشتدت فوق ! وبعد ؟ أما لهذا من آخر ؟ ما معنى هذه الضوضاء ؟ لن أسمح بهذا !

صاح بهذه الجملة الأخيرة مخاطباً بتسين الذى دخل الغرفة فى تلك اللحظة • وتابع كلامه يقول :

ـ ماذا يحدث فى بيتنا ؟ الى أين نمضى أيضاً ؟ هذا ••• هذا •••

ولكن الضجة كانت تقترب بسرعة • وفُتح الباب فجأة ، ودخل العجوز ايفولجين طافح الغضب محتقن الوجه مضطرب النفس خارجاً عن طوره ، واندفع هو أيضاً نحو بتسين • ووراءه دخلت نينا ألكسندروفنا ، ودخل كوليا ، ثم دخل أخيراً هيبوليت •

الفصل الثاني

كان هيبوليت قد أقام في منزل بتسين منذ خمسة أيام • وقد تمّ الفراق بينه وبين الأمير على نحو طبيعي دون خصام أو نقاش أو شجار أو شقاق بل كأنهما افترقا وهما على أحسن حال من المودة والصداقة • وقد ذهب جبريل آرداليونوفتش الذي عادى هيبوليت كل تلك المعاداة أثناء السهرة ، التي سبق الحديث عنها ، ذهب يزوره في بيته بعد الحادث بيومين ، فأغلب الظن أنه انما ذهب يزوره تنفيذاً لخطة مبيتة كانت قد راودته على غير توقع • كما أن روجويين أخذ يتردد الى المريض، لا يدرى أحد ما الذى يحضه على ذلك • وقد قدّر الأمير في البداية أن « الفتى المسكين » قد يجد من تلقاء نفسه أن انتقاله من عنده فيه خير له • ولكن هيبوليت ذكر للأمير حين غادر المنزل أنه سيقيم عند بتسين الذى « تكرّم فعرض عليه أن يؤويه » • وكأنه تعمد أن لا يقول انه سيسكن عند جانيا ، مع أن جانيا هو الذى ألحّ على ايوائه في المنزل • وقد لاحظ جانيا ذلك ، فبقيت هذه الاهانة تنخر في قلبه •

كان جانيا على حق حين قال لأخته ان المريض تتحسن الآن صحته• لقد كانت صحة هيبوليت تتحسن فعلاً ، وكان في وسع المرء أن يلاحظ ذلك من أول نظرة •

دخل هيبوليت الى الغرفة غير متعجل، وراء الآخرين ، وقد ارتسمت

على شفتيه ابتسامة ساخرة خبيثة ، وكانت هيئة نينا الكسندروفنا تدل على أنها مذعورة ذعراً قوياً (لقد تغيرت تغيراً كبيراً وهزلت هزالاً شديداً أثناء هذه الأشهرة الستة الأخيرة • انها منذ زوّجت ابنتها وجاءت تسكن عندها أصبح يبدو عليها أنها لا تتدخل في شئون أولادها) • وكان كوليا مهموم البال ، قلقاً مرتبكاً متحيراً • ان أشياء كثيرة من هذا « الجنون الذى أصاب الجنرال » تفوته فلا يفهمها ، على حـد تعبيره ، لأنه كان يجهل ، بطبيعة الحال ، الأسباب الحقيقية لهذه البلبلة الجديدة التى اجتاحت المنزل• لكنه وهو يرى أباه ميالاً الى المشاجرة في كل لحظة وكل مناسـبة ، قد اتضح له أن أباه اعتراه تغير مفاجىء فكأنه شخص آخر • وكان مجرد انقطاع العجـوز عن الخمـرة منذ ثلاثة أيام انقطاعاً كاملاً يذكى قلقـه ويفاقمه • لقد علم أن أباه قطع الصلة بينه وبين ليبديف ، وقطع الصلة بينه وبين الأمير ، حتى انه تشاجر معهما • وها هو ذا كوليا قد وصل الى المنزل حاملاً نصف زجاجة فودكا ، اشتراها بقروش يملكها ، وقال لأمه حين كان الجميع ما يزالون فى الطابق الأعلى :

ــ أؤكد لك يا أمى أن من الأفضل أن يشرب • انه منذ ثلاثة أيام لم يشرب شيئاً • وذلك هو سبب اعتكار مزاجه ، واسوداد نفسه • حقاً ان من الأفضل أن يشرب • لقد كنت أحمل اليه خمرة حتى حين كان فى السجن بسبب الديون •••

فتح الجنرال الباب واسعاً ووقف على العتبة • كان يرتعش استياءً وغضباً •

صرخ يقول لصهره بتتسين بصوت مرعد :

ــ أيها السيد العزيز ، اذا كان حقاً انك قررت أن تضحى فى سبيل هذا الولد الغر وهذا الملحد الزنديق بأبيك الشيخ المحترم ، أو قل بوالد زوجتك الذى خدم امبراطوره مخلصاً ، فاعلم اننى منذ هذه اللحظة لن

تطأ قدماى أرض مسكنك . فاختر أيها السـيد ، اختر فى هذه اللحظة نفسها : فاما انا واما هذا ... المسمار !.. نعم .. هذا المسمار ! خطر ببالى هذا الاسم مصادفةً ... لكن الصبى مسمار حقاً ... لأنه يثقب قلبى كمســمار فعــلاً ... بدون أيه مداراة أو مراعــاة ... كمسمار تماماً !...

قال هيبوليت :

ـ لماذا لا تسمينى فتَّاحة قنانى ؟

ـ لا ، لستَ فتاحة قنانى ، لأنى لست قنينة بل جنرالاً . أنا أحمل أوسمة وأملك ألقاب شرف ، أما أنت فليس لك شىء . اما هو ، واما أنا! قرِّر أيها السيد ، قرر حالاً !

كذلك صرخ الجنرال من جديد ، مهدداً بتسين بلهجة نزقة .

فأدنى منه كوليا كرسياً ، فتهالك الجنرال على الكرسى خائر القوى.

جمجم بتسين يقول مصموقاً :

ـ الحق أن الأفضل أن تنام قليلاً ...

وهمس جانيا قائلاً لأخته :

ـ وما يزال يجرؤ أن يهدد ...

صاح الجنرال قائلاً :

ـ أنام قليلاً ؟ أنا لست سكران يا سـيدى العزيز ، وأنت تهيننى وتشتمنى .

ثم تابع صياحه قائلاً وهو ينهض :

ـ أرى أن كل شىء وكل انسان هنا يناصبنى العداء ! كفى ! لقد سئمت ! أنا ذاهب ... ولكن ألا فلتعلم أيها السيد العزيز ، ألا فلتعلم ..

لكن الجنرال أُجلس قبل أن يكمل جملتـه ، وضُرع اليـه أن يهدىء نفسه •

واسل جانيا الى ركن من الأركان غاضبـاً حانقـاً • وكانت نينـا ألكسندروفنا ترتجف وتنتحب •

قال هيبوليت كاشفاً عن أسنانه بلهجة ساخرة :

ـ ولكن ماذا صنعتُ به ؟ ممَّ يشتكى ؟

فتدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة تقول :

ـ أتدعى أنك لم تفعل به شيئاً ؟ أنت الذى يجب عليك أن تشعر بالخجل والعار ••• انها لقسوة أن يعذب المرء شيخاً ••• ولا سيما حين يكون فى مثل وضعك !•••

ـ فما هو وضعى أولاً يا سيدتى ؟ اننى أحمل لك احتراماً عظيماً ، لك أنت خاصةً ، لك أنت شخصياً ، ولكن •••

هتف الجنرال يقول :

ـ انه مســـمار ! انه يثقب روحى وقلبى ! انه يريد أن يُلحقنى بمذهب الالحاد ! ألا فلتعلم أيها الولد الغر أننى كنت غارقاً فى الأمجـاد حين لم تكن أنت قد وُلدت !••• ما أنت الا دودة يأكلها الحسد ، دودة مشطورة شطرين ، دودة تسعل ••• وتموت بغضاً وزندقة ••• لماذا أتى بك جانيا الى هنا ؟ الجميع يعادوننى ، من الغرباء الى ابنى فلذة كبدى •••

صرخ جانيا يقول :

ـ كفى تمثيـلاً • لقد كان الأَوْلى بك أن لا تلطخ شرفنـا وأن لا تجللنا بالخزى والعار فى المدينة كلها •••

ـ كيف ؟ أنا ألطخ شرفك أيها الولد ؟ ألطخ شرفك أنت ؟ أنا أشرّفك ، لا ألطخ شرفك ...

كان الجنرال قد وثب وهو يقول هذا الكلام . أصبح لا يمكن صدُّه . ولكن كان واضحاً أن جبريل آرداليونوفتش قد جاوز الحدود هو أيضاً .

صاح جبريل آرداليونوفتش يقول بمكر وخبث :

ـ ولا يستحي أن يتكلم عن الشرف !

فقال الجنرال يسأله بصوت مرعد وقد اصفر وجهه غضباً وتقدم الى الأمام خطوة :

ـ ماذا قلت ؟

فأجاب جانيا فجأة بقوله :

ـ قلت انني يكفي أن أفتح فمي حتى ...

ولكنه لم يكمل جملته .

هما الآن يقفان أحدهما أمام الآخر ، وجهاً لوجه ، وقد استولى على كل منهما أشد الغضب ، ولا سيما جانيا .

صاحت نينا ألكسندروفنا قائلةً وهي تدفع لتصد ابنها :

ـ جانيا ، ماذا تفعل ؟

وهتفت فاريا تقول مستاءةً ممتعضة :

ـ ما هذه الا سخافات من الطرفين كليهما . هيّا يا أماه ! هدئي روعك !

وتشبثت بأمها .

قال جانيا مخاطباً أباه بلهجة الفاجعة :

ـ اذا كنت أترفق بك ، فانني لا أفعل ذلك الا مراعاةً لأمي .

فزأر الجنرال قائلاً وقد بلغ ذروة الغضب :

ـ تكلم ! تكلم والا حلّت عليك لعنة أبيك ... تكلم !...

ـ هه ! ألا انى لأخاف لعنتك حقاً ! من المذنب اذا كنتَ قد أصبحتَ منذ ثمانية أيام كالمجنون ؟ أقول : منذ ثمانية أيام . هل سمعت ؟ انني أعرف اليوم ... فلا تخرجني عن طوري ، فتدفعني دفعاً الى أن أقول كل شيء . لماذا جررت نفسك أمس الى بيت آل ايبانتشين ؟ أفتود بعد ذلك أن يحترم أحد شيخوختك وشعرك الأشيب وكرامتك كربِّ أسرة؟ كلام جميل !...

ـ اسكت يا جانكا ! اسكت يا أحمق !

وعاد هيبوليت يسأل ملحاً بلهجة ما تزال تقارب الوقاحة :

ـ بأي شيء أسأت اليه ؟ لماذا يصفني بانني مسمار . هل سمعتموه ؟ انه هو الذي يتشبث بي ويصدع رأسي : لقد أتاني منذ قليل يحدثني عن قصة رجل برتبة كابتن اسمه ياروبياجوف . انني لا أحرص أي حرص على صحبة مجتمعك يا جنرال . وأنت نفسك تعلم أنني كنت أتحاشاه. فيم يعنيني الكابتن ياروبياجوف ! اعترف أنت نفسك !... انني لم أسكن هنا من أجل الكابتن ياروبياجوف . ثم انني ولم أزد على أن أعربت عن رأيي صراحةً في أن هذا الكابتن يا روبياجوف لعله لم يوجد في يوم من الأيام . عندئذ ثار غضبه .

قال جانيا بلهجة قاطعة :

ـ لا شك في ذلك : ان هذا الكابتن لم يوجد في يوم من الأيام .

ارتج على الجنرال . وألقى على ما حوله نظرات مبهوتة . ان كلمات ابنه قد جمّده ما تشتمل عليه من تأكيد قاطع وثقة قاسية. لم يسعفه فكره

بكلمة واحـدة يرد بها • غير أن ملاحظة جانيـا جعلت هيبوليت ينفجر ضاحكاً •

قال هيبوليت :

ـ هل سمعت ؟ ان ابنك نفسه يقول انه لم يوجد في يوم من الأيام كابتن اسمه ياروبياجوف •

ـ أنا تكلمت عن كابيتــون ياروبيـاجوف ، لا عن كابتن ••• انه كابيتون ••• هو ليوتنان كولونيل محال على التقاعد ••• ياروبياجوف •• كابيتون •

فعاد جانيا يقول خارجاً عن طوره :

ـ لا ولا وُجد أحد اسمه كابيتون !

فتمتم الجنرال يسأل وقد أخذ وجهه يصطبغ بالحمرة :

ـ كيف ••• لماذا لم يوجد ؟

فتدخل بتتسين وفاريا قائلين :

ـ طيب ••• هدىء نفسك •

وصرخ كوليا يقول من جديد :

ـ اسكت يا جانيا !

ولكن هذه التدخلات ردّت الى الجنرال ثبات جأشـه ، فقذف ابنه بهذا السؤال أطلقه مهدداً :

ـ كيف لم يوجد ؟ ولماذا يمتنع أن يكون قد وجد ؟

ـ لأنه لم يوجـد ! هذا كل شيء ! انه لم يوجد • ذلك مستحيل كل الاستحالة • أقول لك هذا ، فلا تصر ، ولا تلح •

ـ ثم أعده ابنى •• ابنى الذى أ •• آه •• يا رب !•• هو ابنى ، ويجرؤ أن يزعم أن ياروبياكوف، أن ياروشكا * ياروبياكوف لم يوجد!

قال هيبوليت :

ـ طيب طيب • منذ قليل كان اسمه كابيتوشكا * • والآن أصبح اسمه ياروشكا !

ـ أنا أقصد كابيتوشكا ، يا عزيزى السيد الصغير ، لا ياروشكا ! أقصد كابيتون ، كابيتان ألكسيفتش ، أعنى كابيتان ••• الليوتنان كولونيل ••• المحال على التقاعد •• الذى تزوج ماريا •• ماريا بتروفنا سو •• سو •• أقصد صديقى ورفيقى سوتوجوف •• لقد كنا معاً فى المدرسة العسكرية • أهرقت من أجله دماً ••• حميته بجسمى ••• لكنه قُتل • كيف يجرؤ أحد أن يقول انه لم يوجد أحد اسمه كابيتوشكا ياروبياجوف ؟

كان الجنرال يطلق هذا الكلام حانقاً أشد الحنق ، ولكن المرء يحس أن انفعاله نابع من غير المسألة المختلف فيها والمتنازع عليها • الحق أنه كان يمكن أن يتحمل افتراضاً أقسى وقعاً فى النفس وأعمق جرحاً للشعور من افتراض ان كابيتون ياروبياجوف لم يوجد • كان يمكن لولا ذلك أن يصرخ وأن يثير فضيحة وأن يندفع اندفاعاً قوياً ، ثم ما يلبث أن يصعد الى الطابق الأعلى لينام • أما فى هذه المرة فان الكيل قد طفح عنده ـ ألا ما أغرب قلب الانسان ! ـ طفح من مجرد أن وجود ياروبياجوف قد وُضع موضع الشك ، رغم أن هذه الاساءة طفيفة تافهة لا قيمة لها البتة ! لقد اصطبغ وجه الشيخ بحمرة شديدة كلون الأرجوان ، ورفع ذراعيه نحو السماء ، وأعول يقول هاتفاً :

ـ كفى ! لعنتى عليكم ••• أنا خارج من هذه الدار ! يا نيقولاى ، خذ حقيبة سفرى ••• انى راحل •

قال ذلك وهرع يخرج بالغاً ذروة الغضب • فاندفعت وراءه نينا ألكسندروفنا وكوليا وبتسين •

قالت فاريا لأخيها :

ـ ماذا فعلت ؟ قد يرجع الآن الى هناك ! يا للعار ! يا للعار !

فصرخ جانيا قائلاً وهو يكاد يختنق من شدة الغيظ والحنق :

ـ لم يكن عليه الا أن لا يسرق •

والتقت نظرته فجأة بنظرة هيبوليت ، فاجتاحه نوع من الارتعاش فجأة • وصاح يقول :

ـ أما أنت أيها السيد العزيز ، فلقد كان ينبغي لك أن تتذكر أنك تقيم تحت سقف غيرك على كل حال ، وأنك اذ تتمتع بحسن الضيافة لست من ينبغي له أن يغيظ شيخاً أصبح من الواضح أنه فقد عقله وصار مجنوناً •

أوشك هيبوليت أن يندفع هو أيضاً ، ولكنه سرعان ما سيطر على نفسه ، فقال بهدوء :

ـ لا أشاركك الرأى فى اعتبار أبيك مجنوناً • هذه دعوى باطلة• حتى اننى أرى أنه الآن أعقل مما كان فى الآونة الأخيرة • يميناً ان هذا هو شعورى • ألا تصدقنى ؟ لقد أصبح أكثر تعقلاً وحذراً • انه يرصد كل ما يقال ويزن كل كلمة تصدر منه • وحين كلمنى عن كابيتوشكا انما كان يرمى الى هدف معين : تصور أنه كان يريد أن يحملنى على الكلام عن •••

ـ عن الشيطان ••• لا يهمنى أن أعرف ما الذى كان يريد أن يحملك عليه ! وأرجوك أن لا تحاول المكر والمواربة معى ، أيها السيد•

كذلك قال جانيا بصوت صارخ • وتابع كلامه يقول :

ـ اذا كنت تعرف أنت أيضاً السبب الحقيقى الذى يجعل هذا الشيخ فى مثل هذه الحالة (ولقد أحسنت التجسس عندى خلال هذه الأيام الخمسة ، فلا بد أنك استطعت أن تعرف ذلك السبب) ، فان عليك أن تمتنع امتناعاً صارماً عن اثارة حنق هذا ••• الشقى ، وعن تعذيب أمى بتضخيم قضية ليس لها شىء من خطورة الشأن ، فما هى الا قضية سكيرين لا أكثر • فضلاً عن أنها لم يثبت صدقها ولم يقم دليل على صحتها ، ولست أوليها أى اهتمام ••• ولكنك امرؤ لا تستطيع الا أن تفسد كل شىء ، ولا يمكنك الا أن تتجسس ، لأنك ••• لأنك •••

ـ لأننى مسمار •

بهذا أكمل هيبوليت جملة جانيا وهو يضحك ساخراً • وتابع جانيا كلامه فقال :

ـ لأنك انسان شرير • لقد عذّبت الناس خلال نصف ساعة ، وحاولت أن تفقدهم صوابهم متظاهراً بمحاولة الانتحار بمسدس كان خالياً • لقد مثّلت مسرحية مخجلةً مخزية • يا مدّعى الانتحار ••• يا كيس حقدٍ فوق ساقين ! لقد استضفتك فى هذا البيت ، فتحسنت صحتك : سمنتَ وزايلك السعال ، فانظر كيف تعترف بالجميل ، وانظر كيف •••

ـ اسمح لى بكلمتين ، أرجوك • أنا هنا ضيف باربارا آرداليونوفنا ، لا ضيفك أنت • أنت لم تتفضل علىّ بأية ضيافة ، بل أظن أنك أنت نفسك تتمتع بضيافة السيد بتسين • ولقد رجوت أمى منذ أربعة أيام أن تبحث لى عن مسكن فى بافلوفسك، وأن تجىء تقيم هى نفسها فى بافلوفسك، لأن صحتى تتحسن هنا فعلاً ، وان لم أسمن و لاانقطع سعالى • فأعلمتنى أمى مساءَ أمس أن المسكن قد تهيأ • لذلك أبادر فأبلغك أنا أيضاً أننى

سأنتقل اليه فى هذا اليوم نفسه بعد أن أشكر أمك وأختك • لقد اتخذت قراري هذا منذ مساء أمس • اغفر لى أننى قاطعتك • فانك ، اذا لم يخطىء ظنى ، كنت تريد أن تقول أشياء أخرى كثيرة •

قال جانيا مرتعشاً :

ـ اذا كان الأمر كذلك •••

فقاطعه هيبوليت بقوله :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فاسمح لى أن أجلس ، لأننى مريض على كل حال •

قال هيبوليت هذا وهو يحتل ، بهدوء ، الكرسى الذى كان يشغله الجنرال • ثم أضاف :

ـ الآنَ أصبحت مستعداً لأن أصغى الى كلامك ، لا سيما وأن هذا الحديث بيننا قد يكون آخر حديث ، وقد يكون هذا اللقاء آخر لقاء •

شعر جانيا فجأة بخزى • وقال :

ـ صدّق أننى لن أخفض قدرى الى حيث أُجرى معك تصفية حساب ، واذا كنتَ •••

فقاطعه هيبوليت قائلاً :

ـ تخطىء اذا تعاليت هذا التعالى • أنا من جهتى قد آليت على نفسى منذ اليوم الذى وصلت فيه الى هنا ، أن لا أحرم نفسى من لذة صفعك متى وجب أن نفترق • وهذا أوان تنفيذ هذا المشروع ، بعد أن تنهى كلامك طبعاً •••

ـ وأنا من جهتى أرجوك أن تخرج من هذه الغرفة •

ـ الأفضل أن تتكلم ، والا فقد تندم بعدئذ على أنك لم تقل كل ما كان يعتمل فى قلبك ويثقل صدرك !•••

قالت فاريا :

ـ كفى يا هيبوليت ! هذا كله مخجل مخزٍ . كُفَّ ، من فضلك !

فنهض هيبوليت ، وقال ضاحكاً :

ـ اذا كففت فانما أكف احتراماً لسيدة . لك ما تشائين يا باربارا آرداليونوفنا . فى سبيلك لا مانع عندى من اختصار هذا الحديث ، ولكن من اختصاره فحسب . ذلك أن المكاشفة بينى وبين أخيك قد أصبحت ضرورة مطلقة ، ولن أقبل بأية حال من الأحوال أن أخرج قبل ازالة سوء تفاهم .

هتف جانيا يقول :

ـ بل قل انك نمام ، فلا تستطيع أن تعزم أمرك على الانصراف قبل أن تقذف من فمك ما يمتلىء به من أقوال خبيثة .

قال هيبوليت ببرود :

ـ ها أنت ذا ترى أنك فقدت سيطرتك على نفسك . بصراحة : سوف تشعر بندامات كثيرة اذا لم تفصح عن كل ما تريد الافصاح عنه . أعود فأقول لك : اننى أتنازل لك عن دورى فى الكلام . وسأتكلم بعدك .

لم يجب جبريل آرداليونوفتش ، ونظر الى هيبوليت باحتقار .

فقال هيبوليت :

ـ لا تريد أن تتكلم ! تفضَّل أن تبرهن على الصلابة والقوة حتى النهاية ! لك ما تشاء . على كل حال ، سأكون من جهتى موجزاً أكبر الايجاز . لقد سمعتُ اليوم مرتين أو ثلاث مرات لوماً وتقريعاً على الضيافة التى قُدِّمت لى . هذا ظلم . انك حين دعوتنى الى السكنى هنا ، كانت نيتك أن تصطادنى بشباكك . كنت تفترض اننى أُريد الانتقام من الأمير . وقد سمعتُ عدا ذلك أن آجلايا ايفانوفنا أظهرت مودةً لى وأنها قرأت

اعترافي . فخطر ببالك حينذاك أنني سأقف نفسي على تحقيق مصالحك . لعلك أمَّلت أن تتخذني مساعداً لك . لا أقول أكثر من هذا . لا ولا أطلب منك اعترافاً بصحته أو تأييداً لصدقه . يكفيني أن أعرف انني أضحك أمام ضميرك ، وأننا نتفاهم الآن تفاهماً تاماً .

هتفت فاريا تقول :

ـ انك تصنع قصةً كبيرة من أمر بسيط ...

فقال جانيا :

ـ هو كما قلت لك : « صبي ونمام » .

ـ اسمحي يا باربارا آرداليونوفنا : انني أكمل كلامي . طبعاً ، أنا لا يمكن أن أحب الأمير ولا أن احترمه . ولكنه انسان طيب حقاً ، وان يكن .. غريب الأطوار مضحكاً ... فليس هناك اذن أي سبب يحملني على أن أكرهه ، ومع ذلك لم أُظهر لأخيك أنه كان يحرضني على الأمير. كنت أنتظر الخاتمة ليتاح لي أن أضحك . كنت أعلم أن أخاك لن يلبث أن يكشف عن حقيقة نفسه وأن يرتكب أكبر الخطأ في حقي فأضعه في موضع سيء مضحك . وذلك ما حدث . انني مستعد لأن أترفق به الآن، ولكنني لا أفعل ذلك الا مراعاةً لك يا باربارا الكسندروفنا . ومع ذلك فانني بعد أن استبان لك أن ايقاعي في الفخ ليس بالأمر السهل الى تلك الدرجة ، أريد أيضاً أن أشرح لك السبب الذي يحدوني الى وضع أخيك في موضع مضحك حرج ازائي . ألا فاعلمي انني فعلت ذلك عن كره وبغض ، اعترف بذلك صادقاً . لقد قدَّرت انني حين أموت (وسوف أموت على كل حال ، رغم انني سمنت كما تدعون) ، سوف أذهب الى الجنة بهدوء أعظم وطمأنينة أكبر اذا استطعت أن أضع في موضع الهزء والسخرية شخصاً واحداً على الأقل يمثل أفراد تلك الفئة الكبيرة من الناس الذين اضطهدوني طوال حياتي ، والذين كرهتهم

وأبغضتهم طوال حياتي . ان أخاك المدهش هو الصورة الواضحة لهذا النوع من الناس . انني أكرهك يا جبريل آرداليونوفتش ؟ وقد يدهشك أن تعرف انني لا أكرهك الا لأنك النموذج التام ، أو التجسيد الكامل، أو التشخيص الصادق للعادية التافهة الوقحة الصلفة البشعة الكريهة المنفّرة ! أنت العادية المتنفخة ، التي لا يساورها شك في شيء والتي تنعم بسكينة أولمبية . أنت الروتين ؟ أنت روتين الروتين ! لن تنبت في فكرك أو قلبك أية فكرة شخصية ولن يومض فيهما أي معنى أصيل في يوم من الأيام . ولكن حسدك لا حدود له . أنك مقتنع اقتناعاً قاطعاً جازماً بانك عبقري من الطراز الأول . ومع ذلك فان الشك يستولي عليك ويحاصر نفسك في لحظات الكآبة ، فتشعر عندئذ بنوبات قوية من الغضب والحسد. آه ... وان نقطاً سوداً تلوح في الأفق الذي ينبسط أمام عينيك ، نقطاً سوداً لن تغيب الا يوم تصبح غبياً غباوة كاملة ، وذلك ما ستصير اليه في مستقبل غير بعيد . على أنك ستحيا حياة طويلة متنوعة . لست أزعم أنها ستكون حياة فرحة . ويسرني أن لا تكون كذلك . وأقول لك قبل كل شيء آخر : انك لن تحظى بيد الانسانة التي تطمع فيها .

صاحت فاريا تقول :

ـ هذا لا يُحتمل . هلاّ انتهيت أيها الشتّام الدنيء ؟

وكان جانيا ملتزماً الصمت ، وقد اصفر وجهه وارتعش جسمه. وسكت هيبوليت ، وحدّق اليه بنظرة ثابتة ، مبتهجاً بارتباكه ، ثم نقل عينيه الى فاريا وابتسم ، ثم حيّا وخرج دون أن يضيف كلمة واحدة .

كان من حق جبريل آرداليونوفتش أن يشكو قدره وأن يتبرم من سوء حظه .

ولبثت فاريا بضع لحظات لا تجرؤ أن تخاطبه بكلمة . حتى انها لم تنظر اليه بينما كان يذرع الغرفة أمامها بخطى واسعة . وأخيراً اقترب

من النافذة وأدار ظهره لأخته • خطر ببــال فاريا المثل الروسى : « لكل عصا طرفان » • وسُمعت جلبة في الطابق الأعلى من جديد •

قال جانيا لأخته فجأة حين رآها تنهض :

ـ أتذهبين ؟ انتظرى : انظرى فى هذا !

وتقدم نحوها ورمى على الكرسى أمامها ورقة صغيرة مطوية كما تطوى رسالة •

صاحت فاريا تقول وهى ترفع ذراعيها :

ـ رباه !

وكانت الرسالة مؤلفة من سبعة أسطر تماماً :

« جبريل آرداليونوفتش ، اننى وقد اقتنعت بعواطفك الطيبة نحوى، قررت أن أستشيرك طالبةً نصحك فى قضية تهمنى • فأتمنى أن ألقاك غداً فى الساعة السابعة تماماً عند الدكة الخضراء • ليس المكان بعيداً عن منزلنا • ان باربارا آرداليونوفنا التى يجب أن تصحبك حتماً تعرفه جيداً • آ• ا• » •

قالت باربارا آرداليونوفنا وهى تعبر عن دهشتها بمباعدة يديها :

ـ فافهمها بعد هذا اذا كنت تستطيع أن تفهم !

ورغم أن جانيا لم يكن مهيأً لأن يتخذ هيئة الانتصار فانه لم يستطع أن يخفى شعوره بالظفر ، ولا سيما بعد التنبؤات القاتلة التى قالها هيبوليت • وها هى ذى ابتسامة صادقة تعبر عن رضى الغرور تضىء وجهه• وكانت فاريا نفسها مشرقة المحيّا من الفرح • قالت :

ـ ويحدث هذا فى اليوم الذى يعلنون فيه خطبتها عندهم ! فحاول أن تعرف ما الذى تريده ان استطعت الى ذلك سبيلاً !•••

سألها جانيا :

ـ فى رأيك ، عمّ تريد أن تكلمنى غداً ؟

ـ ليس هذا بالأمر الهام • فانما الأمر الهام أنها لأول مرة منذ ستة أشهر تعرب عن رغبة فى أن تراك • اسمع يا جانيا : أياً كان الأمر ، وكيفما تمت هذه المقابلة ، فيجب عليك أن تتذكر أن هذا شيء « هام » ، هام الى أبعد الحدود • فلا ترتبك هذه المرة • لا تقترف خطيئة ، ولكن لا تكن خجولاً أيضاً • افتح عينيك ! هل يمكن أن لا تكون قد أدركت الهدف الذى سعيت أنا اليه بالتردد اليهم خلال هذه الأشهر الستة ؟ تصور أنها لم تقل لى اليوم كلمة واحدة عن هذه المقابلة ! لم تظهر شيئاً البتة ! يجب أن أذكر لك اننى كنت قد دخلت خلسةً • كانت العجوز لا تعلم بوجودى • ولولا ذلك لكان يمكن أن تطردنى • من أجلك انما جازفت• كنت أريد أن أعرف بأى ثمن •••

تعالى الصياح والضجيج فى الطابق الأعلى من جديد • وهؤلاء عدة أشخاص يهبطون السلم •

هتفت فاريا تقول مرتاعة متقطعة الأنفاس :

ـ لا يجوز أن نسمح الآن بهذا مهما يكن من أمر • يجب أن لا تحدث أية فضيحة ! امض اليه ، واطلب منه الصفح !

لكن رب الأسرة كان قد بلغ الشارع • وكان كوليا يسير وراءه حاملاً له حقيبة • وكانت نينا ألكسندروفنا واقفة على درجات سلّم الباب تبكى ناشجة منتحبة • انها تود لو تركض وراء زوجها ، لكن بتتسين ممسك بها يمنعها من ذلك ، قائلاً لها :

ـ سوف تزيدين اهتياجه • وليس له مكان يذهب اليه • فسنعيده بعد نصف ساعة • لقد تحدثت فى هذا مع كوليا • دعيه يفعل ما تشاء له نزواته المجنونة •

صرخ جانيا يقول له من النافذة :

ـ ما هذه الحذلقات ؟ الى أين عساك تذهب ؟ انك لا تدرى حتى الى أين تمضى !

وصاحت فاريا تقول :

ـ ارجع يا أبت ! ان الجيران يسمعون !

توقف الجنرال ، والتفت الى وراء ، وبسط يده وقال بتأثر :

ـ ألا فلتنصبّ لعنتى على هذا المنزل !

فجمجم جانيا قائلاً وهو يغلق النافذة بقرقعة :

ـ لا بد له أيضاً من أن يقول هذا الكلام بلهجة مسرحية !..

وكان الجيران يرقبون ويرصدون ما يجرى فعلاً . وخرجت فاريا من الغرفة مسرعةً .

فلما انصرفت تناول جانيا الرسالة من على المائدة ، وحملها الى شفتيه ، وتلمظ ، وهمّ أن يثب عن الأرض كمن يرقص .

الفصل الثالث

كان يمكن أن لا يكون للفضيحة التى أثارها الجنرال أية نتيجة في وقت غير هذا الوقت • ولقد سبق أن كان بطل حوادث شاذة مفاجئة من هذا النوع، ولو فى أحوال نادرة ، ذلك أنه فى الواقع انسان مسالم موادع جداً ، يغلب على ميوله أنها طيبة • ولعله حاول مائة مرة أن يكافح عادات التحلل التى اعتادها خلال السنين الأخيرة • كان يتذكر على حين فجأة أنه رب أسرة ، فيصالح امرأته ويذرف دموعاً صادقة • انه يحمل لزوجته نينا ألكسندروفنا احتراماً يبلغ حد العبادة ، لأنها تغفر له أشياء كثيرة دون أن تقول كلمة واحدة ، وتظل تحنو عليه رغم الانحلال التى سقط فيه ، ورغم ما صار اليه من حال تبعث على السخرية والضحك ! غير أن ذلك الكفاح العظيم الذى كان يخوض غماره ضد اضطراب حياته وفوضى سلوكه كان لا يدوم مدة طويلة • انه هو أيضاً ، فى نوعه ، أشد اندفاعاً وأقوى عرامة من أن يستطيع احتمال حياة التوبة والفراغ التى يحياها فى أسرته ، فكان ما يلبث أن يتمرد • وكانت تنتابه فى تلك الأحيان نوبات غضب حانق لعله يلوم نفسه عليها فى نفس اللحظة التى ينقاد فيها لها ، ولكنه لا يملك القوة اللازمة للتغلب عليها • كان فى تلك الأحوال يسعى الى مشاجرة ذويه ، ويأخذ يفيض فى الكلام والخطابة بحماسة تدعى البلاغة والفصاحة ، يطالب بأن يُحترم احتراماً يتجاوز الحدود ولا يمكن تخيله ، ثم يختفى آخر الأمر ، حتى ليبقى غائباً عن البيت فى بعض الأحيان

زمناً طويلاً . وقد أصبح منذ سنتين لا يملك الا فكرة غامضة عما يجرى فى البيت ، أو لا يطلع على ما يجرى فى البيت الا عن طريق السماع لا العيان . لقد انقطع عن الدخول فى هذه التفاصيل التى أصبح لا يوليها أى اهتمام .

ولكن الفضيحة اكتست فى هذه المرة شكلاً غير معهود . كأن حادثاً قد وقع ، فالجميع على علم به ولكن ما من واحد يجرؤ أن يتكلم عنه . ان الجنرال لم يرجع الى الأسرة « رسمياً » الا منذ ثلاثة أيام ، أعنى لم يرجع الى نينا ألكسندروفنا ! ولكنه بدلاً من أن يظهر المذلة والندامة كما كان يفعل فى « رجعاته » السابقة ، فقد ظهرت عليه فى هذه المرة علامات اهتياج شديد ، وحنق سريع خارق . كان كثير الكلام مضطرباً ، يتجه الى كل قادم بخطب ملتهبة ، حتى كان يهجم على محدثيه هجوماً ، ولكنه يتحدث فى مسائل تبلغ من التنوع ومن الغرابة التىلا يتوقعها المرء أنه كان يستحيل على السامع أن يكتشف الموضوع الحقيقى الذى هو مدار قلقه ومحل اضطرابه . واذا استثنينا لحظات من فرح ومرح كانت توافيه من حين الى حين ، فقد كان فى أكثر الأوقات شارد اللب حتى ليجهل هو نفسه ما الذى يستغرق فكره . كان يأخذ مثلاً فى سرد حكاية عن أسرة ايبانتشين ، وعن الأمير ، وعن ليبديف ، ثم اذا هو يقطع حديثه فجأة ، ويتوقف عن الكلام توقفاً تاماً . ويردُّ بابتسامة بلهاء طويلة على أولئك الذين يسألونه عن تتمة القصة ، وكأنه لا يلاحظ أن أحداً يلقى عليه سؤالاً . لقد قضى الليلة الأخيرة فى تنهد وأنين ، وأرهق نينا ألكسندروفنا ارهاقاً شديداً ، فكانت لا تنى تسخن له لصقاته ؟ حتى اذا طلع الصباح غفا على حين فجأة ، ولكن استيقاظه من النوم بعد أربع ساعات قد أعقبته تلك النوبة الشديدة المضطربة من الوسواس التى أدت الى تشاجره مع هيبوليت ، وانتهت بصبِّه « اللعنة على ذلك المنزل » .

وقد لوحظ أيضاً خلال تلك الأيام الثلاثة أنه هوى الى حالة متصلة من الزهو والغرور تعبّر عن نفسها بشدة التأذى وسرعة الاستياء • وقد أكد كوليا لأمه ملحاً أن هذا المزاج الحزين الذى يعانى منه أبوه انما يرجع الى حرمانه من الشراب ، وربما كان يرجع أيضاً الى غياب ليديف الذى كان الجنرال قد ارتبط به ارتباطاً حميماً فى الآونة الأخيرة • فقد حدث بين الرجلين منذ ثلاثة أيام شقاق لم يكن متوقعاً ، شقاق ألقى الجنرال الى غضب شديد • حتى أن نوعاً من شجار وقع بينه وبين الأمير • وقد توسل كوليا الى الأمير أن يشرح له سبب ما وقع ، فأدرك أخيراً أن الأمير يكتم عنه أمراً من الأمور هو أيضاً • وفى وسعنا أن نفترض أن ما افترضه جانيا صحيح ، وأن حديثاً خاصاً قد جرى بين هيبوليت ونينا ألكسندروفنا • ولكن يبدو غريباً عندئذ أن يكون هذا الشخص الشرير الذى نعته جانيا صراحة بأنه نمام ، لم يمتّع نفسه بلذة اطلاع كوليا على الأمر • من الجائز جداً أن لا يكون هيبوليت ذلك الصبى السىء الذى صوّره جانيا فى حديثه الى أخته ، وان يكون الشر الذى فى نفسه شراً من نوع آخر • ومن جهة أخرى ، اذا كان هيبوليت قد أطلع نينا ألكسندروفنا على شىء ، فلعله لم يفعل ذلك متنوياً « تمزيق قلبها » فحسب • يجب أن لا ننسى أن دوافع أعمال الانسان هى فى العادة أشد تعقداً وأكثر تنوعاً مما نتصور حين نريد تعليلها • انه لمن النادر أن نستطيع الاحاطة بها احاطة دقيقة • وأفضل ما يفعله القصاص فى بعض الأحيان أن يقتصر على عرض الأحداث وسرد الوقائع • وذلك ما سنفعله فى ايضاحاتنا المقبلة عن النازلة التى ألمت بالجنرال فقلبت حياته رأساً على عقب ، لأننا نجد أنفسنا الآن مضطرين اضطراراً مطلقاً الى أن نولى هذه الشخصية الثانوية من الاهتمام والمكان أكثر مما أوليناها فى قصتنا هذه حتى الآن •

لقد تعاقبت الأحداث متسلسلة على النظام التالى :

ان ليبديف ، بعد جولته فى بطرسبرج سعياً وراء العثور على فردشتشنكو ، قد رجع الى بافلوفسك مع الجنرال فى ذلك اليوم نفسه . ولم يطلع الأمير على أى شىء خاص . فلولا أن الأمير كان ذاهلاً هو أيضاً فى ذلك الوقت ، وكان غارقاً فى مشاغل تهمه أكبر الاهتمام ، للاحظ أن ليبديف ، فضلاً عن أنه لم يزوّده بأى ايضاح خلال اليومين اللذين أعقبا عودته ، كان يتحاشى أيضاً لقاءه . فلما لاحظ الأمير ذلك أخيراً ، تذكر على دهشة منه ، أنه رأى ليبديف ، خلال هذين اليومين ، حين كان يلقاه عرضاً ، رآه مشرقَ المزاج منبسط الأسارير ، وأنه فى صحبة الجنرال دائماً . كان الصديقان لا يفترقان أبداً . وكان الأمير يسمع فى بعض الأحيان أحاديث صاخبة حامية تدور فوق غرفته ، ويسمع مناقشات مرحة تقطعها انفجارات ضحك . حتى انه فى ذات مرة ، فى ساعة متأخرة جداً من السهرة ، وصلت الى مسمعه أصداء أغنية غير متوقعة ، من الأغانى التى يغنيها الجنود حين يشربون الخمر ؛ فتعرف صوت الجنرال الخفيض المبحوح ، ولكن الأغنية انقطعت فجأة وأعقبها صمت . ثم قامت مناقشة حارة بلهجة مخمورة ، واستمرت المناقشة حامية خلال قرابة ساعة . وكان لا يعجز السامع عن أن يحزر أن الصديقين اللذين يسمران فوق قد تعانقا بعد قليل ، وأن أحدهما أخذ يبكى آخر الأمر . ثم لم تلبث أن نشبت مشاجرة عنيفة على حين فجأة ، ثم هدأت المشاجرة بعد برهة وجيزة .

فى أثناء تلك الآونة كلها ، كان كوليا فى حالة هم شديد . وكان الأمير لا يكاد يمكث فى البيت لحظةً أثناء النهار ، وكان فى بعض الأحيان لا يعود الا فى ساعة متأخرة جداً من الليل . فكان يقال له عندئذ ان كوليا ظل يسعى اليه ويسأل عنه طوال اليوم . ولكن الفتى كان اذا لقى

الأمير لا يبدو عليه أن لديه شيئاً خاصاً يريد أن يفضى به اليه ، اللهم الا أن يقول له انه « مستاء » من الجنرال ومن سلوكه الحالى أشد الاستياء ، « فانهما لا ينفكان يمشيان فى الطريق ، ويسكران فى حانة قريبة ، ويتعانقان فى وسط الشارع ، ويتشاتمان على مرأى ومسمع من الناس ، ويهيج كل منهما صاحبه ، ولا يستطيعان أن يفترقا » • فلما قال له الأمير ان ذلك ليس الا تكراراً لما كان يجرى قبل ذلك كل يوم تقريباً ، لم يعرف كوليا بماذا يجيب ، وعجز أخيراً عن تحديد موضوع قلقه الراهن •

وفى غداة الليلة التى سمع فيها الأمير الأغنية والمشاجرة ، كان الأمير يتهيأ للخروج فى نحو الساعة الحادية عشرة ، فاذا بالجنرال يظهر أمامه بغتة ، وهو فى حالة انفعال شديد حتى ليكاد يرتجف ارتجافاً •

ـ انني منذ مدة طويلة اترقب فرصة الحصول على شرف لقائك يا ليون نيقولايفتش المبجّل • نعم ، منذ مدة طويلة ، طويلة جداً ، طويلة جداً جداً •••

بهذا جمجم الجنرال وهو يضغط على يد الأمير ضغطاً يوشك أن يكون موجعاً • فدعاه الأمير أن يجلس •

ـ لا ، لن أجلس ، ثم انني لا أريد أن امنعك من الخروج ••• سأجيء فى مرة أخرى • أظن انني أستطيع أن أهنئك ••• بتحقق ••• أمنيات قلبك •

ـ أمنيات قلبى ؟

اضطرب الأمير • لقد كان يبدو له ، كما يحدث هذا لأكثر الذين يكونون فى مثل حالته ، أن أحداً لا يرى ولا يحزر ولا يفهم شيئاً • قال الجنرال :

ـ اطمئن بالاً ! لا أحب أن أضايقك في ألطف مشاعرك وأرهف عواطفك . لقد مررت أنا بمثل هذه الحالة ، وأعرف أنه ما ينبغي لغريب أن يدس أنفه ... ان صح التعبير .. على حد قول المثل ... حيث لا يجب أن يدسه ! هذه حقيقة أعانيها كلّ صباح . وانما أنا جئت اليك لشأن آخر ، شأن هام ، هامٍ جداً يا أمير .

رجاه الأمير مرةً أخرى أن يجلس ، وسبقه الى الجلوس ليحمله على الاقتداء به . قال الجنرال :

ـ لا بأس . لحظة قصيرة ... لقد جئت أسألك نصيحة . لا شك في أن حياتي تنقصها أهداف عملية ، ولكنني ، احتراماً مني لنفسي ، وبوجه عام ... اهتماماً مني بتلك الروح العملية التي حُرم منه الروسي حرماناً شديداً .. أود أن أهيء لنفسي ، ولزوجتي ، ولأولادي ... وضعاً يمكننا ... الخلاصة : جئت ألتمس منك نصحاً يا أمير ...

فهنأه الأمير تهنئة حارة على هذه النية وهذا العزم .

وأسرع الجنرال يضيف قائلاً :

ـ غير أن هذا كله لا قيمة له . وانما أنا جئت لأمر أخطر شأناً . لقد قررت أن أفتح لك قلبي يا ليون نيقولايفتش ، كما أفتح قلبي لانسان تبلغ ثقتي بصدقه وكرمه أن ... أن ... ألا تدهشك أقوالي يا أمير ؟

لئن لم يكن الأمير مدهوشاً دهشة عظيمة ، فلقد كان يلاحظ ضيفه مع ذلك بكثير من الانتباه والاستطلاع . كان الشيخ شاحباً بعض الشحوب ، وكانت تلمّ بشفتيه رعشة خفيفة في بعض اللحظات ، وكانت يداه ترتجفان بغير انقطاع . لقد جلس منذ بضع دقائق ، ولكنه نهض أثناء ذلك فجأةً مرتين ، ثم أسرع يجلس ثانيةً ، دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ ما هو فيه من اضطراب . وكان على المائدة كتب ، فتناول واحداً

منها أثناء كلامه ، وفتحه ، وألقى نظرة عليه ، ثم عاد يطويه فوراً ويرده الى مكانه . ثم تناول كتاباً آخر لم يفتحه لكنه ظل قابضاً عليه بيده اليمنى طول الوقت ، يهزه بغير انقطاع .

وهتف فجأة يقول :

ـ حسبى هذا ! أرى أننى أزعجتك كثيراً .

ـ لا ، أبداً ، لم تزعجنى ... أرجـوك ... أكمـل كلامك ! بالعكس : اننى أصغى اليك باهتمام ، وأحاول أن أدرك ...

ـ يا أمير ، أريد أن يكون لى مركز يفرض الاحترام ... أريد أن أحصل على احترام نفسى ... وحقوقى ...

ـ ان من يرغب هذه الرغبة لهو جدير بكل احترام منذ الآن .

نطق الأمير بهذه الجملة المستعارة الشائعة معتقداً اعتقاداً جازماً بأنها ستحدث فى نفس الجنرال أثراً حسـناً . كان يحس ، بغـريزته ، أن جملةً من هذا النوع ، جوفاء سارّة فى آن واحد ، تستطيع اذا هى قيلت فى الوقت المناسب ، أن تدخل الهدوء والطمأنينة الى نفس انسـان مثـل الجنرال ، ولا سيما فى الحالة التى هو عليها . ومهما يكن من أمر ، فما كان يجوز استئذان زائر كهذا الزائر بالانصراف الا بعد التخفيف عنه ، ومواساته . تلك هى المسألة .

أعجب الجنرال بالجملة كثيراً ، ووجد فيها مديحاً وعدّها مؤثرة ؛ فرّق قلبـه ، واهتزت عاطفتـه ، وسرعان ما غيّر لهجته وانطلق يقـدم شروحاً طويلة مستفيضة تشتعل حماسة . لكن الأمير لم يفهم من كلامه شيئاً رغم ما بذل من جهود الاصغاء التـام والانتباه الشـديد . لقد تكلم الجنرال قرابة عشر دقائق ، بتدفق سريع وتعجل عظيم ، كما يفعل انسان لا يتسع وقتـه لأن يعبّر عن الخـواطر التى تزدحم فى رأسـه ازدحاماً

قوياً ؟ حتى لقد أخذت تترقرق فى عينيه دموعٌ آخر الأمر . ولكن جميع العبارات التى نطق بها كانت لا رأس لها ولا ذنب ، كانت أقوالاً عجيبة غير متوقعة ، وخواطر متناثرة مفككة تتصادم وتتضارب فى حديثه المضطرب المشوش .

وختم الجنرال كلامه فجأة بقوله وهو ينهض :

ـ هذا يكفى ! لقد فهمت عنى فأنا الآن أشعر براحة وطمأنينة وهدوء . ان قلباً كقلبك لا يمكن الا أن يفهم انساناً يتألم . يا أمير ، انك تملك نبل المثل الأعلى . ما الآخرون اذا قيسوا بك ؟ ولكنك شاب ، فهأنا ذا أهب لك بركتى . الخلاصة اننى جئت اليك ألتمس أن تحدد لى ساعةً لحديث هام : فعلى هذا الحديث انما أعقد الأمل وأعلق الرجاء . انى لا أنشد الا صداقةً وقلباً يا أمير . أنا لم أستطع أن أسيطر على مطالب قلبى فى يوم من الأيام .

قال الأمير يسأله :

ـ ولكن لماذا لا نجرى الحديث الآن ؟ اننى مستعد لأن أصغى اليك ...

فقاطعه الجنرال بقوة وعنف :

ـ لا يا أمير ، لا ! لا الآن ! أنا الآن فى حلم ! ان القضية خطيرة الشأن جليلة القدر ! ان الساعة التى سنجرى فيها ذلك الحديث ستقرر مصيرى . ان تلك الساعة ستكون لى « أنا » ، ولا أحب فى لحظة مقدسة كتلك اللحظة ، أن نتعرض لأن يقطع علينا حديثنا أحد ، لا أحب أن يقطع علينا حديثنا أول قادم وقح .

وهنا مال الجنرال على الأمير فهمس فى أذنه يقول بلهجة السر وبما يشبه الرعب :

ـ وقح لا يساوى نعل ... نعل قدمك ... يا حبيبي الأمير ! لست أقول قدمى أنا . لاحظ جيداً أن الأمر ليس أمر قدمى أنا ، لأننى أشد احتراماً لنفسى من أن أتحدث عن قدمى أنا رأساً بغير مواربة وبغير لف ودوران ! ولكنك وحدك قادر على أن تفهم أننى اذ امتنع فى مثل هذه الحالة عن ذكر نعل قدمى ربما كنت أبرهن على عزة شديدة وكبرياء عظيمة . ما من أحد غيرك يستطيع أن يفهم هذا ؟ و « هو » ، «خاصة» ، أعجز من غيره على فهم ذلك . « هو » لا يفهم شيئاً يا أمير . انه عاجز عن الفهم عجزاً مطلقاً ! لا بد للمرء من قلب حتى يمكن أن يفهم !

شعر الأمير أخيراً بضيق يشبه أن يكون خوفاً . فضرب للجنرال موعداً هو مثل هذه الساعة من الغد . وخرج الجنرال قوياً منتعشاً قد سُرِّى عنه وكاد يهدأ بالاً . وفى المساء ، بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، أرسل الأمير يرجو ليبديف أن يجىء اليه لحظة .

فهرع ليبديف الى الأمير مسرعاً أشد الاسراع ، وقال وهو يدخل « انه لشرف عظيم » له أن يلبى طلب الأمير وأن يمثل بين يديه . كان كمن أصبح لا يتذكر أنه اختبأ عن الأمير خلال ثلاثة أيام ، وأنه تحاشى لقاءه عامداً .

جلس ليبديف على حافة كرسى وهو يتكلف التبسم ، ويصطنع وجهه حركات تودد ، وتفتعل عيناه المتفرستان تعبيراً عن الضحك ، ويفرك يديه ، ويظهر بمظهر انسان ساذج كل السذاجة يتهيأ لأن يسمع نبأً هاماً انتظره زمناً طويلاً ، وأحس به جميع الناس منذ مدة .

انزعج الأمير من هذا الوضع الذى يتخذه ليبديف . لقد أصبح واضحاً له أن جميع من حوله قد أخذوا يأملون منه شيئاً على حين فجأة ، أصبحوا ينظرون اليه على نية أن يزجوا اليه التهنئة بحادث عليه مدار

تلك التلميحات والابتسامات والغمزات • لقد مرّ به كيللر ثلاث مرات، هو أيضاً ، مسرعاً متعجلاً ، راغباً رغبةً واضحة فى أن يزجى اليه التهنئة ، فكان فى كل مرة يندفع مسترسلاً فى كلام متحمس غامض ثم يقطع حديثه فجأة وينصرف قبل أن ينهيه • (لقد أصبح كيللر فى الأيام الأخيرة يفرط فى الشراب مزيداً من الافراط ، والناس يرونه فى قاعة من قاعات البلياردو يحدث ضجيجاً ويثير جلبة شديدة) • وكوليا نفسه ، رغم حزنه ، قد اندفع ، مرتين أو ثلاث مرات ، يلمّح فى حديثه مع الأمير ملغزة •

اتجه الأمير الى ليبديف يسأله بلهجة قاطعة وبشىء من الحنق عن رأيه فى الحالة التى آل اليها الجنرال ، وفى مصدر القلق الذى يعانى منه الجنرال الآن • ووصف له بكلمات مقتضبة المشهد الذى جرى بينه وبينه• فأجاب ليبديف يقول بلهجة جافة :

ـ لكل امرىء همومه يا أمير ! ولا سيما فى عصر عجيب معذّب كهذا العصر الذى نعيش فيه • هذه هى المسألة !

قال ليبديف ذلك ثم صمت كما يصمت رجل أُسىء اليه وخاب ظنه فيما كان ينتظره خيبةً قاسية •

قال الأمير مبتسماً :

ـ يا لها من فلسفة !•••

ـ الفلسفة قد تكون لازمة ، قد تكون لازمةً جداً لعصرنا هذا من الناحية العملية ، ولكن الناس يهملونها • هذا واقع ! أما أنا ، أيها الأمير المبجل ، فقد أوليتنى ثقتك فى حالة تعرفها ، ولكنك قصرت هذه الثقة على حد معين ، وقصرتها على الوقائع الملحقة بهذه الحالة ••• اننى أفهم هذا ولا اشتكى منه البتة !

قال الأمير :

ـ لكأن هناك شيئاً قد أغضبك يا ليبديف ، هه ؟

فهتف ليبديف يقول بحماسة وهو يضع يده على قلبه :

ـ لا ، أبداً . بالعكس : لقد أدركت فوراً أنني كنت لا استحق أن تشرفني بثقتك السامية التي كنت أتطلع اليها ، كنت لا أستحقها لا بحكم وضعي في المجتمع ، ولا بحكم ذكائي وأخلاقي ، ولا بحكم ثرائي ، ولا بحكم ماضيّ ، ولا بحكم معارفي . واذا أمكنني أن أخدمك فانما أنا أخدمك كما يخدم عبد أو منتفع ، لا أكثر من ذلك . أنا لست زعلان ، بل حزين .

ـ دعك من هذا يا لوكيان تيموفئتش !

ـ لا أكثر من ذلك ! وهذا هو شأني الآن ، في الحالة الراهنة . لقد كنت أقول لنفسي حين ألقاك ، وحين أتبعك بقلبي وفكري : « أنا لا أستحق أن يفضي اليّ بما يفضي به صديق الى صديقه ، ولكنني ، بصفتي صاحب الدار ، قد أتلقى منه ، في اللحظة المناسبة ، في تاريخ محدّد ان صحّ التعبير ، أمراً من الأوامر ، أو قد أتلقى منه على الأقل رأياً من الآراء بشأن بعض التبديلات الوشيكة المتوقعة ... » .

كان ليبديف ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، ما ينفك يحدّق بعينيه الصغيرتين الثاقبتين ، الى الأمير الذي كان يتأمله مدهوشاً . لم يكن قد فقد أمله في اشباع فضوله .

هتف الأمير يقول بلهجة توشك أن تكون غضباً :

ـ لا أفهم شيئاً البتة ... وانك لأفظع من رأيت في حياتي من أصحاب الدسائس والمكائد ..

قال الأمير هذه الجملة الأخيرة وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً صريحاً على حين فجأة •

فأسرع ليبديف يشاركه الضحك • وكان واضحاً من نظرته المشرقة أن آماله قد قويت بل وازدادت • قال الأمير :

ـ هل تعلم ماذا سأقول لك يا لوكيان تيموفئفتش ؟ لا تزعل : انني مدهوش من سذاجتك وسذاجة أشخاص آخرين أيضاً ! ان ما تظهرونه من سذاجة فى توقع أن أكشف لكم عن أمر من الأمور ، فى هذه اللحظة ، فى هذه الدقيقة ، يبلغ من الشدة ما يجعلنى أشعر بحرج وخجل حين ألاحظ أن ليس هنالك شىء أبلغكم اياه فأرضيكم • ومعذلك أحلف لك أن ليس ثمة أى أمر أفضى به اليك • تستطيع أن تكون على ثقة بهذا •

وعاد الأمير يضحك •

واصطنع ليبديف هيئة الجد والرصانة والوقار • صحيح أن فضوله يتصف أحياناً بفرط السذاجة وقلة التكتم ، ولكن هذا لا ينفى انه كان رجلاً ماكراً يحسن اللف والدوران والتعرج ، حتى انه قادر فى بعض الأحيان على أن يلتزم صمتاً يبلغ غاية المكر • وقد حمله الأمير بردوده الفظة المستمرة على أن يعتبره أشبه بعدو • ولكن لئن كان الأمير يحاشنه، فانه لم يكن يفعل ذلك احتقاراً له ، بل لأن فضول ليبديف ينصب على موضوع حرج دقيق• لقد كان الأمير ، قبل بضعة أيام ، ينظر الى بعض أحلامه نظرته الى جريمة ، بينما كان لوكيان تيموفئفتش لا يرى فى رفضه الكلام الا دليلاً على كره له وشك فيه، فكان ينصرف مقروح القلب حاقداً، وكان يحسد كوليا وكيللر بل ويحسد أيضاً ابنته نفسها ، فيرا لوكيانوفنا• ولعله كان فى هذه اللحظة نفسها يرغب رغبة صادقة فى أن ينقل الى

الأمير نبأً لعله يحظى من الأمير بأكبر الاهتمام ، لكنه انطوى على نفسه ولزم صمتاً كاملاً واحتفظ بأسراره لنفسه .

قال ليبديف أخيراً بعد صمت :

ـ فى أى شيء يمكن أن أخدمك أيها الأمير المعظم ، ما دمت أنت الذى ... استدعيتنى ؟

ظل الأمير شارد الذهن برهةً من الزمن هو أيضاً . ثم قال :

ـ كنت أريد أن أتكلم عن الجنرال ، وعن ... تلك السرقة التى كلمتنى فيها ...

ـ أية سرقة ؟

ـ عجيب أمرك . لكأنك أصبحت الآن لا تفهم ! حقاً انك لانسان غريب يا لوكيان تيموفئفتش ! ما هذا التمثيل الذى تعمد اليه وتحرص عليه دائماً ؟ اننى أقصد المال ... المال ... الأربعمائة روبل التى فقدتها منذ أيام مع المحفظة ، وجئت تحدثنى عنها هنا فى الصباح ، قبل أن تذهب الى بطرسبرج . هل فهمت عنى أخيراً ؟

فقال ليبديف عندئذ بصوت بطيء كأنه لم يدرك ما يُسأل عنه الا فى هذه اللحظة :

ـ آ ... تقصد تلك الاربعمائة روبل ! أشكرك ، يا أمير ، على اهتمامك الصادق هذا بى . ان هذا الاهتمام ليسعدنى ويشرّفنى ، ولكننى ... وجدت المبلغ منذ مدة طويلة !

ـ وجدته ؟ آ ... الحمد لله !

ـ ان حمدك هذا يصدر عن قلب نبيل ، لأن الأربعمائة روبل ليست أمراً هيناً بالنسبة الى انسان شقى لقى عناءً كبيراً فى جنى رزقه ورزق أيتامه ...

قال الأمير مصححاً :

ـ ما عن هذا أكلمك ! يسرني طبعاً أن تكون قد وجدت مالك ، ولكن ••• ولكن كيف وجدته ؟

ـ على أيسر نحو : وجدته تحت الكرسي الذي كان ردنجوتي معلقاً عليه • فلا شك أن المحفظة انزلقت من جيب الردنجوت وسقطت هنالك •

ـ تحت الكرسي ؟ مستحيل •• لقد قلت لي انك بحثت عن المحفظة في كل مكان • فكيف لم ترها في الموضع الذي هو أبرز موضع يمكن أن تسقط فيه ؟

ـ لقد نظرت في ذلك الموضع فعلاً • أتذكر أنني أمعنت النظر• جثوت حتى صرت أمشي على أربع ، ثم لم أتكل على عينيّ وحدهما بل أزحت الكرسي وتلمست المكان بيديّ • فلم أجد الا فراغاً كراحة يدي، وظللت مع ذلك أتلمس • ان هذه الترددات تستولي دائماً على فكر من يبحث عن شيء ويصر أن يعثر عليه ••• حين يكون الشيء المفقود هاماً أو حين يكون فقده مدعاة حزن له : فهو يرى أن ليس ثمة شيء في المكان الذي يبحث فيه عن الشيء ، ومع ذلك ينظر في المكان نفسه خمس عشرة مرة •

دمدم الأمير يقول متحيراً :

ـ طيب ••• ولكن كيف أمكن أن يحدث هذا ؟••• لقد قلت في البداية ان المال لم يكن هناك ، ثم اذا أنت تجده هناك في ذلك المكان نفسه فجأة ! فكيف يمكن هذا ؟

ـ نعم ، وجدته هناك فجأة !

حدّق الأمير الى ليبديف بنظرة غريبة ، ثم سأله على حين بغتة :

ـ والجنرال ؟

فأجاب ليبديف وهو يصطنع من جديد هيئة من لا يفهم :

ـ الجنرال ؟

ـ غريب أمرك • اننى أسألك ماذا قال الجنرال حين عثرت على محفظتك تحت الكرسى ؟ ألم تقوما بالبحث فى أول الأمر معاً ؟

ـ نعم ، فى أول الأمر • ولكننى فى هذه المرة لم أقل له شيئاً ، أعترف لك بذلك • آثرت أن يبقى جاهلاً بأننى عثرت على محفظتى وحدى •

ـ ولكن ••• لمَ هذا ؟•• وهل كان المال تاماً لم ينقص منه شيء؟

ـ عددت ما كان فى المحفظة فلم افتقد شيئاً • لم ينقص من المال روبل واحد •

قال الأمير شارد الذهن :

ـ كان فى وسعك أن تخبرنى بهذا على الأقل •

ـ خشيت أن أزعجك يا أمير ، فان لك من مشاغلك الشخصية وهمومك الخاصة ما قد يكون خارقاً اذا جاز لى أن أقول هذا • ثم لقد تظاهرت أنا نفسى بأننى لم أعثر على شيء ؛ فبعد أن فتحت المحفظة وعددت المال الذى كان فيها فتحققت من تمامه طويتها ثانيةً وأرجعتها الى مكانها تحت الكرسى •

ـ لماذا ؟

قال ليبديف وهو يضحك ضحكاً ساخراً على حين فجأة ويفرك يديه سروراً :

ـ هى فكرة ساورتنى • كان يشوقنى أن أرى ما قدت يحدث بعد ذلك •

ـ فهل المحفظة ما تزال تحت الكرسى منذ يومين ؟

ـ لا . لم تبق تحت الكرسى الا أربعاً وعشرين ساعة . كانت رغبتى هى أن يعثر عليها الجنرال هو أيضاً . قلت لنفسى : ما دمت قد انتهيت الى العثور عليها ، فلا يمكن الا أن يلاحظ الجنرال ، هو أيضاً ، شيئاً ظاهراً للعيان الى هذا الحد ، شيئاً يثب الى البصر من تحت الكرسى وثباً ان صح التعبير . وقد نقلت الكرسى وغيرت موضعه مراراً بحيث يصبح المرء مضطراً الى رؤية المحفظة اضطراراً ، ومكرهاً على الانتباه اليها اكراهاً ، ولكن الجنرال لم يبصر شيئاً . دام ذلك أربعاً وعشرين ساعة . لا بد أنه فى هذه الآونة ذاهل شديد الذهول . أمر لا يمكن فهمه : انه يتكلم، ويروى قصصاً ، ويضحك ، ويقهقه قهقهة شديدة فى بعض الأحيان ، ثم اذا هو ينتابه غضب عنيف منى على حين فجأة ، لا أدرى لماذا ! خرجنا أخيراً من الغرفة ، ولكننى تعمدت أن أترك الباب مفتوحاً . فرأيت الجنرال يتردد لحظة وكأنه يريد أن يقول لى شيئاً . فأغلب الظن أنه قد روّعه أن تُترك هنالك محفظة فيها مبلغ ضخم كذلك المبلغ . ولكنه بدلاً من أن يشير الى هذا ، غضب على حين فجأة ، واحمر وجهه احمراراً شديداً . فما ان صرنا فى الشارع وقطعنا بضع خطوات حتى تركنى ومضى فى اتجاه آخر . ثم لم نلتق بعد ذلك الا مساءً فى الحانة .

ـ ولكن هل سحبت المحفظة من تحت الكرسى أخيراً ؟

ـ لا ، أبداً . وانما هى اختفت من ذلك المكان فى الليل .

ـ وأين هى الآن ؟

ـ هى ذى ... لقد وجدتها هنا فجأةً ، فى حافة ردنجوتى ، انظر ... جُسَّها اذا أردت أن تتأكد من الأمر بنفسك .

بهذا هتف ليبديف فجأةً وهو ينهض قائماً وينظر الى الأمير متودداً .

كانت الحافة اليسرى من الردنجوت منتفخة من الأمام انتفاخاً يلفت النظر حقاً . فاذا جس المرء ذلك الموضع أدرك فوراً وجود محفظة من الجلد انزلقت تحت البطانة من ثقب فى الجيب .

قال ليبديف :

ـ لقد أخرجتها لأدقق النظر فيها ، فرأيت المال كاملاً لم ينقص منه شيء ، فعدت أدسها فى موضعها نفسه ؛ وهكذا ترانى أحملها منذ صباح أمس . حتى انها تلطم ساقىَّ .

ـ وتتظاهر بأنك لم تلاحظ ذلك ؟

ـ أنا لا ألاحظ شيئاً ، هيء هيء ! واعلم ، أيها الأمير المبجّل ، اعلم ... رغم أن هذا الموضوع لا يستحق أن يلفت انتباهك ، اعلم أن جيوبى تكون فى حالة حسنة دائماً . فما هى الا ليلة واحدة حتى كانت احداها مثقوبة ! لقد أنعمت النظر فى الثقب متعمداً ، فرأيت أنه يشبه أن يكون خرقاً أُحدث بسكين . أمر لا يصدقه العقل ، أليس كذلك ؟

ـ و ... الجنرال !

ـ ظل غاضباً طول النهار ، أمس واليوم . ان استياءه رهيب . على أن نشوة الخمرة تجعله شديد المراعاة والمجاملة أحياناً ، ثم اذا هو يصبح رقيق العاطفة حتى لتسيل دموعه على خديه ، ثم اذا هو يثور على حين فجأة ثورةً عارمة تبث الرعب فى قلبى ، والحق يقال !... ذلك اننى ، يا أمير ، لست رجل قتال وحرب . وأمس ، بينما كنا معاً فى الحانة ، وقعت حافة ردنجوتى تحت بصره بما يشبه المصادفة ، وكانت ترسم حدبةً ظاهرة كل الظهور ، فرمقها الجنرال بطرف عينه ، واجتاحه الغضب. لقد أصبح منذ مدة طويلة لا ينظر الىَّ وجهاً لوجه ، الا حين يكون فى نشوة سكر أو يقظة عاطفة . ولكنه نظر الىَّ أمس مرتين فكان فى عينيه من

الشرر ما أجرى فى ظهرى رعدة . على كل حال ، أنا أنوى أن أعثر على المحفظة غداً ، ولكنني الى أن أفعل ذلك أحب أن أتسلى به ليلةً أخرى.

صاح الأمير يقول متعجباً :

ـ لماذا تعذبه هذا التعذيب ؟

فأجاب ليبديف يقول بحرارة :

ـ أنا أعذبه يا أمير ؟ لا ! انني أحبه حباً صادقاً مخلصاً ، و ... احترمه . لك أن تصدِّق أو لا تصدِّق : لقد أصبح الآن أغلى فى قلبى وأعزَّ فى نفسى مما كان . أصبحت اعتبره مزيداً من الاعتبار .

قال ليبديف هذه الكلمات وهو يصطنع هيئة فيها من فرط الجد والاخلاص ما أثار استياء الأمير . فقال يسأل ليبديف :

ـ أتحبه ثم تعذبه هذا التعذيب ؟ اسمع : انه منذ أعاد المحفظة المفقودة الى مكان بارز : تحت الكرسى أولاً وفى حافة ردنجوتك ثانياً ، قد برهن على أنه لا يريد أن يمكر معك ، وبرهن على أنه يسألك الصفح والعفو . هل سمعت ؟ انه يطلب منك أن تصفح عنه ! معنى هذا أنه يعتمد على رهافة عواطفك ، وأنه يثق بصداقتك له . فكيف تجيز لنفسك بعد هذا أن تذل انساناً ... شريفاً الى هذا الحد ؟

قال ليبديف وقد التمعت عيناه :

ـ أيها الأمير الشريف ، أيها الأمير الشريف جداً . أنت وحدك أيها الأمير النبيل ، استطعت أن تقول كلاماً صادقاً هذا الصدق كله ، عادلاً هذا العدل كله ، لذلك ترانى مخلصاً لك متفانياً فى سبيلك الى حد العبادة ، رغم كل عفونة الرذائل التى تعشش فى نفسى ! لقد اتخذت

قرارى . سوف اكتشف المحفظة الآن ، فى هذه اللحظة نفسها ، لا أنتظر الغد . انظر : هأنا ذا أخرجها أمام بصرك . هى ذى . هذا هو المبلغ كاملاً ، خذه أيها الأمير النبيل واحتفظ به الى غد . سوف استرده منك غداً أو بعد غد . ولكن هل تعلم يا أمير أن هذا المال لا بد أن يكون قد قضى الليلة الأولى فى مكان ما تحت شجرة بحديقتنا الصغيرة ؟ ما رأيك فى هذا ؟

ـ لا تقل له دفعةً واحدة انك عثرت على المحفظة . دعه يلاحظ أن حافة ردنجوتك قد خلت من المحفظة ، فيفهم بنفسه .

ـ هل هذه فكرة حسنة ؟ أليس الأفضل أن أبلغه أننى وجدت المحفظة ، متظاهراً باننى قبل ذلك لم يخطر ببالى شىء ؟

أجاب الأمير واجماً مفكراً :

ـ لا أظن ذلك . لا . فات الأوان . هذا أشد خطراً . حقاً ان الأفضل هو أن لا تقول شيئاً ! كن رقيقاً لطيفاً فى معاملته ، ولكن ... يجب أن لا يظهر عليك أنك ... تمثل دوراً محفوظاً ، .. و ... و .. أنت تعلم ...

ـ أعلم يا أمير ، أعلم . أقصد ... أعلم أننى لن أفعل شيئاً من ذلك ، اذ لا بد أن يكون للمرء قلب كقلبك حتى يتصرف هذا التصرف. ثم انه قد أصبح هو نفسه سريع الاهتياج سىء الطبع . هو الآن يشقلنى فى بعض الأحيان من رأسى الى قدمى ، تارةً ينتحب ويقبلنى ، وتارة يأخذ يذلنى ويهيننى ويعاملنى باحتقار على حين فجأة . ففى لحظة من تلك اللحظات سأبرز له حافة ردنجوتى عامداً ليراها ... هىء هىء !.. الى اللقاء يا أمير ... أظن أننى حبستك عن الخروج، وأننى أكدّر عليك أهم عواطفك ، اذا جاز لي أن أقول ...

ـ ولكن احفظ السر ، ناشدتك الله ، كما فعلت من قبل •

ـ بخطى لا وقع لها ، بخطى كخطى الذئب !•••

رغم أن الأمر انتهى ، فقد بقي الأمير مهموماً ربما أكثر مما كان مهموماً من قبل • انه ينتظر ، نافدَ الصبر ، اللقاء الذى يجب أن يتم غداً بينه وبين الجنرال •

الفصل السابع

كان موعد اللقاء بين الساعة الحادية عشرة والنصف وبين الساعة الثانية عشرة • ولكن الأمير أخّره عنه ظرف طارىء لم يكن فى الحسبان • فلما وصل الى البيت كان الجنرال ينتظره • وقد لاحظ من النظرة الأولى أن الجنرال كان ستاءً ، ولعله كان مستاءً من هذا الانتظار نفسه •

اعتذر الأمير عن التأخر وأسرع يجلس ، لكنه كان يشعر بوجل غريب فكأن الزائر خزف يخشى عليه الأمير أن ينكسر فى كل لحظة • انه لم يشعر قبل ذلك فى يوم من الأيام بوجل كهذا الوجل ازاء الجنرال ، بل ولا كان يمكن أن تخطر بباله فكرة كهذه الفكرة • ولم يلبث أن لاحظ أن أمامه الآن رجلاً يختلف كل الاختلاف عن رجل الأمس : فالخجل والذهول قد حلت محلهما الآن لدى الجنرال رصانة خارقة ، فكأنه قد اتخذ قراراً قاطعاً لا سبيل الى الرجوع عنه • ورغم أن هدوء الأعصاب هذا كان ظاهرياً أكثر مما كان واقعياً ، فان ذلك لا ينفى أن وضع الجنرال كان فيه نبل وحرية وانطلاق ، على شىء من الشعور بكرامة مكبوتة ووقار مكظوم ؛ حتى لقد بدأ يكلم الأمير بلهجة فيها شىء من التنازل والتواضع كاللهجة التى يصطنعها أولئك الذين يخالط انطلاقهم الحرّ شعور باساءة أُلحقت بهم ظلماً • وكان يتحدث بنبرة لطيفة ودود ، على شىء من المرارة فى صوته •

قال بوقار وهو يومىء بيده الى المائدة :

ـ اليك المجلة التى أخذتها منك فى ذلك اليوم . شكراً .

ـ آ ... نعم .. هل قرأت تلك المقالة يا جنرال ؟ كيف وجدتها ؟ ما رأيك فيها ؟ شائقة ، هه ؟

كذلك قال الأمير مسرعاً الى انتهاز هذه الفرصة للتحدث فى موضوع كهذا الموضوع لا يثير النفس ، ولا يهز العاطفة .

فأجاب الجنرال بقوله :

ـ قد تكون المقالة شائقة ، لكنها كُتبت كتابةً رديئة ، وهى باطلة حتماً ، حتى ليمكن أن يقال انها محشوة بالأكاذيب .

كان الجنرال يتكلم بلهجة فيها سلطة ، وفيها شىء من بطء مقصود . قال الأمير :

ـ نعم ، هى قصة ساذجة جداً : ان كاتبها جندى قديم شهد احتلال الفرنسيين لموسكو واقامتهم بها ، فروى أموراً شائقة . ثم ان مذكّرات شهود العيان ثمينة دائماً ، مهما تكن شخصية الكاتب . أليس كذلك ؟

ـ لو كنت فى مكان رئيس التحرير ، لما نشرت هذا الكلام . أما عن مذكرات العيان بوجه عام فان الناس أميل الى تصديق كاذب متبجح لكنه مشوّق مسلٍ منهم الى تصديق رجل له قيمته ومزاياه . اننى أعرف مذكرات عن عام ١٨١٢ هى ... يا أمير ، لقد عزمت أمرى واتخذت قرارى : اننى مغادر هذا المنزل ، منزل السيد ليبديف .

قال الجنرال ذلك ، وألقى على الأمير نظرة مهيبة .

فانبرى الأمير يقول على غيرى هدى وهو لا يعرف بماذا يجيب :

ـ ان لك مسكنك في بافلوفسك عند .. عند ابنتك .

وتذكر فى تلك اللحظة أن الجنرال انما جـاء ليستشـيره فى أمر يتوقف عليه مصيره •

قال الجنرال :

ـ بل عند زوجتى ، أى فى بيتى وبيت ابنتى •

ـ معذرة : اننى •••

ـ اننى مغادر منزل ليبديف يا عزيزى الأمير ، لأننى قطعت علاقتى بهذا الرجل • قطعتها فى مساء أمس ، آسفاً على أننى لم أفعل ذلك قبل هذا الأوان • اننى أطلب الاحترام يا أمير ، وأرغب فى الاحترام حتى من الأشخـاص الذين أهب لهم قلبى ان صح التعبير • يا أمير ، اننى كثيراً ما أهب قلبى ، فأُخدع فى جميع الأحيان تقريباً • ان هذا الرجل لم يكن جديراً بصداقتى •

فقال الأمير بتحفظ :

ـ انه يتصف بشىء من الفوضى فعلاً ، وان له كذلك بعض الخصال التى ••• ولكن له قلباً رقيقاً ، كما ان له فكراً ماكراً ، وهو خفيف الظل أحياناً •

ان هذه التعابير المنتقاة المختارة التى استعملها الأمير ، وتلك اللهجة التى تدل منه على تقـدير وتوقير ، قد أرضـتا غرور الجنرال ، رغم أن ومضات من ريب ما تزال تلتمع فى عينيه • ولكن نبرة الأمير كان فيها من الانطلاق الطبيعى الواضح ما لم يبق معه مجال لشك •

قال الجنرال مستأنفاً كلامه :

ـ أما أن له مزاياه أيضاً ، فلقد كنت أول من اعترف بذلك حين أوشكت أن أهب صداقتى لهذا الانسان • ذلك اننى فى غير حاجة لا الى بيته ولا الى ضيافته ، لأن لى أسرتى أنا أيضاً • لست أحاول أن أبرىء

نفسى من عيوبى • أنا امرؤ مفرط لا يعرف الاعتدال • ولقد شربت معه خمراً ، فيا ليتنى لم أرتكب ذلك الخطأ ! ولكن الخمرة لم تكن الشىء الوحيد الذى ربطنى به وشدنى اليه (اغفر فجاجة اللغة عند انسان مقروح القلب يا أمير !) • وانما أغرتنى به تلك المزايا نفسها التى أشرت اليها • غير أن لكل شىء حداً ، حتى المزايا • فحين تبلغ به الجرأة حد الادعاء فجأة بأنه سنة ١٨١٢ ، أيام طفولته ، قد فقد ساقه اليسرى ودفنها فى مقبرة فاجانكوفو * بموسكو ، فان كلامه هذا يتجاوز الحدود ، ويدل على استهتار ، ويبرهن على وقاحة •

ـ لعل ذلك لم يكن منه الا مزاحاً أو حكاية يهدف منها الى الاضحاك !

ـ أنا أفهم هذا • ان حكاية بريئة يخترعها صاحبها للاضحاك ، حتى ولو كانت فظة غليظة ، لا تجرح قلب الانسان • حتى لقد يرى المرء أناساً يكذبون عن شعور بالصداقة ان صح التعبير ، وذلك ليسرّوا محدثيهم • ولكن اذا اشتمل ذلك على قلة احترام ، واذا كان المقصود من قلة الاحترام هذه أن يقال لك بالتلميح ان صداقتك أصبحت ثقيلة على الصدر ، فليس يبقى لرجل نبيل فى مثل هذه الحالة الا أن يشيح بوجهه ، وأن يقطع جميع العلاقات ، وأن يردّ الشخص الذى صدرت منه الاساءة المهينة الى مكانه وأن يقفه عند حدوده •

وكان الجنرال قد احمر وهو يتكلم • قال الأمير :

ـ ثم ان ليبديف لا يمكن أن يكون قد وُجد بموسكو سنة ١٨١٢، فهو أصغر سناً من أن يكون ذلك صحيحاً • دعوى مضحكة !

ـ ذلك من جهة الأولى • ولكن هب أنه كان فى ذلك الزمان قد

وُلد منذ مدة . فكيف يستطيع أن يزعم لك جهاراً أن جندياً فرنسياً من جنود المدفعية قد صوّب اليه مدفعه ، فقطع بقنبلة احدى ساقيه ليتسلى بذلك ؟ فما كان منه الا أن التقط ساقه المقطوعة فنقلها الى بيته ثم دفنها في مقبرة فاجانكوفو . وهو يقول فوق ذلك انه بنى لها ضريحاً كتب على أحد جانبيه ما يلي : « هنا ترقد ساق الموظف ليديف » ، وكتب على الجانب الآخر : « استرح أيها الرفات الغالى الى أن يطلع الصباح المشرق الوضاء » ؟ ويقول أخيراً انه يُقيم قداساً على روح ساقه (وهذا وحده تجديف) ، ويسافر الى موسكو لهذه الغاية كل عام . وهو يدعونى ، تأييداً لكلامه ودعماً لدعواه ، أن أصحبه الى موسكو ليرينى الضريح ، وليرينى ، فى الكرملين ، ذلك المدفع الفرنسى نفسه الذى أُخذ من العدو ، مؤكداً أنه المدفع الحادى عشر بعد الباب ، وأنه مدفع صغير من طراز عتيق .

قال الأمير وهو ينفجر ضاحكاً :

ـ وما يزال مع ذلك بساقين واضحتين . أؤكد لك أنها مزاحة بريئة ، فلا تغضب منها ...

ـ ولكن اسمح لى أن يكون لى أنا أيضاً رأى : فلأن يظهر أن له ساقين اثنتين فهذا لا يقطع بأن قصته لا يمكن أن تطابق الواقع . فهو يؤكد أن له ساقاً صناعية من عند تشرنوسفيتوف .

ـ صحيح : يظهر أن فى امكان المرء أن يرقص بساق من عند تشرنوسفيتوف .

ـ أعرف هذا ، لأن تشرنوسفيتوف حين اخترع ساقه الصناعية قد هرع يرينيها على الفور . ولكن هذا الاختراع أحدث كثيراً من ذلك التاريخ ... ثم ان ليديف يؤكد أن زوجته المرحومة لم تعرف

فى يوم من الأيام ، أثناء زواجها ، أن له ساقاً من خشب • وقد أوضحت له جميع ما تشتمل عليه قصته هذه من وجوه الاستحالة والسخف • فأجابنى بقوله : « اذا ادعيت أنك كنت وصيف نابوليون سنة ١٨١٢ ، فاسمح لى أنا أيضاً بأن أكون قد دفنت ساقى فى مقبرة فاجانكوفو » •

قال الأمير وقد وقف متحيراً :

ـ كيف ؟ هل أنت •••

فظهر الاضطراب على الجنرال أيضاً ، لكنه سرعان ما سيطر على نفسه ، ونظر الى الأمير بتعالٍ يخالطه شىء من سخر ، وقال له بصوت قاطع :

ـ أكمل فكرتك يا أمير ، أكملها ، اننى متسامح • قل كل شىء : انه ليبدو لك أمراً مضحكاً أن ترى أمامك انساناً سقط الى هذا الحضيض من الذل و ••• العقم ، وأن تعلم أن هذا الانسان كان هو نفسه شاهد أحداث كبرى • ألم يعمد « هو » الى الوشاية بى والنميمة علىّ لديك حتى الآن ؟

ـ لا ، لم يقلِ لى ليبديف شيئاً ، اذا كان ليبديف هو من تقصد ••

ـ هِمْ •• كنت أظن غير هذا • والحق أن حديثنا قد بدأ بالكلام على تلك ••• المقالة الغريبة التى ظهرت فى مجلة « الأرشيف » * • لقد أشرت أنا الى بطلان تلك المقالة ، لأننى شهدت بنفسى الأحداث التى ترويها • أرى أنك تبتسم وتتفرس فىّ يا أمير ، هه ؟

ـ لا ، أبداً ••• اننى •••

تابع الجنرال حديثه بلهجة بطيئة جداً :

ـ اننى أبدو صغير السن ، ولكننى أكبر سناً مما أبدو • فى سنة

١٨١٢ كنت فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرى . أنا لا أعرف سنى على وجه الدقة . لقد صغّروه فى سجل الخدمة ، وارتضيت أنا لنفسى ، عن ضعف منى ، أن أُنقص منه سنوات .

ـ أؤكد لك يا جنرال أننى لا أرى أية غرابة فى أن تكون قد وُجدت بموسكو سنة ١٨١٢ ، و ... طبيعى أن تكون لك ذكريات تستطيع أن ترويها ... كسائر أولئك الذين وُجدوا فى ذلك العهد . ان أحد الذين سجلوا ذكريات حياتهم قد افتتح كتابه بذكر أنه كان سنة ١٨١٢ طفلاً رضيعاً وأن الجنود الفرنسيين أطعموه خبزاً بموسكو .

قال الجنرال متنازلاً متسامحاً :

ـ هـأنت ذا ترى يا أمير أن قصتى ، وان لم تكن استثناءً ، فهى تخرج عن نطاق المألوف مع ذلك . انه ليحدث كثيراً أن تبدو الحقيقة بعيدة عن الواقع صعبة التصديق . وصيف الامبراطور . ذلك يلوح غريباً كل الغرابة طبعاً . غير أن حادثاً خارقاً يقع لطفل فى العاشرة من عمره ربما كان يفسره أنه انما كان طفلاً . ما كان لهذا الحادث أن يقع لى فى الخامسة عشرة من عمرى ؛ وذلك لسبب بسيط هو أننى فى الخامسة عشرة من عمرى ما كان لى أن أهرب من منزلنا الخشبى فى شارع « باسمانايا القديمة » ، يوم دخول نابوليون الى موسكو . ما كان أن أتمرد على سلطة أمى التى فاجأها دخول الفرنسيين فكانت ترتعد خوفاً . فلو كنت فى الخامسة عشرة من عمرى لشاركتها رعبها . أما فى العاشرة فقد كنت لا أخشى شيئاً ، فتسللت بين الجمهور حتى بلغت درجات مدخل القصر ، لحظةَ كان نابوليون ينزل عن حصانه .

قال الأمير يؤيد كلامه خجلاً :

ـ فعلاً ، لقد أصبت حين لاحظت أن سن العاشرة هى السن التى يكون فيها المرء أشد ما يكون جرأة وتهوراً ...

وكان يعذب الأميرَ أن يتصور أنه سيحمر وجهه . قال الجنرال :

ـ طبعاً ... ولقد جرى كل شيء على نحو بسيط طبيعي لا يوجد مثله الا في الحياة الواقعية . فلو كتب هذه القصة روائي لخرجت من بين يديه ترهاتٍ باطلة وأموراً لا يصدق العقل أنها يمكن أن تطابق الواقع.

هتف الأمير يقول :

ـ حقاً ! لقد خطفت هذهالفكرة انتباهي أنا أيضاً ، ومنذ مدة قصيرة. انني أعرف قضية واقعية عن جريمة قتل كان الدافع اليها سرقة ساعة. وقد تحدثت الجرائد عن هذه الجريمة منذ وقعت . فلو أن روائياً تخيَّل هذه الجريمة ، لانبرى الناس الذين يعرفون حياة الشعب يصيحون قائلين مع النقاد : هذا لا يمكن أن يكون واقعاً . ولكنك حين تقرأ حكاية هذا الحادث في الجرائد تحس أنه واحد من تلك الحوادث التي تعلمك حقائق الحياة الروسية .

وختم الأمير كلامه قائلاً بحرارة وقد سرَّه أنه لم يظهر عليه احمرار الوجه :

ـ انك قد أجدت ملاحظة هذه الظاهرة يا جنرال !

فهتف الجنرال يقول وقد سطعت عيناه سروراً :

ـ أليس كذلك ؟ هذا طفل ، هذا صبي لا يشعر بالخطر ، يتسلل خلال الجمهور ليرى بهاء الموكب وسناء البزات العسكرية وليرى الرجل العظيم الذي طالما سمع الناس يتحدثون عنه ؟ ذلك أن العالم كان قد أصبح منذ عدة سنين لا يتكلم الا عنتابوليون. لقد ملأ اسمه الدنيا وشغل الناس، حتى ليمكنني أن أقول انني رضعت اسمه مع حليب أمي . ويمرُّ نابوليون على بعد خطوتين مني ، فاذا ببصره يقع على نظرتي مصادفة . كنت ارتدي ثياب طفل من أبناء النبلاء . كان أهلي يكسونني بأجمل الملابس . وكنت

بين ذلك الحشد الكبير ، الشخص الوحيد الذى يرتدى ثياباً من هذا المستوى ، فتصور أنت نفسك ما عسى يكون أثر ذلك فى نفسه ...

ـ لا شك أن ذلك خطف بصره وبرهن له على أن الناس لم ينفضوا جميعاً ، حتى ان أفراداً من النبلاء قد لبثوا بموسكو مع أولادهم.

ـ تماماً ! كانت هذه هى فكرته : أن يجتذب اليه النبلاء ! فحين حدّق الىّ بنظرته التى تشبه نظرة النسر ، فلا بد أنه رأى جواباً يسطع فى عينىّ . قال : « هذا صبى يقظ . من أبوك ؟ » (بالفرنسية) فأجبته فوراً بصوت يكاد يخنقه الانفعال : « جنرال قضى فى ساحة الشرف ذائداً عن وطنه » . قال : « ابن نبيل ، نبيل وشجاع فوق ذلك ! أحب النبلاء ! هل تحبنى يا صغير ؟ » (بالفرنسية) . كان السؤال سريعاً ، ولكن جوابى لم يكن أقل سرعة ، فاننى لم ألبث أن قلت له : « ان قلب الروسى يقدر أن يعرف الرجل العظيم ولو كان عدو وطنه ! » . الحق اننى لا أتذكر هل كان جوابى بهذه الكلمات حرفاً حرفاً ... لقد كنت طفلاً ... ولكن لا شك أن هذا كان هو المعنى الذى عبّرت عنه أقوالى .

« أخذ نابوليون . وفكّر لحظةً ثم قال لرجال حاشيته : « أحب كبرياء هذا الفتى ! ولكن اذا كان جميع تفكير جميع الروس هو هذا التفكير، فان ... » . ولم يكمل جملته ودخل القصر . وأسرعت اختلط بحاشيته وأركض وراءه . فكان رجال الموكب يفسحون لى طريقاً منذ ذلك الوقت، لأنهم أصبحوا يعدونني أثيراً عنده ، محبباً الى قلبه . حدث هذا كله فى طرفة عين ... ولكننى أتذكر أن الامبراطور ، حين بلغ القاعة الأولى ، توقف فجأة أمام صورة الامبراطورة كاترين ، فتأملها ملياً شارد الذهن حالمَ الهيئة ، وهتف يقول أخيراً : « كانت امرأة عظيمة ! » . ثم مضى فى طريقه .

« ما انقضى يومان الا كان كل من فى القصر وفى الكرملن يعرفوننى.

وكانوا يلقبونني « النبيل الصغير » (بالفرنسية) . وكنت لا أرجع الى البيت الا لقضاء الليل . وكاد أهلي أن يجنوا من ذلك . وغداة غد مات وصيف نابوليون ، البارون بازانكور ، مرهقاً من المشاق التي عاناها أثناء الحملة . فتذكرني نابوليون ، فجاءوا يبحثون عني ويأخذونني دون أي شرح أو تفسير . ألبسوني بزة المتوفى الذي كان فتى في الثانية عشرة من العمر ، وأدخلوني على الأمبراطور مرتدياً تلك البزة . فأومأ برأسه ، فأبلغوني عندئذ أنني فزت برضى الامبراطور عن تسميتي وصيفاً لصاحب الجلالة . شعرت بسعادة ، لأنني كنت أحس منذ زمن طويل بعاطفة قوية نحوه ... ثم ... لا شك أنك تقدّر ما في البزة اللامعة من قوة الاغراء لطفل . أصبحت أرتدي فراكاً أخضر قاتم الخضرة ، تزينه أزرار مذهبة، مع ذيول ضيقة طويلة وأكمام ذات حواش حمراء ؛ وكانت تطريزات الذهب تغطي الحواف والأكمام والياقة ، وكانت الياقة عالية مستقيمة مفتوحة . أما السروال فملتصق بالجسم ، أبيض اللون ، مصنوع من جلد الشاموا ؛ وفوق السروال صديرة من حرير أبيض ؛ والجوربان من حرير أيضا ، وللحذاءين عرى وأزرار ... فاذا قام الامبراطور بنزهة على الحصان وكنت أنا في حاشيته ، أُلبست حذاءين لهما ساقان عاليان على طريقة الفرسان . ورغم أن الحالة لم تكن حسنة ، ورغم أن كوارث ضخمة كانت متوقعة ، فقد كانت قواعد الآداب تراعي مراعاةً صارمة في حدود الامكان ، حتى لقد كانت الدقة في مراعاتها على قدر قوة الاحساس بأن الكوارث قريبة .

تمتم الأمير يقول بلهجة تكاد تكون يائسة :

ـ نعم ، طبعاً ... لا شك أن مذكراتك سيكون لها شأن .

أغلب الظن أن الجنرال كان يردد على مسامع الأمير ما قاله أمس لصاحبه ليبديف . فلذلك كانت أقواله تسيل غزيرة . لكنه في تلك

اللحظة ألقى على الأمير نظرة جديدة فيها ارتيـاب . ثم استأنف كلامه يقول بمزيد من الكبرياء :

ـ مذكراتي ؟ تكلمني عن تدوين مذكراتي ؟ ان هذا لم يغرني يا أمير ! أو قل ان شئت انها مدوّنة منذ الآن ، ولكنني أخفيها مقفلاً عليها بالمفتاح . فلتُنشر بعد أن يغطي التراب عينيّ . ولسوف تترجم عندئذ الى عدة لغات حتماً ، لا لقيمتها الأدبية طبعاً ، بل لخطورة الأحداث الضخمة التي كنت شاهد عيان لها ، رغم أنني طفل . بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك : ان صغر سني هو الذي أتاح لي أن أنفذ الى أخفى خفايا ما يجري في غرفة « الرجل العظيم » ! كنت في الليل أسمع أنات ذلك « العملاق في الشقاء » . لم يكن ثمة سبب يدعوه الى اخفاء أناته ودموعه عن طفل ، رغم انني كنت قد أدركت أن سبب عذابه هو صمت الامبراطور الكسندر .

قال الأمير خَجِلاً :

ـ صحيح . لقد كتب اليه رسائل ... ليعرض عليه الصلح .

ـ الواقع أننا لا نعرف ماذا تضمنت رسائله من عروض ، ولكنه كان يكتب كل يوم ، في كل ساعة ، رسالةً تلو رسالة ! كان مضطرباً اضطراباً رهيباً . وكنا وحيدين في ذات ليلة من الليالي فأسرعت اليه مخضلّ العينين بالدموع (آه ... كم كنت أحبه !) وقلت له صارخاً : « اطلب المغفرة من الامبراطور الكسندر ، اطلب عفوه » . كان يجب عليّ طبعاً أن أقول : « اعقد صلحاً مع الامبراطور الكسندر » ، لكنني طفل ، فكنت أعبّر عن تفكيري كله بسذاجة . أجابني وهو يذرع الغرفة طولاً وعرضاً : « آه يا بني ! آه يا بني ! أنا مستعد لأن ألثم قدمي الامبراطور ألكسندر ، (لكأنه نسي أنني لا أبلغ من العمر الا عشرة أعوام ، حتى لقد كان يجد لذة في محادثتي) ولكنني في مقابل ذلك قد نذرت كرهاً خالداً ومقتاً أبدياً لملك بروسيا وامبراطور النمسا ، و ..

على كل حال ... أنت لا تفهم من أمور السياسة شيئاً » . لكأنه تذكر فجأة أنه يخاطب طفلاً ، فصمت ، ولكن عينيه ظلتا ترسلان شرراً خلال مدة طويلة . فتصور الآن ، تصور أنني أدوّن هذه الوقائع كلها ، أنا الذي شهدت أضخم الأحداث ، وأنني أنشرها : وتصور عندئذ انواع النقد وصنوف الغرور الأدبي ، وألوان الحسد ، وروح التحيز ، و ... آه ... لا ... لا ... أشكرك أجزل الشكر ! » .

أجاب الأمير برقة ولطف بعد لحظة تفكير :

ـ فيما يتعلق بروح التحيز ، فانك على حق تماماً ، وأنا أؤيد قولك كل التأكيد . من ذلك انني قرأت في الآونة الأخيرة كتاب شاراس * عن معركة واترلو . ان الكتاب جاد ولا ريب . والاختصاصيون يقطعون بأن كاتبه مطلع اطلاعاً واسعاً . ولكنك تلاحظ في كل صفحة من صفحاته تلذذاً بخفض قيمة نابوليون . حتى لكأن المؤلف كان يمكن أن يسره أعظم السرور أن ينكر على نابوليون أي ظل لموهبة ، حتى في المعارك الأخرى . فلا شك أن هذا التحيز لا يليق بكتاب جاد الى هذا الحد . هل كان وقتك كله مشغولاً بالعمل قرب ... الامبراطور ؟

طار الجنرال فرحاً . ان ملاحظة الأمير هذه قد بدّدت بما فيها من رصانة وبساطة آخر ما كان يساوره من شكوك .

ـ شاراس ! آ ... أنا أيضاً ، أثار استيائي ، حتى لقد كتبت اليه عندئذ ، ولكنني لا أتذكر الآن على وجه الدقة ... أتسألني هل كان عملي يستغرق كل وقتي ؟ لا ، لا ! لقد سُميت وصيفاً للامبراطور ، لكنني منذ ذلك الحين لم آخذ الأمر مأخذ الجد ؟ ثم ان نابوليون لم يلبث أن فقد كل أمل في تقارب بينه وبين الروس ؟ وكان لا بد له والحالة هذه من أن ينساني ، لأنه لم يجتذبني اليه في الأصل الا لأغراض سياسية ، هذا اذا لم يكن قد تعلق بي تعلقاً عاطفياً شخصياً مع ذلك ... الآن أقول هذا

صراحة . أما أنا فان القلب هو الذى كان يدفعنى اليه . ولم أكن أطالب بعمل . كل ما هنالك اننى كان علىّ أن أجىء الى القصر من حين الى حين ، وأن أصحب الامبراطور فى نزهاته على الحصان . ذلك كل شىء . كنت أجيد ركوب الخيل . وقد اعتاد أن يخرج الى النزهة قبل العشاء . وكانت حاشيته تتألف من دافو ، والمملوك رستان ، وأنا ..

أضاف الأمير على غير شعور منه تقريباً !

ـ وكونستان أيضاً .

فقال الجنرال :

ـ لا ، لم يكن كونستان من الحاشية . كان قد ذهب يحمل رسالة ... الى الامبراطورة جوزيفين . فحلّ محله ضابطان من ضباط الحرس، وبضعة فرسان بولنديين . تلك كانت حاشيته كلها ، بالاضافة ـ طبعاً ـ الى الجنرالات والمارشالات الذين كان نابوليون يصطحبهم لدراسة الأرض وتوزيع الجيوش ، ولاستشارتهم . واذا صدقت ذاكرتى الآن ، فان دافو هو الذى يصحبه أكثر من أى شخص آخر : كان دافو ضخم الجسم بديناً ، وكان هادىء الطبع بارد الأعصاب ، وكان يضع على عينيه نظارتين، وكانت له نظرة غريبة ... فمع دافو انما كان الجنرال يحب أن يتشاور أكثر مما كان يحب أن يتشاور مع أى شخص آخر . كان يحترم آراءه. أذكر أنهما فى ظرف من الظروف ظلا يبحثان معاً خلال عدة أيام متتالية. كان دافو يأتى صباحاً ومساءً ، وكانت تجرى بينهما مناقشات كثيرة . وأخيراً بدا أن نابوليون أصبح على أهبة أن يسلم. كانا فى المكتب معاً . وكنت أنا ثالثهما ، ولكنهما كانا لا ينتبهان الىّ ؟ ووقع بصر نابوليون علىّ مصادفة على حين فجأة، فانعكست فى عينيه فكرة غريبة. فقال يسألنى بغتةً : « ما رأيك أيها الصبى ؟ أئذا اعتنقت الديانة الارثوذكسية وحررت أقنانكم ، يتبعني الروس ؟ » فهتفت أقول له مستاءً : « لن يتبعوك في يوم

من الأيام ! » . شُده نابوليون من جوابى . قال : « فى وميض الوطنيه الذى التمع فى عينى هذا الصبى ، قرأت الآن رأى الشعب الروسى كله. كفى يا دافو ! ما هذا كله الا خيال ! أرنى مشروعك الآخر ! » .

قال الأمير مهتماً اهتماماً قوياً :

ـ لكن ذلك المشروع الذى عدل عنه يشتمل على فكرة عظيمة . هل تعتقد أن ذلك المشروع كان من صنع دافو ؟

ـ اتفقا عليه فى أقل تقدير . لا شك أن الفكرة جاءت من نابوليون. انها فكرة نسر . ولكن المشروع الثانى كان يشتمل أيضاً على فكرة ... انه مشروع « مجلس الأسد » * المشهور ، كما سمى نابوليون ذلك المشروع فيما بعد ؛ وهو أن يعتصم بالكرملن مع الجيش كله ، وأن يقيم فيه أبنية من خشب ، ومتاريس قوية ، وأن يصف فيه سريَّات مدفعية ، وأن يذبح أكبر عدد من الخيول ليصنع من لحومها قديداً ، ثم أن يغتصب من السكان جميع ما لديهم من غلال ليستطيع الصمود حتى الربيع . فاذا طلع الربيع حاول أن يشق طريقاً بين الروس . ولقد فُتن نابوليون بهذه الخطة . فكنا نقوم كل يوم بجولات على صهوات الخيل حول الكرملن ، فيشير نابوليون الى الأماكن التى يجب فيها الهدم ، والى المواضع التى ينبغى فيها البناء ، والى حيث يجب وضع نظارة ، أو الى حيث يجب تعزيز تحصين أو الى حيث يجب اقامة أبراج . ما كان أسرع خاطره وأثبت بصره وأحزم قراره ! وسوَّى أخيراً كل شىء . وكان دافو يلح من أجل أن يصدر اليه الأمر الحاسم النهائى. وعادا يجتمعان فى خلوة لا يشاركهما فيها ثالث غيرى . وعاد نابوليون يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، عاقداً ذراعيه على صدره . فكنت لا أستطيع أن أحول عينىَّ عن وجهه ، وكان قلبى يخفق خفقاناً قوياً . قال دافو : « أنا ماض أباشر العمل » . فسأله نابوليون : « الى أين ؟ » ، فأجاب دافو : « آمر بتمليح القديد ». فارتجف

نابوليون • كان المصير يتقرر • سـألنى نابوليون فجـأة : « ما رأيك فى خطتنا يا فتى ؟ » • طبيعى أنه وجـّه الىَّ هذا السؤال كما يعمد عقل عظيم فى آخر لحظة الى استعمال طريقة « اليانصيب » • فبدلاً من أن أجيب نابوليون التفت نحو دافو وقلت له بما يشبه الوحى أو الالهام : « سافروا الى بلادكم بسرعة يا جنرال » • تهدَّم المشروع • هزَّ دافو كتفيه وخرج مدمدماً : « أمر عجيب • أصبح يؤمن بالخرافات * » • وفى الغداة صدر الأمر بالانسحاب •

قال الأمير بصوت خافت جداً :

ـ هذا كله شائق جداً ••• اذا كانت الأمور قد جرت هنا على هذا النحو •••

ثم أسرع يقول مصححاً بقوة :

ـ بل قل ••• أقصد •••

كان الجنرال قد بلغ من النشـوة بالقصـة التى رواهـا أنه أصبح لا يستطيع أن يحجم عن التورط فى أى تهور • وها هو ذا يهتف قائلاً :

ـ آ ••• أمير ••• انك تقول : « اذا كانت الأمور قد جرت هنا على هذا النحو ••• » • ولكننى أقسم لك صادقاً لا حانثاً أن ما قصصته عليك هو أقل من الواقع ، أقل من الواقع ، أقل كثيراً من الواقع ! ان كل ما رويته لك لا يتصل الا بأمور سياسية يسيرة الشأن • غير أننى أكرر أننى قد شهدت الدموع يسكبها فى الليل ذلك الرجل العظيم ، وسمعت الأنات تخرج من صدره فى جوف الظلام • ما من أحد يستطيع أن يروى ما أروى وأن يصف ما أصف• صحيح أنه أصبح فى نهاية الأمر لا يبكى، فقد نضبت دموعه ، وأصبح لا يزيد على أن يئن من حين الى حين • وكان وجهه يزداد عبوساً وجهامة ، واكفهراراً وتقطيباً• لكأن الأبدية قد مدَّت

جناحها عليه منذ ذلك الحين . وكنا في بعض الأحيان نقضي في الليل ساعات بكاملها وحيدين صامتين ، بينما المملوك روستان يغط بالغرفة المجاورة في نوم عميق . ألا ما كان أعمق نوم ذلك الرجل ! وكان نابوليون يقول اذا تحدث عنه : « لكنه في مقابل ذلك مخلص لي وفيّ لعرشي ! » .

« وفي يوم من الأيام كنت مثقل القلب ، فرأى الامبراطور دموعاً في عيني . فنظر اليّ بحنان وقال متعجباً : « تشاركني أحزاني ؟ لعلك الولد الوحيد الذي يشاطرني ألمي ، عدا ابني ، ملك روما * . أما الآخرون فانهم جميعاً يكرهونني . حتى اخوتي سيكونون أول من يخونونني أمام أعدائي » . فأخذت أبكي ناشجاً وهرعت اليه ، فأصبح لا يستطيع كظم ما في نفسه ، فتعانقنا وامتزجت دموعنا . قلت له باكياً : « اكتب رسالةً الى الامبراطورة جوزفين » . فارتعش نابوليون ، وفكّر لحظةً ، ثم قال يجيبني: « لقد ذكّرتني بالقلب الثالث الذي يحبني. شكراً ياصديقي! »» وكتب على الفور رسالةً الى جوزيفين حملها كونستان في الغداة .

قال الأمير :

ـ أحسنت جداً . فانك ، في وسط الأفكار السيئة التي كانت تغزوه وتحاصر نفسه قد أيقظت في قلبه عاطفة جميلة نبيلة .

هتف الجنرال يقول متحمساً :

ـ تماماً ! ما أحسن تعبيرك عن هذا وأنت تستسلم لاندفاعات قلبك !

والأمر الغريب أن دموعاً قد انبجست عندئذ من عينيه حقاً حينذاك. وتابع كلامه يقول :

ـ نعم يا أمير ، كانت لذلك المشهد عظمته . هل تعلم أنني أوشكت أن أصحبه الى باريس ؟ ولو فعلت ذلك لتبعته حتماً الى « منفاه في الجزيرة

المدارية * » . ولكن مصيرينا كانا مفترقين ، وا أسفاه ! فانفصلنا ، فأما هو فرحل الى تلك الجـزيرة المدارية التى لعله تذكر فيها ، أثنـاء لحظة من لحظات حزن قاس وألم ممض ، دموع ذلك الفتى المسكين الذى عانقه وسامحه بموسكو ؟ وأما أنا فأُرسلت الى مدرسة الضباط الفتيان حيث لم أجد الا نظاماً قاسياً ورفاقاً غلاظاً ... وا أسفاه !... وانهار كل شيء بعد ذلك !...

« لقد قال لى نابوليون فى يوم الانسحاب : « لا أريد أن انتزعك من أمك لأصطحبك . لكننى أتمنى أن أفعل شيئاً لك . » . وكان قد امتطى صهوة جـواده . فقلت له خجلان : « اكتب لى كلمـةً فى ألبوم أختى للذكرى » ؛ ذلك أنه كان مظلم الوجه شديد الاضطراب . فعاد أدراجه، وطلب منى قلماً ، وتناول الألبوم ، وقال يسألنى ممسكاً بالقلم : « كم عمر اختك ؟ » فأجبته : « ثلاث سنين » فقال : « هى اذن بنت صغيرة * » . وكتب على الألبوم :

اياك والكذب *

نابوليون ، صديقك المخلص *

أرأيت يا أمير ؟ نصيحة كهذه النصيحة ، فى لحظة كتلك اللحظة.. ما رأيك ؟

قال الأمير :

ـ نعم ... لهذا دلالته البليغة !...

ـ وقد وضـعنا تلك الورقة من الألبـوم وراء زجاج فى اطار . واحتفظت بها أختى طوال حياتها فى صالونها ، معلقةً اياها فى أكرم مكان من منزلها . وماتت أختى أثناء ولادة ... ومنذ ذلك الحين لا أدرى ماذا حلّ بتلك الورقة .. ولا أين صارت !... ياه !... الساعة الآن هى الثانية ! ... لقد احتجزتك مدة طويلة يا أمير ! ذلك أمر لا يُغتفر .

تمتم الأمير يقول :

ـ بالعكس ... لقد أسرت لبى ... و ... وان لما رويته لقيمة كبيرة ، فأنا ممتن أشد الامتنان .

مرةً أخرى شدّ الجنرال على يد الأمير شداً قوياً الى حد الايلام. وحدّق اليه بعينين ساطعتين ووجه انسان ثاب الى نفسه فجأة وومضت في رأسه فكرة مباغتة . قال :

ـ يا أمير ، انك تبلغ من طيبة القلب وبساطة العقل أنني أشفق عليك في بعض الأحيان . انني أتأملك بعاطفة وحنان . أسأل الله أن يباركك ! انني أتمنى لك أن تبدأ حياتُك أخيراً وأن تزدهر .. في الحب . أما حياتي أنا فقد انتهت ! آه ... مغفرة ! مغفرة !

وأسرع يخرج مخفياً وجهه في يديه .

لم يستطع الأمير أن يشك في صدق انفعال الجنرال . وقد أدرك أيضاً أن الشيخ انصرف منتشياً بما حقق من نجاح . ولكنه كان يحس احساساً غامضاً بأنه ازاء واحد من أولئك المتشدقين الذين يبلغون من تلذذهم بكذبهم أنهم ينسون أنفسهم ولكنهم يظلون مع ذلك فيأشد حالات نشوتهم يشعرون شعوراً صميماً بأن الناس لا يصدقونهم ولا يمكن أن يصدقوهم . لقد كان الشيخ ، وهو في مثل تلك الحالة النفسية ، يمكن أن يعود الىنفسه وأن يثوب الى رشده بعد تلك النوبة من نوبات الكذب الذي لا حياء فيه ، فيشعر بأنه قد أهين اذا هو تصوّر أن الأمير أحس نحوه بشفقة شديدة . لذلك تساءل الأمير قلقاً : « ألم أرتكب خطأً حين تركت له أن يتحمس ذلك التحمس وأن يندفع ذلك الاندفاع ؟ » . وما هي الا لحظة حتى انطلق الأمير يضحك على حين فجأة ضحكاً استمر عشر دقائق. وأوشك بعد ذلك أن يلوم نفسه على ذلك المرح الشديد والضحك القوي،

لكنه عدل عن رأيه وأدرك أنه ما ينبغي له أن يؤاخذ نفسه على شيء ، ما دام يحمل للجنرال ذلك العطف كله وتلك الشفقة كلها .

وقد صدقت تنبؤاته . ففي ذلك المساء نفسه تلقى من الجنرال بطاقة غريبة هي رسالة مقتضبة لكنها جازمة ، فيها يعلن له الجنرال أنه يقطع صلته به الى الأبد ، فهو ما يزال يضمر له الاعتبار والشكر ، ولكنه يرفض من جهته أن يقبل « تلك الشفقة التي تقتل كرامة انسان عانى حتى الآن من صنوف الخطوب وأنواع المحن ما يكفيه » .

حين علم الأمير أن الجنرال أصبح يعيش معتكفاً عند نينا ألكسندروفنا زال قلقه عليه تقريباً . ولكن الجنرال ، كما أسلفنا ، مضى يفعل جرسة عند اليزابت بروكوفيفنا . اننا لا نستطيع أن نروى هنا تفاصيل ما وقع . وحسبنا أن نشير بكلمتين الى موضوع الحديث الذى جرى بينهما . ان اليزابت بروكوفيفنا ، بعد أن روّعتها ثرثرات الجنرال التي تشبه أن تكون هذياناً ، قد استبد بها استياء قوى حين سمعته يبدى آراء شديدة المرارة فى حق جانيا . فلم يكن منها الا أن أمرت باخراجه من البيت مطروداً مجللاً بالعار . لذلك قضى الليل كله والصباح مهتاجاً اهتياجاً بلغ من الشدة أنه فقد كل سيطرة على نفسه فاذا هو يندفع فى الشارع أخيراً كأنما اصابه جنون .

كان كوليا لا يدرك ما يجرى الا بعض الادراك ، وكان لا يزال يأمل أن يؤثر فى أبيه بالتخجل . قال له :

ـ هيه ! أين سنطوّف الآن ؟ ما رأيك يا جنرال ؟ ألا تريد أن تذهب الى الأمير ؟ لقد حدث شقاق بينك وبين ليبديف . وليس معك مال . وأنا لا يكون معى مال أبداً . وها نحن فى وسط الشارع نخبط خبط عشواء !

قال الجنرال مدمدماً :

ــ لأن يكون المرء مع نساء ، خير من أن يخبط هنا وهنــاك خبط عشواء • لقد كفلت لى هذه القافية * نجاحاً قوياً ••• فى نادى الضباط سنة ٤٤ ••• نعم سنة الف وثمانمائة •• وأربع وأربعين !•• أصبحت لا أتذكر على وجــه الدقة •• آه •• اننى لا أتذكر •• لا أتذكر ••• لا تحدثنى فى هذا الأمر • « أين شبابى ؟ أين شبابى ؟ أين نضارتى ؟ » كما كان يهتف ••• من الذى كان يهتف بهذا يا كوليا ؟

ــ نعم ••• هذه كلمات مستمدة من كتاب جوجول «النفوس الميتة» يا أبتِ •

بهذا أجاب كوليا وهو يرمق أباه بنظرة سريعة قلقة •

قال الجنرال :

ــ النفوس الميتة ؟ آ ••• نعم •• الميتة ! ••• حين ستدفنوننى ، اكتب على قبرى : « هنا ترقد نفس ميتة ! » •

« العار يلاحقنى فى كل مكان »

ــ من قال هذا يا كوليا ؟

ــ لا أعرف يا ابتاه !

ــ يا روبياجوف لم يوجد ! يا روشكا ياروبياجوف !••

كذلك صاح يقــول الجنرال بلهجة حانقــة وهو يقف فى وســط الشارع • وتابع كلامه قائلاً :

ــ ان ابنى ، ابنى نفســـه هو الذى يــكذّبنى هــذا التــكذيب • ياروبياجوف الذى ظل لى أخاً حقاً خلال أحد عشر شهراً ، والذى من أجله خضت تلك المبارزة ••• لقد قال له رئيســنا الأمير فيجورتسكى ،

ذات يوم ، بينما كنا نشرب : « اسمع أنت يا جريشا* ! وددت لو أعرف من أين حصلت على صليبك ، صليب القديسة آنا ؟ » فأجابه قائلاً : « من ساحات معارك وطنى انما حصلت عليه ! » • وهتفت أنا أقول : « مرحى ياجريشا ! » • فكان ذلك سبب مبارزة • ثم تزوج ••• ماريا بتروفنا ••• سوتوجين ، وقُتل بعد ذلك فى ميدان القتال •• لقد وثبت رصاصة عن الصليب الذى كنت أحمله على صدرى ، وثبت الى جبينه فقتلته • وهتف قائلاً قبل أن يموت : « لن أنسى أبداً » ثم سقط ميتاً • اننى خدمت ••• خدمت وطنى بشرف يا كوليا ، خدمت وطنى بنبل واخلاص ••• ولكن « العار يطاردنى فى كل مكان ! » • ستأتيان أنت وأمك الى قبرى ••• « نينا المسكينة » ، كذلك كنت أسميها فى الماضى يا كوليا ، منذ زمن طويل ، فى الآونة الأولى ، وكان ذلك يسرها ••• نينا ! نينا ! ماذا صنعت بحياتك ؟ كيف يمكنك أن تحبينى ، أيتها النفس الصابرة المذعنة ؟ ان أمك لها نفس ملاك يا كوليا • هل تسمعنى ؟ ان لها نفس ملاك !

ــ أعرف هذا يا بابا ! حبيبى بابا ! فلنعد الى البيت ، الى ماما ! لقد أرادت أن تركض وراءنا • لماذا تتردد ؟ لكأنك لا تدرك ••• كفى يابابا ! لماذا تبكى ؟

وكان كوليا نفسه يبكى ويلثم يدى أبيه •

قال له أبوه :

ــ أتلثم يدىّ أنا ؟

ــ نعم ، يديك أنت ، يديك أنت ! أفى هــذا ما يدهش ؟ كفى ، كفى ! ما بالك تبكى فى وسط الشارع ، أنت الجنرال ، أنت المقاتل ، أنت رجل الحرب ؟ تعال !

ــ بارك الله فيك يا بنى الصغير ، لأنك ما تزال تحترم أباك الشيخ الساقط ، رغم العار ، رغم العار الذى يجلله ! أسأل الله أن يجعل لك

ولدا مثلك ... « ملك روما » * ... اه ... « ألا فلتحل لعنة الله على هذا المنزل !.. » .

صاح كوليا مندفعاً يقول :

ـ ولكن ماذا جرى ؟ ماذا حدث ؟ لماذا اصبحت لا تريد ان تعود الى البيت ؟ هل فقدت عقلك ؟

ـ سوف أشرح لك ، سوف أشرح لك ... سوف أقول لك كل شيء . لا تصرخ ، والا سمعنا الناس ... « ملك روما » * .. أواه ! انني احس باشمئزاز وحزن .

« اين قبرك يا من ارضعتني ؟ »

من قائل هذا يا كوليا ؟

ـ لا أعرف من ذا الذي أمكن أن يقول هذا الكلام . فلنذهب فورا الى البيت ، فوراً !. لأحطمن جانيا اربا اربا اذا لزم الأمر ... ولكن الى أين تمضي أيضاً ؟

كان الجنرال يجره نحو درجات المدخل من منزل مجاور .

ـ الى أين تذهب ؟ ليس هذا البيت بيتنا !

كان الجنرال قد جلس على درجات المدخل جاذباً اليه كوليا من يده ، ودمدم يقول له :

ـ انحن عليّ ، انحن عليّ ... سأقول لك كل شيء ... سأشرح لك عاري ... مِل عليّ ... اصغ بسمعك اليّ ... سأقول لك ذلك في أذنيك .

صاح كوليا يقول مرتاعاً ، ولكنه يصيخ بسمعه مع ذلك :

ـ ماذا أصابك ؟ ما الذي حلّ بك ؟

قال الجنرال مدمدماً وهو يرتجف ارتجافاً شديداً :

ـ « ملك روما » ...

ـ ما هذا الذي تقول ؟ ماذا دهاك حتى أخذت تتحدث عن ملك روما طول الوقت ؟ ... ما معنى هذا ؟

عاد الجنرال يتمتم قائلاً وهو يتشبث بكتف « صغيره » مزيداً من التشبث :

ـ أ ... أ ... أ ... أريد .. أريد أن أقول لك كل شيء .. ماريا .. ماريا .. بتروفنا .. سو .. سو .. سو ..

تخلص كوليا من عناقه وأمسكه من كتفيه ونظر اليه مشدوهاً . كان العجوز قد احمر وجهه احمراراً شديداً ، وازرقت شفتاه وأخذت تلم بوجهه تشنجات خفيفة. وتهاوى فجأة متهالكاً على ذراعي كوليا برفق.

فأعول كوليا صارخاً في اتجاه الشارع :

ـ سكتة قلبية .

لقد أدرك الواقع أخيراً .

الفصل الخامس

الواقع أن باربارا آرداليونوفنا ، حين حدثت أخاها ، قد بالغت بعض المبالغة فى ادعاء الصحة والدقة للمعلومات التى توافرت لديها عن خطبة الأمير وآجلايا ايبانتشينا • من الجائز أيضاً أن تكون من شدة حسرتها على تبدد حلم ساورها (حلم لعلها لم تصدقه هى نفسها فى يوم من الأيام) لم تستطع أن تمنع نفسها عن التمتع بتلك اللذة التى يستطيبها الطبع البشرى وهى لذة تضخيم الشقاء الذى ألمّ والكارثة التى نزلت ، وأن تسكب فى قلب أخيها قطرة جديدة من مرارة • ومهما يكن من أمر ، فانها ما كانت لتستطيع أن تحصل من صديقاتها ، الآنسات ايبانتشين ، على معلومات تبلغ ذلك المبلغ من الوضوح والدقة • فان الأمر قد اقتصر على اشارات ، وجمل ناقصة لم تكتمل ، ووقفات عن الكلام وصمت ، وألغاز أسرار • من الجائز كذلك أن تكون أختا آجلايا قد اندفعتا متعمدتين فى البوح ببعض الأمور بغية أن تستدرجا باربارا آرداليونوفنا الى الكلام وأن تستخرجا منها شيئاً • وليس بالمستبعد على كل حال أن تكونا قد انقادتا لتلك اللذة التى يستطيبها طبع النساء فناكدتا صديقتهما قليلاً رغم أنها من صديقات طفولتهما حقاً • فلا بد أنهما قد أدركتا ، بعد كل ذلك الوقت ، الهدفَ الذى كانت تسعى اليه المرأة الشابة ، أو بعض هذا الهدف على الأقل •

ومن جهة أخرى ، فلعل الأمير قد أخطأ هو نفسه ، ولو عن سلامة

نية ، حين زعم لليديف أنه ليس ثمة ما ينقله اليه أو يبلغه اياه وأن حياته لم يطرأ عليها أى شىء خاص . الواقع أن كل واحد كان ازاء ظاهرة غريبة . لا شىء حدث فعلاً ، ولكن جميع الأمور تجرى كما لو كان قد حدث أمر هام جداً . ذلك ما حزرته باربارا آرداليونوفنا بما تملك من غريزة المرأة وصدق حدسها الذى لا يخطىء .

من الصعب جداً مع ذلك أن نعرض عرضاً منطقياً كيف أدرك جميع أفراد أسرة ايبانتشين ، فى وقت واحد ، أن حدثاً هاماً قد طرأ على حياة آجلايا وأنه سيقرر مصيرها . ولكنهم ، منذ أن قامت هذه الفكرة فى أذهانهم ، قد أحسوا جميعاً ، على الفور ، أنهم كانوا قد توقعوا هذا الأمر بل تنبأوا تنبؤاً واضحاً بهذا الاحتمال الذى أصبح جلياً منذ حادثة « الفارس الفقير » ، وربما قبل ذلك ؛ غير أنهم كانوا يرفضون فى ذلك الأوان أن يصدقوا سخافة كهذه السخافة .

ذلك ما كانت تؤكده أختا آجلايا . وطبيعى أن اليزابت بروكوفيفنا كانت قد تنبأت بكل شىء وفهمت كل شىء قبل غيرها ، « حتى أن قلبها شعر من ذلك بألم شديد » . ولكن سواء أكان ذلك الادراك النافذ قد تأتى لها منذ مدة طويلة أم قصيرة ، فان الأمير قد أصبح لا يوقظ فى ذهنها الا فكرة منفّرة غير محببة ، لأنها فكرة تحيّر عقلها . كان هناك سؤال يقتضى حلاً على الفور . ولكن المسكينة اليزابت بروكوفيفنا لم تكن عاجزة عن حل هذا السؤال حلاً حاسماً فحسب بل كانت عاجزة كذلك حتى عن طرحه على نفسها طرحاً واضحاً . ان الأمر حرج دقيق : « هل الأمير زوج مناسب للفتاة أو لا ؟ هل المشروع حسن أم هو سىء ؟ واذا كان سيئاً (وذلك ما كان يبدو ثابتاً لا سبيل الى الشك فيه) فلماذا هو سىء ؟ واذا كان حسناً (وهذا يبدو ممكناً كذلك) فما هو الأساس الذى يمكن بناء هذا الحكم عليه ؟ » .

أما رب الأسرة ، ايفان فيدوروفتش ، فقد أظهر دهشته في أول الأمر طبعاً ، ثم اعترف يقول انه « في الحقيقة قد اشتبه هو أيضاً في المسألة وانه كان يحس أن هناك شيئاً ما ، طوال تلك المدة ، ولو من حين الى حين أو في الفينة بعد الفينة » ! واذ شعر بثقل نظرة قاسية كانت زوجته تلقيها عليه ، سكت عن الكلام ولم يزد شيئاً . ولكن ذلك لم يدم الا نهاراً ، ذلك أنه اذ خلا الى امرأته في المساء ورأى نفسه مضطراً الى أن يتكلم ، عزم على أن يشرح ما بنفسه ، وتجرأ فأبدى آراء لم تكن متوقعة. قال : « ما هو الأمر في الواقع ؟ ... (برهة صمت) ... لا شك أن هذا كله عجيب غريب اذا صح أنه صادق فعلاً ... (برهة صمت أخرى) .. ومن جهة ثانية ، اذا نظرنا الى الأمور نظرة سليمة وواجهناها مواجهة صحيحة ، رأينا أن الأمير فتى طيب جداً ، والله !... ثم ... ثم ... انه يحمل اسماً ينتمي الى أسرتنا . وذلك كله من شأنه ... أن يعلي مقام اسمنا في المجتمع ... من وجهة نظر المجتمع طبعاً ... لأن.. على كل حال .. المجتمع هو المجتمع !.. ثم ان الأمير ، مهما يكن من أمر ، يملك ثروة ، وان لم تكن ثروة طائلة .. انه .. و .. و .. » .

هنا نضبت بلاغة ايفان فيدوروفتش ونفدت فصاحته ، فسكت عن الكلام .

وثارت ثائرة اليزابت بروكوفيفنا وخرجت عن طورها اذ رأت زوجها ينظر الى الأمور هذه النظرة . كان رأيها أن كل ما جرى انما هو « حماقة لا يمكن اغتفارها ، بل حماقة مجرمة ، بل خيالات سخيفة دنيئة . » . فمن جهة أولى يجب أن نتذكر أن هذا « الأمير الصغير رجل مريض ، رجل أبله . ويجب أ ن نتذكر من جهة ثانية أنه انسان غبي لا يعرف المجتمع ولا يستطيع أن يكون له فيه مكان : لمن نقدّمه ؟ الى أين ندخله ؟ هذا شخص ديموقراطي غير لائق ، محروم من كل رتبة

طبقية ... ثم ... ثم ... ما عسى تقول بيلوكونسكايا ؟ أهذا هو الزوج الذى حلمنا به لابنتنا آجلايا ؟ » .

وكانت هذه الحجة الأخيرة قاطعة دامغة بطبيعة الحال . لقد كان قلب الأم ينزف ويرتعش حين تخطر ببالها هذه الفكرة التى تستهطل دموع عينيها ، رغم أن ذلك القلب نفسه ، كان يصعد منه ، فى اللحظة نفسها ، صوت يسألها : « فى أى شىء لايستحق الأمير أن يكون الصهر المنشود ؟» كانت اعتراضات ضميرها نفسه هى التى تبث فى اليزابت بروكوفيفنا أكبر الهم وأشد القلق .

أما أختا آجلايا فكانتا لا تنظران الى زواج آجلايا بالأمير نظرة سيئة ، حتى لقد كانتا لا تريان فيه أية غرابة . الخلاصة أنهما كان يمكن أن تنحازا الى تأييد هذا الزواج انحيازاً مباغتاً لولا أنهما عاهدتا نفسيهما على التزام الصمت . يجب أن نذكر أن المحيطين باليزابت بروكوفيفنا كانوا قد لاحظوا منذ زمن طويل أنها على قدر اصرارها وعنادها وحماستها فى محاربة مشروع من المشروعات العائلية التى يجرى حولها نقاش ، يكون اقتناعها فى كثير من الأحيان بصواب هذا المشروع .

وكان لا يمكن اعفاء الكسندرا ايفانوفنا من أن تقول شيئاً . لقد ألفت أمها منذ مدة طويلة أن تستشيرها وتستنصحها ، فها هى ذى ما تنفك تستوضحها رأيها ، وتسألها عن ذكرياتها خاصة : « كيف جرت الأمور حتى وصلت الى ما وصلت اليه ؟ لماذا لم يلاحظ أحد شيئاً من قبل ؟ كيف لم يجر كلام حول هذا الموضوع ؟ ماذا كانت تعنى تلك المزاحة الدنيئة عن « الفارس الفقير » ؟ لماذا قُضى عليها ، هى اليزابت بروكوفيفنا ، أن تنفرد بحمل الهمّ عن الجميع ، أن تلاحظ كل شىء ، وأن تدرك كل شىء ، بينما لا يزيد الآخرون على أن ينظروا الى الأمور بغير اكتراث ؟ » الخ الخ الخ ...

استمرت ألكسندرا ايفانوفنا على تحفظها فى أول الأمر ، واكتفت بأن ذكرت أنها توافق أباها على رأيه فى أن زواج أمير من اسرة ميشكين وآنسة من آل ايباتنشين أمر يمكن أن ينظر اليه المجتمع نظرة احترام كبير ؛ ثم تشجعت شيئاً فشيئاً وتجاسرت فأضافت الى ذلك أن الأمير ليس رجلاً « محدود العقل » ولا كان محدود العقل فى يوم من الأيام ؛ أما عن وضعه الاجتماعى فلا أحد يستطيع الآن أن يعرف الأسس التى قد يبنى عليها المجتمع ، بعد بضع سنين ، رأيه فى قيمة رجل من الرجال فى روسيا ، لا ولا يستطيع أحد أن يعرف هل ستقاس قيمة الرجل فى المستقبل بما يحققه من نجاح فى وظيفة رسمية أم هى ستقاس بمقياس آخر • فسرعان ما أجابت الأم غاضبةً بأن ألكسندرا فتاة « تحررية » ، وأن الذنب فى ذلك كله انما هو ذنب تلك القضية المشئومة التى يسمونها قضية المرأة » • وما انقضى نصف ساعة حتى مضت اليزابت بروكوفيفنا الى المدينة ، ومنها ذهبت الى كامنى أوستروف * لترى بيلوكونسكايا التى كانت قد وصلت الى بطرسبرج منذ برهة وجيزة ولكنها لا تنوى أن تمكث فيها الا وقتاً قصيراً • لقد كانت الأميرة بيلوكونسكايا عرّابة آجلايا •

أصغت « السيدة العجوز » الى جميع مسارّات اليزابت بروكوفيفنا ، المحمومة اليائسة ، ولكنها بدلاً من أن تؤثر فيها تلك الدموع السخينة التى ذرفتها الأم الحزينة ، وتلك المخاوف الشديدة التى عبّرت عنها الزائرة اليائسة ، لم تزد على أن ألقت نظرة ساخرة مستهزئة • لقد كانت الأميرة بيلوكونسكايا تتصف باستبداد واضح وطغيان قوى • وكانت ترفض أن تساوى بينها وبين الأشخاص الذين تربطها بهم ولو صداقة قديمة • وكانت تتعمد أن تعامل اليزابت بروكوفيفنا معاملتها لامرأة هى « حاميتها » *، كما كانت تفعل ذلك قبل خمسة وثلاثين عاماً ، ولاتستطيع أن تألف ما تبديه هذه من أوضاع فيها اندفاع واستقلال • وقد لاحظت ،

فيما لاحظت ، أن « هاته السيدات يضخّمن الأمور دائماً ، فيجعلن من الذبابة فيلاً ويتصورن الحبة قبة » . ان ما سمعته الآن من اليزابت بروكوفيفنا لا يكفي لاقناعها بأن حادثاً هاماً خطير الشأن قد حدث فعلاً . أليس من الأفضل للمرء أن يصبر وينتظر فيرى ما يجيء به المستقبل ؟ وكان من رأيها أن الأمير « شاب لائق ، وان يكن مريضاً وخيالياً وتافهاً الى أقصى حدود التفاهة ؟ وأنكى ما في الأمر أنه يعول خليلة » . ادركت اليزابت بروكوفيفنا حق الادراك أن الأميرة بيلوكونسكايا كانت متألمةً من الاخفاق الذي مُني به أوجين بافلوفتش رغم أنها زكّته وأوصت به خيراً .

عادت اليزابت بروكوفيفنا الى بافلوفسك وهي أشد حنقاً وأقوى اهتياجاً منها حين تركتها ، وسرعان ما أظهرت ذلك لذويها حين قالت لهم « انهم قد فقدوا عقولهم » ، وان احداً لا يسيّر أموره بهذه الطريقة ، وان ما تراه لا وجود له الا في بيتها . « لماذا هذا التعجل ! ماذا جرى ؟ انني ، مهما أبحث ، لا أجد أي سبب يدعو الى أن نظن أن شيئاً قد وقع بالفعل ! فاصبروا وانتظروا فتروا الأحداث بالأعين ! ان أشياء كثيرة يمكن أن تخطر ببال ايفان فيدوروفتش ! هل يجب أن نجعل من الذبابة فيلاً وأن نتصور الحبة قبة ؟ » ، الخ الخ الخ ...

وكانت النتيجة هي أن عليهم أن يسكنوا وأن يواجهوا الموقف بهدوء وأن يصبروا . ولكن الهدوء لم يدم عشر دقائق ، وا أسفاه ! فان قصة ما جرى في الليلة البارحة ، بينما كانت الأم في كامني أوستروف ، سبَّبت أول اخلال بالقاعدة التي نصحت بها الأم وهي هدوء الأعصاب . (ان زيارة اليزابت بروكوفيفنا للأميرة بيلوكونسكايا قد تمت في الصباح. وفي العشية انما كان الأمير قد جاء بعد نصف الليل ظاناً أن الساعة هي

العاشرة) . فحين سألت الأم بنتيها محمومةً عن هذا الموضوع ذكرت لها أختنا آجلايا تفاصيل كثيرة . لقد قالتا في أول الأمر « ما من شيء حدث البتة » ثم مضتا تسردان ما وقع . قالتا ان الأمير جاء . فجعلته آجلايا ينتظر نصف ساعة قبل أن تظهر له . ثم ما ان دخلت حتى اقترحت عليه أن يلعبا بالشطرنج . وكان الأمير لا يعرف هذه اللعبة فسرعان ما غُلب. وفاضت نفس آجلايا فرحاً بهذا الانتصار ، فعيّرته بجهله ، وبلغت من الضحك عليه أن منظره أصبح يثير الشفقة . ثم اقترحت عليه أن يلعبا بالورق لعبة « المهبول » ، غير أن ما حدث هذه المرة كان نقيض ما حدث قبل ذلك : فان الأمير كان يجيد هذه اللعبة كما يجيدها ... استاذ ! كان فيها أستاذاً حقاً ! وقد لجأت آجلايا الى الغش والاحتيال فكانت تبدل أوراقها خلسةً ، وكانت تسترق النظر الى أوراقه ، ورغم ذلك كله كانت تظل هي « المهبول » ... وتكرر هذا خمس مرات أو ستاً . فغضبت آجلايا غضباً شديداً حتى فقدت كل سيطرة لها على نفسها ، وأخذت تصب على رأس الأمير ألفاظاً تبلغ من الغلظة والنبو والوقاحة أنه كف عن الضحك ، بل اصفر وجهه اصفراراً شديداً حين سمعها تقول « انها لن تطأ قدماها هذه الغرفة ما كان هو فيها ، وان مجيئه اليهن ، في منتصف الليل ، كان وقاحةً منه بعد كل ما جرى * » . وقد قالت آجلايا هذا الكلام ثم خرجت من الغرفة صافقةً وراءها الباب صفقاً أحدث قرقعة شديدة . فانصرف الأمير بوجه كوجه الموتى صفرةً رغم كل ما بذلته الأختان من جهود لملاطفته ومواساته والتسرية عنه .

وبعد انصرافه بربع ساعة عادت آجلايا تنزل من الطابق الأعلى الى الشرفة فجأةً ، وقد بلغت من السرعة والعجلة في نزولها أنها لم يتسع وقتها حتى لمسح عينيها اللتين يرى فيهما الناظر آثار دموع . وانما هرعت هابطةً هذا الهبوط السريع لأن كوليا قد جاء ومعه قنفذ . فأخذت البنات

جميعاً تنظر فى الحيوان الصغير . وسألته عن القنفذ فقال انه ليس له بل لرفيقه بالمدرسة كوستيا ليديف ، وانهما قد اشترياه من فلاح صادفاه ، كما اشتريا من هذا الفلاح فى الوقت نفسه فأساً . وقد بقى كوستيا فى الشارع لأنه لم يجرؤ أن يدخل حاملاً فأسه . وكان الفلاح فى أول الأمر لا يريد أن يبيع الا القنفذ ، وقد طلب خمسين كوبكاً ثمناً له ، ولكنهما أقنعاه بأن يبيع أيضاً فأسه التى يمكن أن تنفعهما والتى كانت فأساً جيدة كل الجودة على كل حال .

أخذت آجلايا تضرع الى كوليا أن يبيعها القنفذ فوراً ، وبلغت من الحاحها أنها خاطبته بقولها : « عزيزى كوليا » ، وقد قاوم الفتى مدة طويلة ، لكنه لم يصمد الى النهاية ، فنادى كوستيا ليديف ، فصعد هذا حاملاً فأسه بيده ، مرتبكا أشد الارتباك . وعلم عندئذ على حين فجأة أن القنفذ ليس لهما ، وانما هو لرفيق ثالث من رفاق المدرسة اسمه بتروف عهد اليهما بمبلغ صغير من المال ليشتريا له به « تاريخ » شلوسر * الذى كان رفيق رابع يحاول أن يبيعه بثمن بخس لحاجته الى المال . فلما مضيا الى شراء الكتاب استسلما للغواية أثناء الطريق ، فاشتريا القنفذ ، فهما الآن يأتيان بتروف بالحيوان والفأس بدلاً من أن يأتياه بكتاب التاريخ الذى ألفه شلوسر . لكن آجلايا بلغت من عنادها فى الاصرار على أخذ القنفذ، أن الصبيين لم يسعهما الا ينصاعا لها فباعاها القنفذ، فما ان امتلكته حتى وضعته بمساعدة كوليا فى سلة مضفورة وغطته بمنشفة وعهدت الى تلميذ المدرسة بأن يحمله الى الأمير على الفور راجيةً منه أن يقبله « هديةً تعبِّر عن عميق تقديرها له » . فقبل كوليا أن يقوم بهذه المهمة مسروراً ، ووعد بأن يتولى انفاذها على أحسن وجه ، ولكنه أسرع يسأل آجلايا عما تعنيه هذه الهدية ، والى أى شىء يرمز القنفذ ؟ فأجابته آجلايا بأن هذا ليس من شأنه ، فردَّ قائلاً ان هدية كهذه الهدية لا بد أن يكون لها دلالة

رمزية، فغضبت آجلايا وقالت له انه صبي شقي مغتر ، لا أكثر من ذلك. فأجابها قائلاً : لولا أنه يحترم فيها المرأة ولولا أن مبادئه تصده لأراها فوراً كيف يستطيع أن يرد اهانة كهذه الاهانة . ولكن ذلك لم يمنعه أخيراً من أن يقوم بالمهمة متحمساً ، فمضى يحمل القنفذ الى الأمير ووراءه كوستيا ليديف . ولم تحقد عليه آجـلايا . فحين رأته يهز السلة هزاً قوياً صاحت تقول له : « أرجوك يا عزيزي كوليا ، حذار أن تسقط السلة من يدك ! » . وكذلك كان شأن كوليا ، فانه هو أيضاً قد نسي انهما قد تشاجرا منذ قليل ، وأسرع يقف ليجيبها متحمساً بقوله : « لا ، لن أدع للسلة أن تسقط من يدي يا آجلايا ايفانوفنا . اطمئني بالاً ! » ثم استأنف سيره بخطى واسعة. وانفجرت آجلايا تضحك ، وعادت تصعد الى غرفتها مشرقة الوجه منبسطة الأسارير ، ولبثت على هذه الحال من انشراح المزاج طوال النهار .

هزت هذه الأنباء اليزابت بروكوفيفنا هزاً قوياً وبث في نفسها اضطراباً شديداً . ولم يكن ثمة داع الى ذلك فيما يبدو . ولكن حالتها النفسية كانت لا تتيح لها أن ترى الأمور رؤية أخرى . لقد بلغ قلقها ذروته . وكان القنفذ هو الذي يذكي هذا القلق خاصة . ما معنى ارسال القنفذ الى الأمير ؟ أليس هذا اشارة متفقاً عليها ؟ أليس اصطلاحاً يضمر معنى خبيثاً ؟ فما هو معناه اذن ؟ هل هذا نوع من البرقية ؟ وقد حضر المسكين ايفان فيدوروفتش مساءلة بنتيه ، فلما أدلى بدلوه محاولاً الاجابة ، أخرج اليزابت بروكوفيفنا عن طورها أخيراً . قال ان ارسال القنفذ لا يشتمل في رأيه على أية رسالة متفق عليها . والأبسط من هذا ان نقول ان « القنفذ قنفذ لا أكثر ، وقد يرمز الى الصداقة ، أو الى نسيان الاساءات ، أو الى المصالحة ، وليس ارساله ، على كل حال ، الا دعابة بريئة ومزاحة طارئة » .

يجب أن نذكر ، عابرين ، أن الجنرال كان على صواب • فان الأمير قد عاد الى بيته ، بعد أن أهانته آجلايا وطردته ، مستسلماً لأعمق اليأس ، فلما رأى كوليا على حين فجأة بعد نصف ساعة من حزن شديد وكرب مظلم ، أضاءت السماء فوراً أمام عينيه ، فكأنه بُعث الى الحياة بعثاً جديداً بعد موت • وأخذ يسائل كوليا متلقفاً كل كلمة تنفرج عنها شفتا الصبى ، مكرراً السؤال الواحد عشر مرات ، ضاحكاً كطفل ، شاداً على يدى التلميذين فى كل لحظة ، وكان الصبيّان يضحكان هما أيضاً ، وينظران اليه فرحين كل الفرح • ان هناك أمراً أصبح ثابتاً محققاً لا مراء فيه : هو أن آجلايا قد صفحت عنه وغفرت له فأصبح فى وسعه أن يعود اليها فى هذا المساء نفسه • كان هذا هو الأمر الأساسى فى نظره ، بل كان هذا أكثرَ من ذلك أيضاً ، كان هذا عنده كلَّ شىء !

وصاح يقول أخيراً وهو فى ذروة الفرح والنشوة :

ــ كم نحن أطفال حتى الآن يا كوليا !••• و ••• وما أحسن أن يكون المرء طفلاً !•••

فأجابه كوليا بلهجة تعبّر عن السلطة والسطوة وخطورة الشأن :

ــ انها هائمة بحبك ••• ذلك هو الأمر كله يا أمير !

فاحمر وجه الأمير ، لكنه لم يجب هذه المرة بكلمة واحدة • وأخذ كوليا يضحك صافقاً يديه احداهما بالأخرى • فما هى الا لحظة حتى شاركه الأمير مرحه ؟ وأخذ ، منذ ذلك الحين حتى المساء ، ينظر فى ساعته كل خمس دقائق ليرى كم مضى من الزمن وكم من الوقت بقى عليه أن ينتظر •

ولنعد الى اليزابت بروكوفيفنا • لقد تغلبت حالتها النفسية فى تلك اللحظة على كل شىء• أصبحت لا تستطيع السيطرة على نفسها ، وأوشكت

أن تصيبها نوبة عصبية • وها هي ذي ، رغم اعتراضات زوجها وبنتيها ، ترسل في طلب آجلايا فوراً لتلقي عليها سؤالاً آخيراً ولتحصل منها على جواب واضح قاطع شاف • « يجب أن نفرغ من هذه القضية مرة واحدة ، فلا نتكلم عنها بعد اليوم أبداً » • قالت ذلك ثم أضافت : « والا فلن أظل حية الى هذا المساء ! » وعندئذ انما أدرك الجميع مدى البلبلة التي بلغتها الأمور • وقد استحال انطاق آجلايا بكلمة واحدة ؛ فانها لم تزد على أن أظهرت دهشة عميقة ، فاستياء شديداً ، ثم انفجرت ضاحكة ، وتهكمت على الأمير ، واستهزأت بجميع الذين كانوا يسألونها•

ومضت اليزابت بروكوفيفنا الى سريرها لتضطجع قليلاً ، ثم لم تعد الى الظهور الا ساعة الشاي ، في اللحظة التي يُفترض أن الأمير يصل فيها • فكانت ترتعش من شدة الانفعال بانتظار مجيء الأمير ، حتى اذا وصل أوشكت أن تصاب بنوبة عصبية •

أما الأمير فقد دخل خائفاً وجلاً ، كمن يخطو متلمساً طريقه في الظلام • وكان يبتسم ابتسامة غريبة وهو ينظر الى الحضور حتى لكأنه يسألهم لماذا لا يرى آجلايا في الغرفة • لقد دُهش أشد الدهشة حين لاحظ منذ وصوله أن الفتاة غائبة • وكان الجمع لا يضم الا أهل الدار فما من غريب بينهم • حتى الأمير « شتش ••• » ، كانت قد احتجزته في بطرسبرج أمور نشأت عن وفاة عم أوجين بافلوفتش • وقد أسفت اليزابت بروكوفيفنا على غيابه • « لو كان هنا لوجد شيئاً يقوله حتماً ! »• وكانت هيئة ايفان فيدوروفتش تدل على هم عميق وغم شديد • وكانت أختا آجلايا رصينتين رزينتين تلتزمان الصمت كأنهما تعاهدتا على ذلك •

لم تعرف اليزابت بروكوفيفنا من أي طرف تبدأ الحديث • وهاهي ذي تفرغ غضبها فجأة بمناسبة الكلام على السكك الحديدية ، وترشق الأمير بنظرة تحمل معنى التحدي •

وا أسفاه ! ان آجلايا لم تجيء بعد ، فها هو ذا الأمير يحس بأنه ضائع هالك ! كان يشعر بارتباك شديد وحيرة بالغة ، وحاول بتمتمة مضطربة أن يقول ان اصلاح شبكة السكك الحديدية يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة ، ولكن آديلائيد أخذت تضحك على حين فجأة ، فاذا هو يرى نفسه أعزل مرة أخرى ، فقد انتزع منه هذا الضحك كل سلاح • وفي تلك اللحظة دخلت آجلايا هادئة رصينة وقورة ، فردت على تحية الأمير رداً فيه أبهة واحتفال ، ومضت تجلس ببطء مهيب في أبرز مكان مرموق حول المائدة المستديرة • ثم ألقت على الأمير نظرة مستفهمة سائلة • فأدرك الجميع أن لحظة تبديد جميع أنواع سوء التفاهم قد حانت •

قالت آجلايا تسأل الأمير بلهجة واثقة توشك أن تشتمل على قسوة :

ـ هل وصلك قنفذي ؟

فأجاب الأمير وقد احمر احمراراً شديداً وشعر بانهيار :

ـ نعم •

ـ فقل لنا على الفور ماذا ترى في هذا • ذلك أمر لا بد منه ولا غنى عنه حتى يهدأ بال أمي ، وحتى يهدأ بال أسرتنا كلها •

فهتف الجنرال فجأة يقول بقلق :

ـ آجلايا ••• ما هذا الكلام ؟

وأردفت اليزابت بروكوفيفنا تقول مرتاعة :

ـ هذا يتجاوز كل حد من الحدود !

فردّت الفتاة على كلام أمها تقول بشيء من الشدة :

ـ ليست المسألة مسألة حدود يا ماما • لقد بعثت اليوم الى الأمير قنفذاً ، فأريد الآن أن أعرف ما الذي يراه هو في هذا من رأي • انني مصغية اليك يا أمير •

قال الأمير يسألها :

ـ ماذا تقصدين بكلمة « الرأى » هنا يا آجلايا ايفانوفنا ؟

ـ أقصد رأيك فى أمر ارسال القنفذ اليك طبعاً !...

ـ بتعبير آخر ... أنا أقدّر يا آجلايا ايفانوفنا ... أنك تريدين أن تعرفى كيف استقبلت أنا فكرة ارسالك القنفذ الىّ ... أى كيف نظرت الى الأمر ... أعنى كيف فهمت مسألة إرسال قنفذ ... فاذا صدق ظنى ، فاننى افترض ... باختصار ...

وانقطعت أنفاسه فصمت .

فاستأنفت آجلايا استجوابها قائلة له بعد خمس ثوان :

ـ هيه ... ما أراك قلت شيئاً ذا بال !.. طيب .. أنا أوافق على أن ندع أمر القنفذ جانباً . ولكن يسرنى ويريحنى أن أستطيع أخيراً أن أضع حداً لجميع الالتباسات التى تجمعت حتى الآن وتراكم بعضها فوق بعض . فاسمح لى أن أعرف من فمك أأنت تنوى أن تخطبنى للزواج أم **لا ؟**

صاحت اليزابت بروكوفيفنا تقول :

ـ آه ... رباه !...

وارتعش الأمير وقام بحركة تقهقر الى وراء . وتجمّد ايفان فيدوروفتش شدهاً . وقطّبت الأختان حواجبهما .

ـ لا تكذب يا أمير . قل الحقيقة ! انهم بسببك يصدعوننى بأسئلة غريبة . فهل لاستفساراتهم وتحقيقاتهم هذه من أساس تقوم عليه ؟ تكلم!

أجاب الأمير وهو يتحمس فجأة :

ـ أنا لم أطلبك للزواج يا آجلايا ايفانوفنا . ولكنك ... تعرفين بنفسك مدى حبى لك وثقتى بك ... حتى فى هذه اللحظة ...

قالت آجلايا :

ـ لقد طرحت عليك سؤالاً : أتخطبني للزواج أم لا ؟

فأجاب الأمير بصوت منطفيء :

ـ بل أخطبك .

قال ايفان فيدوروفتش وقد انفعل انفعالاً قوياً :

ـ ما هكذا تُعالَج هذه الأمور يا صديقي العزيز !... وأنت يا جلاشا * اذا كان ما تريدين الوصول اليه هو هذا ، فأمرك غريب اذن !... معذرة يا أمير ، معذرة يا صديقي العزيز .

ثم أضاف ينادي زوجته مستنجداً بها :

ـ اليزابت بروكوفيفنا ... ينبغي ... ينبغي أن نفهم ...

فصاحت اليزابت بروكوفيفنا تقول بحركة انكار :

ـ أنا أرفض ... أنا أرفض ..

ـ اسمحي لي يا ماما أن أقول كلمتي أنا أيضاً . أعتقد أن لي حقاً في الادلاء بصوتي في موضوع من هذا النوع : هذه لحظة حاسمة في حياتي (تلك هي الجملة التي قالتها آجلايا بهذه الألفاظ نفسها) ، فأريد أن أعرف أنا نفسي أين موقعي ، ويسرني عدا ذلك أن تكونوا كلكم شهوداً عليَّ ... فاسمح لي أن أسألك اذن ، يا أمير ، ما هي الوسائل التي تنوى أن تحقق لي بها سعادتي « ما دمت قد عقدت العزم على أن تخطبني » ؟

قال الأمير :

ـ الحقيقة أنني لا أعرف بماذا أجيبك يا آجلايا ايفانوفنا !.. ماهو الجواب الذي يمكن أن يُجاب به عن هذا السؤال ؟ ثم ... أهذا ضروري حقاً ؟

ـ انك تبدو لى مضطرباً مختنق الأنفاس ، فاسترح لحظةً واستردّ قواك : اشرب كأساً من الماء . على أنك ستؤتى بشىء من الشاى حالاً .

ـ أحبك يا آجلايا ايفانوفنا ، أحبك كثيراً ... ولا أحب غيرك. لا تمزحى ، أرجوك . أنا أحبك كثيراً .

ـ ولكن القضية قضية هامة . نحن لسنا أطفالاً ، ويجب أن ننظر الى الأمر نظرة وضعية ... هلاّ تفضلت فذكرت لنا الآن مقدار الثروة التى تملكها !

تمتم ايفان فيدوروفتش يقول مشدوهاً :

ـ كفى ! كفى يا آجلايا ! ماذا أصابك ؟ ما هكذا .. لا .. لا ... حقاً !...

وهمست اليزابت بروكوفيفنا تقول بصوت يمكن أن يُسمع :

ـ يا للعار !

وأضافت ألكسندرا تقول بتلك اللهجة نفسها :

ـ هى مجنونة .

وسألها الأمير مدهوشاً :

ـ ثروتى ؟ تقصدين المال الذى أملكه ؟

ـ نعم ، تماماً .

تمتم الأمير يقول وقد احمر وجهه :

ـ أملك .. أملك الآن مائة وخمسة وثلاثين ألف روبل ...

فقالت آجلايا معبِّرة عن دهشتها بصراحة دون أن تحمر البتة :

ـ لا أكثر ؟ على كل حال ، ليس هذا بالأمر الهام كثيراً اذا عرف المرء كيف يقتصد فى نفقاته ... هل تنوى الحصول على وظيفة ؟

ـ كنت أريد أن أقدم امتحاناً لأصبح معلم أطفال .

ـ فكرة عظيمة . هذه وسيلة مضمونة لزيادة مواردنا . هل يمكنك أن تصبح من رجال البلاط ؟

ـ من رجال البلاط ؟ لم أفكر في هذا من قبل قط ، ولكن ...

نفدت قدرة الأختين فى هذه المرة على كظم ما فى نفسيهما فانفجرتا تضحكان ضحكاً تحاولان خنقه . كانت ألكسندرا قد لاحظت منذ مدة ، من بعض التقبضات العصبية فى وجه آجـلايا ، علامات ضحك تحـاول آجلايا حبســه ولكنه لن يلبث أن ينطلق انطلاقاً لا سـبيل الى مغالبته . وأرادت آجلايا أن تصطنع هيئة تهديد ازاء ضحك أختيها ولكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها ثانية واحدة فاستسلمت لنوبة ضحك مجنون يوشك أن يكون هستيرياً . ثم نهضت فى النهاية بوثبة واحدة ، وخرجت من الغرفة راكضة .

هتفت آديلائيد تقول :

ـ كنت أعلم حق العلم أن ذلك كله سينتهى بانفجارات ضحك . لقد تنبأت بذلك منذ البداية ، منذ حكاية القنفذ .

فصاحت اليزابت بروكوفيفنا تقول وقد اعترتها نوبة غضب شديد :

ـ لا ، هذا لن أسمح به ، لن أسمح به .

واندفعت فى اثر آجلايا .

وتبعتها بنتاها مسرعتين. ولم يبق فى الغرفة الا الأمير ورب الأسرة.

قال الجنرال بغتة ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يعرف هو نفسه ماذا يريد أن يقول على وجه الدقة :

ـ اسمع يا ليون نيقولايفتش ، هل كان يمكنك تصور شىء كهذا ؟ لا ، حقاً لا ... هه ؟

أجاب الأمير حزيناً :

ـ أرى أن آجلايا ايفانوفنا قد سخرت منى وضحكت عليَّ .

ـ انتظر يا صديقى ، سأذهب الى هناك . ابق انت هنا ... لأن .. قل لى أنت على الأقل يا ليون نيقولايفتش كيف وقع ذلك كله وما معنى هذا الأمر فى جملته ان صح التعبير ؟ عليك أن تعترف يا صديقى اننى أنا الأب. ومع ذلك ، رغم اننى الأب ، فاننى لا أفهم من الأمر شيئا البتة ! فاشرح لى أنت على الأقل !

ـ اننى أحب آنجلايا ايفانوفنا ؟ وهى تعرف ذلك ... تعرفه منذ زمن طويل فيما أظن .

رفع الجنرال منكبيه . وقال :

ـ غريب ... غريب !... وهل تحبها كثيراً ؟

ـ أحبها كثيراً .

ـ غريب . هذا كله يبدو لى غريباً . أقصد ... مفاجأة كهذه المفاجأة ... حب مباغت كهذا الحب ... اسمع يا صديقى ... أنا ليست الثروة هى التى تهمنى (رغم اننى كنت أقدِّر أن تكون ثروتك أكبر كثيراً من المبلغ الذى ذكرت) ... ولكننى أفكر فى مستقبل ابنتى ... الخلاصة .. هل أنت قادر ، ان صح التعبير ، على أن تحقق لها تلك .. السعادة ؟ ثم ... ما هو الأمر ؟ أمزاحة منها أم تصريح صادق ؟ عنك أنت لا أتكلم . ولكن ماذا من جهتها ؟

فى تلك اللحظة سُمع صوت ألكسندرا ايفانوفنا وراء الباب : كانت الفتاة تنادى أباها .

ـ انتظرنى يا صديقى العزيز ، انتظرنى . انتظر وفكّر ، سأرجع حالاً .

وركض يلبي نداء ألكسندرا شبهَ مذعور .

فوجد هنالك امرأته وابنتـه تذرفان دموعاً غزيرة وقد ارتمت كل منهما في ذراعي الأخـرى . كانت دموعهمـا دموع سـعادة ، وحنان ، ومصالحة . وكانت آجـلايا تقبّل يدي أمها وخديهـا وشـفتيها . كانت المرأتان تحضن كل منهما الأخرى بحرارة .

قالت اليزابت بروكوفيفنا تخاطب زوجها :

ــ هي ذي يا ايفان فيدوروفتش ، انظر اليها الآن ، انها هي ، انها هي بكاملها !

حوّلت آجلايا وجهها عن صـدر أمها . انه مبلل بالدموع ولكنه مشرق بالسعادة . نظرت الى أبيها ، وانطلقت تضحك ضحكة رنانة ، ثم اندفعت نحوه فاحتضنته بذراعيها احتضاناً شديداً وقبّلته عدة مرات . ثم ارتمت على أمها من جديد ، فدفنت وجهها في صدرها حتى لا يراه أحد، وعادت تبكي . فغطتها أمها بطرف شالها .

ــ هيه ! ماذا ؟ انك لتذيقننا الواناً من العـذاب ايتها البنت الصغيرة القاسية !

كذلك قالت الأم لابنتها ، ولكنها قالت هذا الكلام في هذه المرة مع تعبير عن الفرح ، حتى لكأنها تتنفس بحرية أكبر .

فصاحت آجلايا تقول فجأة :

ــ قاسية ! نعم ، قاسية ! أنا فتاة شريرة ، طفلة أفسدها الدلال ! قولي هذا الكلام لأبي ! .. ه ... هو ذا هنا . أأنت هنا يا بابا ؟ هل سمعت ؟

بهذا خاطبت أباها ضاحكةً من خلال الدموع .

فقال الجنرال وقد أسكرته النشوة وراح يلثم يد ابنته :

ـ عزيزتي ... معبودتي ! أأنت تحبين اذن هذا ... الفتى ؟

فصرخت آجلايا تقول فجأة وهي تنصب رأسها :

ـ كلا ثم كلا ثم كلا !... أنا لا أطيقه .. فتاك هذا ! لا أطيقه ! واذا تجرأت أن تقول لي مرةً أخرى يا بابا ... اعرفْ أنني أكلمك جادة لا هازلة . هل سمعت ؟ انني أتكلم جادة !

وكانت آجلايا تتكلم جادةً بالفعل ، حتى لقد كانت محمرة أشد الاحمرار وكانت عيناها تقدحان شرراً .

صمت الأب مرتاعاً ، ولكن اليزابت بروكوفيفنا أومأت له من وراء آجلايا ، فأدرك أن تلك الايماءة تعني « أن عليه أن لا يسألها عن شيء ».

قال :

ـ اذا كان الأمر كذلك يا ملاكي فليكن ما تشائين . افعلي ما يحلو لك . ولكنه ينتظر هناك وحيداً . أفلا يجب افهامه بالحسنى واللطف أنه لم يبق له الا أن ينصرف ؟

وأومأ الجنرال لامرأته ، هو أيضاً ، بغمزة من عينيه .

قالت الفتاة :

ـ لا ، لا ، لا داعي الى هذا . لا لزوم لاصطناع « اللطف » . امض اليه انت . وسأجيء بعدك فوراً ، سوف أستغفر هذا ... الشاب ، لأنني أسأت اليه .

قال ايفان فيدوروفتش مزايداً بهيئة جادة رصينة :

ـ بل أسأت اليه اساءةً بالغة .

ـ اذن ... فابقوا جميعاً هنا . أذهب اليه أنا أولاً ، ثم تلحقون بي فوراً . هذا أفضل .

فما ان وصلت الى الباب حتى استدارت فجأة وقالت لهم بلهجة حزينة :

ـ أحس أنني سوف أضحك • أحس أنني سوف احترق شوقاً الى الضحك ورغبةً فيه !

ولكنها لم تلبث أن عادت تسعى الى الأمير راكضة •

سأل ايفان فيدوروفتش امرأته متعجلاً :

ـ هيه ؟ على أي شيء يدل هذا ؟ ما رأيك ؟

فأجابته اليزابت بروكوفيفنا بتلك اللهجة المتعجلة نفسها :

ـ أخاف أن أقول رأيي • الأمر في نظري واضح •

ـ وهو واضح في نظري أنا أيضاً • واضح كالنهار • انها تحب •

ـ بل قولا انها مولّهة حباً ! ولكن ألم يكن في وسعها أن تجد خيراً منه زوجاً ؟

كذلك قالت الكسندرا ايفانوفنا •

قالت اليزابت بروكوفيفنا :

ـ اذا كان هذا هو قدرها فليباركها الله !

قال الجنرال مؤيداً :

ـ نعم ، هذه هي الكلمة : انه قدرها • ولا مفرّ للانسان من قدره !

وعاد الجميع الى الصالون حيث كانت تنتظرهم مفاجأة جديدة •

ان آجلايا ، حين لقيت الأمير ، لم تضحك كما كانت تخشى ذلك ؛ حتى انها خاطبته بلهجة تكاد تكون خجلى • قالت له :

ـ اغفر لفتاة حمقاء طائشة ، لطفلة أفسدها الدلال (قالت له ذلك وتناولت يده) ، وثق ثقة تامة بأننا جميعاً نحمل لك احتراماً كبيراً • فاذا

كنتُ قد سمحت لنفسى بأن أجعل براءتك الطيبة وسذاجتك الكريمة محلاً استهزاء وتهكم ، فاصفح عنى ولا تعدد ذلك منى الا عبثاً من عبث الأطفال . اغفر لى اننى ألححت على أمر سخيف لا يمكن تحققه طبعاً ..

قالت آجلايا هذه الكلمات الأخيرة بنبرة خاصة .

وقد دخل الأب والأم والأختان الى الصالون فى اللحظة المناسبة تماماً ، فسمعوا تلك الجملة التى أذهلتهم : « أمر سخيف لا يمكن أن يتحقق طبعاً ... » . وقد ذُهلوا خاصةً من اللهجة الجادة التى قالت آجلايا بها تلك الجملة . فنظرت الأعين الى الأعين يسأل بعضها بعضاً . ولكن الأمير لم يكن يبدو عليه أنه فهم ، وكان مشرق الوجه متهلل الأسارير .

ودمدم يقول :

— لماذا تتكلمين هكذا ؟ لماذا ... أنت ... تستغفرينني ؟

حتى لقد أراد أن يضيف أنه ليس جديراً بأن يُستغفر . من يدرى ؟ لعله كان قد أدرك معنى تلك الجملة : « أمر سخيف لا يمكن أن يتحقق طبعاً » . ولكن طبيعة فكره كانت خاصةً جداً بحيث أن تلك الكلمات نفسها لعلها غمرته فرحاً . وما من شك فى أنه قد بلغ ذروة السعادة منذ قدّر أنه سيكون فى وسعه أن يعود فيرى آجلايا ، وأنه سيُسمح له بأن يكلمها ، وأن يبقى الى جانبها ، وأن يتنزه فى صحبتها. لعل هذا الأمل وحده كان يكفيه لحياته كلها ! (ولقد كان يبدو على اليزابت بروكوفيفنا أنها تخشى بغريزتها ذلك الطبع المساير الذى أدركته فيه ، فكانت تشعر بمخاوف صميمة ما كان لها أن تستطيع الافصاح عنها).

يصعب على المرء أن يصف ما أظهره الأمير فى ذلك المساء من حرارة وحماسة وتألق وسطوع . لقد بلغ من المرح أن مرحه انتقل الى

أولئك الذين كانوا يرونه • هذا ما قالته أختا آجلايا فيما بعد • لقد كان متدفقاً فى الكلام ، وذلك أمر لم يحدث له منذ ستة أشهر ، أى منذ ذلك الصباح الذى تعرف فيه الى آل ايبانتشين • ولقد كان واضحاً أنه منذ عودته الى بطرسبرج قد قرر عامداً أن ينطوى على نفسه وأن يلتزم الصمت • حتى انه قبل ذلك المساء بزمن قصير قد قال للأمير « شتشش •• » على مرأى ومسمع من الجميع انه يعتقد أن عليه أن يلتزم الصمت ، لأنه لا يحق له افساد الفكر والحط من قدره بسوء أسلوبه فى التعبير • أما فى ذلك المساء فانه كاد يكون الشخص الوحيد الذى تكلم • كان حاضر البديهة طلق اللسان يجيب عن جميع الأسئلة بوضوح كامل وانشراح تام وافاضة مسهبة • ومن جهة أخرى ، لم يشتمل حديثه على أى شىء يشف عن عواطف حبه • انه فى البداية لم يعبر الا عن أفكار جدية وآراء رصينة كانت فى بعض الأحيان عويصة • وأبدى كذلك ملاحظات شخصية ونظرات خاصة • ولقد كان يمكن أن يكون هذا كله محل هزء وتهكم لولا أن الأمير كان يتكلم « بلغة منتقاة » ويعبر عن فكره بالفاظ مختارة ، كما شهد له الحضور بذلك فيما بعد •

ولئن كان الجنرال يحب حديث المواضيع الجدية ، فقد وجد هو واليزابت بروكوفيفنا أن أحاديث الأمير مسرفة فى الجد ، حتى أن وجهيهما قد تجهما قبيل نهاية السهرة •

ولكن الأمير بلغ من الانتعاش والحميا أنه أخذ يروى فى النهاية حكايات فكهة ونوادر مضحكة كان هو أول من يضحك لها ، فيأخذ الآخرون يضحكون لا لأن الحكايات والنوادر مضحكة فحسب، بل كذلك لان عدوى المرح كانت تسرى اليهم منه قوية لا تغالب •

أما آجلايا فانها لم يكد يفتر ثغرها عن ابتسامة طوال السهرة •

ولكنها فى مقابل ذلك لم تنقطع عن الاصغاء الى الأمير لحظة واحدة وكانت تتأمله بنهم ما ينفك يشتد ويقوى •

قالت اليزابت بروكوفيفنا لزوجها :

ــ انظر كيف تتأمله ! انها لا تحوّل بصرها عنه لحظة • انها تشرب كل كلمة من كلماته • انها كالمفتونة أو كالمسحورة • فاذا قال لها أحد انها تحبه قلبت الدنيا رأساً على عقب ، وجعلت كل شيء عاليه سافله •

أجاب الجنرال قائلاً وهو يرفع منكبيه :

ــ ما العمل ؟ هذا هو القدر !

وظل الجنرال مدة طويلة يكرر هذا الجملة التى كان يحب أن يرددها •

يجب أن نضيف الى هذا أن الجنرال ، من حيث هو رجل أعمال ، كان ينظر نظرة عدم الارتياح الى كثير من جوانب الموقف الراهن ، ولا سيما خلوه من الوضوح • ولكنه كان قد قرر أن يصمت ، وأن يفكر فى الأمور على نحو ما تفكر ••• اليزابت بروكوفيفنا •

لم تدم نشوة الأسرة الا مدة قصيرة ، ففى الغداة وقعت بين آجلايا وبين الأمير مشاجرة جديدة ، وتكرر ذلك فى كل يوم من الأيام التى تلته • فكانت آجلايا تظل تستهزىء بالأمير وتسخر منه حتى لتكاد تعامله كما يعامَل مهرّج •

صحيح أنهما كانا فى بعض الأحيان يتنزهان فى الحديقة تحت العريشة • ولكن لوحظ أن الأمير كان فى مثل هذه الأحوال يقرأ لها جريدة أو كتاباً طول الوقت تقريباً •

وبينما كان يقرأ لها الجريدة ذات يوم ، قاطعته قائلة :

ــ غريب ! لقد لاحظت منذ مدة طويلة أن ثقافتك ناقصة نقصاً يدعو

الى الأسف الشديد حقاً ؟ فاذا سئلت عن أمر من الأمور عجزت عن أن تقول ماذا فعلت الشخصية الفلانية ، ومتى وقع الحادث الفلانى ، وما هو موضوع الكتاب الفلانى . ذلك أمر يدعو الى الشفقة عليك والرثاء لك فعلاً .

فأجابها الأمير :

ـ قلت لك ان حظى من التعليم ضئيل .

ـ فماذا بقى لك اذن ؟ اى اعتبار يمكن أن أحمله لك بعد هذا ؟ هيا واصل القراءة ، بل كفى الآن ، اكفف عن القراءة .

وفى ذلك المساء نفسه أثارت أزمة جديدة سريعة بدت للجميع لغزاً لا يُفهم . فحين عاد الأمير « شتش ... » ، أظهرت له كثيراً من المودة واللطف ، وسألته طويلاً عن أوجين بافلوفتش (لم يكن الأمير ليون نيقولايفتش قد وصل بعد) . وفجأة أباح الأمير « شتش ... » لنفسه أن يلمح الى « تغير جديد قريب سيحدث فى الأسرة » ، وذكر فكرة كانت قد أفلتت من اليزابت بروكوفيفنا هى أنه ربما كان من الأفضل ارجاء زواج آديلائيد قليلاً ليتم الاحتفال بالزفافين فى آن واحد معاً . فلما سمعت آجلايا هذه الكلمات غضبت غضباً شديداً فظيعاً لا يتصوره الخيال ، ووصفت هذا كله بأنه « افتراضات سخيفة » ، بل مضت الى أبعد من ذلك فقالت فيما قالت : « انها لا تنتوى أن تحل محل خليلات أى انسان » .

فوجىء الجميع بهذه الكلمات ، وفوجىء بها الأبوان خاصة . وألحت اليزابت بروكوفيفنا ، أثناء اجتماع سرى مع زوجها ، على ضرورة أن يُسأل الأمير ايضاحاً حاسماً فى أمر ناستاسيا فيليبوفنا .

فحلف ايفان فيدوروفتش على أن ما قالته آجلايا لم يكن الا « اندفاعة » أثارها فيها شعور بالحياء و « الخفر » ؛ وأن هذه الاندفاعة

ما كان لها أن تحدث لولا أن الأمير « شتشد ... » تكلم عن الزواج ، لأن آجلايا تعرف هي نفسها حق المعرفة أن الكلام عن علاقة بين الأمير وناستاسيا فيليبوفنا ليس الا نميمة كاذبة ، وأن ناستاسيا فيليبوفنا ستتزوج روجوبين . وأضاف الجنرال الى ذلك أن الأمير لا شأن له فى هذا الموضوع كله ، وأن الصلة التى زعم بعضهم أنها قامت بينه وبين ناستاسيا لا وجود لها الآن ، بل ولم يكن لها وجود فى يوم من الأيام اذا أردنا أن نقول الحقيقة كلها .

أما الأمير فانه لم يفقد شيئاً من صفاء مزاجه وبهجة نفسه وظل يتمتع بهناءته وسعادته . صحيح أنه كان يلاحظ فى بعض الأحيان تعبيراً عن الحزن وعن نفاد الصبر فى عينى آجلايا ، ولكنه كان يعزو هذا التعبير الى بواعث أخرى ، فكانت هذه السحابة تغيب عن بصره من تلقاء نفسها. كان قد اقتنع فلا يمكن أن يزعزع اقتناعه شىء . ولعله قد غلا فى هدوء البال وطمأنينة النفس ؟ وهذا على الأقل ما شعر به هيبوليت الذى لقيه ذات يوم فى الحديقة العامة .

لقد استوقف هيبوليتُ الأميرَ يومئذ وبدأ كلامه بأن قال له :

ـ هيه ! ألم أكن على حق يومَ قلت لك انك مولّه حباً ؟

فمدَّ الأمير اليه يده وهنأه على أن وجهه يدل على تحسن صحته . وكان يبدو على المريض نفسه أنه استرد بعض أمله وشجاعته ، وذلك ما يحدث للمصدورين فى كثير من الأحيان .

ولقد كان هيبوليت ينتوى خاصة ، حين اقترب من الأمير ، أن يقول له كلاماً جارحاً عن هيئة السعادة التى تبدو عليه . ولكنه سرعان ما زايلته هذه الفكرة وأخذ يتكلم عن نفسه ، فأفاض فى ارسال الشكايات تلو الشكايات متكررةً لا نهاية لها ولا اتساق بينها . وختم كلامه قائلاً :

ـ لا تستطيع أن تتصور مدى ما يتصفون به هنـاك من شدة النزق والصغار وسرعة الاهتياج وقوة الأثرة وحب الظهور وتفاهة النفوس. هل تصـدق أنهم قبلوا ايوائى على شرط صريح هو أن أموت بأقصى سرعة ممكنة . لذلك تراهم الآن غاضبين غضـباً شـديداً لأننى لم ألفظ آخر أنفاسى بل تحسنت صحتى . يا للمهـزلة ! أراهن على أنك لا تصـدق كلامى !

امتنع الأمير عن الاجابة .

وأضاف هيبوليت يقول باهمال :

ـ حتى ليخطر ببالى أحياناً أن أعود أسكن عندك ! أنت لا تصدق اذن أنهم لا يتورعون عن ايواء انسان بشرط أن لا يتأخر موته ، هه ؟

قال الأمير :

ـ كنت أتصور أنهم حين دعوك اليهم كانوا يسعون الى هدف آخر وينفذون خطة أخرى .

ـ هى. هى. ! ما أنت بالبسـيط الى الحد الذى يحلو للناس أن يزعموه ! لم يحن الحين بعد ، والا لكشفت لك بعض الأمور عن جانيـا الصغير هذا وعن الآمال التى تملأ رأسه . انهم يحاولون نسفك يا أمير . وهم يبذلون فى سبيل ذلك جهوداً كبيرة ... لذلك يشفق عليك المرء ويرثى لحالك حين يراك تنام نوماً هادئاً هذا الهدوء . ولكن من المؤسف أنك لا تستطيع أن تكون غير هذا !

سأله الأمير ضاحكاً :

ـ أهذا ما يجعلك ترثى لحالى ! هل ترى اذن اننى أكون أسـعد حالاً اذا كنت أكثر قلقاً ؟

ـ خير للانسان أن يكون تعيساً و « عارفاً » ، من أن يكون سعيداً و ... مخدوعاً . يبدو أنك لا تخشى منافسة من تلك الجهة ، هه ؟

ـ ان تلميحاتك الى المنافسة فيها شيء من الاستهتار يا هيبوليت • يؤسفني أنني لا يحق لي أن أجيبك • أما جبريل آرداليونوفتش ، فلا بد أن تسلّم لي بأنه يصعب عليه أن يحافظ على الهدوء بعد كل ما فقد ، هذا اذا كنت تعرف شئونه ولو بعض المعرفة • يخيّل الىّ أن من الأفضل أن يُنظر الى الأمور من هذه الزاوية • ما يزال في وسعه أن يصلح نفسه• ان أمامه سنين طويلة ، وان الحياة غنية بالدروس غنىً لا حدود له ••• على أن ••• على أن •••

هنا أخذ الأمير يتمتم متلعثماً وقد فقد تسلسل أفكاره فجأة ، فقال :

ـ ••• أما مسألة نسفي ••• فانني لا أفهم حتى ماذا تقصد • الأفضل ترك هذا الحديث يا هيبوليت •

ـ لنتركه الآن • لا سيما وأنك لا تستطيع أن تستغني عن اظهار كرمك والتدليل على سماحتك • نعم يا أمير ، أنت لا بد لك من أن تلمس بيدك • وهبك لمست بيدك فانك لن تصدق • هأ هأ !••• ولكن قل لي : ألا تحتقرني الآن احتقاراً عميقاً ؟

ـ لماذا ؟ ألأنك تألمت وتتألم أكثر منا جميعاً ؟

ـ لا ، بل لأنني غير جدير بآلامي •

ـ ان من أمكنه أن يتألم أكثر من الآخرين هو بهذا نفسه جدير بتلك الزيادة من المحن • حين قرأت آجلايا ايفانوفنا اعترافك ، تمنت أن تراك ، ولكن •••

قاطعه هيبوليت ، كأنما ليغيِّر مجرى الحديث بأقصى سرعة ، قاطعه قائلاً :

ـ انها ترجىء ••• ذلك مستحيل عليها ••• أفهم ، أفهم ! ••• بالمناسبة : يقال انك أنت الذي قرأت لها ، بصوت عالٍ ، كل تلك الثرثرة

المشوشة المضطربة . الحق أنني كتبت ما كتبت ... وفعلت ما فعلت ، في نوبة هذيان . انني لا أتصور كيف يستطيع امرؤ أن يكون ـ لا أقول قاسياً (فلو قلت ذلك لكنت أذل نفسي) بل أقول صبيانياً ومغتراً وحقوداً الى الحد الذي يمكنه فيه أن يؤاخذني على هذا الاعتراف وأن يستعمله سلاحاً ضدي ! لا تخف ، فلست أتكلم عنك أنت ...

ـ ولكن يؤسفني أن أراك تتبرأ من تلك الأوراق يا هيبوليت ، فان فيها نبرة صدق واضحة ! حتى الفقرات السخيفة منها وهي كثيرة (هنا صعّر هيبوليت وجهه) ، انما يكفّر عنها الألم ، لأن الادلاء بهذه الاعترافات قد أوجب هو نفسه مواجهة الألم أيضاً ... ولعله كان فعلاً كبيراً من أفعال البسالة. لا شك أن الفكرة التي انقدت لها كانت تستوحي عاطفة نبيلة ، مهما تكن المظاهر . كلما فكرت في هذا مزيداً من التفكير ، اقتنعت به مزيداً من الاقتناع ، أحلف لك . انني لا أحكم عليك . انني أقول لك رأيي ؛ ويؤسفني انني صمتُ حينذاك ...

احمر وجه هيبوليت . وقد خطر بباله في لحظة من اللحظات أن الأمير يهزل ، وأنه يمد له شباكاً أو ينصب له فخاً . ولكنه تأمل وجهه فلم يسعه الا أن يؤمن بأنه صادق مخلص . فعاد الهدوء الى أسارير وجهه . وقال :

ـ ويجب أن أموت !

وأوشك أن يضيف الى ذلك قوله : « كيف يجوز أن يموت رجل مثلي ؟ » . لكنه أمسك ، وتابع كلامه يقول :

ـ لا تستطيع أن تتخيل مدى القشعريرة التي يحدثها في نفسي صاحبك جانيا ؛ لقد اعترض عليّ ذات يوم قائلاً ان الذين سمعوا اعترافي قد يكون بينهم ثلاثة أو أربعة سيموتون قبلي ! يا لها من فكرة ! هو يظن

أن هذا يعزينى . هأ هأ !... هم أولاً لم يموتوا بعد . ثم هبهم نفقوا قبلى فعلاً ، فلا شك أنك تسلّم لى بأن ذلك لا يسرّى عنى كثيراً . انه يقيس الناس بنفسه . على أنه مضى الى أبعد من ذلك أيضاً . لقد شتمنى قائلاً ببساطة : ان على المرء فى مثل هذه الحالة ، اذا كان يحترم نفسه ، أن يموت صامتاً ، وان هذه القضية كلها لا تشتمل من جانبى الا على أنانية ! لقد غلا قليلاً ، هه ؟ والحق أن الأنانية فيه هو ! ما أنعم أنانية أمثال هؤلاء الناس ، بل قل ما أكثف أنانية أمثال هؤلاء الناس الذين لا يشعرون مع ذلك بأنهم أنانيون !... هل قرأت ، يا أمير ، شيئاً عن موت رجل اسمه ستيفان جليبوف * فى القرن الثامن عشر ؟ لقد وقع تحت بصرى أمس مصادفة ...

ـ من هو ستيفان جليبوف هذا ؟

ـ هو رجل رُفع على الخازوق فى عهد بطرس الأكبر .

ـ آ ... رباه ! عرفت من هو ! لقد ظل على الخازوق خمس عشرة ساعة ، فى برد شديد ، لا يغطيه الا معطف على كتفيه ، ثم مات صامداً بقوة نفسية خارقة . نعم قرأت هذا ... ولكن ما الذى تريد أن تقوله ؟

ـ أسأل الله أن يهب لبعض الناس ميتةً كتلك الميتة ! ولكن أن لا يهبها لنا نحن . أتراك تظن مع ذلك أننى غير قادر على أن أموت كما مات جليبوف ؟

قال الأمير مرتبكاً :

ـ لا ، لا ، أبداً ... كل ما أردت أن أعبّر عنه هو أنك ... بل قل اننى لم أرد أن أزعم أنك لا تشبه جليبوف ، وانما أردت أن أشير الى أنك ... فى ذلك الزمان يمكن أن ...

ـ حزرت : تريد أن تقول انني في ذلك الزمان يمكن أن أكون مثل أوسترمان * لا مثل جليبوف . أليس هذا ما تريد أن تقوله ؟

سأله الأمير مدهوشاً :

ـ أيّ أوسترمان ؟

فتمتم هيبوليت يقول متحيراً :

ـ أوسترمان ، الدبلوماسي أوسترمان ، الذي عاصر بطرس الأكبر.

وتبع ذلك صمت فيه ارتباك .

ثم قال الأمير بلهجة بطيئة بعد لحظة تأمل :

ـ لا ، ليس ذلك ما أردتُ أن أقوله . ليس يخيَّل اليّ انه يمكن أن تكون مثل أوسترمان ...

اكفهر وجه هيبوليت .

فأسرع الأمير يضيف مستدركاً :

ـ على كل حال ، سأقول لك الآن لماذا قامت في ذهني هذه الفكرة. ان أناس ذلك الزمان (ويميناً ان هذا قد خطف انتباهي دائماً) كانوا يختلفون اختلافاً كبيراً عن أناس العهد الذي نعيش فيه . لكأنهم كانوا من جنس آخر . نعم ، حقاً ، لكأنهم ينتمون الى نوع انساني غير النوع الذي ننتمي اليه نحن . في ذلك الزمان ، كان الانسان انسانَ الفكرة الواحدة ان صح التعبير. أما معاصرونا فلأن أعصابهم أكثر توتراً ، ولأنهم أكثر تطوراً وأشد حساسية فهم يستطيعون أن يتبعوا فكرتين أو ثلاثاً في آن واحد ... ان الانسان الحديث أوسع وأرحب . وانى أؤكد لك أن هذا هو ما يمنعه من أن يكون كتلة واحدة متسقة الجوانب كما كان انسان

القـرون الحـوالى ••• انني ••• انني لم أقل كلامى الا بهذا المعنى ، وليس •••

ـ انك تحاول الآن أن تعزيني عن معارضتك اياى بتلك السذاجة• هأ هأ !••• انك لطفل تماماً يا أمير ! على وجه العمـوم ، ألاحظ أنكم جميعاً تعاملونني كما يعامَل فنجان من خزف ••• لا بأس !••• لست أزعل • على كل حال ، لقد جرى حديثنا مجرى مضحكاً !••• أنت فى بعض الأحيان طفل حقاً يا أمير • واعلمْ من جهـة أخرى يا أمير انني كنت أطمع فى أن أكون شيئاً أفضل من أوسترمان • لا يستحق العناءَ أن يُبعث المرء حياً من بين الأموات في سبيل أن يكون رجلاً مثل أوسترمان ••• وعلى كل حال يجب فى رأيي أن أموت بأقصى سرعة ممكنة ، والا لرأيتني أتمنى أنا نفسى أن ••• دعني ! الى اللقاء ! ولكن قل لى : ماهى في رأيك أفضل ميتة ؟ أقصد ••• ما أقرب ميتة الى الفضيلة فى نظرك ؟ عجيب ! لماذا لا تجيب ؟

قال الأمير بصوت عذب :

ـ مُرَّ بقربنا وأنت تغفر لنا سعادتنا !

ـ هأ هأ هأ ! هـذا بعينـه ما كنت أفكر فيه ! لقد توقعت كلاماً من هذا النوع حتماً ! ومع ذلك ، فانك ••• فانك ••• هيَّا •• هيَّا ••• طيب ! آه ! يا للناس البلغاء ! الى اللقاء ! الى اللقاء !

الفصل السادس

إن النبأ الذى نقلته باربارا آرداليونوفنا الى أخيها كان صحيحاً كل الصحة : ستقام سهرة فى ڤيللا آل ايبانتشين ، ومن المتوقع أن تحضرها الأميرة بيلوكونسكايا . لقد وجّهت الدعوات لذلك المساء فعلاً . لكن باربارا تكلمت فى الأمر ، على عادتها ، بحرارة تزيد قليلاً عن الحد اللازم . صحيح أن السهرة قد تقررت بسرعة متعجلة ، ووسط اضطراب شديد لا محل له . ولكن مردّ ذلك الى أنه « لا شىء فى هذه الأسرة يتم كما يتم فى غيرها » ؛ وكل شىء يُفسَّر بنفاد الصبر لدى اليزابت بروكوفيفنا التى كانت « لا تريد أن تبقى فى الشك » ، كما يُفسَّر بما يعانيه الأبوان من قلق وهمٍ وخوف على سعادة ابنتهما الحبيبة .

ثم ان الأميرة بيلوكونسكايا كانت على وشك أن تسافر فعلاً ؛ واذ أن لحمايتها وزناً كبيراً فى المجتمع ، واذ كان المأمول أن تهتم كثيراً بالأمير ، فقد كان الأبوان يعوّلان على ما تنعم به تزكيه « السيدة العجوز » من قدرة كبيرة على فتح أبواب المجتمع الراقى أمام خطيب آجلايا . فاذا كان فى هذا الزواج جانب غير طبيعى أو غير عادى كان فى وسع الحماية التى تسبغها الأميرة بيلوكونسكايا عليه أن تخفى ذلك الجانب . ولقد كانت عقدة العقد لدى الأبوين أنهما كانا لا يستطيعان أن يفصلا فى هذا السؤال : « هل يشتمل هذا الزواج على شىء غير طبيعى ، والى اى حد ؟ أم هو طبيعى جداً فلا غرابة فيه ؟ » . لذلك فان الرأى الصريح الصديق

الذى يمكن أن يقدمه أشخاص لهم قيمتهم وكفاءتهم ووزنهم يمكن أن يكون مواتياً جداً فى هذا الأوان الذى لم يُبرم فيه شىء حاسم بعد ، بفضل موقف آجلايا •

وعلى كل حال كان لا بد من ادخال الامير ، عاجلاً أو آجلاً ، الى المجتمع الراقى الذى لا يعرف الأمير عنه شيئاً حتى الآن • ففى وسعك أن نقول بتعبير آخر ان المراد كان هو « عرض » الأمير • على أن ذلك لا ينفى أن السهرة ستحتفظ بطابع البساطة ، وأنها لن تضم الا « أصدقاء للأسرة » عددهم محدود جداً • والى جانب الأميرة بيلوكونسكايا كان يؤمل حضور زوجة شخص مرموق هو رجل من كبار أصحاب المناصب العليا • أما من بين الشبان فكان لا يُنتظر الا حضور أوجين بافلوفتش الذى كان عليه عند حضوره أن يرافق الأميرة بيلوكونسكايا •

ولقد علم الأمير ، قبل ثلاثة أيام ، أن هذه السيدة ستجىء ، لكنه لم يسمع عن السهرة الا قبل موعدها بيوم واحد • وقد لاحظ طبعاً ما كان يبدو على أفراد الأسرة من انشغال ، وأدرك من بعض الاشارات أنهم ليسوا واثقين بأنه سيحدث فى نفوس الناس أثراً حسناً • ولكن أفراد أسرة ايبانتشين جميعاً كانوا يعدونه عاجزاً من شدة سذاجته وبساطته عن ادراك أنواع القلق التى يحدثها لهم ، لذلك كانوا فى قرارة أنفسهم ينظرون اليه شاعرين بغم وخوف •

أما هو فكان لا يكاد يهتم أى اهتمام بهذا الحديث ، وكان ما يشغل باله غير هذا تماماً • ان آجلايا تزداد نزقاً وجهامة وتكثر نزواتها ساعةً بعد ساعة • فكان ذلك يقتله قتلاً • ولما علم أن أوجين بافلوفتش سيحضر الاستقبال أيضاً ، أظهر فرحاً شديداً وقال انه يود أن يراه منذ مدة طويلة • فاذا بهذه الكلمات ، لسببٍ لم يستطع أن يدركه ، تسوء الجميع وتزعجهم ، واذا بآجلايا تخرج من الغرفة غاضبةً • وفى وقت متأخر

من الليل ، بعد الساعة الحادية عشرة ، بينما كان الأمير يهم أن ينصرف ، انتهزت آجلايا هذه الفرصة فأعادته لتقول له بضع كلمات فى خلوة :

ـ أود أن لا تجىء الينا غـداً طوال النهـار ، وأن لا تظهر الا فى المساء ، بعد أن يلتئم شمل جميع المدعوين . هل تعرف أننا نقيم استقبالاً ؟

قالت آجلايا هذه الكلمات بلهجة فيها تململ وقسوة . هذه أول مرة تشير فيها الى « السهرة » . كانت هى أيضاً تكره فكرة السهرة هذه ولا تكاد تطيقها . لقد لاحظ الجميع ذلك . ولعلها كانت تشـعر برغبـة مسعورة فى أن تختلق مشـاجرة مع أبويها فى هـذه المناسـبة ، غير أن شعوراً بالكبرياء والحياء صدَّها عن ذلك . وقد أدرك الأمير فوراً أنهـا توجس هى أيضاً بعض المخـاوف فى شـأنه ، لكنها لا تريد أن تعترف بالداعى اليها والباعث عليها . وأحسَّ هو نفسه فجأة بنوع من الرعب.

قال يجيبها :

ـ نعم ، أعلم . اننى مدعو .

وأحست بحرج من المضى الى أبعد من ذلك .

قالت له وهى تنفجر غاضبة ، دون أن تدرى لماذا ، ولكن دون أن تستطيع السيطرة على نفسها :

ـ هل يستطيع المرء أن يكلمك جاداً ولو مرةً واحدة فى حياتك ؟

ـ تستطيعين ذلك . اننى مصغٍ اليك . يسرنى هذا .

كذلك تمتم الأمير .

فصمتت آجلايا لحظةً ، ثم قررت أن تتكلم ، ولكن بنفور واضح لا يخفى . قالت :

ـ لم أشأ أن أناقشهم فى هذا الأمر : هناك حالات لا يستطيع المرء فيها أن يُسمعهم صوت العقل . لطالما كرهت بعض القواعد التى تحكم

سلوك الناس فى المجتمع الراقى والتى تخضع لها ماما بل تُستعبد لها استعباداً . أنا لا أتكلم عن بابا : فان المرء لا يطالبه بشىء . ولا كذلك ماما ، فان لها خلقاً نبيلاً وطبعاً يتصف بالشهامة حتماً : حاول أن تطلب منها شيئاً دنيئاً فترى ! ولكنها تنصاع مع ذلك لهذا المجتمع الدنىء الذى هو المجتمع الراقى !... لا أتكلم عن الأميرة بيلوكونسكايا : فهذه عجوز شريرة وطبيعة سيئة رديئة ؛ ولكنها تملك شكيمة قوية فتعرف كيف تمسكهم جميعاً بيديها . ان لها هذه الخصلة على الأقل . آه ! يا للحطة ! والأمر مضحك حقاً : لقد كنا ننتمى دائماً الى الطبقة المتوسطة ، الى الطبقة المتوسطة كل التوسط . فما بالنا نريد دفع أنفسنا الى المجتمع الراقى ؟ ان اختىّ تهويان هما أيضاً الى هذه الآفة . لقد أفسد عقلهما الأمير «ششش...» لماذا سُررت ذلك السرور كله حين عرفت أن أوجين بافلوفتش آتٍ ؟

قال الأمير :

ــ اسمعى يا آجلايا . يخيّل الىّ أنك تخافين كثيراً أن « أتبهدل » غداً .. فى ذلك المجتمع ؟

قالت آجلايا وقد احمرت احمراراً شديداً :

ــ أخاف عليك ؟ لماذا يجب أن أخاف عليك ؟ هل يهمنى أنا أن .. تتجلل أنت بالخزى ؟ ما شأنى أنا وهذا ؟ ثم كيف يمكنك أن تستعمل مثل هذه التعابير ؟ ما معنى كلمة « تبهدل » ؟هذا لفظ منحط عامى مبتذل ؟

ــ كلمة من كلمات ... التلاميذ .

ــ نعم .. كلمة من كلمات التلاميذ . كلمة بشعة . واضح أنك تنوى استعمال ألفاظ من هذا النوع فى الحديث غداً . ما عليك الا أن تبحث فى المعجم ، متى عدت الى البيت ، عن ألفاظ أخرى من هذا الطراز: انك بذلك تضمن لنفسك أن تحدث فىّ أثراً رائعاً !... خسارةٌ أنك

تجيد الدخول الى صالون ! أين تعلمت هذا ؟ هل تستطيع كذلك أن تحسن احتساء فنجان من الشاى حين ينظر الجميع اليك ليروا كيف عسى تفعل ذلك ؟

ـ أحسب اننى أستطيع •

ـ يؤسفنى هذا : لأنه يُفقدنى فرصة التندر عليك والضحك منك• حطّم على الأقل اناء الخزف الصينى الموجود فى الصالون • انه غالى الثمن • هلاّ سررتنى فحطمته ؟ انه هدية ؟ حطّمه فتُجنّ ماما وتطفق تبكى أمام الجميع من شدة تعلقها به وحرصها عليه • قم بحركة من تلك الحركات المعهودة فيك : اخبط الاناء واكسره • تعمد أن تجلس قربه •

ـ بالعكس • سأحاول أن أجلس بعيداً عنه الى أقصى حد • شكراً على أنك نبهتنى الى هذا •

ـ هذا أنت خائف منذ الآن من حركاتك واشارات يديك الكثيرة ! وأراهن على أنك ستختار « موضوعاً » للحديث تسترسل فيه مطنباً مسهباً ••. موضوعاً جدياً ، رفيعاً ، يتاح لك فيه أن تتفيهق ! ما أجمل ذلك !

ـ أعتقد أن هذا يكون غباءً ••. اذا لم يجىء فى محله ولم يناسب المقام •

قالت أخيراً وقد نفد صبرها :

ـ اسمع ما سأقوله لك الآن مرةً واحدة الى الأبد : اذا تكلمت فى موضوع كموضوع عقوبة الاعدام أو الوضع الاقتصادى فى روسيا ، أو النظرية القائلة بأن « الجمال سينقذ كل شىء » ••• فسيسرنى هذا ، لأنه يتيح لى أن أستهزىء به واضحك منه كثيراً ، ولكننى أحذّرك منذ الآن :

اذا فعلت شيئاً من هذا فلا تظهرن أمامي بعدئذ قط ! هل تسمعني ؟ انني اتكلم جادة لا هازلة ، انني أتكلم في هذه المرة جادّة !

وقد قالت هذا التهديد بلهجة « الجد » فعلاً . حتى لقد كان في أقوالها وفي نظرتها تعبير غير معهود لم يسبق للأمير أن لاحظه فيها يوماً حتى ذلك الحين ولا يشبه رغبة في مزاح حتماً !

ـ أرى أنك تتصرفين تصرفاً سيجعلني أُصاب قطعاً بنوبة « ثرثرة » ... وقد أكسر اناء الخزف أيضاً . منذ قليل كنت غير خائف من شيء ، أما الآن فقد أصبحت أخاف كل شيء . أنا الآن على يقين من أنني لن أحدث في نفوس الحضور أثراً حسناً .

ـ ما عليك اذن الا أن تصمت . اجلس وابق ساكناً ساكتاً .

ـ مستحيل . انني مقتنع بأن الخوف سيدفعني الى الكلام وسيجعلني أكسر اناء الخــــزف . وقد تزل قدمي فأقع على الأرض أو أرتكب أية خراقة أخرى من هذا النوع ، فقد سبق أن حدث لي ذلك . وسأظل أحلم بهذا طوال الليل . لماذا كلمتني في هذا الأمر ؟

نظرت اليه آجلايا مظلمة الوجه .

فقال الأمير بلهجة قاطعة :

ـ هل تعلمين ؟ انني أفضل أن لا أجيء غداً . استمرض وكفى !

فضربت آجلايا الأرض بقدمها واصفرّ وجهها غضباً وقالت :

ـ رباه ! هل رأى أحد شـيئاً كهذا في يوم من الأيام ؟ يقرر أن لا يجيء بينما السهرة مقامة من أجله هو ! آه ... يا رب !... ما أعظمها سعادة أن يعامل المرء رجلاً مثل ... أن يعامل المرء رجلاً يبلغ من البعد عن العقل ما يبلغه هذا الرجل ...

قاطعها الأمير بقوة قائلاً :

ـ طيب •• طيب •• سأجيء •• سأجيء ••• لك عليّ عهد أن أجيء وأن لا أنطق بكلمة واحدة طوال السهرة • ذلك ما سأفعله •

ـ وسيكون هذا حسناً جداً• ولكنك قلت منذ برهة: «سأستمرض»، فمن أين تجيء بأمثال هذه التعابير ؟ أأنت تتعمد تعمداً أن تكلمنى بهذه اللغة ؟ انك تقصد مضايقتى ومناكدتى ، أليس كذلك ؟

ـ عفوك • هذه أيضاً كلمة من كلمات التلاميذ ! لن أستعملها بعد الآن • أنا أفهم حق الفهم أن تساورك مخاوف فى شأنى (لا •• لا تزعلى)، وهذا يسرنى سروراً عظيماً • انك لا تستطيعين أن تتصورى مدى ما أشعر به الآن من خوف ، ومدى ما تغمرنى به كلماتك من فرح• ولكن ذلك الخوف كله لا قيمة له • أؤكد لك أنه سخف • شهد الله يا آجلايا أن الفرح وحده سيبقى • اننى لأحب كثيراً أن أراك طفلة الى هذا الحد، طفلةً تبلغ هذا المبلغ من نبل النفس وطيب القلب ! آه يا آجلايا ••• ما أروعك !

كانت آجلايا على وشك أن تغضب ، غير أن عاطفة كانت هى نفسها لا تتوقعها قد اجتاحت كل روحها فى تلك اللحظة على حين فجأة • قالت تسأله بغتة :

ـ ألن تلومنى ذات يوم ••• فى المستقبل ••• على هذه الأقوال الفظة التى خاطبتك بها الآن ؟

ـ دعيك من هذا ! ماذا تظنين ؟ ولكن ما لى أرى وجهك يصطبغ بالحمرة من جديد ؟ هذه نظرتك تعود الى الاظلام ! انها مظلمة مسرفة فى الاظلام أحياناً يا آجلايا ! لم تكن لك هذه النظرة فى الماضى • اننى أعرف مصدر هذا •••

ـ اسكت ••• اسكت •••

ـ بل الأفضل أن أتكلم • اننى أريد أن أفاتحك فى هذا الأمر منذ

مدة طويلة . وقد سبق أن كلمتك فيه ... ولكن ذلك لم يكفِ ، لأنك لم تصدقنى . ان هناك شخصاً يقف بيننا ...

ـ اسكت . اسكت . اسكت . اسكت !

هكذا قاطعته آجلايا بشدة ، ممسكةً ذراعه امساكاً قوياً عنيفاً ، وقد اعتراها نوع من الرعب .

ونوديت فى تلك اللحظة ، فتركته وولّت هاربةً ، سعيدةً بهذا المخرج .

أصيب الأمير بحمى طوال الليل . من الغريب أن الحمى أخذت تجتاحه كل ليلة منذ بعض الوقت . وفى هذه المرة وصل الى حالة قريبة من الهذيان ، فكانت تحاصره هذه الفكرة : ماذا لو أصابته نوبة صرع فى الغد أمام جميع الضيوف ؟ ألم يسبق أن أصيب بنوبات فى حالة اليقظة ؟ جمّدته هذه الفكرة رعباً . وظل طول الليل يرى نفسه فى سهرة مدهشة لا مثيل لها وسط أناس غرباء . ان الشىء الأساسى هو أنه أخذ يسهب فى الثرثرة . كان يعرف أن عليه أن يصمت ، ومع ذلك ظل يتكلم طول الوقت محاولاً اجبار سامعيه على شىء ما . وكان أوجين بافلوفتش وهيبوليت بين المدعوين ، وكان يبدو أن بينهما علاقة وثيقة حميمة .

واستيقظ بعد الساعة الثامنة على صداع وأفكار مشوشة ومشاعر غريبة . ان رغبة عارمة جامحة لا يعرف لها سبباً معقولاً تستبد الآن به ، وهى أن يرى روجوزين . لماذا ؟ ليس يدري . ثم ها هو ذا يقرر أن يذهب الى هيبوليت دون أن يكون هنالك باعث واضح على ذلك . كان قلبه قد بلغ من الاضطراب أن جميع أحداث هذا الصباح ، رغم أنها أحدثت فى نفسه أثراً قوياً ، لم تستطع أن تستنفد كل انتباهه . ومن بين هذه الأحداث زيارة ليبديف له .

لقد جاءه ليبديف فى وقت مبكّر ، بعد الساعة التاسعة بقليل ، وكان ثملاً بعض الشيء • كان الأمير قد لاحظ ، رغم أنه أصبح فى الآونة الأخيرة قليل الانتباه ، أن ليبديف صار رث الثياب منذ غادر الجنرال ايفولجين بيته ، أى منذ ثلاثة أيام • ذلك أمر يخطف البصر ولا يحتاج الى ملاحظة قوية • ان ليبديف شديد الوساخة والرثاثة الآن ، فملابسه ملطخة بالبقع ، ورباط عنقه مقلوب ، وياقة ردنجوته فيها تمزقات • وهو يحدث فى بيته كثيراً من الصخب والجلبة حتى ليُسمع زعيقه من خلال فناء الدار • وقد جاءت فيرا الى الأمير باكيةً فى ذات يوم ، فروت له أموراً شتى •

أخذ ليبديف يتكلم أمام الأمير بلهجة غريبة كل الغرابة ، لاطماً صدره متهماً نفسه بفعلةٍ سيئة لا يدرى السامع ما عسى تكون ••• وختم كلامه قائلاً بلهجة المأساة :

ـ لقد حصل •• وتلقيت جزاء خيانتى وحطتى •• تلقيت صفعة !••

قال الأمير :

ـ صفعة ؟ ممن ؟ ••• وفى مثل هذه الساعة المبكرة ؟

فأجاب ليبديف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ فى مثل هذه الساعة المبكّرة ؟ لا شأن للساعة فى الأمر ••• حتى ولو كانت العقوبة عقوبة جسمية ••• ولكنها عقوبة معنوية ••• عقوبة نفسية لا جسمية ، تلك العقوبة التى تلقيتها !•••

قال ليبديف ذلك وجلس فجأة دون احتفال فى هذه المرة ، وأخذ يروى قصته • واذ كانت القصة مفككةً جداً ، فقد قطب الأمير حاجبيه وتهيأ للانصراف • غير أن بضع كلمات خطفت انتباهه على حين فجأة ، فلبث فى مكانه كالمتجمد من الدهشة ••• لقد كان السيد ليبديف يروى أموراً غريبة •

يبدو أنه تكلم فى أول الأمر عن رسالة ما ، ذكر بصددها اسم آجلايا ايفانوفنا . ثم أخذ ، دون أى تمهيد ، يتهم الأمير نفسه بألفاظ مُرّة ، ويفهمه أن الأمير قد أهانه ، لأنه ــ أى الأمير ــ قد شرّفه فى أول الأمر بأن محضه ثقته فى أمور تتعلق « بشخص » ما (يقصد ناستاسيا فيليبوفنا) ، ثم قطع صلته به قطعاً كاملاً وأبعده ابعاداً مشيناً مهيناً ، حتى لقد تملص تملصاً فظاً من الاجابة عن « سؤال برىء يتعلق باحتمال حدوث تغير قريب فى المنزل » . واعترف ليبديف وهو يذرف دموعاً من دموع السكارى أنه بعد تلك الاهانة أصبح لايطيق الصبر على هذا الوضع ، لا سيما وأنه كان يعرف ... أشياء كثيرة ، من روجوجين ، ومن ناستاسيا فيليبوفنا ، ومن صديقة لها ، ومن باربارا آرداليونوفنا ... وحتى من .. من آجلايا ايفانوفنا نفسها . « تصور أن هذا حدث بواسطة فيرا ، بواسطة بنتى الحبيبة فيرا ، بنتى الوحيدة ... نعم نعم ... على أنها ليست وحيدة ، ما دام لى ثلاث بنات . ولكن من ذا الذى كتب الى اليزابت بروكوفيفنا ليطلعها على الأمور فى سرية تامة ؟ هىء هىء ! من أعلمها بجميع الوقائع والحركات ... المتعلقة بناستاسيا فيليبوفنا ؟ هىء هىء هىء ! من هو ذلك المراسل الذى لم يذكر اسمه ، هه ؟ هلاّ قلت لى ان كنت تعرف ! .. »

صاح الأمير قائلاً :

ــ هل يمكن أن تكون أنت ...؟

فأجاب ليبديف برصانة السكير وكبريائه :

ــ نعم أنا ! وفى هذا اليوم نفسه ، فى الساعة الثامنة والنصف ، أى منذ نصف ساعة ... لا بل منذ ثلاثة أرباع الساعة ، أبلغت تلك الأم النبيلة جداً أن هناك مغامرة ... ذات دلالة . ابلغتها ذلك ببطاقة نقلتها اليها الخادمة من باب الخدم . فاستقبلتنى .

سأله الأمير وهو لا يصدق أذنيه :

ـ رأيت اليزابت بروكوفيفنا منذ قليل.؟

ـ رأيتها منذ برهة ، وتلقيت منها صفعة ... صفعة معنوية طبعاً . فلقد ردّت اليّ الرسالة بل لقد رمتها في وجهي دون أن تفضها ثم أمسكت تلابيبي وأخرجتني من الغرفة ... معنوياً لا جسمياً .. على أنها أوشكت أن تفعل ذلك جسمياً !

ـ ما هي تلك الرسالة التي رمتها في وجهك دون أن تفضها ؟

ـ ولكن أأنا لم ... هيء هيء هيء ! كيف لم أقل لك ذلك بعد؟ يبدو لي أنني ذكرت لك هذا من قبل .... المسألة هي أنني كنت قد استلمت رسالةً لأوصلها الى المرسلة اليه ...

ـ رسالة الى من ؟ الى من ؟

لقد كانت بعض « ايضاحات » ليبديف عسيرة الفهم الى أبعد الحدود، وكان يصعب على المرء أن يستخرج منها أي شيء . كل ما استطاع الأمير أن يميزه هو أن الرسالة كانت قد استلمتها فيرا ليبديفا من خادمة بغية أن توصلها فيرا الى الشخص المرسلة اليه ... « كما في السابق ، كما في السابق ، لتوصلها الى شخص معين من الشخصية نفسها (انني أطلق كلمة «الشخص» على احدى المرأتين ، واطلق اسم الشخصية على المرأة الثانية اشارةً الى صغار الأولى ، والى الفرق الكبير بين ابنة جنرال نبيلة جداً وبين امرأة هي غادة كاميليا) . المهم أن الرسالة قد كتبتها « واحدة » « يبدأ اسمها بحرف آ » .

صاح الأمير قائلاً :

ـ أهذا ممكن ؟ أتراها كتبت الى ناستاسيا فيليبوفنا ؟ ذلك مستحيل !...

ـ حصل . كل ما هنالك أن الرسائل ان لم تكن قد أُرسلت الى

ناستاسيا فيليبوفنا فقد أُرسلت على الأقل الى روجويين ، والأمران واحد ••• حتى ان هناك رسالة من تلك التى يبدأ اسمها بحرف « آ » قد بُعثت الى السيد تيرنتيف ليتولى ايصالها •

أضاف ليبديف هذه الجملة الأخيرة وهو يغمز بعينه ويبتسم •

واذ كان ليبـديف يقفز فى كل لحظة من موضـوع الى موضوع وينسى ما كان بدأ يقوله ، فقد صمت الأمير ليتيح له أن يفرغ جعبته • غير أن هناك نقطة ظلت غامضة جداً : أكانت الرسائل تُبعث بواسطته أم بواسطة فيرا ؟ انه حين أكّد أن الكتابة الى روجويين والكتابة الى ناستاسيا فيليبوفنا سيان ، قد ترك للسامع أن يفهم أن هذه الرسائل ، اذا كان ثمة رسائل ، لا تُنقل بواسطته • فما يزال يصعب على المرء أن يعرف ما هى المصادفة التى جعلت تلك الرسالة تقع فى يديه • أغلب الظن أنه سرقها من فيرا بطريقة من الطرق • حتى اذا تمّ له الاستيلاء عليها بالاختلاس حملها الى اليزابت بروكوفيفنا وهو يضمر نيةً ما • ذلك هو الافتراض الذى انتهى به الأمر الى تصوره •

صاح يقول وقد اعتراه اضطراب شديد :

ـ لقد فقدت عقلك !

فأجابه ليبديف بشىء من المكر :

ـ لم أفقده تماماً أيها الأمير المعظّم ••• والحق أن الفكرة الأولى التى خطرت لى هى أن أعطيك أنت الرسـالة ، خدمةً لك ••• لكننى فكرت فرأيت أن هذه الخدمة أولى أن تُقدّم هناك ، وأن من الأفضل أن أحمل كل شىء الى علم تلك الأم التى هى أنبل الأمهات طراً ••• لا سيما وأننى سبق أن نبهتها مرةً فى كتاب لم أذيّله بتوقيعى ولا ذكرت فيـه اسمى • وفى البطاقة التى بعثتها اليها فى الساعة الثامنة والنصف من هذا

الصباح وقّعت هذا التوقيع أيضاً : « مراسلك المجهول » ، فسرعان ما قبلوا باهتمام شديد أن أدخل من سلم الخدم على الأم التى هى أنبل الأمهات طراً ...

ـ ثم ؟

ـ تعرفُ التتمة : لقد أوشكتْ أن تضربنى ، حتى ليكاد يمكننى أن أعدَّنى مضروباً . أما الرسالة فقد رمتها فى وجهى . صحيح أنها تساءلت لحظةً هل تحتفظ بالرسالة ، لكننى رأيت ... أو لاحظت أنها عدلت عن هذه الفكرة ، فرمت الرسالة قائلة : « ما دام قد كلّف شخص مثلك بايصال الرسالة ، فهلمَّ أوصلها ! .. » . حتى لقد شعرت بأنها مهانة . فلولا أنها شعرت بذلك لاستحت أن تقول مثل هذا الكلام أمامى . انها امرأة شديدة الاندفاع .

ـ أين الرسالة الآن ؟

ـ معى : هذه هى !

قال ليبديف ذلك وأعطى الأميرَ رسالةَ آجلايا الى جبريل آرداليونوفتش . انها البطاقة التى كان على جبريل آرداليونوفتش أن يوصلها الى أخته منتصراً بعد ساعتين .

قال الأمير :

ـ لا يجوز أن تبقى هذه الرسالة فى حوزتك .

فقال ليبديف بحرارة :

ـ اننى أعطيك اياها ، أعطيك اياها . أنا أعود الآن الى خدمتك مخلصاً ، أنا الآن ملك يديك ، رأساً وقلباً . أعود الى خدمتك بعد خيانة طارئة عارضة ! اطعن قلبى ، ولكن دع لى اللحية ، كما قال توماس موروس * فى انجلترا وفى بريطانيا العظمى . هذا ذنبى * ، كما قال أبو روما ، أى بابا روما ، لكننى أسميه أنا دائماً « أبو روما » .

قال الأمير ملحاً :

ـ يجب ايصال هذه الرسالة فوراً • أنا أتولى ذلك •

ـ أليس الأفضل ، يا أيها الأمير اللطيف الاحساس ، المرهف الشعور ، المؤدب ، أن •••

قال ليبديف ذلك وهو يجعّد وجهه تجعيدة غريبة مزعجة ، وتحرك على كرسيه كأن أحداً وخزه بابرة فجأة ، وغمز بعينه غمزة ماكرة ، وأشار بيديه الى شيء ما •

قال له الأمير بلهجة التهديد :

ـ ماذا تعني ؟

فهمس ليبديف يقول بلهجة المسارّة والبوح :

ـ يجب فتح الرسالة أولاً •

فوثب الأمير وقد عبّر وجهه عن غضب يبلغ من القوة أن ليبديف أوشك أن يولي هارباً، ولكنه حين بلغ الباب، توقف ينتظر الصفح والعفو•

هتف الأمير يقول بلهجة تعبّر عن حزن عميق :

ـ آه يا ليبديف ! هل يمكن حقاً أن يبلغ امرؤ من الفوضى والحطة ما بلغت أنت ؟

استردت ملامح ليبديف هدوءها • وسرعان ما اقترب من الأمير يقول لاطماً صدره ، والدموع في عينيه :

ـ أنا منحط ! أنا منحط !

ـ هذه دناءات •

ـ بالضبط : دناءات • هذه هي الكلمة المناسبة •

ـ علام هذا السلوك ••• العجيب ؟ ما أنت في حقيقة الأمر الا

جاسوس ! لماذا تكتب رسالة بغير توقيع ، لتروّع امرأة طيبة هذا الطيب نبيلة هذا النبل ؟ ولماذا لا يكون من حق آجلايا أن تكتب الى من تشاء الكتابة اليه ؟ هل ذهبت اليوم الى هناك لتشكى ؟ ماذا كنت تنتظر من هذه الخطوة التى قمت بها ؟ ما الذى دفعك الى هذه الوشاية ؟

ـ الفضول هو الذى دفعنى اليها وورطنى فيها ... وكذلك الرغبة فى أن أخدم انسانة نبيلة . نعم ...

كذلك تمتم ليبديف ثم أردف يقول :

ـ أما الآن فأنا لك وحدك ، أنا ملك يمينك من جديد . اشنقنى اذا شئت !

سأله الأمير باستطلاع يمازجه اشمئزاز :

ـ هل ذهبت الى اليزابت بروكوفيفنا وأنت على هذه الحال ؟

ـ لا ، لا ... كنت أنضر نفساً وأكثر انتعاشاً ، بل كنت كذلك أسلم سلوكاً وأقوم أدباً . ولم أصبح على الحال التى ترانى فيها الآن الا بعد تلك المهانة التى نالتنى وذلك الاذلال الذى أصابنى .

ـ طيب ، كفى ، دعنى !

ومع ذلك اضطر الأمير أن يكرر هذا الرجاء عدة مرات قبل أن يقرر زائره الانصراف . وحتى بعد أن فتح ليبديف الباب عاد الى وسط الغرفة سائراً على رءوس الأصابع ، واستأنف تجعيد وجهه محاكياً الحركات الدالة على ضرورة فض الرسالة . ولكنه لم يجرؤ أن يقرن الاشارة بالقول ، ثم خرج وعلى شفتيه ابتسامة وادعة ودود .

من كل ثرثرته التى يصعب فهمها كثيراً ، تبرز واقعة رئيسية خارقة : هى أن آجلايا تعانى أزمة شديدة من قلق وحيرة واضطراب . ان أمراً ما يعذّبها عذاباً قوياً (همس الأمير يقول : « الغيرة ») . وهناك

ملاحظة أخرى تفرض نفسها هي أن أناساً سيئي النية لا بد أنهم يلقون الروع في نفسها ؟ وانه لغريب كل الغرابة أن تمحضهم كل هذه الثقة. لا ريب في أن أهدافاً خاصة ، أهدافاً لعلها مشئومة ... أهدافاً غريبة على كل حال قد نبتت في هذا الرأس الصغير الذي تعوزه الخبرة والتجربة ولكنه شديد الحميا كثير الكبرياء ...

هذه الاستنتاجات أغرقت الأمير في ذعر رهيب ، حتى بلغ من الاضطراب أنه أصبح لا يدري ماذا يقرر . كان يحس أنه ازاء احتمال يجب منعه بأى ثمن . ونظر مرة أخرى في عنوان الرسالة المختومة : آه ... انه من جهته لا يساوره شك ولا يخامره قلق ، فان ثقته تحميه من ذلك . وانما يأتى الخوف الذى توقظه هذه الرسالة في نفسه من أنه لا يثق بجبريل آرداليونوفتش . ومع ذلك أوشك أن يقرر تسليم الرسالة بنفسه ، حتى لقد خرج من بيته وقد نوى هذه النية ، ولكنه عدل عن هذا الرأى في أثناء الطريق . وبمصادفة تشبه أن تكون عمداً اتفق أن لقى كوليا حين كاد يبلغ بيت بتسين . فكلفه بأن يوصل الرسالة الى أخيه كما لو كانت مرسلة اليه من آجلايا ايفانوفنا رأساً . ولم يلق كوليا أى سؤال ، وحمل الرسالة الى أخيه ، فلم يخطر ببال جانيا أن الرسالة يمكن أن تكون قد تنقلت بين أيدى ذلك العدد كله من الوسطاء .

وحين عاد الأمير الى البيت رجا فيرا لوكيانوفنا بأن تجيء اليه وقال لها ما كان يجب أن يقوله ليهدىء روعها ويخفف اضطرابها ، ذلك أنها كانت قد ظلت حتى ذلك الحين تبحث عن الرسالة باكية . وقد شُدهت الى أبعد حدود الشده حين علمت أن أباها سرقها منها . (وقد باحت له فيما بعد بأنها سبق أن توسطت عدة مرات سراً بين روجوين وآجلايا ايفانوفنا. لم يكن قد دار في خلد الفتاة أو خطر ببالها أن في ذلك شيئاً مخالفاً لمصالح الأمير ...) .

كان الأمير مبلبل الأفكار كثيراً • فلما هرعوا يقولون له نقلاً عن كوليا ان الجنرال مريض ، لم يكد يفهم ماذا يقصدون • ولكن انصرافه الى هذا الحادث أحسن اليه احساناً كبيراً • لقد قضى النهار كله ، حتى المساء ، في بيت نينا الكسندروفنا (الذي نقل اليه المريض طبعاً) • ولم يكن لحضوره أي فائدة تُذكر ، غير أن هناك أناساً يحب المرء أن يكونوا بقربه في بعض الظروف الشاقة الصعبة • لقد كان كوليا متأثراً أشد التأثر ، وكان يبكي بكاءَ من أصابته نوبة عصبية • ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون في عمل متصل طوال الوقت : فقد مضى يبحث عن طبيب ووجد ثلاثة أطباء ، وسعى راكضاً الى الصيدلي والى الحلاق • وأُنعش الجنرال ، لكنه لم يسترد شعوره ، وقال الأطباء « انه في خطر على كل حال » • لم تترك فاريا ونينا ألكسندروفنا المريض • وكان جانيا مضطرباً مصعوقاً ، ولكنه لا يريد أن يصعد ، حتى لقد كان يخاف أن يرى أباه • انه يعقف يديه ألماً وحسرة ، واستطاع في حديث مفكك جرى بينه وبين الأمير أن يقول ان « هذه مصيبة تنزل في مثل هذا الوقت بما يشبه العمد ! » وتراءى للأمير أنه فهم التلميحة التي تتضمنها هذه الكلمات •

كان هيبوليت قد ترك منزل بتسين• وفي نحو المساء هرع ليبديف• كان قد نام نوماً متصلاً منذ « الايضاح » الذي تم في الصباح حتى هذا الوقت • وكان قد ذهب عنه سكره تقريباً ، وكان يذرف على المريض دموعاً صادقة كأنه أخوه • وكان يتهم نفسه بصوت عال دون أن يحدد الخطأ الذي ارتكبه ، وكان يتعب نينا ألكسندروفنا بما يكرره عليها في كل لحظة من أنه وحده سبب كل شيء ولا أحد سواه ••• وأن سلوكه لم تدفعه اليه الا لذة الفضول ••• بل أن « المرحوم » (لا يدري المرء لماذا كان يصر على أن يصف الجنرال بهذا مع أن الجنرال ما يزال حياً) كان رجلاً عبقرياً ! كان ليبديف يلح على عبقرية الجنرال جاداً جداً خاصاً ،

كأن لهذه الواقعة في اللحظة الراهنة شأناً كبيراً وفائدة ضخمة • فقالت له نينا ألكسندروفنا أخيراً ، وقد رأت صدق دموعه ، قالت له بلهجة ودود دون أن يبدو عليها شيء من لوم : « طيب ••• أسأل الله لك العون ! لا تبك ! لا تبك ! سيغفر الله لك ! » فكان لهذه الكلمات واللهجة التي قيلت بها أثر كبير في ليبديف ، أثر بلغ من الشدة أنه لم يترك بعد ذلك نينا ألكسندروفنا طوال السهرة (وفي الأيام التالية ، الى أن مات الجنرال، ظل يبقى عندهم من الصباح الى المساء تقريباً) • وقد أوفدت اليزابت فيدوروفنا مَنْ يسأل عن أنباء الشيخ مرتين أثناء ذلك النهار •

وفي الساعة التاسعة من المساء حين ظهر الأمير في صالون آل ايبانتشين الذي كان قد امتلأ بالمدعوين منذ ذلك الحين ، أخذت اليزابت بروكوفيفنا تسأل عن المريض فوراً باهتمام كبير ، حريصةً على معرفة التفاصيل • فلما سألتها الأميرة بيلوكونسكايا : « من هو هذا المريض ؟ ومن هي نينا ألكسندروفنا ؟ » ، كان جوابها يشتمل على كثير من الجد والوقار • فأُعجب الأمير بهذه البادرة اعجاباً كبيراً • وكان هو نفسه ، في الايضاحات التي قدّمها الى اليزابت بروكوفيفنا ، يتكلم بطريقة «رائعة» كما عبَّرت أختا آجلايا عن ذلك فيما بعد : لقد تكلم « بتواضع ، وهدوء ، ورصانة ، ووقار ، دون أن يقول كلاماً زائداً لا محل له ولا داعي اليه ، ودون أن يحرك يديه باشارات لا جدوى منها • وكان قد دخل الصالون دخولاً موفقاً كل التوفيق ، ناجحاً كل النجاح ، وكانت ثيابه لا مأخذ عليها البتة ! » • لم تتعثر قدمه فيسقط على الأرض ، كما كان يخشى بالأمس !••• حتى لقد أحدث في نفوس جميع الحضور أجمل تأثير •

وقد لاحظ من جهته فوراً ، بعد أن جلس وتلفت ينظر فيما حوله، أن هذا الجمع لا يشبه في شيء ، الأشباحَ التي أخافته منها آجلايا بالأمس ولا الكوابيس التي وافته في الليلة البارحة • هذه أول مرة في حياته

يكتشف فيها زاوية مما يُطلق عليه هذا الاسم المروّع : « المجتمع الراقى » . لقد كان منذ مدة طويلة ، بسبب ما انعقدت عليه نفسه من نيات ومشاريع وميول ، يحترق شوقاً الى دخول تلك الدائرة المسحورة ؟ وكان لذلك يتساءل متحيراً أشد التحير عن الاحساس الأول الذى سوف يحسه فى هذا المجتمع . وكان احساسه فاتناً رائعاً . لقد بدا له فى الوهلة الأولى أن هؤلاء الناس كافة انما خُلقوا ليجتمعوا ، وأن آل ايبانتشين لا يقيمون « سهرة » ، وأنه ليس ازاء مدعوين بل ازاء اصدقاء «حميمين» ، وأنه هو نفسه فى موقف رجل يعود بعد فراق قصير الى أشخاص يمحضهم الود ويشاركهم آراءهم . ان آداب سلوكهم التى تتميز بالفتنة والرقى ، وبساطتهم وصدقهم الظاهرى ، ان ذلك كله قد أحدث فى نفسه أثراً يشبه أن يكون سحرياً . لم يستطع حتى أن يخطر بباله أن هذه الطيبة وهذا النبل فى آداب السلوك وهذا السمو فى الفكر وهذا الشعور الرفيع بالكرامة ، أن ذلك كله قد لا يكون الا اخراجاً مسرحياً . والحق أن أكثر المدعوين كانوا رغم مهابتهم الظاهرية أناساً تافهين الى حد بعيد ، وكان غرورهم يمنعهم من جهة أخرى أن يدركوا أن عدداً من مزاياهم ليس لهم فيه أى فضل لأنه غير شعورى أو لأنه مستعار أو لأنه موروث ؟ بل ان الأمير ، فى غمرة افتتانه بالاحساس الأول ، لم يُغره حتى أن يفترض هذا الافتراض . انه ، على سبيل المثال ، يرى شيخاً من كبار موظفى الدولة (يمكن أن يكون فى السن جَداً له) ، يقطع حديثه ليصغى الى كلام شاب غرٍ مثله ليس بذى خبرة . حتى ان هذا الشيخ لا يصغى اليه فحسب ، بل يبدو عليه أيضاً أنه يحترم رأيه ، فهو يظهر له كثيراً من الود واللطف ، وهو يبش له بشاشة فيها كثير من الصدق ، رغم أنهما لا يعرف أحدهما الآخر ، وانما يلتقيان أول مرة . لعل هذه التهذيب الناعم الرقيق هو الذى أثّر فى طبيعة الأمير الحارة الحسّاسة . ولعله حين جاء كان فى حالة نفسية تهيئه للتفاؤل .

والحقيقة هي ان الروابط التي كانت تصل بين جميع هؤلاء الأشخاص وبين أسرة ايبانتشين ، كما تربطهم بعضهم ببعض، كانت أوهى كثيراً مما ظن الأمير حين قُدِّم اليهم وتعرَّف بهم • ان بينهم أناساً ما كان لهم أبداً أن يعدوا آل ايبانتشين انداداً لهم بحال من الأحوال • بل ان بينهم أناساً يكره بعضهم بعضاً أعمق الكره • ان العجوز بيلوكونسكايا كانت طوال حياتها «تزدري» امرأة ذلك الشيخ الذي هو من كبار موظفي الدولة • وكانت هذه الأخيرة من جهتها لا تحب اليزابت بروكوفيفنا •

ان « الموظف الكبير » الذي كان حامي الزوجين ايبانتشين منذ منذ شبابهما والذي يحتل الآن في بيتهما مكان الشرف ، كان له في نظر الجنرال ايبانتشين شأن يبلغ من العلو والرفعة أن الجنرال ايبانتشين ما كان ليستطيع بحال من الأحوال أن يشعر ازاءه بعاطفة غير عاطفة التقديس والرهبة ؛ فلو ظن في لحظات من اللحظات أنه ندٌ له فكفَّ عن اعتباره الهاً من آلهة الأولمب مثل جوبيتر ، اذن لاحتقر نفسه صادقاً مخلصاً •

وكان بين الحضور أيضاً أناس لم يلتق بعضهم ببعض منذ سنين ، ولا يحمل بعضهم لبعض من عاطفة غير عدم الاكتراث ، هذا اذا لم يحمل بعضهم لبعض عداوة • ولكن هذا لا ينفي أنهم يلتقون الآن التقاءَ مَنْ كانوا بالأمس معاً ، فهم في أشهى صحبة وأمتع مجالسة •

ولم يكن عدد المجتمعين كبيراً على كل حال • هناك ، عدا الأميرة بيلوكونسكايا ، و « الشيخ الجليل » الذي كان في الواقع شخصية خطيرة الشأن ، وزوجته ، هناك رجل آخر يلفت الانتباه ، هو جنرال يحمل لقب بارون أو كونت ، واسمه ألماني • ان هذا الرجل الصموت الى حد خارق كان يُشتهر بأنه يعرف شئون الدولة معرفة معجزة ، حتى لقد كان يُعدُّ عالماً من العلماء ان صح التعبير • انه واحد من أولئك الاداريين الفطاحل الذين يعرفون « كل شيء » ، الا روسيا » ، والذين يصدرون في كل خمسة

أعوام « فكرة يهزُّ الناس عمقُها ويكون لها دويٌّ كبير » والذين يذهب كلامهم مذهب الأمثال ويصل الى مسامع أعلى الشخصيات مقاماً • انه واحد من أولئك الموظفين الأعلين الذين يموتون فى العادة بعد عمر فى الوظيفة طويل جداً (بل طويل طولاً عجيباً) ، والذين يكونون قد وصلوا الى رتب عالية واحتلوا مناصب رائعة وملكوا ثروة ضخمة ، دون أن يكونوا قد قاموا مع ذلك بأية أعمال ساطعة باهرة ، حتى انهم يظهرون بعض النفور من الأعمال الساطعة الباهرة •

ان هذا الجنرال هو ، فى الوظيفة ، الرئيس المباشر لصاحبنا الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين الذى كان بعاطفة الشكر الحارة وبدافع حب الذات أيضاً يرى أن لرئيسه عليه أيادى بيضاء ويعتقد أنه مدين له بفضل كبير ، رغم أن الآخر لم يكن يعد نفسه محسناً الى ايفان فيدوروفتش أو منعماً عليه ، حتى لقد كان لا يكترث به كثيراً • وهو رغم رضاه عن الخدمات التي يقدمها اليه ايفان فيدوروفتش، مستعد لأن يستبدل به شخصاً آخر على الفور اذا ظهر له أن ثمة اعتبارات ، ولو كانت ثانوية ، تجعل الاستغناء عنه أمراً مناسباً •

وكان الحفل يضم شخصية أخرى خطيرة الشأن هى رجل متقدم فى السن يبدو عليه أنه يمت بقربى الى اليزابت بروكوفيفنا ، ولكنه فى حقيقة الأمر لا تربطه بها أية قرابة • ان له رتبة ومركزاً يُحسد عليهما • هو رجل غنى كريم المحتد ، قوى البنية ، مزدهر الصحة • وهو الى ذلك محدث بارع • وقد اشتهر بأنه رجل مستاء (بالمعنى المقبول لهذه الكلمة)، بل أنه رجل ساخط (وتلك سمة كانت فيه ذات سحر وفتنة) وكانت آدابه فى السلوك آداب رجل ارستوقراطى انجليزى ، وكانت ميوله وأذواقه انجليزية أيضاً (من ذلك أنه كان يحب أن يأكل الشواء دامياً ، ويحب المركبات الفخمة ، ويحب الخدم بأزيائهم الرسمية) • وهو على

علاقة حميمة بالشيخ الجليل ، « الموظف الكبير » ، يبذل فى سبيل تسليته كل جهد . وكانت اليزابت بروكوفيفنا ، من جهة أخرى ، تداعب خيالها فكرةٌ غريبة هى أن هذا البارون (الذى كان لا يُعدُّ من المتمسكين كثيراً بأهداب الفضيلة ، وكان يُعدُّ من هواة الجنس اللطيف) قد يريد ذات يوم أن يحقق سعادة ألكسندرا بطلب يدها .

وتحت هؤلاء المدعوين الذين هم أعلى أفراد الحفل مقاماً وأكثرهم مهابة ، تأتى فئة من المدعوين أصغر سناً ، لكن أفرادها أناس مرموقون أيضاً . فمن هؤلاء الأمير « شتشـ ... » وأوجين بافلوفتش ، ومنهم الأمير « ن ... » المعروف بما حقق من انتصارات مع النساء فى أوروبا . انه فى نحو الخامسة والأربعين من العمر ، فارع القامة ممشوق القد ، يملك موهبة مدهشة فى الحديث ويتمتع بقدرة عجيبة على سرد القصص ورواية الحكايات . وهو رغم أن ثروته تضاءلت قليلاً ، ما يزال يؤثر أن يقضى أيامه فى الخارج محتفظاً بهذه العادة .

وهناك أخيراً فئةٌ ثالثة تضم أولئك الذين لا ينتمون الى « الدائرة المغلقة » من المجتمع ، ولكن يمكن أن نراهم فيها أحياناً ، فمن هؤلاء مثلاً أسرة ايبانتشين نفسها . كان آل ايبانتشين ، بما لهم من حس سليم ولباقة يستوحونها سلوكهم ، يحبون فى المناسبات القليلة التى يقيمون فيها حفلات استقبال ، أن يجمعوا بين أفراد المجتمع العالى وبين أفراد طبقة أدنى تمثل صفوة « المجتمع المتوسط » . فكان الناس يحمدون لهم هذا الحساب ويصفونهم بأنهم يعرفون مكانهم ويحسنون التصرف ، وذلك رأى كان آل إيبانتشين يعتزون به .

فالى تلك الطبقة المتوسطة كان ينتمى أحد المدعوين وهو مهندس برتبة كولونيل ، يتصف بالجد وتربطه بالأمير « شتشـ ... » صداقة قوية ، فالأمير « شتشـ ... » هو الذى عرّفه بأسرة ايبانتشين وأدخله الى بيتها .

وكان الرجل قليــل الكلام فى المجتمع ، يزيّن ابهـام يده اليمنى خاتم ضخم أغلب الظن أنه هدية امبراطورية •

وأخيراً فقد كان بين الحضور أديب شـاعر أصله ألمانى لكن أدبه روسى • انه رجل فى نحو الثـامنة والثلاثين من عمـره ، لائق المظهر فلا ضير فى ادخاله الى المجتمع الراقى• ان هيئته حسنة، رغم أن فى وجهه شيئاً يبعث على النفور • وهو يعنى بهندامه عناية كاملة ، وينتمى الى أسرة ألمانية ان تكن بورجوازية فانها تحظى باعتبار كبير • ولقد كان يحسن الاستفادة من الظروف وانتهاز الفرص ليندس تحت حماية شخصية من الشخصيات العالية ، وأن يحافظ على الحظوة لديها • وقد ترجم فى الماضى عن اللغة الألمانية الى اللغة الروسية كتاب شاعر جرمانى كبير ، وصدّر الكتاب المترجم باهداء مفيد • وكان يحسن الانتفاع بعلاقات الصداقة مع شاعر روسى شهير توفى الآن (ان هنـاك فئـة كبيرة من الكتـاب يحلو لأفرادها أن يعرضوا ما كان بينهم وبين مؤلف مشهور من صداقة حميمة ، متى مات ذلك المؤلف) ، وقد أدخلته الى أسرة ايبانتشين منذ مدة قصيرة زوجـة « الشيخ الجليل ، الموظف الكبير » • كانت هذه السـيدة تُعدّ حامية الأدباء والعلمـاء • والحق أنها قد دبّرت راتبـاً لكاتب أو كاتبين بواسطة أناس من اصحاب المناصب الرفيعة الذين كان لها عليهم نفوذ • ولقد كان لهـا فى الواقع تأثير ووزن • انها فى الخامسـة والأربعين من عمرها (فهى اذن شابة بالنسبة الى زوجها الذى كان شيخاً) ، ولقد كانت جميلة وكانت ما تزال تحب ـ وذلك ميل شائع فى كثير من النساء اللواتى بلغن عمرها ـ أن ترتدى ملابس فيها كثير من البهرج • وكان ذكاؤها دون الوسط ، وكانت ثقافتها الأدبية مشكوكاً فيها • ولكنها كانت مولعة أشد الولع بحماية الأدباء ، كولعها بارتداء أحلى الملابس • وكانت تهدى اليهـا كتب كثيرة وترجمـات كثيرة • وقد نشر كاتبـان أو ثلاثة ، بعـد استئذانها ، الرسائل التى كانوا قد كتبوها اليها فى موضوعات هامة جداً••

ذلك هو المجتمع الذى حسبه الأمير فضةً خالصة أو ذهباً نقياً بغير شائبة . وعدا هذا فقد اتفق أن كان جميع هؤلاء فى ذلك المساء ، زاخرين بالتفاؤل مفتتنين بأنفسهم . كان كل واحـد منهم مقتنعاً بأن زياته تغمر أسرة ايبانتشين فخراً وشرفاً . ولكن الأمير ، وا أسفاه ، لم يكن يدرك هذه اللطائف ولا كانت تخطر له على بال . لم يدر فى خلده مثلاً أن آل ايبانتشين ، وقد اتخذوا قراراً يبلغ من الخطورة مبلغ هذا القرار الذى يتوقف عليه مصير ابنتهم ، ما كان لهم أن يتجرأوا على اعفاء أنفسهم من تقديمه ، هو الأمير ليون نيقولايفتش ، الى هذا الموظف الكبير الشيخ ، الذى يعد حامى أسرتهم ؟ وأن هذا الشيخ الذى يمكن أن يحتفظ بأكمل هدوئه وأتم سكينته اذا علم أن كارثة كبيرة قد حلت بأسرة ايبانتشين ، لا بد أن يستاء أشد الاستياء وأن يعد نفسه مهاناً الى أبعد حدود الاهانة لو زوّج الأبوان ابنتهما دون أن يستشيراه ودون أن يحصلا على موافقته ان صح التعبير . أما الأمير « ن ... » ، هذا الشـاب الفتّان ، الذى لا شك فى أنه يفيض مرحاً وصراحةً ، فقد كان مقتنعاً اقتناعاً مطلقاً بأن ظهوره هذه الليلة فى صالون أسرة ايبانتشـين حادث يشـبه شروق الشمس . انه يضعهم فى موضع أدنى منه بمائة قدم ؟ ولا شك أن هذه الفكرة البريئة النبيلة هى التى كان يستمد منها طلاقته المحببة وبشاشته الودود فى معاملتهم . كان يعلم أنه سيجب عليه فى تلك السهرة أن يروى شيئاً ليبهج الحفل ويفتنه ، فكان يستعد لهذا الأمر ويتهيأ للقيام بهذا الدور وقد توقدت قريحتـه ووافاه الهـامه . ان الأمير ليون نيقولايفتش حين أصغى بعد قليل الى ما حكاه هذا الشاب قد أحس أنه ما سمع فى يوم من أيام حياته شيئاً يمكن أن يقارن بهذه الفكاهة المتألقـة ، وهذا المرح المدهش وهذه السذاجة التى تكاد تكون مؤثرة فى فم دون جوان مثل الأمير « ن ... » . ليته عرف الى أى حـد كانت هذه الحكاية قديمـة عتيقة ، ذابلة ذاوية ، معادة مكرورة . ان هذه القصة التى رواها الأمير

« ن ... » يمكن أن تعد عند آل ايبانتشين السذّج البسطاء فكاهة جديدة وارتجالاً متألقاً يصدر صادقاً عفوَ الخاطر عن محدث بارع فتان فكه ، ولكنها في أي صالون آخر لا بد أن يُحكم عليها بأنها باعثة على أكبر الضجر وأشد الملل والسأم . وحتى الشويعر الألماني ، رغم كل ما اصطنعه من تودد وتواضع ، كان يميل كذلك الى الاعتقاد بأن حضوره يشرّف الدار .

ولكن الأمير لم يلاحظ من الموقف الا وجهه الحسن ، أما وجوهه الأخرى فهو لا يراها . ولم تكن آجلايا قد تنبأت بذلك كله . حتى انها كانت هي نفسها في ذلك المساء رائعة الحسن باهرة الجمال . كانت الفتيات الثلاث يرتدين ثياباً أنيقة ، ولكن بغير غلو واسراف ، وقد صفّفن شعورهن تصفيفاً جديداً غير مألوف لهن أو معهود فيهن .

وكانت آجلايا جالسةً قرب أوجين بافلوفتش تكلمه وتمازحه بلهجة حميمة جداً. وكان أوجين بافلوفتش أكثر رصانة مما عُهد فيه ، ولا شك أن ذلك كان منه مراعاة ومداراة للشخصيات المرموقة التي يضمها الحفل. على أنه رجل معروف في اجتماعات المجتمع الراقي منذ مدة طويلة ، وكان يُنظر اليه على أنه واحد من أبناء ذلك المجتمع . وقد حضر في ذلك المساء وعلى قبعته شريط أسود ، وهذا ما جلب له ثناء الأميرة بيلوكونسكايا : ففي ظروف كهذه الظروف ما كان لرجل آخر من أبناء المجتمع الراقي أن يفعل مثل هذا حداداً على وفاة عم كذلك العم . وقد أظهرت اليزابت بروكوفيفنا رضاها عن ذلك وارتياحها له أيضاً . ولكن كان يبدو عليها كثير من الهم وانشغال البال .

ولاحظ الأمير أن آجلايا نظرت اليه مرة أو مرتين بانتباه، وبدا عليها الرضى عنه . وشيئاً بعد شيء أحس بقلبه يتفتح سعادةً . ان الخواطر «الخيالية» والمخاوف التي اجتاحته من قبل (بعد حديثه مع ليبديف) تبدو

له الآن ، من خلال تذكرها تذكراً مفاجئاً ولكنه متكرر ، أشبه بأحلام لا صلة بينها وبين الواقع ، أحلام غير معقولة بل ومضحكة ! (وقبل ذلك ، طوال النهار ، كانت أعز رغبة في قلبه ، وان تكن رغبة غير شعورية ، هي أن يبرهن لنفسه على أنه لم يكن ثمة مجال لتصديق تلك الأحلام) . وكان يتكلم قليلاً ، ويقتصر على الاجابة عن الأسئلة التي تُلقى عليه . وفي النهاية لزم صمتاً كاملاً ، وظل يصغي الى الآخرين كانسان بلغ قمة السعادة . وشيئاً فشيئاً ، استولى عليه نوع من الالهام مستعد لأن ينطلق في كل لحظة ... ومع ذلك ، لئن عاد يتكلم فهو انما تكلم مصادفةً ليجيب عن سؤال ، دون أية نية مبيتة فيما يبدو ...

الفصل السابع

بينما كان الأمير يتأمل آجلايا وقد غمرته السعادة ، متابعاً مع الأمير « ن ... » وأوجين بافلوفتش حديثاً مرحاً ، كان الرجل المسن الذى يصطنع سلوكاً انجليزياً ، كان يتحدث فى الطرف الآخر من الصالون مع « الموظف الكبير » ، فاذا هو أثناء الاندفاع فى الكلام ينطق باسم نيقولا آندريفتش بافلتشيف فجأة . فالتفت اليهما الأمير على الفور وأخذ يتابع حوارهما .

كان الكلام يدور على الأنظمة الجديدة وعلى ما نشأ عنها من اضطرابات فى توزع أملاك كبار المالكين بمقاطعة « ز ... » . ولا بد أن القصة التى كان يرويها الرجل المشغوف بعادات الانجليز كانت فى ذاتها باعثة على الضحك لأن « الموظف الكبير » قد أخذ يضحك أخيراً حين سمع صاحبه يعبّر عمّا فى نفسه من مرارة . كان الرجل المشغوف بعادات الانجليز يتكلم بسهولة ويسر ، مصنعاً مطّ ألفاظه وتليين حروفه ، وكان يروى كيف أن تلك النظم الجديدة قد أجبرته على أن يبيع بنصف الثمن أرضاً رائعة كان يملكها فى تلك المقاطعة ، رغم أنه لم يكن فى حاجة الى مال ؟ وكيف احتفظ فى الوقت نفسه بأرض خراب يباب لا يجنى منها الا الخسارة ، عدا اضطراره الى ملاحقة دعوى فى شأنها لدى القضاء . « ومن أجل أن أتحاشى ملاحقة دعوى أخرى تتعلق بالأراضى التى خلّفها بافلتشيف ، آثرت أن أزهد بالميراث أصلاً . يكفى أن يئول الىّ ميراث

أو ميراثان من هذا النوع حتى تصير حالى الى دمار • لاحظ أن نصيبى من ذلك الارث كان يقدّر بثلاثة آلاف هكتار ، أطياناً ممتازة ! » •

لاحظ ايفان فيدوروفتش الاهتمام الشديد الذى كان ينصرف به الأمير الى ذلك الحديث ، فاقترب منه فجأة وقال له بصوت خافت :

ـ اسمع ••• ان ايفان بتروفتش يمت بقرابة الى المرحـوم نيقولا آندريفتش بافلتشيف • أظن أنك تبحث عن أقرباء له ، أليس كذلك ؟

كان ايفان فيدوروفتش حتى ذلك الحين لا يتجه بنظره وعنايته الى أحد غير رئيسه الجنرال • لكنه وقد لاحظ منذ برهة أن ليون نيقولايفتش مهمل اهمالاً تاماً ، شـعر من ذلك بشىء من القلق • لهـذا حـاول أن يُشركه فى الحديث بعض الاشراك بتقديمه الى «الشخصيات» مرة أخرى وبتزكيته لديها • فلما وقع بصره على ايفان بتروفتش قال :

ـ ان ليون نيقولايفتش انمـا نشـّأه نيقولا آندريفتش بافلتشيف ، حين مات عنه أبواه •

فأجاب ايفان بتروفتش بقوله :

ـ تـ •• شر •••• فنا • وانى لأتذكرك تذكراً واضحـاً • لقـد عرفتك وتذكرت حتى وجهك منذ تولى ايفان فيدوروفتش تعريف كل منا بالآخر • الحق أنك لم تتغير كثيراً ، رغم أن عمرك لم يكن يتجاوز العاشرة أو الحـادية عشرة حين رأيتك • حتى أن فى ملامحك شـيئاً رسخ فى ذاكرتى •••

سأله الأمير بما يشبه الشده :

ـ عرفتنى طفلاً ؟

فتابع ايفان بتروفتش كلامه يقول :

ـ منذ زمن بعيد جداً !... كان ذلك فى زلاتوفرخوفو ، حيث كنت تقيم عند قريباتى . كنت فى ذلك العهد أكثر من الذهاب الى هناك. ألا تتذكرنى ؟ لا عجب ... لقد كنتَ عندئذ فى حالة مرضية لا أدرى ما هى ... حتى اننى أذكر أن دهشة شديدة قد اعترتنى حين رأيتك ..

قال الأمير مؤكداً بحرارة :

ـ أنا لا أتذكر شيئاً !

وأضاف ايفان بتروفتش ، بكثير من الرصانة والوقار ، بضعة أقوال أخرى أدهشت الأمير وأثرت فى نفسه . قال ان الآنستين العجوزين اللتين تمتان بقرابة الى المرحوم بافلتشيف وكانتا تعيشان في أراضيه بزلاتوفرخوفو ، واللتين عُهد اليهما بتربية الأمير ، هما فى الوقت نفسه قريبتان له . وكسائر الناس ، كان ايفان بتروفتش لا يكاد يعرف شيئاً عن البواعث التى خضع لها بافلتشيف حين اهتم ذلك الاهتمام كله بالأمير الصغير الذى كفله بافلتشيف وجعل نفسه وصياً عليه . « لم يخطر ببالى أن أسأل عن هذا الأمر في ذلك الوقت » . كذلك قال ايفان بتروفتش. ولكنه برهن مع ذلك على أن له ذاكرة ممتازة ، فهو لم ينس حتى أن كبرى قريبتيه ، وهى مارتا نيكيتشينا ، كانت شديدة القسوة على الأمير الذى عهد به اليها ، وأضاف ايفان بتروفتش الى ذلك قوله : « حتى لقد بلغتُ من قسوتها اننى شاجرتها مرةً بسببك ، لأننى كنت أشجب أسلوبها فى التربية ، القائم على أن تلهب بالسياط جسم طفل مريض .. وهذا ... كما تعلم ... » ولا كذلك أختها الصغرى ناتاليا نيكيتشينا ، فقد كانت نفسها زاخرة بالحنان على الطفل المسكين ... » لا بد أن تكونا الآن كلتاهما فى مقاطعة ز ، حيث أورثهما بافلتشيف أرضاً ممتازة (ولكن أما تزالان على قيد الحياة ؟ لا أدرى) . أظن أن مارتا نيكيتشينا كانت تنتوى أن تدخل الدير . على أننى لا أؤكد ذلك . من الجائز أن أكون

قد سمعت هذا الكلام عن امرأة أخرى ••• ! •• نعم •• تذكرت ••• لقد قيل لى هذا عن زوجة طبيب •• » •

كان الأمير يصغى الى هذه الأقوال وقد سطعت عيناه فرحاً ونشوة وحناناً • وأعلن من جهته بحرارة شديدة أنه لن يغفر لنفسه فى يوم من الأيام أنه تنقل في داخل البلاد خلال هذه الأشهر الستة ثم لم يتح له أن يمضى الى زيارة مربيتيه • لقد كان فى كل يوم ينوى أن يفعل ذلك ، ثم تحول الظروف بينه وبين انفاذ ما يعقد النية عليه ••• غير أنه فى هذه المرة قد قرر جازماً أن يذهب الى مقاطعة ز ••• وأضاف الأمير : « أأنت تعرف اذن ناتاليا نيكيتشينا ؟ يا لها من امرأة عظيمة ، قديسة ! وكذلك مارتا نيكيتشينا ••• معذرة •• يخيَّل الىّ أنك تخطىء الظن فيها قليلاً ••• صحيح أنها كانت قاسية ، ولكن يجب أن تُعذر ••• كيف لا يُفقدها صبرَها طفلٌ أبله تماماً في ذلك الأوان ؟ (هىء هىء !) • اننى كنت أبله كل البلاهة حينذاك • ألا تصدق ؟ (هأ هأ !) •• ثم •• ثم انك قد رأيتنى فى ذلك العهد ، و ••• ألا تلاحظ أننى لا اتذكرك ؟ ألا يدل هذا على أننى ••• آه ••• يا رب ! أصحيح أنك قريب نيقولا آندريفتش بافلتشيف حقاً ؟

قال ايفان بتروفتش مبتسماً وهو يتفرس فى الأمير :

ـ أ ••• ؤ ••• كد لك ذلك !

ـ أرجوك ••• ما أردت أن أقول اننى أشك في صدق كلامك !•• ثم ••• هل يمكن الشك فى هذا (هىء هىء !) ••• ولو قليلاً ؟ نعم ، ولو قليلاً ؟ (هىء هىء !) • وانما أردت أن أقول ان المرحوم نيقولا آندريفتش بافلتشيف كان رجلاً رائعاً ، كان انساناً عظيماً ! ما كان أكرمه ! أحلف لك •••

لا اقول ان الامير كان يشعر باختناق ، بل اقول ان « امتلاء قلبه بالسعادة قد سدّ حلقه » على حد التعبير الذى استعملته آديلائيد فى الغداة حين تحدثت مع خطيبها الأمير « شتش ... » ...

قال ايفان بتروفتش ضاحكاً :

ـ ولكن لماذا يستحيل أن أمت بقرابة لرجل كريم كرماً ع .. ظيماً؟

اضطرب الأمير وشعر بخجل شديد فأسرع يقول بتعجل وحرارة ما ينفكان يتزايدان :

ـ أنا ... أنا ... هذه حماقة جديدة أرتكبها ... هذه سخافة جديدة أقولها ... لأننى .. لأننى .. لأننى .. يميناً ان لسانى قد خان فكرى ! ولكننى أعود فأسألك ما عسى تكون قيمة شخصى أنا بالقياس الى أمور كهذه الأمور ، بالقياس الى أمور ضخمة هذه الضخامة ؟ بالقياس الى رجل عظيم هذه العظمة ! ذلك أنه ـ شهد الله ـ كان أعظم الرجال ... أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

كانت أعضاء الأمير كلها ترتعش . أما من أين جاءه هذا التأثر المباغت ولماذا اجتاحته هذه العاطفة كلها فجأةً ، دون تناسب بينها وبين موضوع الحديث ، فذلك أمر يصعب تعليله . ولكننا نستطيع أن نقطع بأنه بلغ من الانفعال فى تلك اللحظة أنه كان يحس بشعور الشكر كاوياً محرقاً ، دون أن يعرف ماذا يشكر ولا من يشكر ، حتى لكأن الشكر لايفان بتروفتش نفسه ولسائر الحضور أيضاً . كان الأمير يطفح سعادة. نظر اليه ايفان بتروفتش بمزيد من التفرس . وحدّق اليه « الموظف الكبير » بكثير من الانتباه كذلك. وألقت عليه الأميرة بيلوكونسكايا نظرات تفيض غضباً وحنقاً ، وأخذت تقرص شفتيها . وتوقف الأمير « ن .. » ، وأوجين بافلوفتش ، والأمير « شتش ... » ، والآنسات ، وسائر

الحاضرين ، توقفوا جميعاً عن الكلام وأصاخوا بأسماعهم • وكانت أجلايا تبدى اشارات رعب ، وكانت اليزابت بروكوفيفنا قد خرجت عن طورها حقاً • عجيب أمر الأم وبناتها : انهن هنَّ اللواتى قررن وارتأين أن من الأفضل أن يبقى الأمير صامتاً طوال السهرة ، فلما رأينه منعزلاً كل الانعزال فى ركن من الصالون راضياً عن حظه مفتوناً به، أخذ يساورهن الخوف ؛ حتى لقد خطر ببال آديلائيد أن تقطع الغرفة كلها مقتربةً منه على حذر لتقوده الى جماعتها التى تضم الأمير « ن ••• » قربَ الأميرة بيلوكونسكايا • حتى اذا اندفع الآن فى الحديث تضاعف قلقهن وازدادت مخاوفهن •

قال ايفان بتروفتش بلهجة فخمة وقد كفَّ عن التبسم :

ـ انك لعلى حق حين تصفه بأنه كان انساناً رائعاً ••• نعم ، لقد كان انساناً ممتازاً •

وأضاف بعد صمت قصير :

ـ انساناً ممتازاً وجديراً بالاعتبار •

وزاد على ذلك بعد برهة أخرى فقال :

ـ بل ويمكن القول انه كان جديراً بكل احترام • ومما يثلج صدر المرء حقاً أن يرى أنك من جهتك •••

قال « الموظف الكبير » وهو يحاول أن يستجمع ذكرياته :

ـ أليس بافلتشيف هذا هو ذلك الرجل الذى كانت له حكاية •• خاصة ••• مع قس •• مع القس ••• نسيت اسمه •• ولكن أثارت حكايته فى حينها لغطاً كثيراً ؟••

قال ايفان بتروفتش :

ـ القس جورو ، رجل يسوعى • نعم ، أولئك هم رجالنا الممتازون الجديرون بالاعتبار ! ولكن بافلتشيف كان نبيل المحتد وكان يملك ثروة، وكان موظفاً بالبلاط ••• ولو بقى فى الوظيفة لأمكن أن ••• ولكنه ترك وظائفه وترك جميع علاقاته فجأة ليعتنق الديانة الكاثوليكية ويصبح يسوعياً حتى لقد فعل ذلك بما يشبه الحماسة • بصراحة : لقد مات فى الوقت المناسب • نعم • جميع الناس قالوا هذا حين مات •••

أصبح الأمير لا يستطيع كبح جماح نفسه ، فصاح يقول بلهجة مروعة :

ـ بافلتشيف ••• بافلتشيف اعتنق الكاثوليكية ؟ مستحيل !

فدمدم ايفان بتروفتش بلهجة رصينة :

ـ كيف « مستحيل » ؟ هذا كثير يا عزيزى الأمير • يجب أن توافق على أن •• ولكنك تقدر المتوفى قدراً كبيراً والحق أنه كان انساناً ذا قلب كبير ، وذلك هو السبب الذى أعزو اليه خاصة كل ما حققه ذلك المحتال جورو من نجاح لديه• ولكن فى وسعك أن تسألنى أنا عن المتاعب والهموم التى أصابتنى فى أعقاب هذا الأمر •• ولا سيما مع جورو ذاك نفسه !

وأضاف ايفان بتروفتش يقول ملتفتاً نحو الرجل العجوز مخاطباً اياه :

ـ تصور انهم أرادوا حتى أن يدّعوا حقوقاً فى الميراث• فاضطررت أن أعمد الى أشد الاجراءات لأسمعهم صوت العقل وأردهم الى الصواب• ذلك أنهم يعرفون ما يفعلون • هؤلاء أناس مدهشون ! ولكن •• الحمد لله ! لقد حدث الأمر بموسكو ، فاتجهت فوراً الى الكونت وأرجعناهم الى الرشاد •

هتف الأمير يقول من جديد :

ـ لا تستطيع أن تتصور مدى ما أحدثته فى نفسى من ألم واضطراب!

ـ آسف • ولكن ذلك كله لم يكن فى حقيقة الأمر الا سفاسف ، وكان يمكن أن ينتهى بسلام ، كما يحدث عادة • انني مقتنع بذلك •

ثم أضاف يقول مخاطباً العجوز من جديد :

ـ فى الصيف الماضى دخلت الكونتيسة ك ••• أحد الأديرة بالخارج ، فيما يقال • ان مواطنينا لا يملكون أية قدرة على المقاومة حين يتسلط عليهم أولئك المحتالون ، ولا سيما فى الخارج •

ـ أظن أن مرد ذلك كله الى أننا متعبون • ثم ان لأولئك الناس أسلوباً فى التبشير يمتاز بكثير ••• بكثير من الرشاقة والأناقة ، هذا عدا أن لهم شخصية قوية ، فيعرفون كيف يخيفونك ويروّعونك • لقد أخافونى أنا نفسى • اعترف لكم بذلك • حدث هذا سنة ١٨٣٢ بمدينة فيينا • ولكننى لم أسقط بين أيديهم ، بل وليّت هارباً • هأ هأ ! يميناً لقد وليت هارباً !•••

هنا تدخلت الأميرة بيلوكونسكايا فجأة فقالت :

ـ لقد سمعت يا صديقى العزيز أنك فى ذلك الوقت قد هربت من فيينا الى باريس فى صحبة امرأة جميلة هى الكونتيسة ليفيكى • فمن أجل تلك المرأة ، لا تخلصاً من يسوعى ، انما تركت الخدمة •

أجاب العجوز مبتسماً لحلاوة تلك الذكرى الجميلة :

ـ طيب ••• ولكن هذا لا ينفى أن ذلك حدث بسبب يسوعى ••

ثم أضاف يقول بلهجة لطيفة ودود ، مخاطباً الأمير ليون نيقولايفتش الذى كان يصغى الى الحديث فاغر الفم من الدهشة ، وكان ما يزال يبدو مصعوقاً :

ـ يبدو عليك أن لك عواطف دينية قوية جداً ، وذلك أمر يندر أن نراه الآن لدى الشباب •

كان واضحاً أن العجوز يرغب فى معرفة الأمير معرفة أكمل ، وأن هناك أسباباً تدفعه الى بدء الاهتمام به اهتماماً قوياً •

قال الأمير فجأة :

ـ كان بافلتشيف رجلاً صافي الذهن راجح العقل ، وكان مسيحياً حقاً • فكيف يمكن أن يعتنق ديانة ••• ليست مسيحية ؟ ذلك أن الكاثوليكية دين ليس من المسيحية فى شىء !

كانت عيناه تسطعان وكان يجيل بصره على من حوله كأنه يريد أن يشمل الحضور كافةً بنظرة واحدة •

جمجم العجوز يقول وهو يرشق ايفان بتروفتش بنظرة تنم على الدهشة :

ـ أظن أن فى هذا بعض الغلو !

وانبرى ايفان بتروفتش يسأل الأمير قائلاً له وهو يستدير على كرسيه :

ـ أفليست الكاثوليكية ديانة مسيحية ؟ فما هى اذن ؟

استأنف الأمير كلامه قائلاً بانفعال شديد ولهجة قاطعة الى أقصى الحدود :

ـ هى أولاً ديانة ليس فيها شىء من المسيحية • هذه نقطة أولى • أما النقطة الثانية فهى أن المسيحية الرومانية أسوأ من الالحاد نفسه فى رأيى ! نعم ، ذلك هو رأيى ! ان الالحاد يقتصر على المناداة بالعدم ، أما الكاثوليكية الرومانية فهى تمضى الى أبعد من ذلك : انها تبشر بمسيح

شوهته وأفسدت صورته وسوأت وجهه ، انها تبشر بمسيح هو نقيض الحقيقة . انها تبشر بنقيض المسيح ، أؤكد لكم ! هذه قناعتى الشخصية منذ زمن طويل ، وما أكثر ما عذبتنى أنا نفسى .. ان الكاثوليكية الرومانية تؤمن بأن الكنيسة لا يمكن أن تبقى على الأرض ما لم تمارس سلطة سياسية شاملة ، وتكتب : « لا نستطيع » * ! بل ان الكنيسة الرومانية فى رأيى ليست ديانة . وانما هى استمرار للامبراطورية الرومانية الغربية. فكل شىء فيها خاضع لهذه الفكرة ؛ حتى الايمان . لقد استولى البابا على أرض ، وأصبح لك مُلْك زمنى ، وأشهر السيف . ثم لم يتغير شىء منذ ذلك الحين ، اللهم الا أن يكون السيف قد أُضيف اليك الكذب والمكر والخديعة والتعصب والخرافة والسفالة . لقد عبثوا بأقدس عواطف الشعب وأنقاها وأكثرها سذاجة وبراءة ، وحماسة وحرارة . لقد باعوا كل شىء بالمال ، كل شىء !... باعوا كل شىء بسلطة زمنية حقيرة . فكيف لا تكون هذه العقيدة نقيض المسيحية ؟ وكيف يمكن أن لا تكون الكاثوليكية سبب الالحاد ؟ لقد خرج الالحاد من الكاثوليكية الرومانية نفسها ! وبأتباع الكاثوليكية انما بدأ الالحاد : هل كان يمكن أن يصدّقوا أنفسهم ؟ ثم قوى الالحاد بالكره الذى حمله لهم الناس . ان الالحاد ثمرة أكاذيبهم وعجزهم الأخلاقى . الالحاد ! ما يزال الالحاد فى بلادنا لا يُرى الا فى بعض فئات المجتمع ، لا يُرى الا لدى « المجتثة جذورهم » على حد التعبير الموفق الذى استعمله أوجين بافلوفتش . أما هناك ، فى أوروبا ، فان جماهير كبيرة من الشعب قد بدأت تفقد الايمان . كان عدم تدينها فى الماضى ناشئاً عن الجهل والكذب . أما الآن فهو ناشىء عن التعصب وعن كره الكنيسة والمسيحية !

توقف الأمير عن الكلام لاهثاً . لقد تكلم بتدفق شديد . هو الآن شاحب اللون مختنق الصدر . تبادل الحضور نظرات دهشة . وأخيراً

أخذ الشيخ الصغير يضحك ضحكاً صريحاً . وأخرج الأمير « ن .. » نظارته وأخذ يحدق بها الى الأمير ليون نيقولايفتش . وترك الشويعر الألماني الركن الذى كان قد تلبث فيه حتى ذلك الحين فاقترب من المائدة وعلى شفتيه ابتسامة عداوة .

قال ايفان بتروفتش بصوت ممطوط ، وقد لاح فى وجهه الضجر بل والانزعاج :

ـ أنـ .. ـت .. تبا .. لغ .. كثيراً ! ان تلك الكنيسة يمثلها كذلك رجال يستحقون كل احترام ، رجال فضلاء ...

ـ أنا لم أتكلم عن ممثلى الكنيسة كأفراد . وانما تكلمت عن الكنيسة الرومانية فى حقيقتها ، أنا انما تكلمت عن روما . هل يمكن أن تزول الكنيسة زوالاً تاماً ؟ أنا لم أقل هذا قط !

ـ موافق . ولكن كل ما تقوله معروف فلا داعى الى الكلام فيه . ثم ... ثم ان هذا كله من اختصاص علم اللاهوت ...

ـ لا ، لا ، ليس هذا من اختصاص علم اللاهوت وحده ، أؤكد لك ! هذا أمر يمسنا كلنا مساً أقرب كثيراً مما تتصور . هنا انما يكمن خطؤنا : ما يزال يصعب علينا أن نألف فكرة أن هذه المسألة ليست مسألة لاهوتية فحسب ! لا تنسوا أن الاشتراكية هى أيضاً ثمرة الكاثوليكية . فالاشتراكية ، كأخيها الالحاد ، انما وُلدت من اليأس . انها ردٌّ على الكاثوليكية . انها ترمى الى امتلاك السلطة الروحية التى فقدها الدين ، تهدف الى ارواء الظمأ الشديد الذى يحرق النفس الانسانية ؛ وهى تنشد السلام لا فى المسيح بل فى العنف ! اننا نرى هنا ، كما نرى فى الكاثوليكية ، أناساً يريدون تأمين الحرية بواسطة العنف ، ويريدون تحقيق الاتحاد بالسيف والدم ! « ممنوعٌ الايمان بالله . ممنوعٌ التملك .

ممنوع أن يكون للمرء شخصية . الأخوّة أو الموت ، ولو قُطع مليونا رأس » . وقديماً قيل : تعرفونهم من أعمالهم ! ألا لا يذهبنْ بكم الظن الى أن هذا كله لا أذى فيه ، ولا خطر علينا منه ! لا ... يجب علينا أن نعمل ، وأن نعمل بأقصى سرعة . ينبغي لمسيحنا ، للمسيح الذي حافظنا عليه ولم يستطيعوا حتى أن يعرفوه ، ينبغي لهذا المسيح أن يشرق ويتألق في مواجهة الغرب . علينا أن ننتصب أمامهم ، لا لنعض صنارة اليسوعية فتصطادنا ، بل لننفث فيهم حضارتنا الروسية . ولا يقلْ أحدٌ لنا انهم يعرفون كيف يبشرون باناقة ورشاقة ، كما قال واحد منا منذ برهة ...

أجاب ايفان بتروفتش قائلاً وقد لاح في وجهه قلق شديد ، وأخذ يلقي على ما حوله نظرات دهشة ، بل وطفق يظهر علامات رعب :

ـ ولكن اسمح لي ، اسمح لي ... لا شك أن آراءك آراء محمودة ، ولا شك أنها تزخر وطنية ، ولكن ذلك كله فيه غلو كثير ، فمن الخير أن نقف عند هذا الحد لا نتجاوزه ...

ـ لا ، ليس ثمة شيء من غلو ، بل ان ما أقوله هو دون الحقيقة ، لأنني عاجز عن التعبير عن فكري كله ، ولكن ...

ـ آ ... اس .. مح لي !

صمت الأمير جامداً على كرسيه ، رافعاً رأسه ، راشقاً ايفان بتروفتش بنظرة مشتعلة .

قال الشيخ الصغير بلهجة ودود دون أن يخرج عن هدوئه :

ـ يبدو لي أنك أخذت فعلة صاحبك المحسن اليك مأخذ الفاجعة . ان أعصابك مهتاجة ... وربما كان مرد ذلك الى العزلة التي تعيش فيها . فلو عاشرت الناس (وأنا آمل أن يحسن المجتمع الراقي استقبال شاب

ممتاز مثلك) لهدأت ثائرتك ولوجدت أن هـذا كله أبسـط كثيراً مما تتصور !... ثم ان هذه الحالات نادرة جداً ... وفى رأيى أن بعضها يرجع الى شعبنا ، وأن بعضها الآخر يرجع الى ... السأم ..

صاح الأمير يقول :

ـ نعم ... هذا هو الأمر تماماً . هذه فكرة عظيمة ! انه «السأم» ! ان « سأمنا » هو السبب . ليس الشبع هو السبب بل السأم ! هنا جافيت أنا الصواب . فنحن أناس عطاش لم يرتو ظمؤنا . بل قل أن ظمأً محموماً يلتهمنا التهاماً ! و ... لا تظنوا أن ذلك ظاهرة تبلغ من تفاهة الشأن أنها لا تستحق منا الا الضحك . معذرة ، يجب على المرء أن يحسن الاحساس بالأمور قبل وقوعها ، والتنبؤ بالأشياء قبل حدوثها . ان مواطنينا متى لمسوا الشاطىء ، ومتى اطمأنوا الى أنه هو الشاطىء فعلاً ، بلغوا من السرور والحبور أنهم ما يلبثون أن يصلوا من ذلك الى أقصى التطرف. لمَ هذا ؟ ان حالة بافلتشيف تدهشكم ، فانتم تتصورون أنه فقد عقله أو أنه هوى من فرط طيبته . وليس الأمر كذلك فى الحقيقـة . ان تحمس النفس الروسية فى مثل هذه الظروف لا يثير دهشتنا نحن وحدنا ، بل يثير دهشة أوروبا كلهـا . حين ينتقل روسى الى الكاثوليكيـة فانه لا بد أن يصبح يسوعياً ، و لابد أن يصبح من أكثر اليسـوعيين تطرفاً وتعصـباً . واذا اعتنق الروسى مذهب الالحاد ، فانه لا يتردد فى المطالبة باستئصال الايمان بالله بحد السيف ! فما سبب التعصب المفاجىء ؟ ألا تعرفون ذلك ؟ سببه أن الروسى يعتقد أنه اكتشف وطناً جديداً ، لأنه لم يدرك أن له وطناً هنا ، فاذا هذا الاكتشاف يملؤه فرحاً . لقد وجد شاطىء الأمان ، لقـد وصل الى البر . فها هو ذا يهرع اليه ويغمره بالقبلات ! انه لا يفعل ذلك من باب الغرور ؟ ان الروس لا يصبحون ملاحدة أو يسوعيين لأن شعوراً مسكيناً بالزهو قد سيطر على أنفسـهم . وانما هم يصبحون ملاحدة أو

يسوعيين بتأثير ظمأ نفسي ، بتأثير حنين الى عالم أرفع وأسمى ، الى أرض ثابتة وطيدة ، الى وطن يحل محلّ الوطن الذى كفوا عن الايمان به لأنهم لم يعرفوه فى يوم من الأيام ! ان الشعب الروسى سهل الانتقال الى الالحاد ، انه أسهل انتقالاً الى الالحاد من أى شعب فىالعالم . ومواطنونا لا يصبحون ملاحدة فحسب ، بل هم « يؤمنون » بهذا الالحاد أيضاً ، كأنه دين جديد ، لا يلاحظون انهم بذلك انما يؤمنون بالعدم . فالى هذا الحد نحن عطاش الى الايمان . « من لم يكن تحت قدميه أرض ، لم يكن له اله أيضاً » . ليست هذه الفكرة منى أنا ، وانما عبّر لى عنها تاجر التقيت به فى سفر . الحقيقة أنه لم يقل هذا الكلام بنصه ، وانما قال : « من يجحد وطنه يجحد الهه أيضاً » . تصوروا أنه قد وجد فى روسيا أناس مثقفون ثقافة عالية انتموا الى ملة « الخليين » * .. والحق أننى أتساءل لماذا نعد هذه الملة أسوأ من العدميين واليسوعيين والملحدين ؟ ألا ان عقيدتهم قد تكون أعمق من عقيدة هؤلاء . ولكن ذلكم ما يمكن أن يؤدى اليه قلق النفس !... أروا رفاق كريستوف كولومب العطاش الملتهبين ، أروهم شواطىء « العالم الجديد » ؟ اكشفوا للانسان الروسى عن « العالم » الروسى ؟ أتيحوا له أن يجد ذلك الذهب ، ذلك الكنز الذى تخفيه الأرض عن بصره ؟ أظهروه على ما سيتحقق للانسانية كلها من تجدد وانبعاث ربما بفضل الفكر الروسى والاله الروسى والمسيح الروسى ؟ افعلوا ذلك كله تروا أىّ عملاق قوى عادل ، حكيم حليم ، سينتصب قائماً أمام العالم المذهول المروّع . ذلك أنهم لا يتوقعون منا الا السيف ، السيف والعنف ، فهم اذ يقيسوننا بمقياس أنفسهم لا يستطيعون أن يتصوروا قوتنا فى صور غير صور الهمجية . ذلك ما كان حتى الآن ، ولسوف ينمو هذا الظن الخطأ مزيداً من النمو فى المستقبل . و ...

غير أن حادثاً وقع فى تلك اللحظة فقطع كلام الخطيب على نحو لم يكن فى الحسبان ٠

ان هذا الحديث الطويل المحموم كله ، ان هذا السيل المتدفق من الكلام المضطرب المصطخب الذى يعبر عن فوضى من الأفكار المتحمسة المشوشة المتصادمة ، انما كان اذن علامة استعداد عقلى لدى الشاب ، استعداد خطرٍ كل الخطر ، فار وغلى الآن على حين فجأة دون سبب ظاهر ٠

وقد دُهش من بين الحضور جميعُ أولئك الذين يعرفون الأمير (حتى لقد شعروا بخجل وخزى) ، دهشوا من اندفاعته هذه التى لاتتفق وما عهدوا فيه من وضع متخبط بل خجول يتسم فى جميع الظروف بكياسة نادرة ولباقة كاملة وشعور فطرى بما يليق التزامه من آداب ٠ ولم يفلحوا فى فهم علة هذا الخروج عن عاداته المعهودة فيه ، وهو خروج لا يمكن تعليله حتماً بما انكشف له من أمر بافلتشيف ٠ أما فى ركن السيدات فقد عُدّ انساناً فقد عقله وأصابه جنون ٠ وقد اعترفت الأميرة بيلوكونسكايا فيما بعد أنها « كانت ستهرب لو دام ذلك المشهد برهة أخرى » ٠ وأما « الشيخان الصغيران » فقد كادا يفقدان سيطرتهما على نفسيهما منذ لحظة الشده الأولى ٠ اصطنع الجنرال الموظف الكبير هيئة الاستياء والقسوة دون أن يتحرك عن كرسيه ٠ ولزم الكولونيل هدوءاً تاماً ، فلم يحرك ساكناً ولا اهتزت نفسه ٠ وشحب لون الألمانى ، لكنه ظل يبتسم ابتساماً زائفاً وهو ينظر فيما حوله ليرى كيف يتصرف الآخرون وبماذا عساهم يردون ٠ وعلى كل حال ، كان يمكن أن تنتهى هذه الفضيحة كلها على أبسط نحو طبيعى ، ربما فى دقيقة واحدة ٠ حتى لقد قام ايفان فيدوروفتش الذى شُده شدهاً قوياً ، ولكنه ثاب الى نفسه واسترد هدوءه قبل الآخرين ، قام بعدة محاولات لوقف الأمير ، فلما لم يفلح اقترب منه بثبات وعزم ٠ فلو انقضت دقيقة واحدة أخرى لكان

من الممكن ، اذا اقتضت الضرورة ذلك ، أن يقرر اخراجه بلطف ومودة وصداقة ، زاعماً له أنه مريض ، وذلك زعم قد يكون صادقاً ، وهو على كل حال زعم كان ايفان فيدوروفتش من جهته مقتنعاً به كل الاقتناع فلا يخالجه فيه ريب ... ولكن الأمور جرت مجرى آخر !...

كان الأمير ، منذ دخل الصالون ، قد مضى يجلس في أقصى مكان عن اناء الخزف الصيني التي خوفته آجلايا من كسره ذلك التخويف كله . شيء لا يكاد يصدّقه العقل : ان الأمير ، بعد الذي قالته له آجلايا بالأمس ، قد ترسخ في نفسه اقتناع لا سبيل الى مغالبته بأنه لن يستطيع تحاشي كسر هذا الاناء مهما يبذل من جهد لتفادي هذه المصيبة . ذلك توجس غريب لا يصدّق . فاليكم ما حدث : في أثناء السهرة كانت قد اجتاحت نفسَ الأمير مشاعرُ أخرى ، قوية ممتعة في آن واحد ، هي تلك المشاعر التي سبق أن تحدثنا عنها . وقد صرفته هذه المشاعر عن توجسه وأنسته اياه . فلما سمع أحداً ينطق باسم بافلتشيف ، وقاده ايفان فيدوروفتش الى ايفان بتروفتش ليقدمه اليه ويعرّفه به مرةً أخرى ، اقترب من المائدة وجلس على مقعد قربَ اناء الخزف الصيني ، الضخم الرائع ، الموضوع فوق قاعدة في مستوى كوعه تقريباً ، ووراءه قليلاً .

وحين نطق بالكلمات الأخيرة من خطابه نهض فجأة ، وأجرى ذراعه بحركة واسعة طائشة ، ولفت كتفيه على غير ارادة منه ، فاذا ... اذا بصرخة تدوّي منطلقةً من أفواه الحضور جميعاً ! لقد ترنح الاناء ، وترجح في أول الأمر ولاح أنه يهم أن يسقط على رأس أحد الشيخين الصغيرين ، لكنه لم يلبث أن مال الى الجهة الأخرى التي كان فيها الألماني ، فلولا أن أسرع الألماني يثب من مكانه مرتاعاً لسقط عليه ، لكنه وقد استطاع الألماني أن يفر منه بمثل لمح البصر سرعةً ، هوى على الأرض ، فأحدث سقوطه فرقعة شديدة ردَّ عليها الحضور بصيحات .

وتناثر حطامه الثمين على السجادة هنا وهناك ! استولى على الحفل ذعر ودهشة . أما الأمير فمن الصعب بل ومن نافل القول أن نصف عواطفه ! لكننا لا نستطيع أن نعفى أنفسنا من الاشارة الى أن احساساً خاصاً قد اجتاحه فى تلك اللحظة عينها وسرعان ما تميز عن احساسات أخرى غيره، أليمة أو مرعبة . ان الاحساس الذى شدهه وآسَره أكثر من أى احساس آخر ، لم يكن هو الشعور بالخجل أو الفضيحة أو الرعب أو المفاجأة ، بل هو الشعور بتحقق النبوءة ! لو سألته أن يعلل لك ما يشتمل عليه ذلك الشعور من قوة الأسر لما استطاع أن يجيبك ولكنه كان يحس أن هذا الشعور قد حاصر قلبه وملأ نفسه برهبة تكاد تكون غيبية . وانقضت لحظة : بدا له أن كل شىء يتسع من حوله وأن الرهبة تتبدد أمام احساس بالضياء والفرح والنشوة والوجد . انقطعت من ذلك أنفاسه و ... ولكن ذلك لم يدم الا مدة قصيرة . الحمد لله ! لم يكن الأمر ما كان يظن . استرد تنفسه ، ونظر حوله .

لبث وهلة طويلة كمن لا يشعر بالاضطراب الذى يحيط به ؟ بل قل انه كان يفهم ويرى رؤية واضحة كل ما كان يجرى ، ولكنه كان يحس كأنه فى خارج الحادثة ، كشخص خفى من شخوص الحكايات الخرافية ، يرقب فى حجرة تسلل اليها أناساً غرباء يهمه أمرهم . رأى حطام الاناء يُجمع ، وسمع أحاديث سريعة ، وأبصر آجلايا محدقة اليه : كان وجه آجلايا شاحباً وكانت هيئتها غريبة ، غريبة جداً ، ولكن نظرتها لا تعبّر عن أى كره ، ولا تعبر عن أى غضب . كانت تتأمله مرتاعة ، غير أن عينيها زاخرتان بالعطف والمحبة ، بينما هى تلقى على الآخرين نظرات ساطعة ... فاجتاحت قلبَه بهجة لذيذة على حين فجأة .

وفى النهاية لاحظ مبهوتاً أن جميع الحضور قد جلسوا ، حتى لقد كانوا يضحكون فكأن شيئاً لم يحدث ! وانقضت دقيقة فاشتد الضحك .

انهم يضحكون الآن من انشداهه ، ولكنهم يضحكون باشين مرحين ، يضحكون بمودة ومحبة • وهؤلاء أشخاص عدة يكلمونه بعبارات فيها كثير من الملاطفة ، ولا سيما اليزابت بروكوفيفنا التى تتكلم ضاحكة وتقول كلمات رقيقة غاية الرقة • وها هو ذا يحس بايفان فيدوروفتش يربت على كتفه فجأة بكثير من الصداقة • وكان ايفان بتروفتش يضحك هو أيضاً • ولكن الشيخ الصغير كان أكثر الحضور بشاشة ولطفاً ومحبة ومودة : انه يتناول يد الأمير ويشد عليها برفق ويربت عليها بيده الأخرى، ويناشده أن يهدأ بالاً ويطيب نفساً ، كما يفعل المرء مع طفل اعتراه خوف ، فكان لذلك وقع جميل فى نفس الأمير • أخذ الأمير يتأمل وجه الشيخ مفتوناً ، وبلغ من شدة الابتهاج أن أنفاسه تقطعت فهو لا يقوى على أن ينطق بكلمة واحدة •

وتمتم يقول أخيراً :

ـ كيف ؟ أصحيح حقاً أنكم تغفرون لى ؟ و ••• أنت أيضاً يا اليزابت بروكوفيفنا ؟

فاشتد الضحك ، وترقرقت الدموع فى عينى الأمير من التأثر • انه لا يستطيع أن يصدق بهجة كهذه البهجة •

قال ايفان بتروفتش :

ـ لا شك فى أنه كان اناء رائعاً • اننى أعرفه منذ خمس عشرة سنة ••• نعم ••• منذ خمس عشرة سنة •••

وقالت اليزابت بروكوفيفنا بصوت عال :

ـ أهذه كارثة ؟ ان الانسان نفسه الى زوال ، فلا يتحسر المرء على جرة من فخار !

ثم أضافت تقول وقد لاح فى وجهها تعبير عن الخوف :

ـ أصحيح أن الأمر أحدث فيك هذا الاضطراب كله يا ليون نيقولايفتش ؟ هيّا يا صديقى ! كفاك كفاك ! انك لتخيفنى حقاً !

سألها الأمير :

ـ وهل غفرتم لى « كل شيء » ؟ لا كسر الاناء وحده ، بل « كل شيء » أيضاً ؟

وهمّ الأمير أن ينهض ، ولكن الشيخ الصغير أمسك يده ، وأبى أن يتركه .

همس يقول من فوق المائدة لصاحبه ايفان بتروفتش ، ولكن صوته لم يكن من الخفوت بحيث لا يسمعه الأمير :

ـ « أمر غريب جداً وخطير جداً » !

قال الأمير :

ـ ألم أسيء اذن الى أحد منكم ؟ انكم لا تستطيعون أن تتصوروا مدى السعادة التى تغمرنى حين أتصور أننى لم أسيء الى أحد منكم ، ولم أجرح شعور أحد منكم ! على أن الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك : فأنىّ لمثلى أن يسيء الى واحد مثلكم ؟ ان مجرد افتراض هذا اهانة لكم !

ـ هدىء نفسك يا صديقى . انك تبالغ . لا داعى الى اظهار هذا الشكر كله ، بل لا محل لهذا الشكر كله البتة . هى عاطفة جميلة ، لكنها تتجاوز الحدود .

أنا لست شاكراً لكم فحسب ، بل أنا معجب بكم أيضاً ، وانى لسعيد بتأملكم . لعلنى أعبّر عن شعورى تعبيراً غبياً ، ولكن لا بد لى من الكلام ، لا بد لى من الافصاح عمّا يجول فى خاطرى ، ولو من أجل نفسى .

كانت تعترى الأمير حركات اندفاعية تدل على الاضطراب والحمى . من الجائز جداً أن كلماته لم تعبر دائماً عما كان يود أن يقوله . كان

يبدو عليه أنه يريد أن يستأذن فى الكلام • ووقع بصره على الأميرة بيلوكونسكايا •

قالت الأميرة بيلوكونسكايا :

ـ لا تتحرج يا عزيزى ، لا تتحرج • أكمل ، أكمل ، لا تلتهث• ولكن تكلم بغير خشية أو رهبة • ان هؤلاء السادة قد رأوا أناساً كثيرين أغرب منك وأعجب ، فلن تدهشهم • يعلم الله أن فهمك أمر عسير ، لكنك قد كسرت هذا الاناء فأخفت الجميع •

كان الأمير يصغى اليها مبتسماً ، وفجأة سأل الشيخَ الصغير قائلاً :

ـ أأنت الذى أنقذت من النفى ، منذ ثلاثة أشهر ، الطالب بودكوموف والموظف شفابرين ؟

فاحمر الشيخ قليلاً ، وجمجم بكلام يدعوه فيه أن يهدىء نفسه• وأردف الأمير يقول مخاطباً ايفان بتروفتش :

ـ وعنك أنت سمعت أنك فى مقاطعة ن قد وهبت أخشاب بناء لفلاحين يسكنون فى أراضيك حين امتُحنوا بحريق ، رغم أنهم بعد انعتاقهم كانوا قد أساءوا معاملتك •

فدمدم ايفان بتروفتش يقول :

ـ أوه ! هذه مبالغة !

على أن وجهه قد عبَّر عن ارتياح واعتزاز • والحق أنه لم يخطىء فى هذه المرة حين تحدث عن مبالغة ، ذلك أن الأمر لم يكن الا شائعة كاذبة وصلت الى مسامع الأمير •

واستأنف الأمير كلامه ملتفتاً الى الأميرة بيلوكونسكايا فقال لها وهو يبتسم ابتسامة مشرقة :

ـ وأنت يا أميرة ، ألم تكرمى وفادتى وتعامليننى معاملة الابن اعتماداً

على رسالة توصية من اليزابت بروكوفيفنا ؟ ألم تسدى الىّ كذلك نصيحة لن أنساها ما حييت ، كما تنصح أم ابنها ؟

قالت الأميرة فى غضب :

ـ ماذا أصابك ؟ انك لشاب طيب ولكنك مضحك • فاذا نفحك أحد قرشين أخذت تكيل له الشكر كأنه أنقذ حياتك ؟ أتظن أن هذا حسن ؟ الواقع أن هذا مستقبح مستهجن !

وأوشكت الأميرة بيلوكونسكايا أن تغضب مزيداً من الغضب ، ولكنها أخذت تضحك على حين فجأة ، وكان فى ضحكها هذه المرة بشاشة ومودة • فهدأ وجه اليزابت بروكوفيفنا أيضاً ، وأشرق محيّا ايفان فيدوروفتش •

تمتم الجنرال بلهجة الارتياح والفرح مردداً كلمات الأميرة بيلوكونسكايا التى أثرت فيه تأثيراً كبيراً :

ـ لقد قلت حقاً أن ليون نيقولايفتش رجل يبلغ من ال ••• رجل يمكن أن ••• على شرط أن لا يلتهث ويختنق أثناء الكلام ، كما نبّهت الأميرة الى ذلك •••

وكانت آجلايا وحدها تبدو حزينة • ومع ذلك كان وجهها ما يزال مصطبغاً بحمرة ، ربما من أثر الامتياء •

كرر الشيخ الصغير يقول لايفان بتروفتش :

ـ حقاً انه لطيف جداً •

كان الأمير فى حالة اضطراب ما ينفك يزداد • وها هو ذا يستأنف الكلام فيقول بتدفق يتسارع أكثر فأكثر ، تدفق غير عادى ، تدفق مندفع حار محموم :

ـ لقد دخلت الى هنا معذب القلب ، و ••• وكنت خائفاً منكم ،

وكنت خائفاً من نفسى • كنت خائفاً من نفسى خاصــةً • حين عدت الى بطرسبرج كنت قد آليت على نفسىْ لأعرفنَّ أناس الطبقة الأولى مهمــا كلف الأمر ، أولئك الذين ينتمون الى أسر عريقة أنتمى أنا الى واحدة منهــا بالوراثة • أنا الآن بين أمراء مثلى ، أليس كذلك ؟ كنت أريد أن أتعرف اليكم ••• كان ذلك أمراً لا بد منه ، لا بد منه قطعاً ! لقد طالما سمعت عنكم سوءاً كثيراً ، لقد سمعت عنكم من السوء أكثر مما سمعت عنكم من الخير • حُدِّثت عن ضيق فكركم ، عن فقر اهتماماتكم ، عن رجعية عقلكم ، عن ضحالة ثقافتكم ، عن سخافة عاداتكم • آه •• ما أكثر ما يُكتب عنكم من أمور ! لذلك كنت زاخر النفس بحب الاطلاع وشدة القلق حين جئت الى هنا اليوم • كان ينبغى لى أن أرى بعينى ، وأن أفكر بعقلى ، وأن أكوِّن لنفسى اقتناعاً شخصياً عن السؤال التالى : هل صحيح أن الطبقة العليا من المجتمع الروسى تافهة لا تســاوى شــيئاً ولا تصلح لشىء ، وأن زمانها قد مضى ، وأن حيويتها قد نضبت ، وأنهــا أصبحت عاجــزةً عن أى شىء الا أن تمــوت ، وأنهــا رغم ذلك ما تزال مصرة اصراراً عنيداً بدافع الغــيرة الحقيرة على أن تحارب رجال ••• رجــال المستقبل ، وأن تسدَّ أمامهم الطريق ، دون أن تدرك أنهــا هى نفســها تُحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة ؟ صحيح اننى كنت لا أصدق كثيراً هذه الآراء ، لأن بلادنا روسيا لم تضم فى يوم من الأيام طبقــة ارســتقراطية حقاً ، اللهم الا رجال البلاط الذين تميزوا بزيِّهم الرســمى أو تميزوا بمصادفة • ولكن تلك الطبقــة قد زالت الآن زوالاً تاماً ، أليس الأمر كذلك ؟

قال ايفان بتروفتش وهو يضحك ساخراً بخبث ومكر :

ـ دعك من هذا الكلام ! ليس الأمر كذلك !

فدمدمت الأميرة بيلوكونسكايا تقول نافدة الصبر :

ـ ها هو ذا يستأنف •••

فقال الشيخ الصغير بصوت خافت :

ـ دعوه يتكلم ! * ان جسمه كله يرتجف !

كان الأمير قد خرج عن حالته الطبيعية قطعاً • وانطلق يقول :

ـ فماذا رأيت هنا ؟ رأيت أناساً يفيضون لطاقة فكر ، وصراحة قول ، وقوة ذكاء • رأيت شيخاً وقوراً ينتبه الى صبي مثلى انتباهاً زاخراً بالعاطفة والمحبة ، ويصغى الى كلامه حتى النهاية • وأرى أناساً قادرين على أن يفهموا وأن يغفروا • وهؤلاء أناس روس طيبون لا يكادون يقلون طيبة وميلاً الى المودة والصداقة عن أولئك الذين لقيتهم هناك؟ وهم لا يقلون عنهم قيمة على كل حال • فهل ثمة مفاجأة أحلى من هذه المفاجأة ؟ آه ••• اسمحوا لى أن أفصح عن شعورى هذا ! سمعت الناس كثيراً يقولون ان كل شيء في المجتمع الراقى لا يعدو أن يكون آداباً سطحية ومحافظة على الشكل بالية ، أما نسغ الحياة فقد جف • وكثيراً ما اعتقدت أنا بصدق هذا الكلام • ولكننى أرى الآن رؤية العين أن هذا لا يمكن أن يصدق على بلادنا • هل يمكن أن يصدّق المرء أنكم الآن جميعاً يسوعيون ودجّالون ؟ منذ قليل سمعت قصة الأمير ن : أليست تشتمل على فكاهة زاخرة بالصدق والعفوية ؟ أليست تشتمل على طيبة حقيقية ؟ هل يمكن أن تخرج أقوال كهذه الأقوال من فم رجل ••• ميت ، من فم رجل جفّ قلبه ويبست موهبته ؟ هل كان فى وسع أموات أن يستقبلونى كما استقبلونى ؟ أليس فى هذا عنصر للمستقبل يجيز لنا أن نتصور أجمل الآمال ؟ هل يمكن أفراداً مثلكم أن لا يدركوا وأن يبقوا فى خلف ؟

قال « الموظف الكبير » ، وهو يبتسم ابتسامة فيها قليل من السخر :

ـ أرجوك • هدىء نفسك يا صديقى العزيز • سنتكلم عن هذا كله فى يوم آخر ، وسيسرنى كثيراً أن •••

وتنحنح ايفان بتروفتش والتفت على مقعده• وعاد ايفان فيدوروفتش يضطرب ويتحرك • ان رئيسه الجنرال شُغل بالحديث مع زوجة الموظف الكبير ، وأصبح لا يولى الأمير أى انتباه • ولكن السيدة تصغى الى الموظف الكبير باحدى اذنيها ، وكثيراً ما كانت تنقل بصرها الى الأمير •

تابع الأمير كلامه يقول باندفاعة محمومة جـديدة مخاطبـاً الشيخ الصغير بلهجة الثقة بل وبلهجة المسارّة :

ـ لا ، لا ، ان الأفضل أن أتكلم ! ان آجلايا ايفانوفنا قد حظرت علىّ بالأمس أن أتكلم ، حتى لقد حددت لى مواضيع يجب أن لا أقاربها ، فهى تعلم أننى أكون مضحكاً حين أعالج أمثـال تلك المواضيع • أنا فى السنة السابعة والعشرين من عمـرى ، ولكنى أدرك أن سـلوكى سلوك طفل • لا يجوز لى أن أعبر عن فكرى • قلت هذا منذ زمن طويل • لم أستطع أن أتكلم بصراحة ، مفتـوحَ القلب ، الا فى موسـكو ، مع روجوين ••• قرأنا بوشكين معاً ، قرأناه كاملاً • كان هو لا يعرفه ؛ كان لا يعرف حتى اسم بوشكين • ما زلت أخشى أن تفسد هيئتى المضحكة فكرى ، وأن تحط من قدر « الفكرة الرئيسية » • ان حركاتى واشاراتى غير موفقة• انها تجىء فى غير محلها وأوانها ، فتثير الضحك وتفسد الفكرة• ينقصنى أيضاً حس الاعتدال والقصد • وذلك أمر خطير ، بل هو أخطر شىء ••• أنا أعلم أن خير ما أفعله هو أن أبقى ساكناً لا أتحرك ، وصامتاً لا أتكلم • فحين أسكن وأصمت يمكن أن أبدو للناس عاقلاً بل عاقلاً جداً ، ويُتاح لى عندا ذلك أن أفكّر • ولكن من الأفضل الآن أن أتكلم• انكم تنظرون الىّ بترحيب كبير وبشاشة عظيمة ، لذلك قررت أن اتكلم•

ان فى ملامح وجوهكم فتنة رائعة . لقد وعدت آجلايا ايفانوفنا بالأمس أن أصمت طوال السهرة ...

قال الشيخ الصغير وهو يبتسم :

ـ « حقاً » ؟

ـ غير أن هناك لحظات أقول فيها لنفسى ان هذا التفكير خطأ ، فالصدق المخلص يساوى حركة موفقة . أليس كذلك ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

ـ أحياناً .

ـ أريد أن أشرح لكم كل شىء ، كل شىء ، كل شىء ! آ ... نعم ! ... أتظنون اننى امرؤ خيالى ؟ مثالى ؟ لا ، لا ؛ يميناً ان أفكارى كلها بسيطة كل البساطة ... ألا تصدقوننى ؟ أتبتسمون ؟ اسمعوا ... أنا فى بعض الأحيان جبان لأننى أفقد الايمان بنفسى . منذ قليل ، حين كنت آتياً الى هنا ، تساءلت : « كيف عسانى أكلمهم ؟ ما هى العبارات التى أستهل بها الحديث حتى يفهموا عنى ولو قليلاً ؟ » شعرت بخوف شديد، ومنكم أنتم انما خفت . فهل كان من حقى أن أخاف ؟ ألم يكن خوفى شيئاً مخجلاً معيباً ؟ أى ضير فى أن يوجد أمام انسان تقدمى جمهور كبير من الرجعيين والشريرين ؟ على أن فرحى الآن ناشىء عن اقتناعى بأن ذلك الجمهور لا وجود له فى الواقع ، وأن ليس ثمة الا عناصر زاخرة بالحياة . ثم انه ما ينبغى لنا أن يبث الاضطرابَ فى نفوسنا أن تصور أننا مضحكون ، أليس كذلك ؟ الحق أننا مضحكون . فنحن خفاف طائشون ، ونحن ذوو عادات سخيفة مؤسفة ، ونحن نضجر ونمل ، لا نجيد أن نرى ولا أن نفهم . نحن جميعاً هكذا ، جميعاً ، أنتم ، وأنا ، وهم أيضاً . آه ... لا يزعلنكم أن تسمعونى أقول لكم وجهاً لوجه

انكم مضحكون ؟ واذا كان الأمر كذلك ، أفلا يمكن أن تُعدُّوا صُنَّاع تقدم ؟ بل انني لأقول لكم ان من الخير فى بعض الأحيان أن يكون المرء مضحكاً ، فيكون الناس أميل الى الصفح والتواضع • انه لم يوهب لنا أن نفهم كل شيء جملة واحدة ؛ والانسان لا يبلغ الكمال دفعةً واحدة ! فمن أجل الوصول الى الكمال ، يجب فى أول الأمر أن لا يفهم المرء أشياء كثيرة • فمن يدرك بسرعة مفرطة يدرك ادراكاً فاسداً فى أغلب الظن • انني أقول هذا لكم ، لكم أنتم الذين أمكن أن تفهموا أشياء كثيرة جداً ••• دون أن تفهموها • لقد أصبحت الآن لا أخشى من جانبكم شيئاً • فانكم تصغون بغير غضب الى صبى مثلى يكلمكم بهذه اللهجة ، أليس كذلك ؟ قطعاً ! أوه ••• لسوف تستطيعون أن تنسوا ••• لسوف تستطيعون أن تغفروا لأولئك الذين أساءوا اليكم ، ولأولئك الذين لم يسيئوا اليكم ، على حد سواء ؛ والأصعب أن تغفروا للذين لم يسيئوا اليكم فى شيء ، وذلك لسبب بسيط هو أنهم لم يذنبوا فى حقكم «البتة» ، وأن شكواكم منهم لا تقوم اذن على أساس • ذلكم ما كنت أنتظره من أهل المجتمع الراقى ، ذلكم ما كنت أتعجل أن أقوله لكم حين كنت آتياً الى هنا دون أن أعرف العبارات التى يجب عليَّ أن أستعملها فى التعبير عنه •• أتضحك يا ايفان بتروفتش ؟ أنت تعتقد أننى ديموقراطى ، اننى داعية من دعاة المساواة ، اننى هنا محام « عنهم » ، وأننى « عليهم » خائف ، أليس كذلك ؟ (أضاف الأمير هذا وهو يطلق ضحكة تشنجية ؛ ولقد كان فى كل لحظة يطلق ضحكة صغيرة متقطعة متحمسة) • فاعلم اذن اننى عليكم خائف ، عليكم جميعاً وعلينا جميعاً فى آن واحد • أنا نفسى أمير من سلالة قديمة أجلس الآن مع أمراء • اننى أتكلم عن سلامتنا المشتركة ، عن خلاصنا المشترك ، حتى لا تندثر طبقتنا وتغيب فى الظلمات بغير نفع ، لأنها لم تتنبأ بالمستقبل ولم تزد على أن تشاجرت وفقدت كل شيء • لماذا نزول

ونخلى مكاننا للآخرين بينما نحن نستطيع أن نحتفظ بمكاننا فى الطليعة على رأس المجتمع ؟ لنكن تقدميين فنبقى نحن الأوائل . فلنصبح خداماً لنكون نحن الأعلين .

وهمَّ فجأة أن ينهض عن مقعده ، لكن الشيخ العجوز ظل ممسكاً به يحدِّق اليه بعينين يزداد قلقهما لحظة بعد لحظة .

ـ اسمعوا ! أنا أعرف أن الكلام لا ينفع . وأن الأفضل أن ندعو الى الخير بالقدوة والعمل ... ولقد بدأت .. و .. و ... هل يمكن حقاً أن يكون المرء شقياً ؟ أوه !.. ما قيمة حزنى وشقائى اذا كنت أحس أننى أملك القدرة على أن أكون سعيداً ؟ اعلموا اننى لا أفهم أن يمرَّ امرؤ بشجرة دون أن يشعر لمرآها بالسعادة ، أو أن يكلم انساناً دون أن يسعد بحبه ... أواه ! ان الكلمات تعوزنى للتعبير عن هذا ... ولكن ما أكثر الأشياء الجميلة التى نراها عند كل خطوة نخطوها ، والتى يحس بجمالها كل انسان مهما يكن متدنياً ! انظروا الى الطفل ، انظروا الى فجر الاله الخالق ، انظروا الى العشب الذى ينبت فى الأرض ، انظروا الى الأعين التى تتأملكم وتحبكم ...

فى أثناء هذا الخطاب الطويل كان الأمير قد نهض وهو يتكلم . وكان الشيخ الصغير يتابعه بنظراته مرتاعاً . ولوَّحت اليزابت بروكوفيفنا بذراعيها وصاحت تقول : « آ ... رباه ! ... » . كانت قد حزرت ما يجرى ، قبل سائر الحضور . وهرعت آجلايا نحو الأمير فأمكنها أن تصل اليه فى اللحظة المناسبة لتتلقى سقوطه بذراعيها . كانت الفتاة مصعوقة من الرعب ، منقلبة السحنة من الحزن ، وقد سمعت العويل الوحشى « للروح التى رنَّحت الشاب المسكين وطرحته أرضاً ».. ان الأمير يسجو الآن على السجادة وقد أسرع أحدهم فدسَّ تحت رأسه وسادة .

لم يكن أحد يتوقع هذه الخاتمة . وحاول الأمير « ن » وأوجين

بافلوفتش والشيخ الصغير ، بعد ربع ساعة ، أن يعيدوا الى السهرة حياتها ونشاطها ، ولكن ما انقضى نصف ساعة حتى انفض المدعوون جميعاً دون أن يفوتهم طبعاً أن يعبروا عن مواساتهم وأسفهم ممزوجين بتعليقات على الحادث . قال ايفان بتروفتش فيما قال ان رأيه هو « أن الشاب متعصب للسلافية * ، أو هو يدين بشيء من هذا القبيل ، ولكن حالته ليست خطرة » . ولم ينطق الشيخ العجوز بكلمة واحدة . صحيح أن الجميع قد زعلوا كثيراً أو قليلاً في غد أو في غداة غد . حتى ان ايفان بتروفتش شعر بأن كرامته قد أهينت ، ولو اهانة يسيرة . ورئيس ايفان فيدوروفتش أظهر لمرءوسه شيئاً من الجفاء مدةً من الوقت . و « الموظف الكبير » ، « حامي » أسرة ايبانتشين أصدر هو أيضاً ، من جهته ، ملاحظات متفخمة عن رب الأسرة ، ولكنه أضاف اليها بعبارات لطيفة أنه شديد الاهتمام بمصير آجلايا . الواقع أنه رجل لا يخلو من طيبة ، ولكن من الأسباب التي أثارت اهتمامه بالأمير في ذلك المساء ، ما كان قد سمعه عن قصة العلاقات السابقة التي قامت بين الأمير وبين ناستاسيا فيليبوفنا . ان الأشياء القليلة التي سمعها عن هذا الأمر قد حيَّرته حيرة شديدة ، وكان يود لو يلقى أسئلة حول هذا الموضوع .

قالت الأميرة بيلوكونسكايا لاليزابت بروكوفيفنا بعد السهرة ، لحظة الانصراف :

ـ ما عسى أقول لك ؟ انه حسن وانه سيء . واذا أردت معرفة رأيي صريحاً قلت لك انه الى السوء أقرب . انك لترين بنفسك ما نوعه رجلاً : انه **مريض** !

قررت اليزابت بروكوفيفنا في قرارة نفسها أن الأمير « لا يمكن » أن يكون لابنتها خطيباً . وفي الليل حلفت لنفسها أنه « لن يتزوج آجلايا ما بقيت هي على قيد الحياة . » . وقد استيقظت في الصباح على هذه الحال

نفسها وهذا العزم نفسه • ولكنها وقعت فى تناقض واضح عند الغداء بعد الظهر بقليل •

ذلك أن آجلايا قد أجابت عن سؤال ألقته عليها أُختاها (بكثير من اللباقة والكياسة فى الواقع) ، فقالت بلهجة باردة لكنها متغطرسة :

ـ أنا لم أقطع له عهداً قط ، ولا عددته خطيبى فى يوم من الأيام• اننى لا أكترث به أكثر مما أكترث بأى شخص •

فما كان من اليزابت بروكوفيفنا الا أن انبرت تقول بلهجة حزن :

ـ لم أكن أتوقع منك لغة كهذه اللغة ! أنا أعلم أنه لا يصلح لك زوجاً ، والحمد لله على أن الأمر انتهى هـذه النهـاية ! ولكننى ما كنت لأصدّق أن يصدر عنك كلام مثل هذا الكلام ! كانت فكرتى عنك مختلفة عما أراه الآن فيك كل الاختلاف • أنا من جهتى كان يمكننى أن أطرد جميع ضيوف الأمس ولا أحتفظ بأحد غيره • ذلك هو رأيى فيه !•••

قالت اليزابت بروكوفيفنا ذلك وصمتت فجأة كالمرتاعة مما قالت • آه ••• ليتها علمت كم كانت ظالمة لابنتهـا فى تلك اللحظة ! كان كل شىء قد تقرر فى ذهن آجلايا • ان آجلايا أيضـاً كانت تنتظر ساعتها ، ساعتها الحاسمة ؛ وكان كل تلميح طائش أو الماع متهور يحدث فى قلبها جرحاً عميقاً •

الفصل الثامن

كانت بداية ذلك الصباح متأثرة لدى الأمير أيضاً باحساسات أليمة . ولقد كان يمكن تفسير تلك الاحساسات بحالته المرضية . غير أن حزنه كان يخالطه شيء يبلغ من صعوبة التحديد أن ذلك بعينه كان سبب عذابه . صحيح أنه كان ازاء وقائع محسوسة ملموسة ، دقيقة دقةً أليمة مشجية ، لكن حزنه يمضي الى أبعد من كل ما كان يتذكره أو يتخيله . وكان يدرك أنه لن يستطيع وحده أن يهدىء قلقه. وشيئاً فشيئاً ترسخ في نفسه انتظار حادث خارق حاسم سيقع له في ذلك اليوم ذاته . ان النوبة التي اعترته في الليلة البارحة أحرى أن تُعدَّ نوبة بسيطة ؛ حتى انها لم تخلف من الاضطرابات غير نوع من السويداء ، وشيء من الثقل في الرأس ، وآلام في الأعضاء . وكان ذهنه صافياً ، رغم أن نفسه كانت متألمة . لقد صحا من نومه في ساعة متأخرة ، فسرعان ما عاودته ذكرى السهرة الماضية واضحة وضوحاً تاماً . حتى لقد وعى أنه نُقل الى منزله بعد النوبة بنصف ساعة .

وعلم أن أسرة ايبانتشين أرسلت تسأل عن صحته . ثم أرسلت تسأل عن صحته مرة ثانية في الساعة الحادية عشرة والنصف . فأبهجه ذلك . وكانت فيرا ليبديفا من أوائل الأشخاص الذين زاروه وقدموا له خدماتهم . لقد أجهشت تبكي فجأة منذ رأته . ولكنها أخذت تضحك حين هدأ الأمير روعها . وتأثر هو تأثراً قوياً بهذا العطف الذي أظهرته

له الفتاة فتناول يدها وقبّلها ، فاحمرت الفتاة وهتفت تقول مروّعة وهى تسحب يدها بسرعة :

ـ آه ... ماذا تفعل ؟ ماذا تفعل ؟

ولم تلبث أن غادرت الغرفة مضطربةً اضطراباً خاصاً ، ولكن وقتها قد اتسع لأن تروى للأمير أن أباها أسرع فى الصباح المبكر الى بيت « المتوفى » (بذلك سمّت الجنرال ايفولجين) ، ليسأل هل مات فى الليل. وأضافت أن الرأى مجمع على أن المريض لن يعيش مدة طويلة .

وحين عاد ليبديف الى داره قبل الظهر ، جاء الى الأمير بنفسه ، قائلاً انه « لن يمكث الا دقيقة واحدة ، وانه لا يريد الا أن يطمئن عن صحة الأمير « الغالية » ، الخ . هذا عدا أنه يريد أن يزور « خزانته الصغيرة » . وكان لا يتوقف عن الشكوى والأنين واطلاق الصيحات تلو الصيحات ، فلم يلبث الأمير أن طرده ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتجرأ فيلقى أسئلة عن النوبة التى اعترت الأمير فى الليلة البارحة ، رغم أنه كان واضحاً أنه يعرف الأمر بأدق تفاصيله .

وبعد ليبديف وصل كوليا مسرعاً ، وقال هو أيضاً انه لا يريد أن يمكث الا دقيقة واحدة . ولكن كوليا كان صادقاً حقاً ، وكان يستبد به اضطراب عارم وقلق قاتم . وقد بدأ كلامه بأن سأل الأمير صريحاً جازماً ملحاً أن يوضح له كل ما كانوا يخفونه عنه ، وأضاف أنهم قد أعلموه بالأمس كل شىء تقريباً . لقد كان انفعاله عنيفاً عميقاً .

أطلعه الأمير على حقيقة الأمر بكل ما يحمله قلبه من مودة ويضمره من محبة . عرض عليه الوقائع بدقة تامة . فكان وقعها على الفتى المسكين كوقع الصاعقة ، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ، وطفق يبكى صامتاً . وأحس الأمير أن هذا انطباع من الانطباعات التى لا تمحى من النفس فى

يوم من الايام ، والتى لا بد أن تكون منعطفا حاسما فى حيـاة مراهق • وأسرع يطلعه على الطريقة التى سيعالج بها الأمر ، مضيفاً الى قوله أن موت العجوز ، فى رأيه ، ربما كان يرجع خاصـةً الى الارتيـاع الذى خلـّفه فى قلبه العمل السىء الذى اقترفه ، وأن هذا التأثر قد لا يقدر عليه سائر الناس •

سطعت عينا كوليا حين أنهى الأمير كلامه ، وقال :

ـ ما أحقر جانيا وفاريا وبتسين ! لن أشاجرهم ، لكن كلاً منـا سيسير بعد اليوم فى طريقه ! آه يا أمير ، لقد شعرت منذ أمس بعواطف جديدة كثيرة • هذا درس لى ! اننى أرى الآن أن علىّ أن أكفل معيشة أمى وأن أهىء لها ما تحتاج اليه • انها على كونها فى منجى من العوز عند فاريا ، فليس •••

وتذكر كوليـا أنهم ينتظرونه فأسرع ينهض ؛ ثم سـأل الأمير عن صحته متعجلاً ، فلما أجابه الأمير عن سؤاله قال له بحرارة :

ـ أليس هناك شىء آخر ؟ لقد سمعت أنه بالأمس ••• (على اننى لا شأن لى أنا بهذا) ••• ولكن اذا احتجت فى أى يوم من الأيام الى خادم وفى مخلص ، لأى أمر من الأمور ، فان هذا الخادم واقف الآن أمامك • يخيـّل الىّ أننا لسنا سعيدين ، لا أنت ولا أنا ، أليس كذلك ؟ ولكن ••• ولكننى لا أسألك ••• لا أسألك •••

وحين انصرف كوليـا غـرق الأمير فى أفكاره مزيداً من الغـرق العميق • ان صحبه كافةً يتنبأون له بالشقاء ؛ انهم جميعاً قد خلصوا الى نتائجهم ؛ هم جميعاً يلوح عليهم أنهم يعرفون شيئاً يجهله هو • ليبديف يلقى أسئلة مستخفية ؛ كوليا يلمـّح تلميحات مباشرة ، فيرا تبكى• وحرك

الأمير يده أخيراً باشارة غضب قائلاً لنفسه : « لعن الله سوء الظن . انه مرض ! » .

وفي نحو الساعة الثانية ، استرد وجهه هدوءه حين رأى السيدات ايبانتشين يجئن اليه زائرات « مدةً دقيقة واحدة » . ان زيارة دقيقة واحدة هي التي جاءت بهن فعلاً . لقد أعلنت اليزابت بروكوفيفنا بعد الغداء رأساً ، أنهم سيخرجون لنزهة يشتركون فيها جميعاً . قالت ذلك بلهجة آمرة ، قاطعة ، جافة ، دون شرح أو تعليل . وخرج الجميع ، أي الأم والآنسات والأمير « شتش ... » . وسرعان ما سارت اليزابت بروكوفيفنا في اتجاه هو عكس الاتجاه الذي يسيرون فيه كل يوم . فأدرك الجميع ما تنتوى ، لكنهم لزموا الصمت مخافة أن يثيروا غضب ماما التي كانت تمشي في طليعتهم دون أن تلتفت ، كأنها تريد أن تتحاشى اللوم أو الاعتراض . ونبَّهتها آديلائيد أخيراً الى أنه ليس من الضروري أن يركضوا هذا الركض كله للقيام بنزهة ، وأنهم عاجزون عن مجاراتها في السير بهذه العجلة .

قالت اليزابت بروكوفيفنا وهي تلتفت الى وراء :

ـ بالمناسبة : نحن الآن قريبون من بيته . وهو قريبنا على كل حال، مهما يكن رأى آجلايا ، ومهما يحدث من بعد ؟ لا سيما وأنه الآن شقي ومريض . أنا على الأقل سوف أزوره حتماً . فمن شاء صحبني ، ومن شاء أكمل نزهته .

دخل الجميع طبعاً . وبادر الأمير يعتذر مرة أخرى عن كسر الاناء الذي تهشم بالأمس ... وعن الفضيحة التي وقعت ...

فأجابت اليزابت ألكسندروفنا تقول :

ـ دعك من هذا . لم يحدث شيء ذو بال . ليس تحطم الاناء هو

ما يؤلمني ، وانما تؤلمني حالتك أنت . انك تعترف الآن اذن بأن فضيحة قد وقعت : لا يدرك المرء ما حدث الا في الغداة !... على أن هذا نفسه لا قيمة له ، لأن كل واحد يرى الآن أنك غير مسئول . هيّا ، الى اللقاء ! اذا شعرت بقدرة على القيام بنزهة فافعل ، ثم نم قليلاً مرة أخرى . هذه نصيحتي لـك . واذا بدا لك أن تزورنا كما كنت تزورنا في المـاضي فلا تحجم . عليك أن تثق الى الأبد بأنك ستظل صديق أسرتنا أو صديقي أنا على الأقل ، مهما يحدث من أمر ، ومهما ينتج من نتائج . أنا أضمن نفسي على الأقل ...

وبادر الجميع يثبتون عواطف اليزابت بروكوفيفنا ، ويثنُون عليها، ثم خرجوا ينصرفون . غير انهم باستعجالهم الساذج في قول كلام يلاطف المسكين ويواسيه ويقوي عزيمتـه قد ارتكبوا قسـوة لم تسـتطع اليزابت بروكوفيفنا حتى أن تفطن اليها . ان دعوته الى أن يزورهم « كما كان يزورهم في الماضي » ، وكذلك قصر صداقته عليها هي (« صديقي أنا على الأقل ») ، ان ذلك كان بمثابة تنبيه .

ولقد تذكر الأمير وضع آجلايا . صحيح أنها ابتسمت له ابتسـامة أخاذة حين دخلت وحين خرجت ، ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة ، حتى حين أكد الآخرون صداقتهم . ومع ذلك تبـّتت نظرها عليه مرتين . كان وجهها أشد شحوباً مما عـُهد فيه من شحوب ، كأنها قضت ليلة مسهـّدة . وقرر الأمير أن يزورهم حتماً فيمساء ذلك اليوم نفسه « كما كان يزورهم في الماضي » . ونظر الى ساعته محموماً .

بعد خروج آل ايبانتشين بثلاث دقائق ، دخلت فيرا . وقالت له :

ــ ليون نيقولايفتش ، عهدت اليّ آجلايا ايفانوفنا منذ هنيهـةً بأن أنقل اليك رسالة سرية .

انفعل الأمير انفعالاً بلغ من القوة أنه أخذ يرتجف . وقال يسألها :

ـ رسالة مكتوبة ؟

ـ لا ، ان وقتها لم يكد يتسع لأن تحملني الكلمات التي أقولها لك : انها ترجوك ملحة أن لا تغيب عن بيتك طوال النهار دقيقة واحدة ، الى الساعة السابعة أو حتى الساعة التاسعة . انني لم أسمع كلامها دقيقاً واضحاً في هذه النقطة .

ـ ولكن لِمَ هذا ؟ ما معناه ؟

ـ لا أدري . لكنها كلفتني أن أنقل اليك هذه الرسالة آمرةً أمراً صارماً ؟

ـ أهي استعملت تعبير « الأمر الصارم » ؟

ـ لا ، لم يكن تعبيرها واضحاً هذا الوضوح كله . ان وقتها لم يكد يتسع لأن تكلمني ملتفتة . من حسن الحظ انني دنوت منها . ولكن المرء يقرأ في وجهها أنها تأمر أمراً ، سواء أكان الأمر صارماً أم لم يكن كذلك . لقد ألقت عليَّ نظرة انخلع لها قلبي ...

ألقى الأمير سؤالين أو ثلاثة أسئلة أخرى ، لكنه لم يعلم أكثر مما علم . وفي مقابل ذلك اشتد قلقه . حتى اذا خلا الى نفسه تمدد على الديوان وعاد الى تخميناته : « قد يكون عندهم أحد قبل الساعة التاسعة ، فهي تخشى أن أقارف شذوذاً آخر وأن أثير فضيحة جديدة أمام الزوار » كذلك قال لنفسه أخيراً وعاد ينتظر حلول المساء نافد الصبر ناظراً في ساعته .

لكن حل اللغز قد جاءه قبل حلول المساء بمدة طويلة ، جاءه في صورة زيارة جديدة بل في صورة لغز ثانٍ لا يقل عن الأول اقلاقاً : فبعد انصراف آل ايبانتشين بنصف ساعة تماماً حضر اليه هيبوليت .

كان هيبوليت متعباً مرهقاً مهدماً ، فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة بل تهاوى على أحد المقاعد تهاوياً كمن أغمى عليه ، واعترته نوبة سعال رهيبة أخذت تهزه هزاً قوياً ، وكان السعال مصحوباً ببصقات دم. ان عينيه تلتمعان ، وان بقعاً حمراً تظهر على خديه . دمدم له الأمير ببضع كلمات لم يجب عنها ، مقتصراً أثناء مدة طويلة على تحريك يده باشارة معناها أن يُترك مرتاحاً . حتى اذا استرد شيئاً من قوته ، قال بجهد ظاهر وصوت أبح :

ـ أنا ذاهب !

فقال الأمير يسأله وهو ينهض :

ـ أتريد أن أصحبك ؟...

لكنه توقف فجأة اذ تذكر أنه مُنع من الخروج منذ قليل .

فأخذ هيبوليت يضحك . وتابع يقول بذلك الصوت المحشرج المختنق نفسه :

ـ لست ذاهباً من عندك . بالعكس : لقد رأيت من اللازم أن أجيء اليك لأحدثك فى أمر من الأمور .. ولولا ذلك ما أزعجتك . أنا ذاهب من عندهم . وأحسب أن المسألة فى هذه المرة جد لا هزل . انتهى كل شيء . لا أقول هذا التماساً للشفقة ، أؤكد لك ... حتى لقد استلقيت هذا الصباح على فراشى مقرراً أن لا أغادره قبل حلول « تلك اللحظة » لكنى عدلت عن ذلك الرأى ونهضت مرة أخرى لأجيء اليك . معنى ذلك أن مجيئى كان لا بد منه .

ـ منظرك مؤلم. كان أحرى بك أن تستدعينى لا أن تحمّل نفسك عناء المجيء .

ـ طيب . كفى هذا الآن . لقد رثيتَ لحالى ، فقمت بما توجبه آداب

المجتمع ، ومقتضيات الكياسة والذوق والتهذيب . آ ... نسيت : كيف صحتك أنت ؟

ـ صحتي الآن حسنة . ولم تكن أمس كذلك ... تماماً !

ـ أعرف . ذُكر لك هذا . وكان اناء الخزف الصيني هو الضحية. خسارة أنني لم أكن هناك ! ولكن فلنصل الى الأمر الذى أريد الكلام فيه. أولاً : لقد سعدت اليوم برؤية جبريل آرداليونوفتش يوافي آجلايا ايفانوفتش في موعد مضروب قرب الدكة الخضراء ... وأُعجبت أعظم الاعجاب بمدى ما يمكن أن يظهر في هيئة انسان من حماقة وغباء . وقد ذكرت هذه الملاحظة لآجلايا ايفانوفنا نفسها بعد انصراف جبريل آردالیونوفتش ...

ثم أضاف هيبوليت يقول وهو ينظر مرتاباً الى وجه محدثه الذى لم يكن يعبر عن شيء :

ـ أظن أنك أنت لا يدهشك شيء يا أمير . يقال ان من علامات قوة الفكر أن لا يدهش المرءَ شيء . أما أنا ففي رأيي أن ذلك يمكن أن يكون علامة غباء عميق أيضاً !... على كل حال ، لست أعنيك أنت حين أقول هذا الكلام ... معذرة ... انني اليوم غير موفق في اختيار تعابيري .

بدأ الأمير يتكلم فقال :

ـ كنت أعلم منذ أمس أن جبريل آردالیونوفتش ...

لكنه لم يلبث أن صمت فجأة وقد اضطرب اضطراباً واضحاً مع أن هيبوليت قد ساءته قلة انفعاله .

ـ كنت تعلم ذلك ؟ هذا نبأ حقاً !... على كل حال ، لا تكلف نفسك عناء أن تحكي لي ... ألم تشهد لقاء اليوم أيضاً ؟...

ـ لا بد أنك تعرف الجواب ، ما دمت قد حضرت اللقاء !

ـ لعلك اختبأت وراء دغل • على كل حال ، أنا مسرور لك طبعاً ، لأننى كنت أظن فى السابق أن جبريل آرداليونوفتش قد حلّ عندها محلك •

ـ أرجوك أن لا تكلمنى فى هذا الأمر يا هيبوليت ، خاصةً بهذه اللهجة •

ـ لا سيما وأنك تعرف كل شىء •

ـ أنت مخطىء • لم أُطلع على شىء تقريباً ؛ وان آجلايا ايفانوفنا لتعلم حتماً اننى غير مطلع على شىء • كنت أجهل حتى أمر ذلك الموعد• تقول ان لقاءً قد تم بينهما على موعد مضروب ، أليس كذلك ؟ طيب ••• دعنا من هذا •••

ـ ولكن كيف يستطيع المرء أن يفهم عنك ؟ تارةً تقول انك كنت تعلم ، وتارةً انك لم تكن تعلم ، ثم تضيف : « طيب ••• دعنا من هذا ••• » • ولكن لا ، حذار من فرط الثقة ! لا سيما اذا كنت لا تعلم شيئاً • وان فرط ثقتك انما مرده الى أنك لا تعلم شيئاً • هل تعرف حسابات ذينك الشخصين : الأخ واخته ؟••• ربما كنت تشتبه فيها وتتصورها ، هه ؟

ولاحظ هيبوليت حركة تململ من الأمير فأسرع يضيف قوله :

ـ طيب ، طيب ••• انا انما جئت الى هنا لأمر شخصى أريد أن•• أوضحه ! شيطان يأخذنى ••• رهيبٌ عدد الايضاحات التى يجب علىّ أن أقدمها ! هل تريد أن تصغى الىّ ؟

ـ تكلم ، اننى أصغى اليك •

ـ لكننى أغير رأيى مرة أخرى : سوف أبدأ مع ذلك بالكلام على

جانيا . هل تتخيل هذا ؟ لقد ضُرب لى موعد قرب الدكة الخضراء ، أنا أيضاً ! على أننى لا أريد أن أكذب : يجب أن أذكر أننى أنا الذى ألححت على أن تحدد لى هذا الموعد واعداً بالكشف عن سر . لا أدرى هل وصلتَ قبل الأوان (أظن اننى سبقت الساعة فعلا) ، ولكننى ما ان جلست الى جانب آجلايا ايفانوفنا حتى رأيت جبريل آرداليونوفتش وفاريا آرداليونوفتش مقبلين وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر كأنهما يقومان بنزهة . فلما رأيانى شُدها بل وارتبكا ، لأنهما كانا لا يتوقعان أن أكون هناك . واحمرت آجلايا ، بل صدقنى اذا قلت لك انها اضطربت وفقدت سيطرتها على نفسها قليلاً ، سواء أكان ذلك لوجودى أنا أم لمجرد أنها رأت جبريل آرداليونوفتش الذى كان فى غاية الجمال حقاً . المهم أنها احمرت احمراراً شديداً ، وختمت الموقف بأن غمزت بعينها غمزة مضحكة ، ونهضت نصف نهوض، وردت على تحية جبريل آرداليونوفتش وعلى ابتسامة الملاطفة والمداراة التى ابتسمتها باربارا آرداليونوفنا ، ثم قالت لهما بلهجة مفاجئة حاسمة : « انما أردت أن أعبر لكما شخصياً عن سرورى بصدق عواطفكما . فكونا على ثقة باننى متى احتجت الى هذه العواطف لن يفوتنى أن ألجأ اليها وأعتمد عليها . » . قالت لهما ذلك ثم صرفتهما باشارة من رأسها ، فانصرفا لا أدرى أمهزومين أم منتصرين.. أما جانيا فلا شك أنه كان غبياً كل الغباء . انه لم يفهم شيئاً ، واصطبغ وجهه بحمرة قانية (ان سحنته تكتسى فى بعض الأحيان تعبيراً غريباً) . وأما باربارا آرداليونوفنا فأظن أنها أدركت أن عليها أن تنسل بأقصى سرعة وأن آجلايا لا يمكن أن يُطلب منها أكثر من ذلك . فاقتادت أخاها . انها أعقل منه ، وانى لمقتنع بأنها الآن تحقق انتصاراً . وأما أنا فقد جئت لأتفاهم مع آجلايا على موضوع لقائها المزمع مع ناستاسيا فيليبوفنا .

صاح الأمير يسأل :

ـ مع ناستاسيا فيليبوفنا ؟

ـ على مهلك ، على مهلك ! يبدو لى أنك فقدت هدوءك فبدأت تندهش ، هه ؟ يسرنى أن أرى أنك تريد أن تشبه الرجال ؟ ولسوف أسليك فى مقابل ذلك • انظر كم يربح المرء حين يخدم ويعاون آنسات شابات نبيلات • لقد تلقيت منها اليوم صفعة !

ـ صفعة معنوية طبعاً ؟

كذلك سأله الأمير بغير ارادة •

ـ نعم ، صفعة معنوية لا مادية • أظن أنه ما من يدٍ يمكن أن ترتفع على انسان فى مثل حالتى ، ولو كانت يد امرأة • حتى جانيا لا يمكن أن يضربنى • ومع ذلك فقد اعتقدت أمس فى لحظة من اللحظات أنه سيرتمى علىّ ليشبعنى ضرباً ••• آ ••• يميناً اننى أحزر الآن ما يجول فى ذهنك• انك تقول لنفسك : « طيب • يجب أن لا يُضرب • ولكن من الممكن فى مقابل ذلك بل ومن الواجب أن يُخنق أثناء نومه بوسادة أو بغطاء مبتل ••• » • اننى أقرأ الآن هذا الخاطر فى وجهك •

قال الأمير محتجاً باشمئزاز :

ـ لا أدرى •• ولكننى حلمت هذه الليلة أن شخصاً يخنقنى بغطاء مبلل ••• وسأقول لك من هو ذلك الشخص : تصور أنه روجوين ! ما رأيك ؟ هل يمكن خنق انسان بغطاء مبتل ؟

ـ لا أدرى •••

ـ سمعت أن الأمر ممكن • طيب • طيب • دعنا من هذا ، ولا تتكلمن فيه • والآن أريد أن ألقى هذا السؤال : لماذا أعدُّ أنا نماماً ؟ لماذا وصفتنى هى اليوم بأننى نمام ؟ لاحظ أنها لم تفعل ذلك الا بعد أن أصغت الى كلامى حتى آخر كلمة ، وبعد أن ألقت علىّ أسئلة •• كذلك

هنّ النساء ! من أجلها هي انما كنت على علاقة بروجوين (وهو شخص ظريف شائق على كل حال) • ومن أجلها انما هيأت لها لقاءً مع ناستاسيا فيليبوفنا • أتراني جرحت شعورها وأسأت الى كبريائها حين أسمعتها أنها أنها تريد أن تستفيد من « بقايا » ناستاسيا فيليبوفنا ؟ أنا لا أنكر هذه الحقيقة • وقد رددت لها ذلك الكلام مراراً • لكنني انما فعلت ما فعلت من أجلها وفي سبيل مصلحتها • كتبت لهـا رسـالتين بهذا المعنى وبهذه اللهجة ، وعبّرت عن رأيي بهذا الأسلوب أثناء لقائنا اليوم أيضاً ••• وفي مرة أخيرة رأيت من واجبي أن أقول لها ان هذا يشتمل على مذلة لها • ثم ان كلمة « بقايا » هذه ليست اختراعاً مني ، وانما أنا استعرتها من غيري ، وجميع من في بيت جانيا يستعملونها على الأقل • وقد أيّدت هي نفسها ذلك • فلماذا وصفتني اذن بانني نمام ؟ رأيتُ ، رأيت : ان رغبة محمومة في الضحك عليّ تستعر بها الآن نفسك ؛ واني لأراهن أنك تطبّق على حالتي هذه الأبيات السخيفة :

وفي يوم نهايتي الحزينة

قد يسطع الحب على شفتي

بابتسامة وداع *

ها ها ها !

كذلك صاح يضحك ضحكاً تشنجياً أعقبته نوبة سعال •

ثم أضاف يقول بصوت محشرج :

ـ لاحظ مدى تناقض جانيا : انه يتكلم عن بقايا ؟ أفليس يسعى هو نفسه الى الاستفادة من « بقايا » ؟

لبث الأمير صامتاً برهةً طويلة • كان مصعوقاً •

وتمتم أخيراً يقول :

ـ ذكرتَ لقاء مع ناستاسيا فيليبوفنا ، أليس كذلك ؟

ـ دعك من هذا الكلام ، هل يمكن أن تجهل حقاً أن لقاءً سيتم اليوم بين آجلايا ايفانوفنا وناستاسيا فيليبوفنا ؟ بفضل المساعى التى قمت بها أنا ، فقد تولى روجويين ، تلبيةً لطلب من آجلايا ايفانوفنا ، دعوة ناستاسيا فيليبوفنا الى المجىء من بطرسبرج خصيصاً ، وهى الآن فى صحبة روجويين ، بالقرب من مسكنك ، فى البيت الذى سبق أن أقامت فيه ، عند داريا ألكسيفنا ... صديقتها ذات السمعة المشبوهة ... فالى ذلك البيت المشبوه انما ستذهب اليوم آجلايا ايفانوفنا لاجراء حديث ودى مع ناستاسيا فيليبوفنا ، ولحل مشكلات مختلفة . انهما تريدان أن تتكلما بلغة الرياضيات . اكنت لا تعرف هذا ؟ بشرفك ؟

ـ غير معقول !

ـ هذا أحسن ! ولكن أين لك أن تعرف بالأمر ؟ ومع ذلك ، فى جحر كالجحر الذى نعيش فيه ، لا يمكن أن تطير ذبابة الا ويبلغ نبأ طيرانها جميع الناس ! الخلاصة ... لقد نبهتك ، وفى امكانك أن تكون لى شاكراً ممتناً . هيّا ، الى اللقاء ! ربما فى الحياة الآخرة ! فى العالم الثانى ! كلمة أخرى : اذا كنت قد تصرفت معك تصرفاً وضيعاً دنيئاً ، فذلك ... لأننى ليس ثمة سبب يدعونى الى أن أضحى فى سبيلك بمصالحى . قل لى من فضلك : لماذا عسانى أوثر مصالحك على مصالحى ؟ اليها انما أهديتُ أنا « اعترافى » (أكنت لا تعرف ذلك ؟) ، فسرعان ما قبلت هديتى راضية ! هىء هىء ! لكننى تصرفت معها هى تصرفاً لا وضاعة فيه ولا دناءة . لم أرتكب أى خطأ فى حقها . بل هى التى دبَّرت لى « مقلباً » ووضعتنى فى موضع حرج .. على اننى لم اقترف ذنباً حتى فى حقك أنت . ولئن أبحت لنفسى تجاهها أن ألمح ذلك التلميح الى «البقايا» والى أشياء أخرى من هذا القبيل ، فاننى فى مقابل هذا أحدد لك يوم الموعد

وساعته ومكانه ، فأكشف لك الأوراق كلها !... صحيح أنني أفعل هذا عن غضب وحقد ، لا عن نبل وشهامة . استودعك الله ! انني ثرثار ثرثرة انسان عيّ اللسان أو مسلول الصدر . افتح عينيك ، اتخذ اجراءاتك ، تصرّف بأقصى سرعة ، اذا كنت جديراً بأن تسمى رجلاً . سيتم اللقاء هذا المساء . ذلك أمر مؤكد محقق .

اتجه هيبوليت نحو الباب ، لكنه وقد ناداه الأمير وقف في العتبة .

سأله الأمير :

ـ في اعتقادك اذن أن آجلايا ايفانوفنا ستذهب اليوم الى ناستاسيا فيليبوفنا بشخصها ؟

كانت بقع حمر تصبغ خديه وجبينه .

أجابه هيبوليت وهو يلقى نظرة وراءه :

ـ لا أعرف تماماً . ولكن ذلك جائز . على أن الأمر لا يمكن أن يكون غير هذا . فان ناستاسيا فيليبوفنا لن تذهب اليها ، أليس كذلك ؟ والحديث لا يمكن أن يجري عند أهل جانيا حيث يُحتضر الجنرال . ما قولك في الجنرال ؟

قال الأمير معترضاً :

ـ اسمع . يكفي هذا السبب وحده حتى يكون الأمر مستحيلاً ، كيف يمكنها أن تخرج ولو أرادت ؟ انك لا تعرف عادات ... هذا المنزل ؟ انها لا تستطيع أن تذهب الى ناستاسيا فيليبوفنا وحيدة . تلك مزحة !

ـ سأقول لك شيئاً يا أمير : لا أحد يقفز من النافذة . ولكن حين يشب حريق فان أحسن رجل مهذب وأرقى سيدة مرموقة لا يترددان عن القفز من النافذة . اذا مسّت الحاجة فستكون آنستنا مضطرةً أن تسلك

هذا السبيل ، وأن تذهب الى ناستاسيا فيليبوفنا . ولكن قل لى : هل الآنسات ايبانتشين لا يُسمح لهن فى دارهن أن يذهبن الى أى مكان ؟

ـ ليس هذا ما أردت أن أقوله ...

ـ طيب . اذا لم يكن الأمر كذلك ، فسوف يكفيها أن تهبط درجات المدخل ، وأن تسير قُدُماً ، ولو ترتب على ذلك أن لا تعود الى الدار فى يوم من الأيام . هناك ظروف يحرق فيها الانسان سفنه ويمتنع حتى عن العودة الى منزل أبويه . ليست الحياة وجبات غداء ووجبات عشاء وأمراءَ أسماؤهم « شتش ... » فحسب ! ... يبدو لى أنك تنظر الى آجلايا ايفانوفنا نظرتك الى صبية صغيرة أو تلميذة فى مدرسة داخلية. لقد قلت لها أنا هذا ، وأحسب أنها وافقتنى على رأيى . انتظر الساعة السابعة أو الثامنة.. لو كنت فى مكانك لأوفدت شخصاً يرقبها فيعرف لحظة خروجها من الدار . فى وسعك أن ترسل كوليا على الأقل . ثق أنه سيسره أن يعمل جاسوساً ، فى سبيل مصلحتك طبعاً ... هذه أمور نسبية جداً ... هأ هأ !...

قال هيبوليت ذلك وخرج . لم يكن ثمة سبب يدعو الأمير الى تكليف أى انسان بأن يتجسس له ، حتى ولو كان يرضى لنفسه استعمال مثل هذه الوسيلة . لقد أدرك الأن بعض الادراك لماذا أمرته آجلايا بأن لا يغادر بيته . لعلها تنتوى أى تجىء اليه ؟ أو لعلها أرادت أن تحبسه فى البيت حتى لا يجىء بينما هى على ميعاد . نعم ربما كان هذا هو الأمر .

شعر الأمير بدوار ، وبدا له أنه يرى الغرفة كلها ترقص من حوله. استلقى على الديوان وأغمض عينيه .

ان القضية تجرى مجرى حاسماً نهائياً ، بطريقة أو بأخرى . لا ، انه لا ينظر الى آجلايا نظرته الى صبية صغيرة أو الى تلميذة فى مدرسة

داخلية • انه يدرك الأمر الآن : لقد طالما شعر بخوف ، وان شيئاً من هذا النوع هو ما كان يخشاه فعلاً • ولكن لماذا تريد آجلايا أن تراه ؟ سرت رعدة في جسمه كله • واعترته حمى شديدة من جديد •

لا ، انه لا يعدها طفلة ! في الآونة الأخيرة كانت لها آراء وأقوال روّعته • وفي مرات أخرى ، كان يلوح له أنها تبذل جهداً فوق طاقة الانسان في سبيل أن تسيطر على نفسها ، في سبيل أن تكبح اندفاعاتها ؟ وانه ليتذكر الآن أن ذلك كان يملؤه رعباً • صحيح أنه جهد في هذه الأيام الأخيرة أن لا يوقظ تلك الذكريات ، وأن يطرد الأفكار السوداء• ولكن ماذا كان يختفي في قرارة تلك النفس ؟ هذا سؤال عذّبه مدة طويلة ، رغم كل ما كان يشعر به نحو آجلايا من ثقة • على كل حال ، سوف ينحل كل شيء ويتضح كل شيء في هذا المساء نفسه ! فكرة فظيعة ! مرةً أخرى « تلك المرأة » ! لماذا بدا له دائماً أن تلك المرأة سوف تظهر في آخر لحظة فتحطم مصيره كما يُقطع خيط مهترىء ؟ أما أن هذا التوجس لم يبارحه في يوم من الأيام فذلك أمر لا يتردد اليوم في أن يؤكده حالفاً أغلظ الأيمان • لئن حاول أن ينساها في الآونة الأخيرة، فما ذلك الا لأنه كان يخشاها • ماذا اذن ؟ أهو يحبها أم هو يكرهها ؟ انه لم يلق على نفسه هذا السؤال مرةً واحدة أثناء النهار • كان قلبه من هذه الناحية نقياً : كان يعرف من ذا يحب •• ليس لقاؤهما هو مايخيفه، لا ولا وجه الغرابة في هذا الموعد ، ولا الأسباب الداعية اليه ، المجهولة لديه ، ولا النهاية التي سينتهي اليها هذا الاجتماع أيةً كانت تلك النهاية وانما هو يخشى ناستاسيا فيليبوفنا نفسها • لقد تذكّر بعد بضعة أيام أنه أثناء تلك الساعات من الحمى ، كان يلوح له دائماً أنه يرى عينيها ونظرتها، وأنه يسمع صوتها ، صوتها الذي يلفظ أقوالاً غريبة ، ولكن لم يبق في ذاكرته الا أشياء قليلة بعد تلك اللحظات من الحمى والقلق والخوف• لقد

احتفظ باحساس غامض بأن فيرا جاءته بعشائه ، وأنه أكل الطعام الذى جاءته به ، ولكنه لا يتذكر أنام بعد ذلك أم لا • كل ما يعلمه أن وضوح الادراكات لم يعاوده فى ذلك المساء الا حين ظهرت آجلايا فجأة فى الشرفة • فنهض عن ديوانه واثباً ، وهبَّ يستقبلها فى وسط الغرفة • كانت الساعة هى السابعة والربع • لقد جاءت آجلايا وحيدة • وهى تلبس ثياباً بسيطة كأنما ارتدتها متعجلة وخلعت عليها برنساً خفيفاً • وكان وجهها شاحباً شحوبه أثناء لقائهما الأخير ، ولكن عينيها تسطعان ببريق قوى بارد • انه لم يلاحظ فى نظرتها تعبيراً كهذا التعبير فى يوم من الأيام •

تفرست فيه بانتباه • ثم قالت له بصوت خافت ولهجة تبدو هادئة :

ـ أنت متأهب كل التأهب ، قد ارتديت ثيابك وحملت قبعتك بيدك • اننى استنتج من ذلك أنك قد أُبلغت • أعرف من الذى أبلغك : هو هيبوليت ، أليس كذلك !

تمتم الأمير يقول وهو الى الموت أقرب منه الى الحياة :

ـ نعم ••• حدثنى •••

ـ طيب ••• فلنذهب : انك لتعلم حق العلم أن عليك أن تصحبنى حتماً • أظن أنك تقوى على الخروج •

ـ أقوى ••• نعم ••• ولكن •• هل هذا ممكن ؟

وسكت فجأة ، وأصبح لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة • تلك هى المحاولة الوحيدة التى قام بها لصدّ هذه الطائشة وثنيها عن عزمها • ثم تبعها بعد ذلك كما يتبع عبدٌ سيّدَه • انه رغم كل ما كان عليه فكره من اضطراب وتشوش وبلبلة قد أدرك أنها ستذهب « الى هناك » ، ولو لم

يصحبها ، فالأولى اذن أن يصحبها . لقد أدرك قوة التصميم والعزم لدى الفتاة ، وأحس أنه غير قادر على أن يوقف هذه الاندفاعة الوحشية .

سارا صامتين ، ولم يكادا يتبادلان كلمة واحدة طوال الطريق . ولكنه لاحظ أنها تعرف الطريق معرفة جيدة ، فلما اقترح عليها أن يسلكا شارعاً صغيراً بعيداً بعض البعد لكنه غير مطروق كثيراً أصغت الى كلامه وبدا عليها أنها تزن ما للاقتراح وما عليه ، ثم أجابت باقتضاب : « الأمران واحد ! » .

حتى اذا صارا قرب منزل داريا ألكسيفنا (وهو مبنى كبير عتيق من خشب) ، رأيا سيدة مرتدية ثياباً فخمة تخرج منه فى صحبة فتاة ، ورأيا المرأتين تركبان عربة رائعة كانت تنتظرهما أمام درجات المدخل . كانتا تضحكان وتتحدثان فى صخب ، ولم تنظرا الى القادمين الجديدين فكأنهما لم ترياهما . فما ان ابتعدت العربة حتى فُتح الباب من جديد ، وظهر روجويين الذى كان ينتظرهما فأدخلهما ثم أغلق الباب وراءهما .

قال روجويين بصوت عال وهو يلقى على الأمير نظرة غريبة :

ـ ليس فى الدار كلها الآن أحد غيرنا نحن الأربعة !

كانت ناستاسيا فيليبوفنا تنتظرهما فى الحجرة الأولى . وكانت هى أيضاً تلبس ثياباً بسيطة جداً ، سوداء جميعاً . ونهضت لتستقبلهما ، لكنها لم تبتسم ولم تمدد يدها للأمير ، وثبتت نظرتُها القلقة على آجلايا نافدة الصبر . جلست المرأتان متنائيتين : فأما آجلايا فقد جلست على الديوان بركن من الغرفة وأما ناستاسيا فيليبوفنا فقد جلست قرب النافذة . ولبث الأمير وروجويين واقفين ؛ وما دعاهما أحد الى الجلوس على كل حال . ونظر الأمير الى روجويين مرة أخرى بارتباك وحيرة يمازجهما ألم

ويخالطهما عذاب ، ولكن روجويين احتفظت شفتاه بابتسامة واحدة لم تتغير •

وأخيراً طافت بوجه ناستاسيا فيليبوفنا سحابةٌ مشئومه : ان نظرتها التى ما تزال محدقةً الى الزائرة ثابتةً عليها قد اتخذت الآن تعبيراً عن عناد ، وقسوة ، وعن كره وبغض تقريباً• وكانت آجلايا ظاهرة الاضطراب ولكن على غير تهيب أو رهبة • انها حين دخلت لم تكد تلقى نظرة على منافستها ، وكانت مُسبلةً جفنيها على وضع الانتظار وكأنها تفكر • مرةً أو مرتين أجالت بصرها على الغرفة ، كأنما عرضاً بغير عمد ، فعبَّر وجهها عندئذ عن الاشمئزاز كأنها تخشى أن تتسخ فى مكان كهذا المكان • ليس مؤكداً أنها كانت شاعرةً بكل حركاتها ، ولكن اذا كانت هذه الحركات قد صدرت عنها عفواً فذلك أدعى الى ايذاء الشعور وجرح الكرامة • وأخيراً عزمت أمرها على أن تواجه بثبات وقوة تلك النظرة الساطعة التى كانت تلقيها عليها ناستاسيا فيليبوفنا والتى لم تلبث أن قرأت فيها كره المنافسة واضحاً جلياً على الفور • لقد فهمت المرأةُ المرأة • فارتعدت •

وقالت بعد لحظة ، لكن بصوت خافت جداً ، حتى أنها توقفت عن الكلام مرتين أثناء النطق بهذه الجملة القصيرة :

ـ لا شك أنك تعرفين السبب الذى حملنى الى استدعائك •

فأجابتها ناستاسيا فيليبوفنا بلهجة جافة قاطعة :

ـ لا ، لا أعرفه •

فاحمرت آجلايا • لعلها قد بدا لها فجأة أن وجودها الآن قربَ هذه المرأة ، فى بيت « تلك المخلوقة » ، أمرٌ مذهل لا يصدقه العقل ، ولعلها كانت تشعر بالحاجة الى سماع جواب ناستاسيا فيليبوفنا • فما ان

سمعت أولى نبرات صوت ناستاسيا فيليبوفنا حتى سرى فى جسمها كله نوع من رعدة • ولاحظت «الأخرى» ذلك كله طبعاً ، لم يفتها منه شيء•

قالت آجلايا بغتةً وهى تطرق محدقة الا الأرض بنظرة متجهمة كالحة ، قالت بصوت يكاد يكون خافتاً :

ـ أنت تفهمين كل شيء ••• ولكنك تتظاهرين بأنك لا تفهمين •

فأجابت ناستاسيا فيليبوفنا وهى تبتسم ابتسامة لا تكاد تُدرك :

ـ لماذا عسانى أتظاهر هذا التظاهر ؟

قالت آجلايا بخراقة تكاد تكون مضحكة :

ـ تستغلين وضعى •• لأننى فى بيتك ••• تحت سقفك •••

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بحدة وقوة :

ـ أنت المسئولة عن هذا الوضع ، فأنا لم أستدعك ، وانما انت التى دعوتنى الى هذا اللقاء الذى ما زلت أجهل سببه •

رفعت آجلايا رأسها فى استعلاء وغطرسة • وقالت :

ـ صونى لسانك • أنا ما جئت الى هنا لأقاتلك بهذا السلاح الذى هو سلاحك •••

ـ ها ••• اذن لقد جئت الى هنا لتقاتلى على كل حال !•• تصورى أننى كنت أتخيلك ••• أصفى روحاً !••

وتبادلت المرأتان نظرة لم تحاولا أن تخفيا ما فيها من بغض • ومع ذلك كانت احدى هاتين المرأتين هى تلك المرأة نفسها التى بعثت الى الأخرى برسائل تشتمل على ذلك التأثر كله وتلك العاطفة كلها • لقد تبددت تلك المودة كلها فى أول لقاء ، منذ أولى الكلمات • فكيف نفسر

هذا ؟ وكأن أحداً الأشخاص الأربعة الموجودين فى تلك الغرفة لم يخطر بباله أن يعجب لهذا الأمر . فالأمير الذى كان بالأمس لا يصدق أن يكون حدوث هذا المشهد ممكناً ولو فى الحلم ، يراه الآن وكأنه قد تنبأ به منذ زمن طويل . ان الحلم العجيب الشاذ قد اكتسى على حين فجأة صورة واقع محسوس ملموس . وكانت احدى المرأتين فى تلك اللحظة تشعر نحو غريمتها باحتقار يبلغ من القوة وبرغبة فى اظهار هذا الاحتقار تبلغ من العنف (ولعلها لم تجىء الا لهذا الغرض ، كما زعم ذلك روجويين فى الغد) أن الأخرى ما كان لها فيما يظهر أن تستطيع التزام أى موقف عقدت عليه عزمها من قبل أو أن تحافظ على أية فكرة انطوت عليها نفسها ، رغم كل مافيها من غرابة الطبع واضطراب الفكر ومرض النفس، مادامت غريمتها تواجهها بهذا الاحتقار المسموم. وأيقن الأمير بأن ناستاسيا فيليبوفنا لن تكون هى البادئة فى الاتيان على ذكر الرسائل . لقد أدرك من الشرر الذى كان يخرج من عينيها أن أمر هذه الرسائل يؤلمها الآن أشد الايلام . ولكنه كان مستعداً لأن يدفع نصف حياته ثمناً لاغفال آجلايا أمر الالماع الى هذه الرسائل أيضاً .

غير أن آجلايا بدا عليها فجأة أنها ثابت الى رشدها واستردت سيطرتها على نفسها . قالت :

ــ لم تفهمى عنى . أنا لم أجىء الى هنا ... لأشاجرك ، رغم أننى لا أحبك كثيراً . وانما جئت ... لأكلمك بطريقة انسانية . اننى حين دعوتك الى هذا اللقاء ، كنت قد حددت موضوعه ، ولن انثنى عن عزمى ولو لم تفهمينى البتة . واذا لم تفهمينى فذلك يضيرك أنت ولا يضيرنى أنا . لقد أردت أن أجيب عن مضمون الرسائل التى بعثت بها الىّ ، وأن يكون جوابى كلاماً لا كتابةً فذلك فى رأيى أنسب. فاسمعى اذن جوابى على رسائلك . لقد أخذتنى بالأمير ليون نيقولايفتش شفقة منذ

اليوم الأول الذى عرفته فيه ، وقويت هذه العاطفة فى نفسى حين علمت بكل ما جرى أثناء سهرتك . أخذتنى به شفقة لأنه انسان يبلغ من بساطة الفكر أنه ظن أن فى وسعه أن يكون سعيداً ... مع امرأة ... لها مثل هذا الطبع وهذا الخلق . وقد وقع ما كنت أخشى منه عليه : لم تستطيعى أن تحبيه ، وسبَّبت له عذاباً كثيراً ، ثم هجـرته . ولئن لم تستطيعى أن تحبيه فان مرد ذلك الى فرط زهوك ... لا ... لقد أخطأت التعبير .. فما ينبغى أن أقول الزهو .. بل الغرور .. وحتى كلمة الغرور ليست هى الكلمة المناسبة ، فانما الأحرى أن أقول الأنانية. انك أنانية الى حد.. الجنون . وان الرسائل التى بعثت بها الىَّ تنهض دليلاً على ذلك . لم يكن فى امكانك أن تحبى انساناً يبلغ مبلغه من البساطة . حتى ان من الجائز أن تكونى فى قرارة نفسك قد احتقرته وهزئت به وضحكت عليه . كنت لا تستطيعين أن تحبى الا عارك والا الفكرة الثابتة التى استبدت بنفسك وهى أنك قد دُنِّست وأُهنت . فلو أنك لم تسقطى ذلك السقوط كله ، أو لو أنك لم تسقطى البتة ، لما زادك ذلك الا شقاء ...

نطقت آجلايا هذه الكلمات بنـوع من التلذذ ، وكانت تتدفق فى الكلام تدفقاً سريعاً ، ولكنها تستعمل تعابير سبق أن تصورتها واجترتها منذ أن كانت لا تصـدق ، حتى فى الحلم ، امكانَ حـدوث هذا اللقاء . وكانت تراقب بنظرة كارهة مبغضة ما تحدث أقوالهـا من أثر فى وجـه ناستاسيا فيليبوفنا الذى اضطرب وانقلب .

تابعت آجلايا كلامها تقول :

ــ هل تتذكرين رسالةً كتبها الىَّ وقال لى فيهـا انك تعرفينها بل وانك قرأتها ؟ اننى حين قرأت تلك الرسالة انما فهمت كل شىء ، وأدركت كل شىء حق الادراك . وقد أيَّد هو نفسه ، فى الآونة الأخيرة ، كل

كلمة من الكلمات التي أقولها لك الآن • وانتظرت بعد تلك الرسالة • حزرت أنك ستضطرين أن تجيئى الى هنا ، لأنك لن تستطيعى الاستغناء عن بطرسبرج : انك ما تزالين أصغر سناً وأبرع جمالاً من أن تطيقى الحياة فى الأقاليم •••

وأضافت تقول بينما كان وجهها يحمر احمراراً شديداً (ولم يفارق هذا الاحمرار وجهها طوال مدة كلامها بعد ذلك) :

ـ ليست هذه الكلمات كلماتى أنا على كل حال !•• وحين التقيت بالأمير من جديد تألمت له ألماً قوياً وأحسست أنه أُهين • لا تضحكى • واذا ضحكت كان ذلك دليلاً على أنك غير جديرة بأن تفهمى هذا •••

ردت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بلهجة حزينة قاسية :

ـ انك لترين بعينيك اننى لا أضحك •

ـ لست اكترث على كل حال • اضحكى ما شئت أن تضحكى • وحين سألته بنفسى قال لى انه أصبح لا يحبك منذ مدة طويلة حتى ان ذكراك وحدها أصبحت تؤلمه ، ولكنه يرثى لحالك ، واذا فكر فيك شعر بأن قلبه قد « طُعن الى الأبد » • يجب أن أضيف أيضاً أننى لم ألاحظ طوال حياتى رجلاً يضارعه فيما تتصف به نفسه من بساطة نبيلة وفيما يزخر به قلبه من ثقة لا حدود لها • فبعد أن سمعت كلامه ، أدركت أن فى امكان أى انسان أن يخدعه اذا أراد ، وأن من يخدعه يمكن أن يطمئن كل الإطمئنان الى أنه سيغفر له ويصفح عنه • لذلك أحببته ••

صمتت آجلايا مصعوقة ، وهى تتساءل كيف أمكنها أن تنطق هذه الكلمة • لكن كبرياء قوية سطعت فى نظرتها فى الوقت نفسه • وبدا عليها أنها لن تكترث بشىء بعد الآن ، ولو أخذت « هذه المرأة » تضحك منها للاعتراف الذى أفلت من لسانها • قالت :

ـ هذا كل شيء قد قلته لك ؛ ولا شك أنك تدركين الآن ما أنتظره منك ، هه ؟

أجابت ناستاسيا فيليبوفنا بهدوء ورفق :

ـ ربما كنت أدركه . لكنني أحب أن أسمعه منك .

فاشتعل وجه آجلايا غضباً ، وقالت بلهجة جازمة وهي تقطّع كلماتها :

ـ أردت أن أسألك بأي حق أجزت لنفسك أن تتدخلي في عواطفه نحوي ؟ بأي حق تجرأت أن تكتبي لي تلك الرسائل ؟ بأي حق تصرحين له في كل لحظة ، له ولي أنا ، بأنك تحبينه ، بعد أن هجرتِه وفررتِ منه ذلك الفرار المهين .. والمشين أيضاً ؟

أجابت ناستاسيا فيليبوفنا تقول مكدودة مجهدة :

ـ أنا لم أصرح بأنني أحبه ، لا لك ولا له ، ولكن ... ولكنك على حق ... لقد فررت منه .

وقد أضافت ناستاسيا فيليبوفنا هذه الجملة الأخيرة بصوت يكاد يكون منطفئاً .

صاحت آجلايا تسألها :

ـ كيف ؟ لم تصرحي بأنه تحبينه ، « لا لي ولا له » ؟ ورسائلك ؟ من ذا الذي رجاك أن تكوني سمسارة زواج ، وأن تحضيني على تزوجه ؟ أليس هذا تصريحاً بحب ؟ لماذا تضعين نفسك بيننا ؟ لقد اعتقدت في أول الأمر أنك انما تريدين أن تحمليني على كرهه والنفور منه بتدخلك في شئوننا بغية أن أقطع صلتي به . ثم لم أفهم حقيقة تفكيرك الا بعد ذلك : فأنت انما تخيلت أن تحققي عملاً باهراً باللجوء الى تلك الأساليب

من الرياء والنفاق ... أكنت قادرة على أن تحبيه ، أنت يا من تحبين غرورك ذلك الحب كله لماذا لم ترحلى من هنا وكفى ، بدلاً من كتابة تلك الرسائل الىّ ؟ لماذا لا تتزوجين الآن هذا الرجل الشريف الذى يحبك كثيراً ، والذى شرّفك بأن قدم اليك يده خاطباً ؟ ان السبب واضح كل الوضوح : فلو تزوجت روجويين لما استطعت بعد ذلك أن تصطنعى دور المرأة المطعونة ، ولما بقى لديك ما تسوغين به حقدك . بالعكس : ان تزوجك روجويين يمكن أن يكون لك مدعاة فخر ! لقد قال عنك أوجين بافلوفتش انك قد قرأت شعراً كثيراً ؛ وانك قد حصّلت من الثقافة فوق ما يتناسب مع ... وضعك ؛ وانك تؤثرين أن تقرئى على أن تعملى ؛ فاذا أضفنا الى هذا ما يعتمل فى نفسك من غرور أحصينا بذلك جميع البواعث والأسباب ...

ـ وأنت ، ألست عاطلة عن العمل أيضاً ؟

كانت الأمور قد أسرعت تجرى مجرى غير متوقع ، وتسير سيراً لم يكن فى الحسبان . لم يكن فى الحسبان ، لأن ناستاسيا فيليبوفنا ، حين جاءت الى بافلوفسك ، كانت ما تزال تراودها أحلام ، وكانت ماتزال تعلل نفسها ببعض الأوهام ، رغم أنها كانت تتوقع الشر أكثر مما تتوقع الخير طبعاً . ولكن آجلايا قد انجرفت فوراً كمن ينحدر من أعلى الجبل ، ولم تستطع أن تقاوم ما فى الانتقام من اغراء فظيع . حتى لقد دُهشت ناستاسيا فيليبوفنا من رؤيتها على هذه الحال . فكانت وقد تحيرت وارتبكت منذ أول لحظة تنظر اليها ولا تصدق عينيها . أهى امرأة أسرفت فى قراءة قصائد الشعر كما افترض أوجين بافلوفتش ، أم هى امرأة فقدت صوابها وكفى، كما أيقن الأمير بذلك ؟ مهما يكن من أمر فان ناستاسيا فيليبوفنا رغم كل ما تحرص على ابدائه من استهتار وقح فى بعض الأحيان ، كانت أكثر حياء ، وأكثر رقة ، وأكثر ثقة مما يمكن أن يظن المرء . صحيح أن

نفسها كانت تنطوى على كثير من صور الخيال وتهاويل الوهم ،ولكن المرء يجد فيها عواطف قوية عميقة الى جانب ما يجد من حب النزوة والميل الى الجموح • ولقد أدرك الأمير ذلك : ان تعبيراً عن ألم شديد يرتسم الآن في وجهها • ولاحظت آجلايا هذا فاختلجت كرهاً ومقتاً • وانبرت تقول بغطرسة لا توصف ، جواباً على الملاحظة التى أبدتها ناستاسيا فيليبوفنا :

ـ كيف تجسرين أن تكلميني بهذه اللهجة ؟

فأجابت ناستاسيا فيليبوفنا مدهوشة :

ـ لعلك لم تسمعيني سماعاً واضحاً • ما اللهجة التى كلمتك بها ؟

فاذا بآجلايا تقذفها فجأة بهذا الكلام :

ـ لو أنك أردت أن تكوني امرأة شريفة فلماذا لم تعمدى بكل بساطة الى قطع صلتك بالرجل الذى أغواك ، توتسكى ، مستغنيةً عن هذه الأوضاع المسرحية كلها ؟

فأجابتها ناستاسيا فيليبوفنا وقد أخذت ترتجف ارتجافاً شديداً ، واصفر لونها اصفراراً رهيباً :

ـ ماذا تعلمين عن وضعى حتى تسمحى لنفسك بأن تحكمى علىَّ ؟

ـ أعلم أنك بدلاً من أن تلتمسى عملاً تجنين منه رزقك ، قد هربت مع روجوين الثرى الواسع الثراء ، لتصطنعى بعد ذلك دور ملاك سقط • ليس يدهشنى أن توتسكى قد أوشك أن ينتحر بسبب هذا الملاك الساقط !

قالت ناستاسيا فيليبوفنا بلهجة الاشمئزاز والألم :

ـ حسبك ! انك تفهميننى على نحو مافهمتنى خادمة داريا ألكسييفنا، التى ذهبت فى هذه الأيام الأخيرة الى محكمة الصلح تقاضى خطيبها • ان خادمة داريا ألكسييفنا قادرة على أن تفهمك أنت فهماً أصحَّ •••

ـ أظن أنها فتاة شريفة تعيش من عملها . لماذ تتكلمين عن خادمة بهذا الاحتقار ؟

ـ أنا لا أحتقر الذين يعملون ، وانما احتقرك أنت حين تتحدثين عن العمل !

ـ لو أنك أردت أن تكوني شريفة لعملت غسّالة .

ونهضت المرأتان شاحبتين شحوباً شديداً ، ورازت كل منها الأخرى بنظرها ازدراءً .

صاح الأمير يقول مصعوقاً :

ـ هدئي نفسك يا آجلايا . هذا ظلم !

وكان روجوبين قد كفّ عن الابتسام ، لكنه كان يصغي زاماً شفتيه ، عاقداً على صدره ذراعيه .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وهي ترتعش غضباً :

ـ انظر ! انظر اليها ! انظر الى هذه الآنسة ! ما كان أغباني ! لقد كنت أتصورها ملاكاً ! أجئت الى هنا دون أن تصطحبي مربيتك يا آجلايا ايفانوفنا ؟... هل تريدين ... هل تريدين ... هل تريدين أن أقول لك على الفور ، بصراحة ، دون لف أو دوران ، لماذا جئت اليّ ؟ لقد كنت خائفة . ذلك هو سبب مجيئك !

ـ خائفة منك أنت ؟

كذلك سألتها آجلايا خارجةً عن طورها ، وقد شدهها شدهاً ساذجاً وفجأ أن ترى غريمتها تجرؤ أن تقول لها هذا الكلام .

أجابت ناستاسيا فيليبوفنا :

ـ نعم ، خائفة مني أنا ! لئن جئت الى هنا فلأنك كنت خائفة مني. المرء لا يحتقر من يخشاه . ما كان أضلّني حين أمكنني أن أحترمك ،

حتى الى هذه اللحظة ؟ لقد أردتِ أن تعرفى بنفسك من منا يحبها أكثر مما يحب الأخرى . ذلك أنك غيورة غيرة فظيعة ، رهيبة ...

تمتمت آجلايا تقول زافرة :

ـ سبق أن قال لى انه يكرهك ...

ـ جائز . جائز أن لا أكون جديرة به ... لكننى أعتقد أنك كذبت ! لا يمكن أن يكرهنى ، ولا يمكن أن يكون قد قال لك هذا الكلام! على أننى مستعدة لأن أغفر لك ... مراعاةً لوضعك ... رغم أننى كنت أرى فيك رأياً أفضل !.. كنت أظنك أذكى وأجمل ! يميناً كنت أظن ذلك ! ... على كل حال ، خذى كنزك ... خذيه .. انظرى .. انه يتأملك مفتوناً غائباً عن نفسه .. خذيه ، ولكن على شرط : اخرجى من هنا فوراً ! اخرجى فى هذه اللحظة نفسها !...

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ذلك وتهالكت على مقعد وأجهشت باكية . لكن عينيها ما لبثتا أن سطعتا فجأة ببريق جديد ، فها هى ذى تنظر الى أجلايا محدّقة ، ثم تنهض قائلة لها :

ـ وهل تريدين أن آمره ... فى هذه اللحظة نفسها ... أن آمره ... هل تسمعين ... أن آمره بأن يهجرك فوراً وأن يبقى معى الى الأبد وأن يتزوجنى ؟ يكفىَ أن آمره بهذا حتى يذعن للأمر . أما أنت فترجعين الى دارك راكضة وحيدة . هل تريدين أن أفعل هذا ؟ هل تريدين ؟

كذلك قالت ناستاسيا فيليبوفنا صارخةً كالمجنونة ، ربما دون أن تصدّق أنها قادرة على النطق بمثل هذه الأقوال .

وكانت آجلايا قد اندفعت نحو الباب مذعورة ، ولكنها توقفت فى العتبة جامدةً تصغى . وتابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها تقول :

— هل تريدين أن أطرد روجوبين ؟ أكنت تظنين أننى سأتزوج روجوبين ارضاءً لك ؟ لسوف أصرخ أمامك قائلة : « ارحل يا روجوبين ! » ، وسوف أقول للأمير : « هل تذكر وعدك ؟ » . رباه ! لماذا هوّنت شأنى وحقّرت قيمتى فى نظرهم ؟ أنت يا أمير ، ألم تؤكد لى أنك ستتبعنى حيثما أذهب وأنك لن تهجرنى فى يوم من الأيام مهما يحدث لى ؟ ألم تؤكد أنك تحبنى وأنك سوف تغفر لى ، وأنك تحترمنى .. نعم .. لقد قلتَ هذا أيضاً ؟ وأنا التى فررت منك ، لا لشىء الا أن أدعك حراً طليقاً . ولكننى عدلت الآنِ عن هذا . لماذا عاملتْنى كما تُعامَل امرأة داعر ؟ اسأل روجوبين هل أنا امرأة داعر ؟ اسأله فيقول لك !.. أبعد أن جللتْنى الآن بالعار ، على مرأى منك ومسمع ، تشيح وجهك عنى وتمضى معها متأبطاً ذراعها ؟ ألا فلتنصبّ عليك اللعنة اذا فعلت ذلك ، لأنك الرجل الوحيد الذى محضته ثقتى .

ثم هتفت تقول باندفاعة جنون :

— اذهب يا روجوبين !

كانت الكلمات تخرج من صدرها بكثير من المشقة والعناء ، وقد تشوهت ملامح وجهها ويبست شفتاها : واضح أنها كانت لا تصدق كلمة واحدة من هذا الكلام الذى اطلقته فى نوبة افتخار ، ولكنها كانت تريد أن تطيل الوهم برهة أخرى . لقد بلغت النوبة من القوة والعنف أنها كان يمكن أن تميتها ، فى تقدير الأمير على الأقل .

وصرخت تقول لأجلايا أخيراً وهى تومىء الى الأمير باشارة من يدها :

— هذا هو . انظرى اليه : ان لم يجىء الىّ فوراً ، ان لم يرضَ أن يتركك من أجلى ، فما عليك الا أن تأخذيه . اننى أتنازل عنه ، فلا أريده بعد الآن !...

لبثت المرأتان ساكتتين جامدتين كأنمـا تنتظران جواب الأمير الذى كانتا تنظران اليه زائغتى الهيئة • ولكن لعله ، هو ، لم يدرك كل ما كان فى ذلك التحدى من عنف ؛ بل انه لم يدركه حتمـاً • فمن ينظر اليه يتحقق من ذلك • كان لا يميِّز أمامه الا ذلك الوجـه الذى يلوح فيـه اليأس والجنون والذى كان منظره « قد طعن قلبه الى الأبد » ، كما سبق أن قال ذلك يوماً لآجلايا • ثم لم يطق احتمال رؤية هذا المشهد أكثر من ذلك ، فهاهو ذا يلتفت الى آجلايا ، فيسألها بلهجة الرجاء والعتب مشيراً الى ناستاسيا فيليبوفنا :

ـ أهذا جائز ؟ ألا ترين كم هى بائسة شقية ؟

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك • فان نظرةً ألقتها عليه آجلايا قد عقلت لسانه • ورأى فى هذه النظرة ألماً يبلغ من الشدة ، ورأى فيها كرهـاً يبلغ من القـوة أنه ضمَّ يديه احداهمـا الى الأخـرى ، وأطلق صرخة ، وهرع نحو الفتاة • ولكن كان قد فات الأوان • انها لم تطق أن يتردد ولو ثانية واحدة• فغطت وجهها بيديها ، وانطلقت تخرج من الغرفة صائحة : « آه ••• رباه ! » • وكان روجوجين قد تبعها ليفتح لها الباب•

وهرع الأمير وراءها أيضاً ، غير أن ذراعين قد احتضنتاه عند العتبة• كانت ناستاسيا فيليبوفنا تحدق فيه منقلبةَ السحنة مكفهرة الوجه ، وتمتمت شفتاها المزرقّتان تقولان له :

ـ أتركض وراءها ؟ وراءها ؟

وسقطت فى ذراعيه مغشيـاً عليها • فأنهضـها وحملها الى الغـرفة ووضعها على مقعد من المقاعد ، ولبث مائلاً عليها منتظراً مشدوهاً • وكان يوجد على مائدة صـغيرة كأس ماء • فتناوله روجوجين حين عاد ، ورش شيئاً من مائه على وجه المرأة الشابة • ففتحت عينيها ، وظلت خلال دقيقة

لا تعى شيئاً ، لكنها لم تلبث أن استردت شعورها فجأة ، فارتعشت ، وأسرعت الى الأمير تصيح قائلة له :

ـ أنت لى ، لى أنا ! هل انصرفت الآنسة المتكبرة ؟ هأ هأ هأ !

كذلك قهقهت فى نوبة ضحك تشنجى ، وتابعت ضحكها وكلامها :

ـ هأ هأ هأ ... كنت قد تنازلت عنه لتلك الآنسة ! لماذا فعلت ذلك؟ لماذا ؟ كنت مجنونة ! ... يا روجوبين ، امض فى سبيلك ... اذهب ! هأ هأ هأ !...

وبعد عشر دقائق كان الأمير جالساً قرب ناستاسيا فيليبوفنا يحضنها بعينيه ، ويمسح وجهها وشعرها بيديه فى رفق كما يفعل المرء بطفل . وكان يضحك ضحكاً مجلجلاً حين يسمعها تضحك ، وكان يوشك أن يجهش باكياً اذا رآها تبكى . وكان لا يقول شيئاً ، وانما ينتبه الى تمتمتها المحمومة المفككة التى لا يفهم منها شيئاً البتة ، ولكنه يصغى اليها مبتسماً ابتسامة رقيقة لطيفة . حتى اذا لاحظ بزوغ نوبة جديدة من الحزن والدموع واللوم والتشكى ، عاد يلاعب شعرها ويمسح خديها بحنان ، ويحاول أن يواسيها وأن يعقّلها كبنية صغيرة .

الفصل التاسع

انقضى اسبوعان على الأحداث التى رويناها فى الفصل السابق . وقد تغيرت أحوال شخصيات قصتنا أثناء تلك المدة تغيراً كبيراً جداً ، حتى ليصعب أن نمضى فى الطريق الى آخره دون الدخول فى بعض التفسيرات . ولكننا نشعر نحن أنفسنا بأن من العسير علينا فى كثير من الحالات أن نعلل هذه الأحداث .

أغلب الظن أن مثل هذا التنبيه سيبدو للقارىء غريباً وغير مفهوم فى آن واحد : فكيف يمكن أن يسرد المرء أحداثاً ليس فى ذهنه فكرة واضحة عنها ، وليس له رأى شخصى فيها ؟ فمن أجل أن لا نضع أنفسنا فى موضع أدعى الى شبهة الضلال والزيف أيضاً ، سنحاول أن نوضح فكرتنا بمثال ، آملين أن نجعل القارىء السمح يفهم المأزق الذى نجد أنفسنا أمامه ؟ وسيكون لهذا مزية ، هى أن المثال الذى اخترناه لن يكون استطراداً وخروجاً عن الموضوع ، بل سيكون التتمة المباشرة للقصة .

فبعد خمسة عشر يوماً ، أى فى مطلع شهر تموز ـ يوليه (بل وأثناء هذين الأسبوعين) ، اتخذت قصة بطلنا ، ولا سيما حدثها الأخير ، اتخذت فى ألسن الناس صورة عجيبة كان يسليّهم جداً أن يتناقلوها . قصة لا يكاد يصدقها العقل ، ولكنها لا تكاد توضع موضع شك ، انتشرت شيئاً فشيئاً فى جميع الشوارع التى تجاور فيللات ليديف وبتتسين وداريا ألكسييفنا وآل ايبانتشين ، أى فى المدينة كلها تقريباً ، بل وفيما حولها

أيضاً • ان المجتمع كلّه ، أو كلّه على وجـه التقريب (أهل البلدة أو سكان الفيللات أو الوافدين من المدينـة لسماع الموسيقى) قد أشاعوا القصة نفسها بألف شكل وشكل ؛ ومن تلك الأشكال كلهـا يخرج أن أميراً قد قام بفضيحة فى أسرة محترمة معـروفة ، فترك آنسـة من تلك الأسرة رغم أنه كان قد أتمّ خطبته لهـا ، ومضى يتشبث بأذيـال امرأة خليعة • لقد قطع جميع صلاته ، واستخف بجميع التهديدات ، ولم يكترث اى اكتراث باستياء الناس وامتعاضهم ، فأعلن ـ على خلاف ما توجبه أبسط مبادىء اللباقة الاجتماعية ـ أنه ينتوى أن يتزوج تلك المرأة الضـائعة ، ببلدة بافلوفسك نفسها ، على مرأى ومسمع من جميع الملأ ، رافعاً رأسه ، شامخاً بأنفه ، محدقاً الى البشر فى أعينهم بغير مبالاة •

لقد زُيّنت هذه القصة بتفاصيل فاضحة كثيرة • وأُقحم فيها أفراد معروفون محترمون ، وصُبغت بألوان تضفى عليها هالة من الخيال والسحر والسر ، ودُعمت من جهة أخرى بوقائع ثابتة لا سـبيل الى جحودها ، فلا غرابة أن أيقظت اهتماماً عاماً وأثارت لغطاً كثيراً •

وقد قيل فى تأويل الحـادث كلام كثير ، ولكن التـأويل المرهف البارع أكثر من سـائر التـأويلات (وهو فى الوقت نفســه أقربها الى التصديق) هو ذلك الذين أشاعته تقوّلات بعض أولئك الأفراد الرصينين العقلاء الذين نراهم فى كل طبقة من طبقات المجتمع والذين لا يعدمون أن يجدوا وسيلةً لتـأويل حـادث من الحـوادث للآخرين ، فهذه هى رسالتهم فى الحياة بل هذا هو عـزاؤهم وتلك هى سـلواهم فى كثير من الأحيان •

ففى رواية هؤلاء أن الشاب ينتمى الى أسرة كريمة المحتد ، فهو أمير ، وهو غنى تقريباً ، وهو محدود الفكر ، ولكنه ديموقراطى ومتشيع لذلك المذهب العدمى المعاصر الذى أوضحه السـيد تورجنيف • فهـذا

الشاب الذي لا يكاد يحسن التكلم بالروسية قد وقع في غرام ابنة الجنرال ايبانتشين ، وظفر بأن يجعل الأسرة تستقبله في بيتها استقبال خطيب • ولكنه قد خدع هذه الأسرة بأسلوب يذكّر بأسلوب ذلك الشاب الفرنسي، طالب اللاهوت ، الذى نُشرت مغامرته منذ مدة قصيرة • ان طالب اللاهوت هذا قد طلب عند تخرجه أن يُنصَّب كاهناً ، وكان يبيّت نية معينة ، فبعد أن قام بجميع الطقوس والشعائر ، وتلا جميع الأدعية والصلوات، وحلف جميع الأيمان ، وتم تنصيبه كاهناً ، نشر فى الغداة رسالةً مفتوحة الى أسقفه يعلن فيها على رءوس الأشهاد أنه لا يؤمن بالله ، وأنه يرى أن من الحطة والدناءة من جانبه أن يخدع الشعب وأن يستغله ويعيش عالةً عليه ، فهو لذلك ينكل عما فعله بالأمس ، وينشر رسالته هذه فى الجرائد اللبرالية •

فعلى غرار ما فعله ذلك الملحد ، انتظر الأمير سهرةً فخمة أقامها أهل الفتاة ، وقدموه أثناءها الى كثير من الشخصيات البارزة المرموقة ، فأعلن أفكاره صراحةً أمام جميع الناس ، وأهان عدداً من وجوه القوم وصفوة رجال المجتمع ، وطرد خطيبته على مرأى ومسمع من الملأ بطريقة مهينة مشينة • وحين كلّف الخدم باخراجه من المنزل راح يقاومهم مقاومة عنيفة فهشم أثناء ذلك اناءً رائعاً من خزف صينى •

وهناك سمة بارزة من سمات الأخلاق السائدة فى عصرنا تضاف الى هذه القصة ، هى أن ذلك الشاب الطائش كان يحب خطيبته ابنة الجنرال حباً صادقاً ، ولكنه قطع صلته بها لا لسبب آخر غير اشهار تشيعه للمذهب العدمى • وهو من أجل أن يجعل الفضيحة أبهر للأبصار تحدى الناس فتزوج امرأة ضائعة ليبرهن بذلك على اعتقاده الراسخ بأنه ليس ثمة نساء ساقطات ونساء فاضلات ، وانما هنالك المرأة المتحررة فحسب• فهو لا يؤمن بالتصنيفات البالية التى يأخذ بها المجتمع الراقى ، وانما يؤمن

« بقضية المرأة » وحدها دون سواها ؛ بل هو يزعم أن للمرأة الساقطة في نظره قيمة أكبر من قيمة المرأة التي لم تسقط •

لقد بدا هذا التأويل معقولاً جداً ، محتملاً كل الاحتمال ، وأخذ به أكثر المصطافين في بافلوفسك• ومما يسّر عليهم ذلك مزيداً من التيسير أن الوقائع اليومية كانت تأتي مصدقةً له • صحيح أن كثيراً من التفاصيل ظلت أموراً لا سبيل الى فهمها • لقد كان يُقال ان الفتاة المسكينة قد بلغت من حب خطيبها (وكان بعضهم يسميه « مغويها ») أنها هرعت اليه غداة تركها ولحقت به في بيت عشيقته • وذهب بعض آخر الى غير هذا فقالوا انه استدرجها الى بيت تلك المرأة متعمداً ، بدافع العدمية وحدها ، أي ليجللها بالعار وليلطخها بالدنس •

مهما يكن من أمر فان الاهتمام الذي أثاره هذا الحادث كان يشتد يوماً بعد يوم ، لا سيما وأنه لم يبق أي شك في أن ذلك الزواج المشين قد أصبح وشيكاً •

والآن ، اذا سألنا أحدٌ ايضاحات أو تفسيرات (لا عمَّا يتصف به الحادث من أنه ينتمي الى المذهب العدمي ، لا •••) ، وانما عن مدى انطباق هذا الزواج على رغبات الأمير ، وعما كان الأمير يرغب فيه حقاً ، وعن حالته النفسية في تلك الآونة ، وعن أمور أخرى من هذا النوع ، لوجدنا أنفسنا مرتبكين في الاجابة أشد الارتباك ، يجب أن نعترف بذلك• ولكننا نعلم أن الزواج قد تقرر فعلاً ، وأن الأمير قد كلَّف ليديف وكيللر وصديقاً لليبديف قُدِّم اليه وعُرِّف به في هذه المناسبة ، كلفهم بأن يتخذوا جميع التدابير وأن يعدوا جميع الاجراءات في الكنيسة وفي البيت معاً ، وأمرهم بأن لا يحفلوا بالنفقات وأن لا يبالوها • وقد ألحت ناستاسيا فيليبوفنا على أن يتم الزفاف في أقرب وقت • وألحَّ كيللر على أن يجعله الأمير فتى الشرف في عرسه ، فلبى الأمير طلبه ، ووقع اختيار

ناستاسيا فيليبوفنا على بوردوفسكى فتىً من جهتها ، فارتضى بوردوفسكى هذا الاختيار متحمساً • وحُدِّد أول تموز ـ يوليه ـ موعداً لحفلة الزفاف•

وعدا هذه الوقائع الدقيقة الصحيحة كل الصحة ، فنحن نعلم كذلك تفاصيل تحيِّرنا أشد الحيرة لأنها تناقض ما سبق • لهذا يحق أن نقدِّر أن الأمير ما ان كلَّف ليبديف والآخرين باعداد كل الترتيبات حتى نسي أن هناك زواجاً وزفافاً وعريساً وفتيان شرف وما الى ذلك ! ولعله لم يسرع الى تكليف غيره بهذه الأمور الا ليكفَّ هو عن التفكير فيها والانشغال بها ، وربما ليمحوها من ذاكرته محواً تاماً •

ولكن اذا صدق هذا ففي أى شيء كان يفكر ؟ ما هو الشيء الذى كان يريد أن يحتفظ بذكراه ؟ ماذا كانت نياته ؟ لا شك في أن الأمير لم يتعرض لأى ضغط أو اكراه (من جانب ناستاسيا فيليبوفنا مثلاً) • صحيح أن ناستاسيا فيليبوفنا هي التي أرادت تعجيل الزفاف ؛ وأنها هي التي تخيلت هذا الزواج ، لا الأمير ؛ ولكن الأمير قد وافق موافقة حرة لم يجبره عليها أحد ، حتى انه وافق وهو ذاهل الهيئة كأن الأمر أمر عادى ليس على شيء من خطورة الشأن •

اننا نعرف عدداً كبيراً من وقائع لا تقل غرابة عن ذلك ، ولكننا نرى أن تلك الوقائع لن تساهم في ايضاح الحادث بل ستزيده بتراكمها غموضاً على غموض • ولنضرب مع ذلك مثالاً آخر •

نحن نعلم علم اليقين أن الأمير قد قضى في أثناء هذين الأسبوعين أياماً وسهرات كاملة مع ناستاسيا فيليبوفنا وأنه كان يصحبها في نزهاتها ويرافقها لسماع الموسيقى • كان يخرج معها كل يوم في عربة • واذا انقضت ساعة دون أن يراها أخذ يقلق عليها (كانت كل المظاهر تدل اذن على أنه يحبها حباً صادقاً) • كان يبقى الى جانبها ساعات طوالاً يصغى

اليها وهى تتكلم بابتسامة رقيقة عذبة أياً كان الموضوع الذى تتكلم فيه • وكان هو يصمت طول الوقت تقريباً •

ولكننا نعلم أيضاً أنه فى تلك الأيام نفسها قد ذهب عدة مرات ، بل مراراً كثيرة ، الى منزل آل ايبانتشين على حين فجأة ، دون أن يكتم ذلك عن ناستاسيا فيليبوفنا التى كانت تلك الزيارات تهوى بها الى حضيض الكمد والكرب واليأس • ونحن نعلم أن آل ايبانتشين قد رفضوا استقباله الى آخر يوم من أيام اقامتهم فى بافلوفسك ، وأنهم اعترضوا دائماً على أن يتم لقاء بينه وبين آجلايا • فكان ينصرف دون أن يقول كلمة واحدة ، ثم يعود فى الغد وكأنه نسى رفض الأمس ، ثم يُرفض مرة أخرى طبعاً•

ونحن نعرف أيضاً أن الأمير ، بعد هرب آجلايا من بيت ناستاسيا فيليبوفنا بساعة أو بأقل من ساعة ، قد مضى الى منزل أسرة ايبانتشين معتقداً أنه سيلقى الفتاة هناك • فما كان أشد الذعر الذى أحدثه فى المنزل وصوله ، لأن آجلايا لم تكن قد رجعت بعد ، وعلم أهل الدار منه أول نبأ عن الزيارة التى قامت بها آجلايا فى صحبته لناستاسيا فيليبوفنا • وقد حُكى بعد ذلك أن اليزابت بروكوفيفنا وبنتيها وحتى الأمير « شتش •• » قد عاملوه بقسوة وخشونة وعداوة ، وأعلنوا له بألفاظ غاضبة انهم لا يريدون أن يعاشروه بعد الآن ولا أن يعرفوه ، لا سيما حين وصلت باربارا آرداليونوفنا تبلغ اليزابت بروكوفيفنا فجأة أن آجلايا موجودة عندها منذ ساعة وأنها فى حالة رهيبة وأنها لا تريد الرجوع الى البيت فيما يبدو •

وقد ثبت صدق هذا النبأ الأخير الذى بثّ الاضطراب فى نفس اليزابت بروكوفيفنا أكثر من أى شىء آخر • والواقع أن آجلايا حين خرجت من عند ناستاسيا فيليبوفنا كانت تؤثر أن تموت على أن تظهر أمام أنظار أهلها من جديد • لذلك لجأت الى نينا الكسندروفنا • ورأت باربارا

آرداليونوفنا من جهتها أن من الواجب أن تبادر الى ابلاغ اليزابت بروكوفيفنا كلّ ما جرى بغير ابطاء • فهرعت الأم وابنتاها فوراً الى عند نينا ألكسندروفنا ، ولحق بهنّ الأب ، ايفان فيدوروفتش ، الى هناك منذ عاد الى البيت • وركض الأمير ليون نيقولايفتش وراء السيدات ايبانتشين رغم أنهن صرفنه ورغم أنهن وجهن اليه كلمات جارحة • ولكن باربارا آرداليونوفنا أمرت هناك بمنعه من الوصول الى آجلايا •

وقد انتهت القضية على النحو التالى : حين رأت آجلايا أمها وأختيها يبكين بسببها ولكنهن لا يوجّهن اليها أى لوم ، ارتمت فى أحضانهن ورجعت معهن الى البيت فوراً •

وحُكى أيضاً ـ غير أن هذه الشائعة ظلت غير واضحة ـ أن جبريل آرداليونوفتش قد مُنى بسوء الحظ مرة أخرى : فانه حين خلا الى آجلايا أثناء ذهاب باربارا آرداليونوفنا الى اليزابت بروكوفيفنا ، ظن أن عليه أن ينتهز هذه الفرصة ليحدث آجلايا عن حبه • فلما سمعته آجلايا نسيت حزنها ودموعها وانطلقت تضحك فى قهقهة مجلجلة ، ثم ألقت عليه السؤال التالى : أهو مستعد ، فى سبيل البرهان على حبه ، لأن يحرق اصبعه على لهب شمعة ؟ ويبدو أن جبريل آرداليونوفتش قد تحيَّر وشُده وصُعق لهذا الاقتراح ، فلما رأت آجلايا ما تعبر عنه هيئته من هذا كله ، اعترتها نوبة ضحك فظيع ، وهربت الى الطابق الأعلى ، الى عند نينا ألكسندروفنا ، حيث وجدها أهلها بعد ذلك بقليل •

وقد نقل هيبوليت هذه الواقعة الى الأمير فى الغد • ان هيبوليت الذى أصبح لا يستطيع أن يترك مرقده قد استدعى الأمير خصيصاً لينقل اليه تلك الواقعة • لا نعرف كيف اطلع هو عليها • ولكننا نعرف أن الأمير حين سمع حكاية الأصبع والشمعة قد أخذ يضحك ضحكاً بلغ من الشدة

أن هيبوليت نفسه تحير تحيراً كبيراً • غير أن الأمير لم يلبث أن أخذ يرتجف ، وأجهش باكياً •••

ولقد كان الأمير خلال تلك الأيام ، على وجه العموم ، فريسة قلقٍ شديد واضطراب خارق وخوف غامض • حتى ان هيبوليت أعلن صراحةً أن الأمير يُشعره بأنه وجل أصابه اختلال عقلى • على أن هذا الظن كان يصعب بناؤه على أساس محسوس حتى ذلك الحين •

اننا ، حين نعرض هذه الوقائع جميعها ونرفض أن نفسِّرها ، لا نهدف الى أن نبيِّض صفحة بطلنا وأن نبرىء ساحته وأن نسوِّغ سلوكه فى نظر القارىء • بالعكس : نحن مستعدون لأن نشارك فى هذا الاستياء الذى أثاره سلوك الأمير حتى فى نفوس اصدقائه • ان فيرا ليبديفا نفسها قد أحنقها هذا السلوك مدةً من الوقت • وان كوليا وكيللر قد أظهرا امتعاضهما كذلك • ولم يغيِّر كيللر رأيه الا حين اختاره الأمير فتى الشرف لزفافه • أما ليبديف فقد بلغ استياؤه من الصدق أنه دفعه الى أن يدبر للأمير مكيدة سنتحدث عنها فيما بعد •

اننا من حيث المبدأ نؤيد بلا تحفظ بعض الأقوال التى تتصف بالشدة والصرامة بل وتتصف كذلك بعمق النفاذ السيكولوجى ، أعنى الأقوال التى وجهها أوجين بافلوفتش الى الأمير بغير لف أو دوران ، أثناء حديث ودى قام بينه وبينه بعد انقضاء ستة أيام أو سبعة على الحادث الذى وقع عند ناستاسيا فيليبوفنا • يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن الأشخاص الذين تربطهم بأسرة ايبانتشين صلات مباشرة أو غير مباشرة قد اعتقدوا أن من واجبهم أن يشاركوا الأسرة فى قطع أى صلة بالأمير • فالأمير «شتش••» مثلاً قد أشاح عنه وجهه حين لقيه ، ولم يردد تحيته• ومع ذلك لم يخش أوجين بافلوفتش أن يتعرض لشر اذا هو زار الأمير ، رغم أنه قد استأنف

تردده على آل ايبانتشين كل يوم ، وأن الأسرة استقبلته بمودة ظاهرة واضحة •

ففي غداة اليوم الذى غادر فيه آل ايابنتشين بافلوفسك، ذهب أوجين بافلوفتش الى الأمير • وكان حين دخوله عليه عالماً بالأقاويل التى كانت تروج فى المدينة ؛ بل لعله كان قد أسهم من جهته فى نشرها • وقد سُرّ الأمير برؤيته سروراً عظيماً ، وسرعان ما أدار الحديث على آل ايبانتشين• فكان من شأن هذا الدخول فى الموضوع على نحو صريح مباشر أن حلّ عقدة لسان أوجين بافلوفتش وأتاح له أن يمضى الى هدفه رأساً •

كان الأمير ما يزال يجهل رحيل آل ايبانتشين • فحين أنبأه أوجين بافلوفتش بذلك تجمد دهشةً وامتقع لونه • ولكنه بعد دقيقة ، هزّ رأسه مضطرب الهيئة شارد الفكر وقال مسلماً مذعناً : « لم يكن من ذلك بد » ؟ ثم أسرع يسأل عن « محل اقامتهم الجديد » •

وكان أوجين بافلوفتش أثناءذلك يرقبه بانتباه ، فأدهشه أن رأى الأمير يسرع فى سؤاله هذا الاسراع ، وأدهشه ما رآه من سذاجة فى الأسئلة التى يلقيها عليه ، وما لاحظه فيه من اضطراب ، وما لاح له فى كلامه من نبرة صدق غريب ، وما كان يظهر عليه من قلق واضطراب وعصبية • ومع ذلك أطلع الأمير على تفاصيل جميع الأحداث بكثير من الكياسة والبشاشة واللطافة • لقد أعلمه أشياء كثيرة ، وكان أولَ من يحمل اليه الأنباء من عند آل ايبانتشين •

أكدّ له أوجين بافلوفتش أن آجلايا قد مرضت فعلاً ، وأنها قضت ثلاث ليال فى حمى وأرق ، وأن صحتها الآن قد تحسنت فنجت من الخطر ، ولكنها ما تزال فى حالة شديدة من حالات فرط الاهتياج ••• وأضاف : « من حسن الحظ على كل حال أن سلاماً تاماً يسود جوّ المنزل! انهم يحاولون أن لا يتكلموا عن الماضى ، لا بحضور آجلايا فحسب ، بل

حتى فى غيابها • والأبوان يريدان أن تقوم الأسرة فى الخريف برحلة الى الخارج ، بعد زواج آديلائيد رأساً • وقد استقبلت آجلايا أولى التلميحات الى هذا المشروع صامتةً فلم تعقب عليه بشىء » •

أما هو ، أوجين بافلوفتش ، فقد يسافر الى الخارج أيضاً • وحتى الأمير « شتش •• » قد يقرر أن يغيب مع آديلائيد شهراً أو شهرين ، اذا سمحت له أعماله بذلك • فلا يبقى عندئذ الا الجنرال • والأسرة كلها تقيم الآن فى كولمينو ، على مسافة عشرين فرسخاً من بطرسبرج ، بمنزل ريفى واسع فى احدى الأراضى التى تملكها• ولم تكن الأميرة بيلوكونسكايا قد سافرت بعدُ الى موسكو ، ويظهر أنها تأخرت متعمدة • لقد ألحت اليزابت بروكوفيفنا الحاحاً شديداً على استحالة البقاء فى بافلوفسك بعد كل ما حدث • وكان أوجين بافلوفتش ينقل اليها الشائعات التى تسرى فى المدينة ، يوماً يوماً • وأعتقد آل ايبانتشين أن الذهاب الى فيللا ايلاجين مستحيل أيضاً •

أضاف أوجين بافلوفتش يقول :

ـ لا شك أنك تسلّم يا أمير بأن الوضع قد أصبح لا يطاق ••• ولا سيما عند من يعرف ما يجرى فى بيتك كلَّ ساعة ، وبعد زياراتك اليومية « هناك » ، رغم الاصرار على رفض استقبالك •

أجاب الأمير وقد عاد يهز رأسه :

ـ نعم ، نعم ، أنت على حق • كنت أريد أن أرى آجلايا ايفانوفنا•

فصاح أوجين بافلوفتش يقول فجأة بلهجة مؤثرة حزينة :

ـ آه يا عزيزى الأمير ! كيف أمكنك أن تسمح اذن بحدوث كل ما حدث ؟ صحيح أن الأمر كان لك مفاجأة غير متوقعة ••• فانا أسلّم بأنك لم يكن فى وسعك الا أن يطيش صوابك ، ولم يكن فى وسعك أن تصد تلك الفتاة عن الانقياد لنوبة الجنون التى اعترتها ، فذلك كله فوق

طاقتك ! ولكن كان عليك أن تدرك مدى خطورة وقوة العاطفة ... التي كانت تدفع تلك الفتاة اليك ! انها لم تشأ أن يُشاركها أحد فيك ، وأنت .. أنت تركت هذا الكنز وحطمته .

قال الأمير وقد أرهقه الحزن :

ـ نعم ، نعم ، أنت على حق . اسمع : ان آجلايا كانت هي الانسان الوحيد الذي ينظر الى ناستاسيا فيليبوفنا هذه النظرة !... ما من أحد غيرها كان يرى فيها هذا الرأي ، ويحكم عليها هذا الحكم ...
هتف أوجين بافلوفتش يقول باندفاع :

ـ ولكن هذا بعينه هو ما يثير الحنق : أن الأمر كله لم يكن فيه شيء من جد . معذرة يا أمير ... لكنني ... لكنني فكرت في المسألة، فكرت فيها ملياً . وأنا أعرف جميع المقدمات . أعرف كل ما حدث قبل ستة أشهر . لم يكن في الأمر كله شيء من جد ، لم يكن ثمة الا فكر يعبث وخيال يهوِّم ، ووهم ، ودخان .. والغيرة المروِّعة ، الغيرة التي عصفت بقلب فتاة غير ذات تجربة ، هي التي استطاعت وحدها أن تجعلها تأخذ الأمر مأخذ الجد ومأخذ المأساة !

وهنا شعر أوجين بافلوفتش بارتياح كامل ، فأطلق لسانه حراً يعبِّر عن استيائه بغير تحفظ . فاذا هو يرسم للأمير صورةً للعلاقات بينه وبين ناستاسيا فيليبوفنا بأقوال ذكية واضحة ، وبنفاذ سيكولوجي عميق ، كما أسلفنا من قبل . ان أوجين بافلوفتش قد أوتي موهبة الكلام فكانت هذه الموهبة تلاحَظ فيه دائماً ، ولكنه ارتقى هذه المرة الى مرتبة البلاغة النادرة . قال :

ـ لقد كان فيك منذ البداية شيء من كذب . ومن كان الكذب بدايته فلا بد أن يكون الكذب نهايته . ذلك قانون من قوانين الطبيعة . انني

لا أرى رأى أولئك الذين يعدونك أبله . حتى اننى استاء حين أسمع كلامهم . انك أذكى من أن توصف بهذه الصفة . ولكن لا بد أنك تسلّم أنت نفسك بأن فيك غرابةً تميزك عن الناس كافة . لقد خلصت أنا الى هذه النتيجة : أن سبب كل ما جرى يكمن قبل كل شىء فيما أسميه « اللاخبرة الفطرية » (لاحظ تعبير « الفطرية » يا أمير) ، وفيما تتصف به من سذاجة شاذة غير سوية . وانى لأضيف الى ذلك أنك يعوزك حس الاعتدال عوزاً خارقاً (تلك آفة فيك كثيراً ما اعترفت بها أنت نفسك) ؛ وينبغى أن نذكر أخيراً ذلك السيل المتدفق من المعانى المجردة المكتسبة التى يمتلىء بها دماغك والتى حسبتَها باخلاصك وبراءتك آراء أصيلة حقيقية صادقة طبيعية مباشرة ! عليك أن تعترف أنت نفسك يا أمير بأن علاقاتك مع ناستاسيا فيليبوفنا قد قامت منذ البداية على فكرة « الديموقراطية الاصطلاحية » (استعمل هذا التعبير للايجاز) وتأثرت بما تتصف به « قضية المرأة » من فتنة وسحر (أقول هذا لمزيد من الايجاز أيضاً) . اعلمْ اننى مطلع على جميع تفاصيل الحادث الغريب الفاضح الذى جرى فى بيت ناستاسيا فيليبوفنا حين جاء روجوين بأمواله . سأحاول ، اذا شئت، أن أحلّلك وأن أُظهرك على صورتك كأنك تراها فى مرآة . فالى هذه الدرجة من الدقة أعرف حقيقة القضية والسبب الذى جعلها تجرى هذا المجرى ! حين كنت شاباً تعيش فى سويسرا ، كان بك حنين الى وطنك ، وكانت روسيا تجذبك كأنها بلد مجهول ، كأنها أرض موعودة . وقد قرأت حينئذ كتباً كثيرة عن روسيا . ولعلها كانت كتباً ممتازة ، لكنها قد أضرّت بك . فلما عدتَ الى الأرض التى وُلدت فيها كنتَ ممتلئاً بالحماسة ظامئاً الى النشاط . فارتميت على العمل ارتماءً ان صح التعبير. وهأنت ذا ، منذ وصولك أولَ يوم ، تُحكى لك حكاية حزينة مؤلمة هى حكاية انسان أهين وأوذى . لقد حُكيت هذه الحكاية لك أنت ، أنت

الرجل العفُّ الطاهر الذى يتصف بروح الفروسية ، والانسان الذى قُصَّت عليك قصته الأليمة تلك ، كان امرأة ! وفى ذلك اليوم نفسه ترى تلك المرأة نفسها ، فيسحرك جمالها ، جمالها الخارق الشيطانى (هأنت ذا ترى اننى أعترف بجمالها) • أضف الى ذلك حالة أعصابك ، ومرض الصرع ، وما يحدثه ذوبان الثلج ببطرسبرج من أثر حزين فى النفس• أضف الى ذلك أيضاً أنك أثناء ذلك النهار الأول الذى قضيته فى مدينة مجهولة شبه أسطورية فى نظرك ، قد شهدت مشاهد عدة ولقيت ناساً كثيرين • لقد تعرفت ، على نحو لم يكن فى الحسبان قط ، بثلاث جميلات، الآنسات ايبانتشين ، ومنهن آجلايا • أضف الى ذلك أيضاً ما كنت فيه من تعب ، وأضف اليه الدوار ، وأضف اليه صالون ناستاسيا فيليبوفنا والجوّ الذى كان يسوده ، و ••• فماذا يمكن أن تتوقع من نفسك فى تلك اللحظة ؟ هلاّ قلت لى ، من فضلك •••

قال الأمير هازاً رأسه وقد أخذ وجهه يحمر :

ـ نعم ، نعم ، تكاد تكون على حق • فعلاً ، لم أكن قد نمت فى الليلة السابقة بالقطار ، ولا فى الليلة التى قبلها ••• وكنت أشعر أننى فى غير حالتى الطبيعية •••

تابع أوجين بافلوفتش كلامه قائلاً :

ـ فهذا بعينه ما أردت أن أخلص اليه • واضح أنك ، وقد أسكرتك الحماسة ، ارتميت على هذه الفرصة ارتماء لتبرز عظمة نفسك أمام الناس معلناً على رءوس الأشهاد أنك على كونك أميراً بالولادة ، وعلى كونك رجلاً طاهراً ، لا ترى أن أى عارٍ قد لحق بامرأة لم تُسقطها خطيئتها هى بل أسقطتها خطيئة رجلٍ منحلٍ كريه من أبناء المجتمع الراقى • أمر مفهوم جداً ! ولكن ليست هذه هى المسألة يا عزيزى الأمير • ان الشىء

الذى يجب أن نعرفه هو : أكانت عاطفتك حقيقية ، صادقة ، طبيعية ، أم كانت ناشئة عن حماسة دماغية ؟ ما رأيك ؟ لئن غُفر فى المعبد لامرأة من هذا النوع ، فما من أحد قال لها انها أحسنت صنعاً ، ولا انها تستحق جميع الأمجاد وجميع أنواع الاحترام ! ألم ترَ أن عقلك قد أرجع الأمور الى نصابها من تلقاء نفسه بعد ثلاثة أشهر ؟ لنسلّم بأنها بريئة (هذه مسألة لا أريد أن ألح عليها) • هل ينفى هذا أن أعمالها لا تسوّغ أى تسويغ ما يراه المرء فيها من عُجْب لا يطاق وزهو شيطانى لا يغتفر، ووقاحة شديدة ، وأنانية مفرطة لا يرتوى لها ظمأ • معذرةً يا أمير ، اذا أنا اندفعت واسترسلت ، ولكن •••

تمتم الأمير يقول من جديد :

ـ نعم ، ذلك كله ممكن • جائز أنك على حق ••• انها فى حالة شديدة من حالات فرط الاهتياج فعلاً • وأنت على حق يقيناً ، ولكن ••

ـ أتريد أن تقول انها تستحق الشفقة يا أميرى الطيب ؟ ولكن هل من حقك ، شفقةً بها وارضاءً لها ، أن تجلل بالعار فتاة أخرى كريمة المحتد طاهرة ، وأن تذلّها أمام « تينك » العينين اللتين تفيضان احتقاراً وكرهاً ؟ فأين تقف الشفقة بعد هذا ؟ أليس ههنا غلوٌ لا يصدقه العقل ؟ حين يحب المرء فتاةً فهل يستطيع أن يحقّر شأنها ذلك التحقير أمام غريمتها ، وأن يهجرها فى سبيل أخرى على مرأى من هذه الأخرى ، بعد أن خطبها خطبةً شريفة ؟ ••• ذلك أنك خطبتها وأعلنت خطبتها بحضور أبويها وأختيها ! أفيمكن بعد هذا أن توصف بأنك رجل شريف يا أمير ؟ ثم ••• ألم تخدع فتاة تستحق العبادة حين أكدت لها أنك تحبها ؟

جمجم الأمير يقول بحزن لا يغالب :

ـ نعم ، نعم ، أنت على حق • آه ••• أنا أشعر بأننى آثم !

هتف أوجين بافلوفتش يقول مستاءً :

ـ ولكن هل يكفى هذا ؟ هل يكفى أن تصيح قائلاً : « آ ••• أنا آثم ! » • أنت آثم ، ولكنك مستمر فى أخطائك وذنوبك • أين كان اذن قلبك ، قلبك « المسيحى » ؟ لقد رأيت وجهها فى تلك اللحظة : فهل كان يعبر عن الألم أقل من وجه « الأخرى » ، وجه « صاحبتك » التى تبث البلبلة والاضطراب ؟ فكيف ، وقد رأيت هذا المنظر ، سمحت بحدوث ما حدث ، كيف ؟

تمتم الأمير المسكين يقول :

ـ ولكن ••• ولكننى لم أسمح بشىء •••

ـ كيف لم تسمح بشىء !

ـ يميناً لم أسمح بشىء !••• وما زلت حتى الآن لا أفهم كيف حدث ذلك كله ••• لقد ••• لقد ركضت عندئذ وراء آجلايا ايفانوفنا ، ولكن أغمى فى تلك اللحظة على ناستاسيا فيليبوفنا ، ومنذ ذلك الحين لم يبيحوا لى أن اقترب من آجلايا ايفانوفنا •

ـ كان يجب عليك أن تركض وراء آجلايا وأن تترك الأخرى مغمى عليها !

ـ نعم ، نعم ، كان يجب علىّ ••• كانت ستموت من ذلك ! كانت ستنتحر ، انك لا تعرفها •• و •• على كل حال •• مهما يكن من أمر •• كنت سأقص كل شىء بعد ذلك على آجلايا ايفانوفنا ، و •• اسمع ياأوجين بافلوفتش : يلوح لى أنك لست على علم بكل شىء • هلاً قلت لى لماذا لا يبيحون لى الاقتراب من آجلايا ؟ لو سمحوا لى أن أفعل ، لشرحت لها كل شىء • اعلمْ هذه الحقيقة : هما كلتاهما لم تتكلما عندئذ عما كان ينبغى الكلام عليه ، وذلك هو السبب فى أن الأمور جرت بينهما هذا المجرى•

يستحيل عليّ استحالة مطلقة أن أشرح لك هذا شرحاً واضحاً ، ولكن قد أفلح في شرحه لآجلايا • آه ••• رباه ! رباه ! انك تكلمني عن وجهها في تلك اللحظة كيف كان ، هربت ••• آه ••• يا رب ! انني أتذكر كيف كان وجهها في تلك اللحظة !••• قم بنا ••• قم بنا •••

كان الأمير قد قام بغتةً وهو يحاول أن يجر أوجين بافلوفتش من كمه •

ـ الى أين ؟

ـ الى عند آجلايا ايفانوفنا • لنذهب اليها فوراً !•••

ـ ولكنني قلت لك انهم رحلوا عن بافلوفسك • ثم ••• ما عسانا فاعلين عندها ؟

دمدم الأمير يقول ضاماً يديه بحركة التوسل والضراعة :

ـ انها سوف تفهم ، سوف تفهم ! سوف تفهم أن الأمر ليس «هذا» بل هو شيء آخر تماماً !

ـ كيف يكون شيئاً آخر تماماً ؟ انك سوف تتزوج مع ذلك ! ماتزال اذن تعاند ••• ألست مقبلاً على زواج ؟

ـ بلى ••• سأتزوج ••• سأتزوج !•••

ـ فكيف تقول اذن ان الأمر ليس « هذا » ؟

ـ لا ، ليس الأمر هذا ، ليس الأمر هذا ••• ليس هاماً أن أتزوج ••• ما زواجي بشيء !•••

ـ كيف يمكنك أن تقول ان زواجك ليس هاماً ؟ ما زواجك مزاحة على كل حال ! انك تتزوج امرأةً تحبها ، من أجل أن تحقق سعادتها• وآجلايا ترى هذا وتعرفه • أهذا أمر لا قيمة له ولا شأن ؟

ـ سعادتها ؟ لا ، لا . اننى أتزوج هكذا ... أتزوج وكفى . هى تحرص على أن أتزوجها . وما قيمة أن أتزوج ؟ اننى ... هذا كله لا شأن له عندى . لو فعلت غير ما فعلت لماتت حتماً . اننى أرى الآن أن فكرة زواجها بروجويين كانت جنوناً . الآن فهمت ما لم أكن أفهمه من قبل . اسمع ما سأقوله لك : اننى حين اشتجرنا لم أستطع أن أتحمل رؤية وجه ناستاسيا فيليبوفنا .

ثم أضاف الأمير قائلاً وهو يخفض صوته كأنه يفضى بسر :

ـ أنت لا تعلم يا أوجين بافلوفتش ... اننى لم أقل هذا لأحد فى يوم من الأيام ، أبداً ، أبداً ، لم أقله حتى لآجلايا .. ولكن الحقيقة هى أننى لم أطق أن أحتمل رؤية وجه ناستاسيا فيليبوفنا ... انك منذ قليل قد أجدت أيما اجادة وصف السهرة التى تمت فى بيتها . غير أن هناك أمراً تفصيلياً غاب عنك لأنك كنت تجهله : هو أننى نظرت الى «وجهها». وقبل ذلك ، فى الصباح ، حين رأيت صورتها لم أستطع أيضاً أن أحتمل تعبير هذا الوجه ... انظر الى وجه فيرا ، بنت ليبديف : ان لها عينين مختلفتين عن عينى ناستاسيا فيليبوفنا كل الاختلاف. اننى ... اننى أخاف من وجه ناستاسيا فيليبوفنا .

أضاف الأمير هذه الجملة الأخيرة بلهجة تدل على أكبر الرعب .

سأله أوجين بافلوفتش :

ـ تخاف من وجهها ؟

فأجاب الأمير قائلاً بهمس وقد امتقع لونه :

ـ نعم . انها مجنونة .

فسأله أوجين بافلوفتش وقد لاحت فى وجهه حيرة شديدة :

ـ أأنت متأكد من هذا ؟

ـ نعم ، متأكد • الآن أنا متأكد • لقد اقتنعت بهذا اقتناعاً راسخاً في هذه الأيام الأخيرة •

فصاح أوجين بافلوفتش يقول مرتاعاً :

ـ فماذا تفعل اذن أيها الشقي ؟ أأنت تتزوج اذن بتأثير نوع من الخوف ؟ ذلك أمر لا يفهم المرء منه شيئاً ••• وربما كنت لا تحبها أيضاً ؟

ـ بلى بلى ! انني أحبها بكل نفسي ! ما هذا الكلام الذي تقول !•• انها طفلة • هي الآن أشبه بطفلة تماماً ! آه •• انك لا تعلم شيئاً !

ـ وفي الوقت نفسه أكدت لآجلايا حبك ؟

ـ نعم ••• نعم !•••

ـ كيف تفسر هذا ؟ أتزعم اذن أنك تحبهما كلتيهما في آن واحد ؟

ـ نعم ••• نعم !•••

ـ فكّر فيما تقول يا أمير !

ـ بدون آجلايا سوف يوافيني ••• يجب أن أراها حتماً • سوف يوافيني الموت وأنا نائم بعد حين ••• لقد قدّرت أن أموت هذه الليلة أثناء النوم • آه ••• ليت آجلايا تعلم ، ليتها تعلم كل شيء ••• أقصد أن تعلم كل شيء تماماً ! ذلك أن الأمر الأساسي هنا هو أن يعرف المرء كل شيء ! لماذا لم يُكتب لنا قط أن نعلم « كل شيء » عن شخص آخر حين يكون هذا لازماً ، اذا ارتكب هذا الشخص الآخر ذنباً !••• على كل حال ، أصبحت لا أعرف ماذا أقول ، لقد اختلطت في عقلي الأمور • انك ألقيتني في اضطراب رهيب ••• هل يمكن أن تكون محتفظة الى الآن بذلك التعبير الذي رأيته في وجهها حين هربت ؟ آه ••• نعم ••• أنا آثم ! الأرجح أن جميع الأخطاء قد صدرت عني أنا • انني لا أعرف ماذا كانت تلك الأخطاء على وجه التحديد ، ولكنني مسئول !••• هناك

شيء لن أستطيع أن أشرحه لك يا أوجين بافلوفتش ، لأنني لا أملك الألفاظ التي يمكن أن تعبر عنه . ولكن ... آجلايا ايفانوفنا ستفهم ! نعم ، لقد قدّرتُ دائماً أنها سوف تفهم ...

ـ لا يا أمير ، لن تفهم ! ان آجلايا ايفانوفنا قد أحبتك حباً انسانياً ، كما تحب امرأة ... لا كما يحب روح صرف . هل تريد أن أقول لك يا أميري المسكين : أغلب الظن أنك ما أحببت واحدة منهما أبداً لا الأولى ولا الثانية !

ـ لا أدري ... جائز ... جائز !.. انك على حق في نقاط كثيرة يا أوجين بافلوفتش . انك ذكي ذكاء متفوقاً يا أوجين بافلوفتش . آه .. هذا رأسي قد عاوده الصداع . لنذهب اليها . لنذهب اليها . ناشدتك الله ... ناشدتك الله !

ـ ولكنني قلت لك انها غادرت بافلوفسك ! هي الآن في كولمينو .

ـفلنذهب الى كولمينو . لنسافر حالاً !

ـ مس .. ت .. حيل !

كذلك قال أوجين بافلوفتش بصوت ممطوط . ونهض .

قال له الأمير :

ـ اسمع . سأكتب رسالةً تحملها أنت اليها !

ـ لا يا أمير ، لا ! اعفني من مثل هذه المهمات . لا أستطيع أن أتولى حمل الرسالة .

وافترقا .

مضى أوجين بافلوفتش وهو يحمل احساساً غريباً . لقد وصل الى اقتناع راسخ بأن الأمير مختل العقل قليلاً . « ما معنى هذا الكلام عن

« وجه » يخشاه كل هذه الخشية ويحبه كل هذا الحب ؟ وليس مستحيلاً في الوقت نفسه أن يموت لفراق آجلايا فعلاً ، فلا تعرف الفتاة مدى ما كان يحمله لها من حب . هأ هأ !... وكيف يمكنه أن يحب امرأتين؟ وأن يحب كلاً منهما حباً يختلف عن حبه للأخرى ؟ ذلك هو الشيء الطريف .. يا للأبله المسكين ! ما عسى يصير اليه الآن ؟ ... » .

الفصل العاشر

مع ذلك لم يمت الأمير قبل زواجه لا فى حالة اليقظة ولا « أثناء النوم » كما تنبأ بذلك لأوجين بافلوفتش . لعله كان ينام نوماً غير هادىء ولعله كان يرى أحلاماً سيئة . ولكنه أثناء النهار ، فى معاشرة الناس ، كان يبدو حسن الصحة بل وراضى النفس . واذا بدا فى وجهه كثير من الاستغراق أحياناً فان ذلك يحدث له حين يكون وحيداً .

لقد استُعجلت اعدادات الزواج الذى كان سيتم بعد زيارة أوجين بافلوفتش بثمانية أيام . فكان يستحيل على أصدقاء الأمير الخُلَّص ، اذا كان له اصدقاء خلَّص ، كان يستحيل عليهم وهم يرون ذلك الاستعجال كله الا أن يعدلوا عن الأمل فى أن تصل جهودهم الى « انقاذ » المجنون المسكين مما عقد العزم عليه . وسرت شائعة تقول ان زيارة أوجين بافلوفتش انما تمت بايحاء من الجنرال ايفان فيدوروفتش وزوجته اليزابت بروكوفيفنا . ولكن لئن دفعهما فرطُ طيبتهما كليهما الى أن يتمنيا «انقاذ» المختل المسكين من الوهدة التى وقع فيها ، فلقد اضطرا أن يقتصر على تلك المحاولة الوحيدة الوجلة ، فلا وضعهما ولا عواطفهما ، فى أغلب الظن (وذلك أمر طبيعى) ، تسمح لهما بأن يبذلا جهوداً أكبر . وقد سبق أن قلنا ان المحيطين بالأمير عارضوه هم أنفسهم . واكتفت فيرا ليبديفا

بأن تسكب الدموع حين تخلو الى نفسها • ثم انها كانت تمكث فى البيت أكثر الوقت ، فقلّت زياراتها للأمير •

وفى تلك الأثناء كان كوليا يقوم بآخر واجباته تجاه أبيه • لقد مات أبوه بنوبة جديدة وافته بعد النوبة الأولى بنحو ثمانية أيام • وشارك الأمير مشاركة كبيرة فى حداد الأسرة • فقضى فى الأيام الأولى ساعات كاملة قرب نينا الكسندروفنا • وسار فى الجنازة وشهد الدفن وحضر القداس الذى أقيم على روح الفقيد فى الكنيسة • وقد لاحظ أشخاص كثيرون أن وصوله الى الكنيسة وانصرافه منها قد أثارا همسات تبادلها الناس فى الحفل على غير ارادة منهم ، وحدث مثل هذا فى الشارع وفى الحديقة العامة • فكان الناس ، اذا مرّ الأمير سائراً على قدميه أو راكباً عربة ، تنتعش الأحاديث بينهم ويدل بعضهم بعضاً عليه ، وينطقون اسمه وينطقون اسم ناستاسيا فيليبوفنا • وقد بحثوا عن ناستاسيا فيليبوفنا فى جنازة الجنرال، لكنهم لم يجدوها • ولم تشارك « أرملة الكابتن » فى الجنازة ، فقد استطاع ليديف أن يصدّها عن الخروج من البيت • وأحدثت صلاة الجنازة فى نفس الأمير أثراً أليماً قوياً • فلما سأله ليديف عن ذلك أجاب بصوت خافت انه لأول مرة يشهد دفناً على الطقوس الروسية ، باستثناء احتفال مماثل يذكر أنه رآه أثناء طفولته فى كنيسة قرية •

قال ليديف هامساً :

ـ كيف يصدق المرء أن الرجل الراقد فى هذا التابوت هو ذلك الرجل نفسه الذى انتخبناه رئيساً منذ مدة قصيرة ؟ هل تذكر ؟ ولكن عمن تبحث ؟

ـ لا أبحث عن أحد، ولكن خيّل الىّ أننى •••

ـ أتراك تبحث عن روجوجين ؟

ـ أهو هنا ؟

ـ هو فى الكنيسة .

ـ خيّل الىّ فعلاً أننى رأيت عينيه ، ولكن كيف ... ماذا جاء به الى هنا ؟ هل دعوه ؟

كذلك سأل الأمير مدمدماً وقد لاح الاضطراب فى وجهه . فأجابه ليبديف :

ـ لم يخطر ببال أحد أن يدعوه . ثم ان الأسرة لا تعرفه . كل انسان يستطيع أن يدخل الكنيسة . لماذا دُهشت هذه الدهشة كلها ؟ اننى ألقاه فى هذه الأيام كثيراً . فى الأسبوع الماضى رأيته أربع مرات ، هنا فى بافلوفسك .

تمتم الأمير قائلاً :

ـ لم أره حتى الآن مرة واحدة ... منذ ذلك اليوم .

واذ أن ناستاسيا لم تقل للأمير يوماً انها لقيت روجوبين مرة واحدة « منذ ذلك اليوم » ، فقد استنتج الأمير من ذلك أن روجوبين قد غاب واختفى عامداً . وبدا الأمير مشغول البال غارقاً فى التفكير طوال ذلك النهار . ولا كذلك ناستاسيا فيليبوفنا فقد كانت مرحة مرحاً غير مألوف ، مرحاً امتدّ طوال السهرة .

وكان كوليا قد تصالح مع الأمير قبل موت أبيه ، واقترح عليه أن يتخذ كلاً من كيللر وبوردوفسكى فتى شرف لحفلة الزفاف (فالأمر هام ومستعجل لا يحتمل أى تأخير) . فأما عن كيللر فقد ضمن كوليا حسن سلوكه وأضاف الى ذلك أنه ربما كان « مفيداً » . وأما عن بوردوفسكى فلا حاجة الى أى تزكية له ، لأنه رجل « هادىء ومتواضع » . وقد قام ليبديف ونينا الكسندروفنا بتنبيه الأمير الى أنه ، اذا كان قد عزم أمره على

على الزواج فلا يمكن ثنيه عنه ، يستطيع على الأقل أن يعفى نفسه من الاحتفال به هنا بافلوفسك ، فى هذا الفصل الذى يكثر فيه توافد أبناء المجتمع الراقى الى بافلوفسك • أليس الأفضل أن يتم الاحتفال بالزفاف فى بطرسبرج ، بل وفى البيت أيضاً ؟ ولم يفت الأمير أن يدرك السبب الذى يكمن وراء هذه المخاوف ، ولكنه اقتصر على أن أجابها موجزاً بأن ناستاسيا فيليبوفنا ترغب فى اقامة الحفلة هنا قطعاً •

حين علم كيللر فى الغداة أنه اختير فتى شرف لحفلة الزفاف جاء يمثل أمام الأمير • توقف أولاً فى العتبة ، فما ان أبصر الأمير حتى رفع يده اليمنى ونصب ابهامه فى الهواء ، وهتف يقول بصوت من يحلف يميناً ويقطع على نفسه عهداً :

ـ لن أشرب قط !

ثم دنا من الأمير وشد على يديه كلتيهما وهو يهزهما هزاً قوياً ، وقال انه فى حقيقة الأمر قد غضب فى البداية حين علم بما حدث ، حتى لقد أعلن غضبه أثناء لعبة بلياردو ؟ ولكن هذا الغضب انما يرجع الى أن ما يحمله للأمير من صداقة تتصف بنفاد الصبر واستعجال الأمر كان يجعله يتمنى أن يرى الأمير يتزوج أميرة من أسرة روهان أو من أسرة شابو على الأقل • ولكنه أدرك الآن أن أفكار الأمير أنبل اثنتى عشرة مرة على الأقل من أفكار جميع من يحيطون به « جملة واحدة » ! لأن ما يسعى اليه الأمير ليس هو الشهرة ولا هو الغنى حتى ولا هو المجد ، وانما هو الحقيقة • ان ميول الشخصيات السامية معروفة ، وان للأمير من سعة ثقافته ما يجعله شخصية من تلك الشخصيات السامية ، بوجه عام • « ولكن الأوباش والأوغاد لهم رأى آخر يختلف عن هذا الرأى كل الاختلاف • ففى المدينة ، فى البيوت ، فى الاجتماعات ، فى الفيللات ، فى حفلات الموسيقى ، فى الحانات ، فى صالات البلياردو ، لا يتكلم الناس ولا يثرثرون

الا عن الحدث المقبل ، حتى لقد سمعت أنهم يهيئـون لك زيطة موسيقية قبيحة تحت نوافذك ، وذلك فى الليلة الأولى !••• فاذا كنت ، يا أمير فى حاجة الى مسدس رجل شريف فأنا مستعد لأن أبادل مبادلةً نبيلة نصف دستة من طلقات النار قبل أن تغادر مضجع عرسك فى صباح الغد » • حتى لقد نصح كيللر الأمير باعداد مضخة من مضخات اطفاء الحريق فى فنـاء البيت، كتدبير وقائى ضدّ الجمهور الفضولى عند العودة من الكنيسة• ولكن ليبديف اعترض على هذا الاقتراح قائلاً ان بيته سيهدّم من أساسـه اذا استُعملت هذه المضخة •

قال كيللر :

ـ أؤكد لك يا أمير أن ليبـديف هـذا يدبر لك مؤامرات • انهم يريدون أن يحجروا عليك ويجعلوك تحت وصـاية • هل تسـتطيع أن تتخيل هذا ؟ سوف يحرمونك من ممارسة حريتك واستعمال مالك ، أى من الشيئين الذين يميِّزاننا جميعاً عن الدواب ! لقد سمعت ذلك ، سمعته تماماً ! هذه هى الحقيقة خالصةً !

تذكر الأمير تذكراً غامضاً أنه سبق أن سمع شيئاً من هذا القبيل ، ولكنه لم يلق اليه بالاً بطبيعة الحال• ولم يزد الآن علىأن ضحك لملاحظة كيللر ، ثم سرعان ما نسيها فوراً •

وواقع الأمر أن ليبديف كان يتحرك ويسعى هنا وهناك منذ مدة • ان خطط هذا الرجل تنشأ فى نفسه دائماً بنوع من الوحى والالهـام ، ولكنه من فرط حرارته واندفاعه فى انفاذها يبعثر جهوده فى كل اتجاه ، ويبتعد عن الهدف الذى يكون قد رسـمه لنفسـه فى البداية • لذلك لم ينجح فى حياته كثيراً • وقد جاء يعترف للأمير فيمـا بعد ، يومَ الزواج تقريباً (لقد كان هوساً عنده أن يأتى الى من تآمر عليهم ، فيعبر لهم عن

ندمه وتوبته ، لا سيما حين تخفق مؤامراته) ، فأعلن له أولاً أنه قد خُلق ليكون تاليران ، ولكنه لتعثر حظه تعثراً لا يُفسَّر قد بقى ليديف لا أكثر ، ثم كشف له عن تفاصيل مكيدته التى أثارت اهتمام الأمير وشاقته كثيراً . قال انه بدأ يبحث فى أول الأمر عن حُماة يستند اليهم ويعتمد عليهم عند الحاجة ، فذهب لهذا الغرض الى الجنرال ايفان فيدوروفتش . فبدا على الجنرال الارتباك ، ثم قال له انه « رغم ما يتمناه للشاب من خير كثير ، ومهما تكن رغبته فى انقاذه قوية ، فانه لا يستطيع أن يتدخل ، لأن الأعراف لا تسمح له بذلك .. » . ولم تشأ اليزابت أن تراه ولا أن تسمع عنه . أما أوجين بافلوفتش والأمير « شتش .. » فقد رفضا هما أيضاً . ولكنه ، هو ليديف ، لم يفقد شجاعته ولا خارت عزيمته : كان قد استشار رجلاً خبيراً من رجال القانون هو شيخ محترم كان صديقاً حميماً له ، بل وكان يدين له ببعض المنة . فانتهى رجل القانون هذا الى أن الحجر على الأمير ممكن تماماً ، بشرط أن يشهد شهود اكفاء بأن عقله مختل ، وأن جنونه كامل ؛ والمهم على كل حال أن يكون هنالك اشخاص من أصحاب النفوذ يمكن الاتكال على نفوذهم . ولم يفقد ليديف صبره ، حتى لقد جاء الى بيت الأمير فى ذات يوم بطبيب . كان الطبيب هو أيضاً شيخاً محترماً يصطاف فى بافلوفسك ، ويحمل وسام القديسة حنة . لقد جاء به تحت ستار أنه يريد أن يريه منزله ، متفقاً معه على أن يدرس حالة المريض وأن يطلعه على النتائج التى يصل اليها لا بصفة رسمية بل بصفة ودية مؤقتاً .

لقد تذكر الأمير زيارة الطبيب تلك . تذكر أن ليديف قد ألحّ عليه بالأمس ليقنعه بأنه مريض ، فبعد أن رفض الأمير رفضاً قاطعاً أن يستعين بالطب ، رأى ليديف يدخل عليه بصحبة طبيب ، مدعياً أنهما قادمان من عند السيد تيرنتيف الذى ساءت حالته كثيراً ، وأن الطبيب يريد

أن يقول للأمير شيئاً في موضوع المريض • وقد أثنى الأمير على ليديف، واستقبل الطبيب استقبالاً يبلغ غاية المودة والبشاشة • وسرعان ما أخذوا يتكلمون عن هيبوليت • فطلب اليه الطبيب أن يقص عليه مشهد الانتحار تفصيلاً • فتكلم الأمير ففتن الطبيبَ بوصفه للحادث وتأويله اياه • ثم دار الحديث على طقس بطرسبرج، ومرض الأمير ، وسويسرا ، وشنايدر • فبلغ الطبيب من شغفه بما ذكر الأمير عن طريقة شنايدر في المعالجة أنه بقي معه قرابة ساعتين ، مدخناً أثناء ذلك لفائف سيجار الأمير الممتازة ، ومحتسياً ما قدمه اليه ليديف من شراب طيب جاءت به فيرا • ولم يفت الطبيبَ في هذه المناسبة ، رغم أنه متزوج ورب أسرة ، أن يغدق الثناء على فيرا اغداقاً بلغ من الجرأة أن الفتاة استاءت استياء عميقاً • وافترق الطبيب والأمير صديقين •

قال الطبيب لليديف وهو يخرج : « اذا أردنا أن نضع تحت الوصاية أناساً كالأمير فمن هم الذين يمكن أن نجعلهم أوصياء ؟ » • فلما عرض له ليديف جانب المأساة في الحادث الذي يوشك أن يقع ، هزَّ الطبيب رأسه بمكر وخبث ، وقال : « يجب أن تدع للناس أن يتزوجوا كما يشاؤون ! ثم ان المرأة التي تتحدث عنها ليست جميلة جمالاً لا يضارع فحسب ــ وذلك وحده سبب كاف لأن يدير رأس رجل غني ــ وانما هي تملك عدا ذلك ، فيما سمعت ، أموالاً طائلة آلت اليها من توتسكي وروجوين ، وتملك عقود لؤلؤ ، وجواهر ماس ، وشالات ثمينة ورياشاً فاخرة • وهذا كله يشهد بأن الأمير ، اذ يختارها ، ليس رجلاً ضعيف العقل غريب الأطوار بل هو على عكس ذلك فتى حصيف الرأي ، له ذكاءُ رجلٍ من أبناء المجتمع الراقي ، يعرف مصلحته ويجيد الحساب أيما اجادة ! » • اعتقد الطبيب اذن أن من حقه أن يستخرج من ذلك كله تشخيصاً يشهد للأمير لا عليه ، ويزكيه تزكية تامة •••

وقد أحدثت هذه النتيجة في ليبديف تأثيراً قوياً • وها هو ذا الآن يختم اعترافه للأمير قائلاً : « لن تجدنى بعد الآن الا رجلاً مخلصاً لك ، متفانياً في سبيلك ، مستعداً لأن يسفح دمه من أجلك • فلكى أقول لك هذا الكلام انما جئت اليك • • » •

وكان الأمير خلال هذه الأيام الأخيرة مشغولاً كذلك بهيبوليت • كان هيبوليت يستدعيه كثيراً • ان أسرة هيبوليت تسكن فى بُييت صغير غير بعيد من بيته • فالأولاد (أى أخو هبوليت وأخته) يتمتعون هنا بلذة الحياة في الريف ، وفي وسعهم أن يهربوا من المريض بالنزول الى الحديقة على الأقل • ولا كذلك أمه ، « أرملة الكابتن » المسكينة ، فلقد كانت أسيرة ارادته وضحية عسفه وطغيانه • فكان الأمير يقضى وقته فى التوفيق بينهما وردّ الصلح الى علاقاتهما • وقد استمر المريض ينادى الأمير باسم « نونو » ، مع عجزه عن منع نفسه من احتقاره لقيامه بدور الوسيط المصالح • وكان غاضباً على كوليا غضباً شديداً ، لأن كوليا انقطع عن زيارته انقطاعاً يكاد يكون تاماً ، لملازمته أباه حين كان على فراش الموت أولاً ، ولملازمته أمه الأرملة بعد ذلك • وقد أخذ هيبوليت يصب مزاحاته أخيراً على زواج الأمير وناستاسيا فيليبوفنا فى القريب • فاستاء الأمير وغضب غضباً قوياً وانقطع عن زيارته • وبعد ذلك بيومين جاءت « أرملة الكابتن » فى الصباح المبكّر ممتلئة العينين بالدموع ، جاءت ترجو الأمير أن يأتى اليهم ، والا فان ابنها سيشرب دمها • وأضافت أن هيبوليت يرغب فى أن يكشف له عن سر كبير • فأذعن الأمير • فأعرب له هيبوليت عن رغبته فى أن يتصالحا ، حتى لقد أجهش باكياً وهو يقول ذلك الكلام• ولكن ما ان جفت دموعه حتى عاد أشد شراسة مما كان ، دون أن يرخى العنان لغضبه مع ذلك • كانت صحته سيئة جداً ، وكان كل شىء يدل على أنه لن يلبث أن يموت • ولم يكن لديه أي سر يكشف عنه ، ولكن طفق

يلح فى « تحذير الأمير من روجوبين » بانفعال لعله كان مصطنعاً . قال يصف روجوبين : « هذا رجل لا يتخلى عمَّا يملك . انه ليس من طينتنا نحن يا أمير . اذا أراد شيئاً فليس يزعه وازع ولا يردعه رادع » ،الخ. أخذ الأمير يلقى عليه أسئلة مفصَّلة ليستخرج منه وقائع محدَّدة . ولكن هيبوليت لم يذكر أى دليل غير احساساته أو انطباعاته الشخصية . وقد أرضاه كثيراً فى النهاية أن ألقى فى نفس الأمير رعباً شديداً . كان الأمير فى البداية يتحاشى الاجابة عن بعض الأسئلة الخاصة التى يلقيها عليه هيبوليت ، وكان يقتصر على الابتسام حين يسدى اليه هيبوليت نصائح كهذه النصائح : « اهرب ولو الى الخارج . سوف تجد فى كل مكان كهنة أرثوذكسيين . فى وسعك أن تتزوج هناك أيضاً » . ولكن هيبوليت خلص بعد برهة الى هذه الفكرة : « الحق أننى أخشى خاصةً على آجلايا ايفانوفنا . ان روجوبين يعرف مدى ما تحمل لها من حب . العين بالعين، والسن بالسن ، والحب بالحب. لقد انتزعت منه ناستاسيا فيليبوفنا فسيقتل هو آجلايا ايفانوفنا . ورغم أن آجلايا ايفانوفنا لن تمت اليك بسبب بعد اليوم ، فسوف يؤلمك مقتلها كثيراً ، أليس كذلك ؟ » . حقق هيبوليت هدفه وبلغ مأربه : لقد خرج الأمير من عنده مضطرباً أشد الاضطراب.

هذه التحذيرات من روجوبين حدثت عشية الزواج . وفى ذلك المساء لقى الأمير ناستاسيا فيليبوفنا آخر لقاء قبل حفلة الزفاف . أصبحت المرأة الشابة لا تستطيع أن تهدئه . انها فى هذه الأونة الأخيرة لا تفلح الا فى مفاقمة اضطرابه. كانت قبل ذلك ببضعة أيام ، أثناء خلوة بينهما ، قد روَّعها ما رأته فى وجهه من حزن . فبذلت جميع ما تملك من جهود لتفرحه وتبهجه . حتى لقد حاولت أن تسرِّى عنه بالغناء . كانت فى أكثر الأحيان تبحث فى ذاكرتها عما يمكن أن يسليَّه . وكان الأمير يتظاهر فى جميع الأوقات تقريبا بأنه يبتهج كثيراً . حتى انه كان يندفع أحياناً فى ضحك

صادق تجره اليه قوة الفكاهة وحلاوة النكتة لدى المرأة الشابة حين تقص ما تقصه متوقدة القريحة ، وذلك ما يحدث كثيراً . فكانت اذا رأت ضحكه تُسرُّ سروراً عظيماً وتشعر بافتخار واعتزاز بنفسها لأنها استطاعت أن تحدث فيه أثراً طيباً . ولكنها تصبح الآن أشد حزناً وأكثر وجوماً وهماً ، ساعةً بعد ساعة . وكان الأمير قد كوّن لنفسه رأياً نهائياً فيها ، فلولا ذلك لبدا له كل شيء فيها اليوم لغزاً لا سبيل الى فهمه قطعاً . ولكنه ظل مقتنعاً اقتناعاً قوياً بأنها قد تبعث بعثاً جديداً . لقد كان على حق حين قال لأوجين بافلوفتش انه يحبها حباً صادقاً عميقاً . والواقع أن حبه هذا كان يشتمل على شيء من اندفاعة الحنان التي يشعر بها المرء نحو طفل ضعيف هزيل مريض يصعب بل يستحيل تركه وشأنه . ولم يشرح الأمير لأحد عواطفه نحوها في يوم من الأيام ، وكان يكره أن يتكلم في هذا الموضوع حين يستحيل تحاشيه . وكانا اذا خلا أحدهما الى الآخر لا يتكلمان في « العواطف » ، فكأنهما قد تعاهدا على ذلك ؟ وكان جميع الناس يستطيعون أن يشاركوا فيما يجري بينهما من حديث هو في العادة مرح زاخر بالنشاط . لقد روت داريا ألكسيفنا فيما بعد أنها لم تشعر وهي تراهما خلال تلك الأيام الا بالمسرة والفرح والافتتان .

وكان الرأي الذي قام في ذهن الأمير عن الحالة النفسية والعقلية لناستاسيا فيليبوفنا ، يعفي فكره من كثير من أنواع الحيرة والبلبلة الى حدٍّ ما . انها الآن امرأة مختلفة كل الاختلاف عن التي عرفها منذ نحو ثلاثة أشهر . أصبح لا يدهشه أن يراها تلح على استعجال الزفاف بعد أن رفضت في الماضي فكرة الزواج باكية لاعنةً شاكية لائمة . انه يقول لنفسه : « اذن لقد أصبحت لا تخشى أن تسبب لي الشقاء بالزواج كما كانت تخشى ذلك في الماضي . . » . فكانت هذه السرعة في استرداد الثقة بالنفس تبدو له غير طبيعية . ان ناستاسيا فيليبوفنا لم تستمد هذه الثقة من

كرهها لآجلايا فحسب ، لأنها قادرة على الشعور بعواطف أعمق ؟ لا ولا هى استمدتها من خشية الحياة مع روجـويين • صحيح أن أمثـال هذه العـوامل وغيرها يمكن أن يكون لها أثر ووزن ؟ ولكن الأمير يرى أن السبب الأوضح فى هذا الانقلاب الذى حدث لناستاسيا فيليبوفنا انما هو السبب الذى اشـتبه فيه منذ مدة طويلة : وهو أن هذه النفس المسـكينة المريضة لم تستطع أن تتحمل المحنة •

ورغم أن هذا التفسـير قد أعفى الأمير من كثير من أنواع الحـيرة والبلبلة ، ولو الى حد ما ، فانه لم يوفر له أثنـاء ذلك الوقت كله شـيئاً من راحة أو هدوء • وكان فى بعض الأحيان يحاول أن لا يفكر فى شيء • أما الزواج فكان يبدو فعلاً أن الأمير يقبل عليه اقبـاله على أمر شـكلى لا قيمة له • ان مصـير الأمير أهون شأناً فى نظر نفسـه من أن يفـكر غير هذا التفكير • وأما الاعتراضات والمناقشات التى تشبه تلك التى أثارها أوجين بافلوفتش ، فما كان فى وسع الأمير أن يجد لها أى جواب ، لأنه كان يشعر بأنه عاجز فى هذا المضمار كل العجز ، لذلك كان يتحاشى أى حديث من هذا النوع •

ثم انه قد لاحظ أن ناستاسـيا فيليبوفنا كانت تعـرف حق المعرفة وتدرك كل الادراك مكانة آجلايا فى نفسـه • انها لا تتكلم فى هذا الأمر، لكنـه قد قرأ فى « وجهها » حين باغتته مراراً (فى الأيام الأولى) وهو يتهيأ للذهاب الى آل ايبانتشين• وحين سافرت أسرة ايبانتشين صفا مزاجها وأشرق محيّاها • انه مهما يكن ضعيف الملاحظة قليل الذكاء ، قد خطر بباله أن ناستاسيا فيليبوفنا ربما قررت أن تعمد الى القيام بفضيحة بغية أن تحمل آجلايا على ترك بافلوفسك ، فأقلقته هذه الفكرة وعذبته• ولا شك فى أن الشائعات التى سرت فى الفيللات عن الزواج قد ساهمت ناستاسيا فيليبوفنا فى ترويجها من أجل أن تحنق غريمتها • واذ كان من الصعب

لقاء آل ايبانتشين فقد أركبت الأمير فى عربتها ذات يوم ، وأمرت الحوذى بأن يمرّ بهما تحت نوافذ بيتهم . فكان هذا مفاجأة للأمير رهيبة . لقد أحس ذلك بعد فوات الأوان ، كالعادة ، أى بعد أن تجاوزت المركبة المنزل . ولم يقل شيئاً ، ولكنه بعد ذلك الحادث لبث مريضاً يومين ، وقد حاذرت ناستاسيا فيليبوفنا أن تكرر التجربة .

وخلال الأيام التى سبقت الزواج أصبحت كثيرة الوجوم والتفكير. صحيح أنها كانت تفلح دائماً فى نفض حزنها واسترداد مرحها ، لكن هذا المرح غدا أكثر رصانة وأقل تعبيراً عن نفسه وأضأل اشعاعاً واشراقاً. وضاعف الأمير اهتمامه بها ورعايته لها . وقد حيّره أنه أصبح لا يسمعها تأتى على ذكر روجوجين فى لحظة من اللحظات . مرةً واحدة ، قبل الزواج بنحو خمسة أيام ، أرسلت إليه داريا ألكسيفنا من يقول له أن يأتى فوراً لأن حالة ناستاسيا فيليبوفنا سيئة جداً . فلما وصل وجدها فى حالة تشبه الجنون : كانت تصرخ وترتجف وتصيح قائلة ان روجوجين مختبىء فى الحديقة المجاورة للفيللا ، وانها رأته منذ هنيهة ، وانه سيقتلها فى الليل ... سيقتلها بالسكين ! ثم لم تسترد هدوءها طوال النهار. ولكن الأمير علم من « أرملة الكابتن » التى كانت عائدة من بطرسبرج بعد أن قامت فيها ببعض الأعمال الصغيرة ، علم منها حين مضى يزور هيبوليت لحظةً ، أن روجوجين قد زارها ببطرسبرج وسألها عن بافلوفسك . فلما سألها عن الوقت الذى زارها فيه روجوجين حددت له ساعةً هى على وجه التقريب الساعة التى خيّل لناستاسيا فيليبوفنا فيها أنها ترى روجوجين فى الحديقة . فما من شك اذن فى أن المرأة الشابة كانت رأت سراباً لا أكثر !... وحين ذهبت ناستاسيا فيليبوفنا بنفسها الى « أرملة الكابتن » لتسألها مزيداً من التفاصيل ، حصلت منها على وقائع دقيقة مطمئنة الى أبعد الحدود .

في عشية يوم الزواج ترك الأمير ناستاسيا فيليبوفنا وهي على أحسن حال من الحماسة الشديدة : كانت قد تلقت من خياطتها ببطرسبرج ما ستتزين به غداً في حفلة الزفاف ، وهو ثوب العرس ، وطرحة الرأس وما الى ذلك . لم يكن الأمير يتوقع أن يراها تتحمس لزينتها هذا التحمس كله . وقد أطرى كل ما اشتملت عليه هذه الزينة ، فازدادت سعادة المرأة الشابة . لكنها لم تفلح في اخفاء ما كان يدور في ذهنها : كانت قد سمعت أن سكان بافلوفسك مستاؤون وأن عدداً من الخليعين يهيئون لها زيطةً تصاحبها موسيقى مع سماع قصيدة من الشعر نُظمت لهذه المناسبة . وكانت هذه الاعدادات كلها قد أيدها باقي الناس وحبّذوها . ومن أجل هذا بعينه انما كانت تريد أن ترفع رأسها وأن تبهر الملأ كافة بما في زينتها من ذوق وأبهة وفخامة . « فليصرخوا ، وليصفروا ، اذا تجرأوا ! » . كانت عيناها تقدح شرراً من مجرد خطور هذه الفكرة ببالها . وكانت عدا ذلك تمني نفسها بأملٍ تتحاشى أن تفصح عنه . كانت تتصور أن آجلايا ، أو شخصاً ترسله آجلايا ، سيكون مع الحفل في الكنيسة متخفياً يفحصها . ومن ثم كانت تتأهب ذلك التأهب كله .

تلكم هي الخواطر التي كانت تملأ رأسها في الساعة الحادية عشرة من المساء ، حين تركها الأمير . ولكن لم تكن الساعة قد بلغت الثانية عشرة حين هرع من عند داريا ألكسيفنا من يدعو الأمير أن يجيء « بأقصى سرعة لأن الحالة سيئة جداً » . فوجد الأمير خطيبته غارقة في دموعها . كانت قد أوصدت على نفسها الباب ، واستولى عليها يأس شديد واعترتها نوبة عصبية قوية . حتى لقد لبثت مدة طويلة لا تسمع شيئاً مما كان يقال لها من خلال الباب الموصد . وفتحت أخيراً ، ولم تدع لأحد غير الأمير أن يدخل ، وأسرعت تغلق الباب ثانيةً على الفور ، ثم سقطت جاثيةً على

ركبتيها أمام الأمير • (تلكم هى على الأقل الرواية التى أوردتها فيما بعد داريا ألكسيفنا التى استطاعت أن تلمح جزءاً من المشهد) •

كانت ناستاسيا فيليبوفنا تصيح قائلةً وهى تقبل قدميه فى تشنج :

ــ ما هذا الذى أصنعه بك ؟ ما هذا الذى أصنعه بك ؟

بقى الأمير الى جانبها ساعةً كاملة • اننا نجهل ما تبادلاه من كلام• ولكن داريا ألكسيفنا روت أنهما قد افترقا فى نهاية تلك الساعة هادئين سعيدين ، وأن الأمير أرسل من يسأل عن أنباء خطيبته مرة أخرى فى الليل ، غير أن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد نامت • وفى الصباح ، قبل أن تستيقظ ، جاء الى داريا ألكسيفنا من عند الأمير رسولان آخران • وأعقبهما ثالث كلّف بأن ينقل الى الأمير ما يلى : « ان ناستاسيا فيليبوفنا محاطة الآن بحشد من الخياطات والمزينين وفدوا من بطرسبرج خصيصاً ، وانها قد برئت من النوبة التى اعترتها فى الليلة البارحة ، وانها مشغولة بزينتها كما تُشغل بزينتها لزواجها امرأةٌ جميلة هذا الجمال ، وانها فى هذه اللحظة بعينها عاقدةٌ اجتماعاً للتشاور فيما يجب أن تختاره لزينتها من جواهر الماس ، وفيما يجب أن تتبعه من أسلوب فى تصفيف هذه الجواهر عليها وترتيبها » • فاطمأن الأمير كل الاطمئنان •

ان كل ما سيلى سرده من تتمة قصة الزواج هذه انما نقله أشخاص مطلعون • ويبدو أن ما ذكروه صحيح • قالوا :

كان يجب أن يتم الزفاف فى الساعة الثامنة من المساء • وقد أكملت ناستاسيا فيليبوفنا استعدادها منذ الساعة السابعة • وكانت أفواج من العاطلين المتسكعين قد أخذت تتجمع حول فيللا ليبديف ثم قرب منزل داريا ألكسيفنا منذ الساعة السادسة • وحوالى الساعة السابعة أخذت تمتلىء الكنيسة أيضاً • ان مخاوف شديدة قد استولت على فيرا ليبديفا

وعلى كوليا . انهما خائفان على الأمير . غير أن هناك أعمالاً كثيرة يجب أن ينجزاها فى البيت . فقد كُلِّفا بترتيب شقة الأمير استعداداً للاستقبال والمأدبة ، رغم انه ليس مقرراً أن تقام حفلة بمضى الكلمة بعد الاحتفال الدينى فى الكنيسة . كان ليبديف قد دعا ، عدا الأشخاص الذين كان حضورهم الزواج أمراً لا بد منه ، كان قد دعا بتتسين وزوجته ، وجانيا ، والطبيب الذى يحمل وسام القديسة حنة ، وداريا ألكسيفنا . وحين استغرب الأمير دعوة الطبيب فسأل ليبديف عن السبب الذى حمله على دعوته أجاب هذا معجباً بنفسه راضياً عن تصرفه : « وسام فى العنق ، شخصية محترمة ، زينة للحفلة » ، فضحك الأمير .

وقد ارتدى كل من كيللر وبوردوفسكى رداء « فراك » ، فكان مظهرهما لائقاً جداً . ان كيللر وحده ما يزال يوقظ فى نفس الأمير والذين حوله شيئاً من الخشية ، لما يتصف به مزاجه من حب للعراك ظاهر . وكان كيللر ينظر بكثير من العداء الى المتسكعين الذين كانوا يتجمعون حول المنزل .

وأخيراً ، فى الساعة السابعة والنصف ، مضى الأمير فى عربة الى الكنيسة . يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أنه كان قد حرص على أن لا يهمل أية عادة من العادات التقليدية . كان كل شىء يتم على مرأى من الجميع « بالطريقة اللازمة » . استطاع الأمير أن يشق لنفسه ممراً فى الجمهور المزدحم ، وسط وشوشات وهمسات وصيحات تعجب متكررة . كان يسير أمامه كيللر ، ملقياً نظرات تهديد على يمينه وعلى شماله . وانسحب الأمير الى ما وراء الهيكل مؤقتاً ، ومضى الملاكم ليجىء بالعروس . فلما صار هذا أمام بيت داريا ألكسيفنا رأى جمهوراً اكثف مرتين أو ثلاثاً وربما أوقع مرتين أو ثلاثاً من الجمهور الذى كان يرابط حول فيللا الأمير . وحين صعد درجات المدخل سمع صيحات من نوع

جعله لا يستطيع أن يكظم غيظه فأوشك أن يوجه الى الجمهور تقريعاً مناسباً ، لولا أن صدّه عن ذلك ، لحسن الحظ ، بوردوفسكي وداريا ألكسيفنا نفسها التى كانت قد هرعت تستقبله على درجات المدخل • أمسك به الاثنان واقتاداه الى داخل المنزل • وكان مهتاجاً اهتياجاً شديداً ، فاستعجل الذهاب ، فقامت ناستاسيا فيليبوفنا ، وألقت على المرآة نظرة أخيرة فلاحظت وقد تقصلت شفتاها فى «ضحكة» ، أنها كانت « صفراء كميتة »• ثم انحنت أمام الأيقونة فى تقى وورع ، وخرجت فصارت على درجات الباب • فحيّا الجمهور ظهورها بضوضاء • الحق أن ما سُمع فى أول الأمر كان ضحكاً وتصفيقاً ساخراً وربما صفيراً • ولكن صيحات أخرى انطلقت بعد لحظة :

ـ ما أجملها امرأة !

ـ ما هى بالأولى ولا بالأخيرة !

ـ الزواج يستر كل شىء ، يا حمقى !

ـ هاتوا جمالاً كهذا الجمال ان استطعتم • مرحى !

بهذا الكلام الأخير كان يصيح القريبون منها •

وهتف موظف فى موظفى المكاتب يقول :

ـ أميرة ! ألا اننى مستعد لأن أبيع نفسى فى سبيل أميرة كهذه الأميرة !

ـ أبيع حياتى بليلة واحدة !••• *

تقدمت ناستاسيا فيليبوفنا • كان وجهها شاحباً شحوباً رهيباً ، لكن عينيها ترميان الفضوليين بنظرات محرقة كأنها الجمر • لم يستطع الجمهور أن يحتمل هذه النظرات • وحلّت محلّ الاستياء صيحات حماسة • وكان باب العربة مفتوحاً ، وكان كيللر مدّ ذراعه الى العروس ليساعدها

فى الركوب ، فاذا بالعروس تطلق صرخةً على حين فجأة ، وتبارح درجات المدخل ، وتمضى تقتحم الجمهور قُدُماً • تجمَّد الموكب ذهولاً • وابتعد الناس من أمامها • وظهر روجويين بغتةً على مسافة خمس خطوات أو ست من درجات المدخل • لقد لمحت ناستاسيا فيليبوفنا نظرته بين هذا الحشد الكبير كله • فركضت اليه كالمجنونة وأمسكت يديه وقالت له :

ـ أنقذنى ! خذنى ! خذنى الى حيث تشاء ! حالاً !•••

فاختطفها روجويين حاملاً اياها بذراعيه تقريباً ، وطار بها نحو عربتها طيراناً ان صح التعبير • وفى مثل لمح البصر سرعةً ، أخرج من محفظته ورقة مائة روبل ومدَّها الى الحوذى قائلاً له :

ـ الى المحطة ! فاذا وصلت قبل سفر القطار نقدتك مائة روبل أخرى !

وقفز الى العربة قرب ناستاسيا فيليبوفنا ، وأغلق باب العربة•

وبدون أى تردد ، ضرب الحوذى الخيل بسوطه فجرت العربة سريعة •

فيما بعد ، حين روى كيللر الحادث اعتذر عن أنه ذُهل عن نفسه وأمكن أن يؤخذ بغتةً ، وقال : « لو أُمهلت ثانية واحدة ، لعدت الى صوابى ، ولما سمحت بأن يقع ما وقع ! » •وقد أوشك هو وبوردوفسكى أن يركبا عربةً أخرى كانت واقفة هناك ، ليندفعا فى ملاحقة الهاربين ، ولكنهما لم يلبثا أن عدلا عن ذلك ، بحجة أنه « قد فات الأوان ، ولا مجال لاعادتها بالقوة » •

قال بوردوفسكى يحسم الأمر مضطرباً كل الاضطراب :

ـ ثم ان الأمير لن يريدها بعد الآن !

وصل روجويين وناستاسيا فيليبوفنا الى المحطة فى الوقت المناسب. وبعد أن نزلا من العربة ، فى اللحظة التى همَّا فيها أن يركبا القطار استوقف روجويين بسرعة فتاةً كانت مارَّة وكانت تضع على رأسها منديلاً وترتدى خماراً قاتم اللون بالياً بعض البلى لكنه ما يزال لائقاً ، وقال لها وهو يمد اليها خمسين روبلاً :

ــ هل تبيعين خمارك هذا بخمسين روبلاً ؟

وقبل أن تفيق من ذهولها وتفهم ماذا يُراد منها ، كان روجويين قد دسَّ المال فى يديها ونضا الخمار والمنديل عن كتفيها ورأسها وألقاهما على كتفى ناستاسيا ورأسها . فلولا أن فعل روجويين هذا لكان من شأن الثياب الفخمة التى كانت ترتديها ناستاسيا فيليبوفنا أن تلفت الأنظار فى المحطة وأن تحدث بلبلة . ولم تفهم الفتاة السبب الذى حمل هذا الرجل على أن يشترى منها بهذا الثمن الباهظ خرقاً لا قيمة لها ، الا فيما بعد .

وصلت أنباء الحادثة الى الكنيسة بسرعة لا يصدقها العقل . فحين شق كيللر لنفسه ممراً الى الأمير استوقفه عدد كبير من الناس الذين لا يعرفهم البتة ، استوقفوه ليسألوه عما حدث . كانوا يتكلمون بصوت عال ، ويهزون رؤوسهم بل ويضحكون . ولم يشأ أحد أن يخرج من الكنيسة . كانوا جميعاً يريدون أن يروا كيف سيستقبل الخطيب النبأ .

اصفر الأمير ، ولكنه استقبل النبأ بهدوء ، قائلاً بصوت لا يكاد يُسمع : « كنت خائفاً ، ولكننى لم أكن أتوقع هذا مع ذلك ... » . ثم أضاف يقول بعد لحظة صمت : « على كل حال ... اذا نظرنا الى حالتها كان ذلك كله طبيعياً لا غرابة فيه .. » . ان كيللر سيصف هذه النتيجة التى خلص اليها الأمير بأنها « فلسفة لا نظير لها » .

غادر الأمير الكنيسة دون أن يخرج عن هدوئه ورباطة جأشه ؛

ان كثيراً من الناس على الأقل قد لاحظوا ذلك وعلقوا بعدئذ عليه • وكان يبدو على الأمير أنه يرغب رغبة قوية في العودة الى بيته والخلو الى نفسه بأقصى سرعة ممكنة • ولكنه لم يُمكّن من ذلك • ان كثيراً من المدعوين قد تبعوه الى غرفته ، فمن هؤلاء بتسين وجبريل آرداليونوفتش والطبيب الذي نوى مثل غيره أن لا يذهب • يضاف الى ذلك أن المنزل كله قد هاجمه المتسكعون يريدون اقتحامه فعلاً • ها هو ذا الأمير يسمع كيللر وليبديف في مناقشة حامية حادة مع أشخاص مجهولين تماماً يريدون غزو الشرفة عنوةً • ان هيئاتهم تدل على أنهم من الموظفين في دوائر الدولة• اقترب الأمير وسأل عن الأمر ، ثم أبعد ليبديف وكيللر برفق وأدب ، وتكلم بلهجةٍ ملؤها الكياسة والتهذيب ، متجهاً الى سيدٍ من المتجمهرين سمين الجسم شائب الشعر كان قد صعد درجات سلّم المدخل على رأس مجموعة من الغزاة المحتلين ، فرجاه أن يشرفه بزيارته • فخجل الرجل ولكنه قبل الدعوة ، وجاء بعده ثان فثالث • وانفصل عن الجمهور سبعة أفراد آخرين أو ثمانية ، فدخلوا كذلك وهم يحاولون أن يصطنعوا هيئة عدم التحرج • ولم يقتدِ بهم الآخرون • وما لبث المتسكعون أن سُمعوا يلومون أولئك الدخلاء •

قُدِّمت للقادمين الجدد مقاعد يجلسون عليها ، وبدأ الحديث ، وصُبَّ الشاى • وحدث ذلك كله بتواضع وبشاشة ، ولكن بطريقة لائقة جداً ، فلم يملك هؤلاء الضيوف الطارئون الا أن يُدهشوا • وقد قامت محاولات عدة لجعل الحديث مرحاً ، ولتوجيهه نحو الموضوع « المنشود » ، وأُلقيت أسئلة فيها شيء من عدم التحفظ ، وقيلت ملاحظات فيها شيء من « خبث ومكر » ، فكان الأمير يجيب جميع الناس ببساطة كبيرة وطيبة عظيمة ، وكانت أجوبته فى الوقت نفسه تشتمل على وقار وعلى

ثقة بحسن نية سامعيه فلم تلبث الأسئلة الناشزة أن اختفت من تلقاء ذاتها • وشيئاً فشيئاً أخذ الحديث يدور على أمور هامة • فهاهو ذا واحد كثير الكلام منهم ، ينتهز فرصة كلمة قيلت فيحلف فجأةً باستياء شديد ، أنه لن يبيع أرضه في يوم من الأيام مهما يحدث من أمر ، وأنه سيصبر وسيصمد الى النهاية ، وأن « كل استثمار خير من أي مال » « ذلك هو مذهبي الاقتصادي يا سيدي ان شئت أن تعرفه » • واذ كان يخاطب بكلامه الأمير فقد أيده هذا بحرارة ، دون أن يعبأ بليبيديف الذي كان يهمسُ في أذنه أن هذا السيد لا يملك مالاً ولا عقاراً ، وأنه لم يملك أرضاً في يوم من الأيام قط •

انقضى ما يقرب من ساعة • كان الضيوف قد فرغوا من احتساء الشاي ، وصاروا يشعرون بحرج من البقاء مدةً أطول • وجّه الطبيب والرجل الشائب الى الأمير كلمات وداع مؤثرة • واستأذن الباقون بالانصراف وودعوه بحرارة وصخب ، وأعربوا له عن تمنيات وآراء من النوع التالي : « ليس لك أن تحزن ، عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، الخ الخ » • صحيح أنه وُجد بينهم أناس تجرأوا فطلبوا شمبانيا ، ولكن سرعان ما ردّهم الى الصواب وذكّرهم بقواعد الكياسة أولئك الذين كانوا أكبر سناً منهم •

حتى اذا انصرف الجميع مال كيللر على ليبديف وقال له :

ــ لو تُرك الأمر لنا نحن ، أنا وأنت ، لصرخنا وشتمنا ، وخضنا معركة ، وجللنا أنفسنا بالخزي والعار ، وجاءتنا الشرطة • أما هو فانه لم يلبث أن كسب أصدقاء جدداً ، ويا لهم من أصدقاء ! انني أعرفهم !

فقال ليبديف متنهداً وكان قد سكر :

ــ ان ما أُخفي عن الحكماء والأذكياء قد كُشف عنه للأطفال • ذلك

قول أدركت منذ مدة طويلة أنه يصدق عليه ، ولكنني أضيف اليه الآن أن الله وجميع القديسين قد حموا الطفل نفسـه فى هذه المرة وأنقذوه من الهوة !

وفى نحو السـاعة العاشرة والنصف تُرك الأمير ليخلو الى نفسـه أخيراً . انصرف كوليـا آخر المنصرفين ، بعد أن سـاعد الأمير فى خلع ملابسه ، ملابس العريس . وافترقا بوداع حار . لم يتلبث كوليـا على الحادث الذى وقع في ذلك اليوم ، لكنه وعد بأن يعود فى ساعة مبكرة من صباح الغد . وقد أكد فيما بعـد أن الأمير لم ينبئـه بشىء ، وأنه تركه جاهلاً بنياته حين ودعه . وما انقضت برهة قصيرة حتى كاد يخلو البيت خلواً تاماً : ذهب بوردوفسكى الى عند هيبوليت ، ومضى كيللر وليبديف لا يدرى أحد الى أين . ولم يبق غيرُ فيرا ليبديفـا التى أخـذت تعيـد الى البيت ترتيبـه المألوف . وقبـل أن تنصرف ، مضت تنظر ماذا يفعل الأمير . فرأته جالساً الى مائدته ، مسنداً عليها كوعيه ، مخفياً رأسه بيديه. فاقتربت منه برفق ، ولمست كتفه . فنظر اليها مستغرباً ، ولم يستطع أن يجمع شتات ذكرياته الا بعد قرابة دقيقة . فلما ثاب الى نفسه وفهم كل شىء ، ظهر عليه انفعال مفاجىء حاد . ورجاها أخيراً ، بالحاح شديد ، أن تجىء فتقرع بابه صباحَ غدٍ فى الساعة السابعة ، موعد أول قطار. فوعدته الفتاة بأن تفعل. فاستحلفها عندئذ أن لا تكلم فى هذا الأمر أحداً، فوعدته أيضاً . وأخيراً ، حين فتحت الباب وهمَّت أن تنصرف ، احتجزها مرة ثالثة ، وتناول يديها فقبلهما ثم قبلها هى نفسها على جبينها وقال لها بلهجة غير مألوفة « الى الغد ! » . ذلك هو على الأقل ما روته فيرا . وقد خرجت من عنده خائفة عليه خوفاً شديداً . ولكنها اطمأنت فى الغد بعض الاطمئنـان حين جاءت تقرع بابه بعد السـابعة قليلاً لتنبهه الى أن قطار بطرسبرج سيسافر بعد ربع ساعة ، كما اتفقا على ذلك ، فبدا لها وهى

تفتح الباب أنه مرتاح بل وأنه يبتسم • انه لم يكد يخلع ثيـابه للنوم ، ولكنه نام مع ذلك •

قال انه يقدّر أن يعود في هذا اليوم نفسه • ان كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن فيرا هي الشخص الوحيد الذي رأى الأمير أن من الممكن ومن الضروري أن يطلعه على أنه ينوي السفر الى بطرسبرج •

الفصل الحادي عشر

بعد ساعة كان الأمير قد وصل الى بطرسبرج ؛ وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة كان يقرع جرس منزل روجوين • لقد دخل من الباب الرئيسى ، وانقضت برهة طويلة قبل أن يجيبه أحد • وأخيراً شُقَّ باب بيت العجوز ، أم روجوين ، وظهرت خادم مسنة مهيبة المظهر ، فقالت دون أن تفتح الباب فتحاً كاملاً :

ــ ليس بارفيون سيميونوفتش فى بيته • من ذا تريد ؟

ــ بارفيون سيمونوفتش •

ــ ليس فى البيت •

وتفرست الخادم فى الأمير باستطلاع غريب •

ــ هل تستطيعين أن تقولى لى على الأقل أهو قضى الليلة هنا أم لا ؟ و ••• هل عاد أمس وحده ؟

ظلت الخادم تحدق اليه ، ولم تجب بشىء •

ــ هل كانت ناستاسيا فيليبوفنا معه هنا أمس •• أمس مساءً ؟•••

ــ ولكن اسمح لى على الأقل أن أسألك أولاً من أنت ؟

ــ الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين • أعرف بارفيون ويعرفنى •

ــ ما هو فى البيت •

وخفضت الخادم عينيها •

ـ وناستاسيا فيليبوفنا ؟

ـ لا أدرى .

ـ انتظرى . اسمعى ! متى يعود ؟

ـ لا أدرى أيضاً .

وأُغلق الباب . قرر الأمير أن يرجع بعد ساعة . ألقى نظرة على فناء المنزل ، والتقى بالبواب .

ـ هل بارفيون سيميونوفتش فى بيته ؟

ـ نعم .

ـ فكيف قيل لى منذ لحظة انه غائب ؟

ـ قيل لك ذلك في شقته ؟

ـ لا . ان خادمة أمه هى التى قالت لى ذلك . ولكننى قرعت باب بارفيون سيميونوفتش أيضاً فلم يفتح لى أحد .

قال البواب :

ـ جائز أن يكون قد خرج . فهو لا ينبىء أحداً بغيابه حين يغيب. حتى لقد يخرج بالمفتاح أحياناً ، فتبقى الشقة مغلقة ثلاثة أيام متتالية .

ـ أأنت واثق أنه عاد أمس الى بيته ؟

ـ نعم . يحدث أحياناً أن يدخل من السلم الكبير فلا أراه .

ـ هل كانت ناستاسيا فيليبوفنا أمس معه ؟

ـ لا أدرى . انها لا تجىء الا فى النادر القليل . فلو أنها جاءت لكان من الجائز أن نلاحظ ذلك .

خـرج الأمير ، وراح يذرع الرصيف متحيراً . ان نوافذ شـقة روجويين مغلقة كلها ، وان نوافذ الشقة التى تشغلها أمه مفتوحة كلهـا

تقريباً . النهار مضيء دافيء . عبر الأمير الشارع ووقف على الرصيف المقابل ينظر الى زجاج النوافذ مرةً أخرى . لم تكن النوافذ مغلقةً فحسب ، بل كانت الستائر البيضاء مسدلةً جميعها تقريباً .

لبث هنالك قرابة دقيقة . شيء غريب : خيِّل اليه أنه يرى أسفل احدى الستائر يرتفع فيظهر وراءه وجه روجويين ثم ما يلبث أن يغيب . انتظر الأمير قليلاً ، وهمَّ أن يصعد وأن يقرع جرس الباب من جديد ، لكنه عدل عن رأيه وقرر أن يعود بعد ساعة . « من يدرى ؟ لعل ذلك لم يكن الا وهماً ...؟ » . .

ان الأمر الأساسى فى نظره الآن هو أن يسرع الى حى اسماعيلوفسكى ، الى آخر عنوان لناستاسيا فيليبوفنا . انه يعلم أن ناستاسيا فيليبوفنا ، حين رجاها أن تترك بافلوفسك قبل ثلاثة أسابيع ، قد نزلت فى هذا الحى عند احدى صديقاتها ، وهى أرملة معلم مدرسة . ان هذه المرأة ربة أسرة محترمة ، تؤجر شقة مفروشة جميلة وتجنى من كرائها القسط الأكبر من رزقها . فمن الجائز أن تكون ناستاسيا فيليبوفنا حين عادت تقيم فى بافلوفسك قد احتفظت لنفسها بذلك المسكن . ومن الجائز خاصةً أن تكون قد قضت ليلتها فيها بعد أن صحبها روجويين اليها فى أغلب الظن . ركب الأمير عربة . وحدث نفسه أثناء الطريق بأنه كان ينبغى له أن يبدأ تحرياته هناك ، اذ ليس محتملاً أن تكون المرأة الشابة قد ذهبت الى منزل روجويين فى الليل رأساً . وتذكر عندئذ أن البواب قال انها فى الأوقات العادية لا تجيء الا فى القليل النادر . فاذا كانت فى الأوقات العادية لا تجيء الا نادراً ، فلماذا يجب أن تكون الآن عنده ؟ ولكن الأمير ، رغم جميع هذه الاستدلالات المعزية المشجعة التى حاول بها أن يقوى نفسه ، قد وصل الى حى اسماعيلوفسكى وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة .

وهنالك أذهله أن يعلم أن أرملة معلم المدرسة لم يبلغها شيء من أنباء

ناستاسيا فيليبوفنا ، لا اليوم ولا أمس • أكثر من ذلك : لقد هرعت الأسرة كلها لتراه كأنه انسان عجيب ، فجميع الأولاد ، وهم بنات تقع أعمارهن بين السابعة والخامسة عشرة ، ولا يفصل بين واحدة وواحدة منهن فى العمر الا سنة واحدة قد جئن فى اثر أمهن وأحطن بالأمير ينظرن اليه فاغرات الأفواه من الدهشة • وبعدهن جاءت خالة نحيلة صفراء ، تضع على رأسها منديلاً أسود ، ثم جاءت جدة الأسرة وهى سيدة طاعنة فى السن جداً على عينيها نظارتان •

ألحت أرملة معلم المدرسة على الأمير راجيةً منه أن يدخل وأن يجلس • ففعل • وأدرك فوراً أن جميع هؤلاء الأشخاص يعرفونه معرفة تامة ، ويعلمون أنه كان يجب أن يتزوج أمس • وأدرك أنهن يحترقن رغبةً فى سؤاله عن ذلك الزواج ، وعن المعجزة التى وقعت فجعلته يجىء اليهن ليسألهن عن امرأة كان ينبغى فى هذه اللحظة أن تكون معه فى بافلوفسك ، ولكنهن يمتنعن عن سؤاله ذوقاً وأدباً •

وقد أرضى شوقهن الى الاطلاع ببضع كلمات قالها لهن عن ذلك الزواج • فكان من شأن صيحات الدهشة والاستغراب والتعجب التى رحن يطلقنها أنه اضطر أن يروى لهن الخطوط الكبرى من كل ماحدث• واستقر رأى هذا المجلس من السيدات المليئات بالحكمة والعاطفة على أن عليه ، مهما كلف الأمر وقبل كل شىء ، أن يذهب مرة أخرى الى منزل روجويين فما يزال يقرع الجرس حتى يفتح له فيحصل من روجويين على جميع الايضاحات • فاذا كان روجويين غائباً بالفعل (وهذا ما يجب التأكد منه) أو اذا هو رفض أن يتكلم ، كان على الأمير عندئذ أن يذهب الى حى سيميونوفسكى ، فيمضى هنالك الى بيت سيدة ألمانية تعيش عند أمها وهى صديقة لناستاسيا فيليبوفنا ؛ فلعل الهاربة ، وقد عصفت بها الانفعال وأرادت أن تختبىء عن أعين الناس ، قد ذهبت تبيت عند هاتين السيدتين •

كان الأمير مهدّماً حين نهض ، وكان « شاحباً شحوباً رهيباً » كما ذكرت هاته السيدات فيما بعد . كانت ساقاه تلتويان تحته . واستطاع أن يفهم أخيراً من خلال كلامهن الكثير أنهن يعرضن عليه أن يساعدنه فى البحث ، وأنهن يسألنه عن عنوانه بالمدينة . واذ لم يكن له بالمدينة عنوان فقد نصحنه بأن يستأجر غرفة فى فندق . ففكّر الأمير لحظةً ثم ذكر لهن عنوان الفندق الذى سبق أن سكنه وأصيب فيه بنوبة .

ومضى متجهاً الى منزل روجويين .

فى هذه المرة أيضاً لم يُفتح له الباب ، حتى ان باب مسكن العجوز ظل مغلقاً كذلك . نزل الأمير الى الفناء وأخذ يبحث عن البواب الى أن عثر عليه بعد عناء . كان البواب منصرفاً الى عمله فنظر اليه بغير اكتراث ولم يكد يجيبه عن أسئلته ، غير أنه أفهمه على نحو قاطع أن بارفيون سيميونوفتش قد « سافر فى الصباح المبكر الى بافلوفسك وأنه قد لايرجع منها طوال النهار » .

قال الأمير :

ـ سأنتظر . أتراه يعود فى المساء ؟

ـ قد لا يعود قبل أسبوع . من يدرى ؟

ـ لكنه قضى الليلة هنا على كل حال ، أليس كذلك ؟

ـ هذا ... نعم !...

ذلك كله مشبوه غامض . جائز جداً أن يكون البواب قد تلقى فى هذه الفترة أوامر جديدة . كان منذ قليل كثير الكلام ، وهو الآن لا يكاد يفتح فمه . مع هذا قرر الأمير أن يعود مرة أخرى بعد ساعتين ، وأن يرابط أمام المنزل اذا اقتضى الأمر ذلك . أما الآن فلا يزال عليه أن

يذهب الى الألمانية يسألها فعسى أن يعرف منها شيئاً . وها هو ذا يسرع الى حى سيميونوفسكى .

ولكنه لم يُفلح هنالك حتى فى أن يُفهم الألمانية شيئاً . وأدرك من بضع كلمات أفلتت منها أنها قد حدث شقاق بينها وبين ناستاسيا فيليبوفنا قبل خمسة عشر يوماً ، فلم يمكنها أن تعرف عنها شيئاً منذ ذلك الحين ؛ وهى تعلن الآن جهاراً أنها أصبحت لا تهتم بها أى اهتمام ، « ولو تزوجت جميع أمراء العالم » .

أسرع الأمير يودعها . وخطر بباله أن من الجائز أن تكون المرأة الشابة قد سافرت الى موسكو ، كما فعلت ذلك من قبل ، وأن يكون روجوجين قد تبعها ، هذا اذا لم يكن قد صحبها . « ليتنا نستطيع على الأقل أن نهتدى الى أى أثر ... » .

وتذكر أثناء ذلك أن عليه أن يحجز غرفة فى فندق . فأسرع الى شارع ليتانيايا . فحُجزت له غرفة على الفور . وسأله خادم الطابق هل يريد أن يصيب وجبة خفيفة . فاذا هو من ذهوله يجيبه قائلاً « نعم » ، ولكنه ما ان ثاب اليه وعيه حتى غضب من نفسه غضباً شديداً ، لأنه بتناول هذه الوجبة قد ضيّع نصف ساعة سدى ؛ ولم يدرك الا فيما بعد أنه ما من شىء كان يجبره على أن يتناول الطعام الذى جاءه به الخادم . وقد شعر وهو يتنفس الهواء الخانق فى ذلك الممر المظلم أن احساساً غريباً مقلقاً يغزو نفسه ويجنح الى أن يصير فكرة . ولكن الأمير لم يستطع أن يتبيّن تلك الفكرة . وخرج من الفندق وهو فريسة اضطراب عميق وبلبلة شديدة . كان رأسه يدور . الى أين يجب أن يذهب ؟ وأسرع مرة أخرى الى منزل روجوجين .

لم يكن روجوجين قد عاد . قرع الأمير جرس الشقة مدة طويلة ، فلم يجب أحد . فقرع عندئذ جرس شقة العجوز . ففُتح الباب ، وقيل

له مرةً أخرى ان بارفيون سيميونوفتش غائب ، وانه قد لا يرجع الا بعد ثلاثة أيام . وشعر الأمير بحرج وضيق لأنه لاحظ أن النظرة اليه تشتمل على استطلاع غريب غير مألوف . وظل البواب في هذه المرة مختفياً لا سبيل الى العثور عليه .

انتقل الأمير الى الرصيف المقابل كما فعل في المرة الماضية ، وأخذ يذرعه مدة نصف ساعة أو أكثر ، في ذلك الحر الخانق ، مثبتاً نظره على النوافذ . لم يتحرك في هذه المرة شيء : بقيت النوافذ مغلقة ، والستائر البيضاء ساكنة . اقتنع الأمير اقتناعاً حاسماً بأنه قد توهم في المرة الأولى توهماً . ثم ان الزجاج متسخ اتساخاً شديداً ، ولم يُغسل منذ مدة طويلة ، فلا يمكن أن يرى أحد من ورائه شيئاً ، هذا اذا كان وراءه أحد.

اشتدت عزيمة الأمير بهذه الفكرة ، فعاد الى بيت أرملة معلم المدرسة في حي اسماعيلوفسكي . ولكن ينتظرنه هناك . لقد ذهبت هذه السيدة الى ثلاثة أماكن أو أربعة ، ذهبت حتى الى منزل روجويين، ولكنها لم تظفر بأية نتيجة . أصغى الأمير الى كلامها صامتاً ، ودخل الى الغرفة ، وجلس على الأريكة، وأخذ ينظر فيما حوله نظرة مَنْ لا يفهم ماذا يُقال . لقد أكدت الأسرة كلها فيما بعد أن الأمير أدهشها يومئذ بغرابة حالته . « لعل اختلاله العقلي قد أخذ يظهر منذ ذلك الوقت » . ونهض أخيراً ، وطلب أن يرى الغرف التي كانت تشغلها ناستاسيا فيليبوفنا . هما حجرتان عاليتان مضيئتان ، مؤثثتان تأثيثاً جميلاً ، فلا شك أنها كانت تدفع كراءهما غالياً . وقد روت سيدات هذا البيت فيما بعد أن الأمير أنعم النظر في كل شيء من الأشياء التي رآها في الشقة . فلما لمح على منضدة صغيرة رواية فرنسية هي رواية « مدام بوفاري » التي كانت ناستاسيا فيليبوفنا قد

له . هناك ظاهرة غريبة : ان ملكة الملاحظة عنده تكون تارة مشحوذة شحذاً قوياً ، وتكون تارةً أخرى ذاهلةً ذهولاً شديداً لا يُصدَّق .

استعارتها من قاعة مطالعة كفأ زاوية الصفحة التى كان الكتاب مفتوحاً عليها ، واستأذن فى أن يأخذ الكتاب ، ثم وضعه فى جيبه رغم أنه قيل له ان الكتاب مستعار • وجلس قرب نافذة مفتوحة • فلما رأى على مائدة لعب ارقاماً مدونة بالطباشير سأل عمن كان يلعب هنا • فأجيب بأن ناستاسيا فيليبوفنا كانت تلعب مرة كل مساء مع روجويين • فهما يلعبان تارة لعبة « المعتوه » ، وتارة لعبة الويست ، وتارة لعبة « الشببه » ، أى كانا يلعبان كل اللعب ، وهما انما ألفا هذه العادة فى الآونة الأخيرة ، بعد مغادرة ناستاسيا فيليبوفنا ضاحية بافلوفسك للاقامة ببطرسبرج • لقد شكت ناستاسيا فيليبوفنا مرة من السأم لأن روجويين كان يقضى سهرات كاملة دون أن يقول كلمة واحدة ، فليس عنده موضوع يدير عليه الحديث ، وكانت هى تبكى فى كثير من الأحيان • فلما جاء فى الغد استل من جيبه ورق لعب فجأة ، فانطلقت ناستاسيا فيليبوفنا تضحك ، وأخذا يلعبان • سأل الأمير أين الورق الذى كانا يلعبان به • فلم تستطع السيدات أن تريه ذلك الورق ، لأن روجويين كان عند انصرافه كل يوم يحمل الورق القديم ويجىء فى اليوم التالى بورق جديد دائماً •

نصحت السيدات الأمير بأن يعود الى منزل روجويين مرة أخرى، وأن يقرع الباب قرعاً أشد • ولكن « فى المساء ، لا الآن ، فلعل شيئاً يكون قد عرف قبل حلول المساء » • وقد عرضت أرملة معلم المدرسة أن تذهب فى النهار بنفسها الى بافلوفسك لترى داريا ألكسيفنا ، فلعلهم قد علموا هناك شيئاً • ودعى الأمير أن يعود فى نحو الساعة العاشرة من المساء ، ولو لوضع خطة عمل مشتركة يتعاونون على تنفيذها فى الغد •

كان يأس كامل يجتاح نفس الأمير رغم جميع هذه التشجيعات • وها هو ذا يعود الى فندقه سيراً على الأقدام وقد أرهقه حزن لا سبيل الى مغالبته • كان يحس كأنه مسحوق بين فكى كلابة فى بطرسبرج هذه

التي كان جوها خانقاً وكان هواؤها مثقلاً بالغبار في الصيف • اصطدم أثناء سيره بأناس أفظاظ أو سكارى • وكان يتفرس في المارة لا يدري لماذا • لعله مشى خطى كثيرة لا فائدة منها ، ولعله لف ودار في غير طائل• فلما وصل غرفته كان المساء يوشك أن يهبط على المدينة • قرر أن يرتاح قليلاً ، ليعود بعد ذلك الى روجويين كما نُصح • فجلس على أريكة ، ووضع كوعيه على مائدة ، وغرق في خواطره وتأملاته •

لا يدري الا الله كم قضى من الوقت وهو على هذا الوضع ، ولا ماذا دار في رأسه من أفكار • كان خائفاً من أشياء كثيرة ، وكان يشعر بتفاقم هذا الخوف ، فيعاني من ذلك ألماً ممضاً وقلقاً شديداً • فكّر في فيرا ليبديفا ، ثم تساءل ألا يمكن أن يكون ليبديف قد بلغ الى علمه شيء عن هذا الأمر • وقال لنفسه : حتى لو كان لا يعلم شيئاً فانه أقدر مني على أن يحصل على بعض المعلومات بسرعة وسهولة • ثم وافته صورة هيبوليت فتذكر أن ليبديف سيمضي يزوره• ثم تذكر أخيراً روجويين نفسه : كان قد رآه في الآونة الأخيرة ، مرةً في الجنازة ، ومرةً في الحديقة العامة ؛ ورآه مرةً كذلك قرب غرفته ، في ذلك الممر المظلم ، حيث تربص به مختبئاً في ركن ممسكاً بيده سكيناً • تذكر عينيه ، عينيه اللتين كانتا تحدقان اليه في الظلمات • ارتعش : ان الفكرة التي كانت ترتسم في ذهنه غامضةً منذ قليل ، تظهر الآن له واضحة بينة •

كانت تلك الفكرة هي التالية تقريباً : اذا كان روجويين في بطرسبرج فانه مهما يختبيء زمناً طويلاً أو قصيراً ، لا بد أن يعود باحثاً عنه ساعياً اليه ، سواء أكانت نياته حسنة أم كانت نياته سيئة ، وربما عاد اليه وهو على تلك الحالة النفسية ذاتها التي كان عليها في المرة الأولى • وفي أقل تقدير ، اذا ارتأى روجويين لسبب من الأسباب أن يبحث عنه فسوف

يبحث عنه هنا طبعاً ، فى هذا الممـر نفسـه • » فانه ، وهو لا يعرف لى عنواناً ، سوف يفترض أننى نزلت نفس الفندق الذى نزلته من قبل • ومهما يكن من أمر ، فسوف يبحث عنى هنا ••• اذا شعر بحاجة قوية الى رؤيتى • ومن يدرى ؟ لعله يشعر بهذه الحاجة القوية أشد ما يكون الشعور ••• » •

كذلك كان يفكـّر الأمير ؛ وكان هذا التفكير يبدو له محتملاً • لو سألته أن يحلل تفكيره لما استطاع أن يشرح لك مثلاً لماذا يرى أن روجويين سيشعر بمثل هذه الحاجة القوية اليه على حين فجـأة ، أو لماذا يستحيل أن نفترض أنهما لن يلتقيا بعد اليوم أبداً • غير أن الفكرة كانت أليمة • كان الأمير يقول لنفسه : « اذا كان سعيداً فلن يأتى • وانما يأتى اذا كان شقياً • وهو شقى حتماً ••• » •

وما دام اقتناعه هو هذا فقد كان ينبغى له أن ينتظر روجويين فى الفندق ، فى غرفته • ولكنه كان كمن لا يستطيع احتمال فكرته الجديدة هذه ، فها هو ذا يندفع فيتناول قبعته ويخرج مسرعاً •

الظلام فى الدهليز أوشك أن يصبح حالكاً • فلما صار الأمير قرب ذلك المكان المشئوم الذى سبق أن رأى فيه روجويين مشـهراً سكينه ، قال يحدث نفسه : « ماذا لو ظهـر من ذلك الركن فجـأة وأوقفنى فى السلم ؟ » • ولكن لم يظهر أحد • وتجاوز الباب ، ومضى الى الرصيف، ونظر مدهوشاً الى ازدحام النـاس فى الشـوارع لحظةَ مغيب الشمس (وهذا منظر مألوف ببطرسبرج فى أيام القيظ) ثم اتجـه نحو شـارع جوروخوفايا • حتى اذا صار على مسافة خمسين خطوة من الفندق ، عند أول مفرق ، شعر بأحد يلمس كوعه ، وسـمع صوتاً يقول له هامسـاً قرب أذنه :

ـ ليون نيقولايفتش ، اتبعني يا أخي ، يجب أن تتبعني •

انه روجويين •

شيء غريب : لقد أخذ الأمير يروي له على الفور ، فرحاً مرحاً متدفقاً في الكلام حتى ليكاد لا يتم النطق بألفاظه ، كيف انتظره منذ لحظة في دهليز الفندق •

فقال له روجويين فجأة :

ـ كنت هناك فعلاً • هلمَّ بنا !

فدُهش الأمير من هذا الجواب ، غير أن دقيقتين على الأقل قد انقضتا بين اللحظة التي فهم فيها الجواب واللحظة التي دُهش فيها من هذا الجواب • وشعر عندئذ بخوف وأخذ يلاحظ روجويين • كان روجويين يتقدمه نصف خطوة تقريباً • وكان ينظر الى أمام ، لا يلتفت يمنةً ولا يسرة ، ولا ينتبه الى المارّة أي انتباه ، فاذا اقترب من أحدهم تحاشاه بحركة آلية على غير شعور •

سأله الأمير فجأة :

ـ لماذا لم تسأل عني في الفندق ما دمت قد ذهبت اليه ؟

فتوقف روجويين ، ونظر اليه ، وفكّر ، ثم قال وكأنه لم يدرك السؤال ادراكاً واضحاً :

ـ اسمع يا ليون نيقولايفتش • سِرْ أمامي قدماً الى أن تبلغ منزلي ، أتعرفه ؟ أما أنا فأسير في الجهة الأخرى من الشارع • ولكن احرصْ على أن نمضي معاً ••• انتبه !

قال هذا وعبر الشارع منتقلاً الى الرصيف الآخر ، منتبهاً مع ذلك الى الأمير ليرى هل سار كما أمره • فلما لاحظ أن الأمير واقف ينظر اليه

محملقاً دلّه بيده على اتجاه شارع جوروخوفايا ، ثم استأنف سيرة متلفتاً بغير انقطاع ليراقب الأمير ويحضه على أن يتبعه . حتى اذا تأكد من أن ليون نيقولايفتش قد فهم عنه وأنه لا يعبر الشارع ليلحق به عادت اليه طمأنينته . وقد خطر ببال الأمير أن روجوبين يترصد مرور أحد وأنه انتقل الى الرصيف الثاني حتى لا يفلت منه ، فتساءل : « ولكن لماذا لم يحدد الشخص الذي يجب ترصده ؟ » . وسارا على هذا النحو قرابة خمسمائة خطوة ، فاذا بالأمير يأخذ يرتعش ارتعاشاً قوياً دون أن يعرف لماذا يرتعش . وكان روجوبين ما يزال يلتفت اليه ولكنه لا يلتفت اليه الآن الا من حين الى حين . ونفد صبر الأمير فحرك يده يستوقف صاحبه ويدعوه اليه . فسرعان ما عبر روجوبين الشارع قادماً نحوه .

سأله الأمير :

ـ هل ناستاسيا فيليبوفنا عندك فى البيت ؟

ـ نعم .

ـ وهل أنت الذى نظرتَ الىَّ من وراء ستارة النافذة ؟

ـ نعم ...

ـ أف ... أفأنت ...

ولكن الأمير لم يعرف كيف يكمل جملته ، ولا ماذا يلقى من سؤال . وكان قلبه عدا ذلك يخفق خفقاناً بلغ من القوة أن الكلام أصبح يشق عليه .

صمت روجوبين هو أيضاً ، ونظر اليه نظرة من يحلم ، كما فعل منذ قليل ... ثم قال فجأة وهو يتهيأ لعبور الشارع :

ـ هيَّا بنا . انا ذاهب الى هناك . اسبقنى انت . لنمش منفصلين.. ذلك أفضل ... يمشى كل واحد فى جهة ... سوف ترى .

فلما دخلا شارع جوروخوفايا أخيراً ، واقتربا من منزل روجويين شعر الأمير مرةً أخرى بأن ساقيه تنثنيان تحتــه حتى ليكاد يعجـز عن السير • كانت الساعة قريبة من العاشرة مساءً • وكانت نوافذ الجناح الذى تقيم فيــه العجــوز ما تزال مفتوحة • وكان كل شيء فى بيت روجويين مغلقاً ، وكانت الستائر المسدلة تبدو فى ضوء الغسق أشد بياضاً •

ووصل الأمير الى مستوى المنزل وهو ما يزال على الرصيف المقابل• فلما رأى روجويين يصعد درجات المدخل ويشير اليه أن يأتى بادر الى اللحاق به وأدركه •

همس روجويين قائلاً له وهو يبتسم ابتسامةً فيها مكر ويكاد يكون فيها رضى :

ـ البــواب لا يعلم اننى عــدت • قلت له منذ فترة اننى ذاهب الى بافلوفسك ، وقلت هذا الكلام نفسه لخادمة أمى • سوف ندخل دون أن يسمعنا أحد •

وكان قد أخرج المفتاح فهو الآن فى يده • وحين صــعد الســلم التفت نحو الأمير وأشار يأمره بأن يمشى بمزيد من الهدوء والرفق • وفتح باب شقته دون ضوضاء ، وأدخل الأمير ، وتبعه محترساً ، فأغلق الباب ثانية ووضع المفتاح فى جيبه •

قال بصوت خافت :

ـ هلمّ !

كان يهمس همساً منذ أن أخــذ يكلم الأمير على رصيف شــارع ليتاينايا • ان المرء يدرك أن نفسه مضطربة اضطراباً عميقاً رغم هدوئه الظاهر • وحين دخلا الصــالة التى تقع قبل حجـرة المكتب اقترب من النافذة ، ودعا الأمير اليه وقد لاح فى وجهه معنى السر • ثم قال :

ـ اسمع • حين قرعت بابي في هذا الصباح ، كنت أنا هنا ، وسرعان ما حزرت أن القارع هو أنت • اقتربت من الباب ماشياً على رءوس الأصابع ، وسمعتك تكلم بافنوتيفنا • وكنت قد أمرتها منذ مطلع الصبح أن لا تجيب أي انسان يقرع جرس بابي ، أياً كان العذر الذي يتعلل به ، سواء أكان القارع أنت أم كان شخصاً آتيا من عندك ، أم كان أي شخص آخر • وكان الأمر الذي أصدرته اليها يستهدفك أنت خاصة ، اذا بدا لك أن تجيء بنفسك سائلاً عني ، وقد سميتك لها • فلما خرجت ، خطر ببالي أنك ربما رحت ترابط في الشارع مترصداً مترقباً • فدنوت من هذه النافذة فأزحت ستارتها لألقي نظرة ، فرأيتك واقفاً هناك تنظر الي فعلاً • هكذا جرت الأمور •••

قال الأمير بصوت مختنق :

ـ ف ••• فأين ناستاسيا فيليبوفنا ؟

أجاب روجوجين ببطء بعد تردد قصير :

ـ هي ••• هنا •

ـ أين ؟

فرفع روجوجين عينيه الى الأمير ، وتفرس فيه محدقاً • ثم قال له :

ـ هيّا • تعال •

انه ما يزال يتكلم هامساً ، بطيئاً ، ذاهلاً ذلك الذهول نفسه • حتى حين روى كيف أزاح الستارة كان رغم ما باح به ، يبدو عليه أنه يريد أن يتكلم عن شيء غير هذا تماماً •

ودخلا حجرة المكتب • لقد أُجريت فيها تغييرات منذ الزيارة الأخيرة التي قام بها الأمير • ان ستارة من قماش البروكار تشطر الغرفة الآن شطرين ، فتفصل حجرة المكتب بمعنى الكلمة عن مخدع النوم الذي

يوجد فيه سرير روجـويين • ان الظـلام حالك فى الغـرفة • ان ليالى بطرسبرج « البيضاء » هى الآن فى نهايتها ، فلولا أن القمر كان بدراً ، لما كان فى وسع المرء أن يميز أى شىء فى هذه الشقة التى كانت ستائرها المسـدلة تزيدها ظلاماً • الحـق أنه ما يزال فى امكان المـرء أن يرى الوجوه ، ولو رؤية غامضة • كان وجـه روجويين أصفر كما عُهد • وكانت عيناه ترسلان الى الأمير نظرة ثابتة لكنها جامدة •

قال الأمير :

ـ ينبغى أن تشعل شمعة •

فأجابه روجويين وقد أمسكه من يده وأجبره على الجلوس :

ـ لا ، لا ينبغى •••

وجلس هو أمامه • ان كرسيه يبلغ من القرب أن ركبتيه وركبتى الأمير تكاد تتلامس • وكانت توجـد بينهما منضـــدة صـغيرة مدوّرة الى جانب •

قال وكأنه يشجعه على البقاء :

ـ اجلس • لنسترح هنا لحظة •

وخيّم الصمت دقيقة • ثم أضاف يقول بلهجة يصطنعها المرء حين يجرى الحديث على تفاصيل تافهة فراراً من مواجهة المسألة الأساسية :

ـ قدّرت أنك قد تنزل ذلك الفندق نفسه • وحين ولجت الدهليز قلت لنفسى : من يدرى ؟ لعله هو أيضاً ينتظرنى فى هذه اللحظة هنا كما انتظره ! هل ذهبت الى أرملة معلم المدرسة ؟

قال الامير بمشقة كبيرة بينما قلبه يكاد ينفجر من شدة الخفقان :

ـ نعم •••

ـ قدّرت ذلك أيضاً • قلت لنفسى : سيكون هذا مبعث هذر أيضاً ••• ثم خطر ببالى أن أجيء بك الى هنا لنقضى هذه الليلة معاً •••

ـ روجويين ، أين ناستاسيا فيليبوفنا ؟

بذلك دمدم الأمير فجأة وهو ينهض • كانت أعضاؤه كلها ترتعش•

نهض روجويين هو أيضاً • وقال مومئاً برأسه الى الستارة :

ـ هى هناك •

فهمس الأمير سائلاً :

ـ أهى نائمة ؟

ـ هيه ••• هيّا بنا الى هناك ••• ولكنك ••• بل هيّا بنا •••

وأزاح الستارة ، وتوقف ، والتفت نحو الأمير • وقال له أخيراً وهو يدعوه باشارةٍ أن يتقدم :

ـ ادخل !

قال الأمير :

ـ الظلام دامس •

فقال روجويين مجمجماً :

ـ لكنك تستطيع أن ترى •

ـ لا أكاد أميّز الا ••• السرير •

قال روجويين بصوت خافت :

ـ اقترب اكثر •

فتقدم الأمير خطوة ، ثم تقدم خطوة أخرى ثم توقف • لبث دقيقة أو دقيقتين جامداً لا يتحرك ، محاولاً أن يثقب بنظره الظلام • لم يقل أحد من الرجلين كلمة واحدة طوال المدة التى بقيا خلالها قرب السرير•

كان قلب الأمير يخفق خفقاناً يبلغ من القوة أن دقاته تكاد تُسمع في صمت الموت الذي يخيِّم على الغرفة • حتى اذا ألفت عيناه الظلمة أمكنه أن يميز السرير • كان أحد ينام على السرير ساكناً سكوناً مطلقاً، لا صوت يُسمع ، لا نسمة ! كان النائم مغطى من الرأس الى القدمين بملاءة بيضاء ، لكن أعضاءه لا ترتسم الا ارتساماً غامضاً • كل ما يراه المرء من تتوءات الملاءة أنه جسم انسانٍ مسجَّى تحتها • وفي كل جهة من حوله : على السرير ، في أسفل السرير ، فوق المقعد المقابل ، وحتى على أرض الغرفة ، بُعثرت ثيابٌ متناثرة على غير نظام : فستان فخم من حرير أبيض ، أزهار ، أشرطة • وعلى منضدة صغيرة قرب السرير تلتمع جواهر ماسٍ وُضعت هنالك باهمال • وفي آخر السرير كتلة من تطريزات يخرج منها طرف قدمٍ عارية كأنها منحوتة من مرمر ، قدمٍ جامدة جموداً رهيباً مرعباً •

كلما أمعن الأمير النظر ، بدا له صمت هذه الغرفة أعمق وأدلَّ على الموت • واستيقظت ذبابة على حين فجأة وطفقت تدندن ، وحوَّمت فوق السرير ، ثم حطت على المنضدة الصغيرة الى جانبه • سرت في جسم الأمير رعدة •

قال له روجوين وهو يلمس ذراعه :

ـ فلنخرج •

خرجا من مخدع النوم ، وعادا يجلسان على مقعديهما متقابلين كما كانا • ان الأمير يرتجف مزيداً من الارتجاف لحظةً بعد لحظة ، ولا يحوِّل نظرته المستفهمة عن وجه روجوين •

قال روجوين أخيراً :

ـ أري يا ليون نيقولايفتش أنك ترتجف ارتجافك عند دنوِّ نوبة

مرضك . هل تتذكر كيف كان يحدث هذا بموسكو ؟ أو كيف حدث هذا مرةً قبل موافاة النوبة ؟ اننى أتساءل ما عساى أفعل بك اذا وقع لك شىء من ذلك ...

كان الأمير يصغى اليه بانتباه ، جاهداً أن يفهم عنه ، مستمراً على مساءلته بعينيه .

وقال يسأله أخيراً وهو يومىء الى جهة الحاجز بايماءة من رأسه :

ــ أأنت فعلت هذا ؟

فهمس روجوين خافضاً رأسه :

ــ نعم أنا .

ولبثا خمس دقائق لا يتبادلان كلمة .

ثم عاد روجوين الى فكرته كأن سؤال روجوين لم يقاطعه فيصرفه عما كان بسبيله ؛ قال يتابع كلامه السابق :

ــ اذا وافتك الآن نوبة ، فان صراخك سيُسمع فى الشارع أو فى فناء المنزل ، فيدرك السامعون أن فى الشقة ناساً ، فيجيئون يقتحمون الباب ويدخلون .. لأنهم جميعاً يظنون أننى غائب. اذا كنت لم أشعل شمعةً ، فمن أجل أن لا يرى أحد من الشارع أو من فناء البيت شيئاً . اننى حين أتغيب ، أحمل مفاتيحى فلا يدخل أحد الى هنا خلال ثلاثة أيام أو أربعة ولو لترتيب الشقة . تلك هى القاعدة التى وضعتها . فيجب أن تدبِّر أمرنا بحيث لا يعلم أحد أننا نبيت الليلة ...

قال الأمير :

ــ انتظر . اننى سألت البواب والخادمة العجوز ألم تجىء ناستاسيا فيليبوفنا لتبيت هنا ... فهما اذن يعرفان أنها جاءت .

ـ لا أجهل هذا • لقد قلت للخادمة بافنوتيفا ان ناستاسيا فيليبوفنا جاءت الى هنا أمس ثم سافرت ثانية الى بافلوفسك بعد عشر دقائق • لا يعرف أحد أنها باتت هنا، ولقد دخلت معها بالأمس خلسة كما دخلت معك اليوم • كنت أقدّر ونحن في الطريق أنها لن تحب أن تدخل ، لكنني أخطأت التقدير ! كانت تتكلم همساً ، وتسير على رءوس الأصابع، وتشمر فستانها من حولها حتى لا يُسمع له حفيف ، حتى لقد فرضت عليّ الصمت باشارة من يدها حين كنا على السلّم • منك أنت انما كانت ما تزال خائفة • حين كنا في القطار كان خوفها جنوناً مطبقاً • وهي التي طلبت أن تبيت هنا • كانت فكرتي الأولى أن أصحبها الى عند أرملة معلم المدرسة ، ولكنني لم أفلح في حملها على ذلك • قالت : « اذا ذهبت الى هناك فسيهتدي اليّ الأمير في الفجر • خبئني عندك • وغداً أفرّ الى موسكو متى طلع الصبح ! » • وكانت تنوي أن تذهب من موسكو الى أوريل• لقد اضطجعت على السرير وهي تكرر أننا سنمضي الى أوريل••

ـ انتظر : ماذا تنوي أن تفعل الآن يا بارفيون ؟

ـ عجيب أمرك ! انك بهذا الارتعاد المستمر ترعبني ! سنبيت الليلة هنا معاً • ليس عندي سرير الا ذلك السرير • ولكنني دبّرت الأمر على هذا النحو : نأخذ وسائد الأريكتين فنجعل منها سريراً على الأرض قرب الستارة لي ولك ، وهكذا ينام أحدنا الى جانب الآخر • حتى اذا جاءوا وفتشوا الغرفة ، عثروا عليها وحملوها، وسيسألونني عما حدث فأقول لهم انني انا الفاعل ، فيقتادونني فوراً • أما الآن ، فلترقد الآن قريبة منا ، قريبة منك ومني معاً !•••

قال الأمير محبذاً بحرارة :

ـ نعم ، نعم !

ـ يجب اذن أن لا نعترف وأن لا ندع لأحد أن يأخذها •

قال الأمير :

ـ أبداً ! بحال من الأحوال ! لا ، لا !•••

ـ ذلك ما عقدت عليه عزمى يا بنى ••• لن نتيح لأحد أن ينتزعها منا بحال من الأحوال ، مهما كلف الأمر • سنقضى هذه الليلة بهدوء • لقد ظللت بقربها النهار كله ، لم أخرج الا ساعةً واحدة فى الصباح ، ثم خرجت فى المساء لأبحث عنك وأجىء بك • هناك شىء أخشاه : هو أن تنتشر من الجثمان رائحة بسبب هذا الحر الخانق • هل تشم شيئاً ؟

ـ جائز • لست متأكداً • ولكن الرائحة ستشتد فى الصباح حتماً•

ـ لقد غطيتها بقماش مشمَّع ، قماش مشمَّع أمريكى ممتاز ، وفرشت الملاءة فوق ذلك الغطاء • وحولها وضعت أربع زجاجات مفتوحة من سائل جدانوف ؟ وما تزال الزجاجات فى موضعها •••

ـ نعم ••• كما فعلوا هناك ••• فى موسكو ••

ـ بسبب الرائحة يا عزيزى • ليتك ترى كيف ترقد !•• غداً فى الصباح ، حين يطلع النهار ، انظر اليها • هيه ، ماذا ؟ أأصبحت لا تستطيع النهوض ؟

قال روجوين ذلك مدهوشاً خائفاً حين رأى الأمير يرتعد ارتعاداً يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع النهوض على قدميه •

دمدم الأمير يقول :

ـ ساقانى لا تطاوعان ••• مرد هذا الى الرعب ••• أنا أعرف ذلك • فمتى زال الرعب أمكننى أن أنهض •••

ـ انتظر .. سأصنع سريرنا ، فتتمدد .. وأتمدد أنا بقربك ... ونصغى ... لأننى يا صديقى .. لا أعرف .. يا صديقى .. لا أعرف الآن كلَّ شىء بعدُ ... لذلك ألفت تظرك ... حتى تعرف أنث ... سلفاً ..

كان روجويين وهو يتمتم بهذه الأقوال المضطربة المفككة قد أخذ يهيىء السرير . واضح أنه ربما كان منذ الصباح يفكر فى طريقة ترتيب الوسائد ليجعل منها سريراً . لقد قضى الليلة البارحة راقداً على الديوان. ولكن الديوان لا يتسع لشخصين، وهو يحرص حرصاً مطلقاً على أن يرقدا معاً . لذلك أخذ ينتزع عن الديوانين جميع وسائدهما المختلفة الأحجام، ويجرها من أول الغرفة الى آخرها بكثير من العناء ، ليصنع منها سريراً أمام الســتارة . حتى اذا فرغ من ذلك كيفما اتفق ، اقترب من الأمير بحنان وحماسة فأمسكه من تحت ذراعيه وأنهضه وساعده على الوصول الى ذلك السرير . فلاحظ عندئذ أن الأمير كان قد اســترد قدرته على السير وحده ، فقال لنفســه : « انقضى اذن رعبــه » . ولكن الأمير كان ما يزال يرتعد .

أرقده روجويين على الوسادة اليسرى ، أفضل الوسادتين ، ورقد هو على الوسادة اليمنى مرتدياً جميع ملابسه عاقداً يديه وراء عنقه .

واستأنف كلامه قائلاً على حين فجأة :

ـ الجو حار حقاً يا صديقى ، وسوف تنتشر الرائحة لا محالة ... اننى أخشى أن أفتح النوافذ . عند أمى أصص أزهــار كثيرة ، عنـدها أزهار كثيرة عطرة عبقة . خطر ببالى أن آتى بها الى هنـا . لكن ذلك يمكن أن ينبِّه بافنوتيفنا ، فهى شديدة حب الاطلاع .

قال الأمير مؤيداً :

ـ هي شديدة حب الاطلاع •

ـ كان يمكن شراء باقات أزهار ••• واحاطتها بها احاطة تامة • لكنني قدّرت يا صديقي أنه أمر يمزّق القلب تمزيقاً ••• أن تُرى مغطاة بالأزهار هكذا !!•••

ـ قل لي •••

كذلك بدأ الأمير يسأله مرتبكاً ، كانسان يبحث في ذاكرته عن شيء يريد أن يسأل عنه ولكنه لا يكاد يتذكره حتى ينساه •

ـ قل لي ••• بأي شيء فعلت ؟ بسكين ؟ بتلك السكين نفسها ؟

ـ نعم بتلك السكين نفسها •

ـ انتظر أيضاً ! أريد أن أسألك يا بارفيون ••• هناك أسئلة كثيرة أريد أن ألقيها عليك ••• أسئلة عن أمور كثيرة ••• ولكن قل لي أولاً لأعرف : هل كنت تنوي أن تقتلها قبل زواجنا ، بطعنة سكين ، على عتبة الكنيسة ؟ أنعم أم لا ؟

أجاب روجويين بخشونة ، مدهوشاً من السؤال ، حتى لكأنه لم يدركه :

ـ لا أعرف أكنت أنوي ذلك أم لا •••

ـ ألم تصطحب سكينك أبداً حين جئت الى بافلوفسك ؟

ـ لم أصطحبها أبداً •

وأضاف يقول بعد لحظة صمت :

ـ عن هذه السكين ، اليك كل ما أستطيع أن أقوله لك يا ليون نيقولايفتش : لقد تناولتها في هذا الصباح من درجٍ مقفل بالمفتاح ، لأن كل شيء قد تم بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة • كنت أحتفظ بها دائماً بين صفحات كتاب ••• و •• و •• اليك شيئاً آخر أدهشني : لقد نفذت

السكين تحت الثدي الأيسر ، الى عمق سبعة سنتمترات تقريباً ... فلم يكد ينبجس دم . لم ينسكب من الدم أكثر من نصف ملعقة ...

قال الأمير وهو ينصب قامته بتأثير انفعال فظيع رهيب :

ـ هذا أعرفه ... أعرف هذا ... قرأت عنه ... ذلك ما يسمى نزيفاً داخلياً ... حتى ليتفق أن لا تنسكب قطرة دم واحدة . يحدث هذا حين تنفذ الطعنة الى القلب مستقيمة ...

قاطعه روجويين يقول فجأة وهو يجلس على مضجعه مذعوراً :

ـ صه ! هل تسمع ؟ هل تسمع ؟

أجابه الأمير وهو ينظر اليه ، قائلاً بلهجة الذعر تلك نفسها :

ـ لا !..

ـ صوت مشي ! هل تسمع ؟ في الصالة ...

أصاخ الاثنان بسمعيهما .

وقال الأمير بثقة :

ـ سمعت !

ـ صوت مشي !

ـ هل يجب اقفال الباب ؟

ـ نعم ...

أحكما وضع المزلاج ، وعادا يرقدان . وأعقب ذلك صمت طويل.

وفجأة عاد الأمير يهمس بلهجة التعجل والاضطراب تلك نفسها ، كأنه وقد استرد تسلسل تفكيره كان يخشى أن يضيعه من جديد . قال وهو يثب عن مضجعه :

ـ ها ... نعم ... أردت أن أطلب منك ورق اللعب ! ورق اللعب ... قيل لى انك كنت تلاعبها بالورق .

قال روجوين بعد لحظة :

ـ نعم .

فسأله الأمير :

ـ فأين هو ... ذلك الورق ؟

قال روجوين بعد صمت أطول :

ـ هو ذا ... خذ ...

قال ذلك ، وأخرج من جيبه ورق لعب ملفوفاً بغلاف ، ومستعملاً من قبل ، ومدّه الى الأمير . فتناوله الأمير ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يدرك ما يفعل . ان شعوراً أليماً بالحزن قد عاد يخنق صدره ويهصر قلبه . وأدرك أنه فى هذه اللحظة ومنذ مدة غير قصيرة كان يقول ويفعل غيرَ ما كان ينبغى أن يقول وما ينبغى أن يفعل . مثال ذلك أن ورق اللعب هذا الذى يمسكه الآن بيديه والذى أسعده كثيراً أن يحصل عليه لن ينفعه بعد اليوم فى شىء . وها هو ذا ينهض ويضم يديه احداها الى الأخرى بحركة تدل على لوعة لا حدود لها . وكان روجوين مضطجعاً جامداً فلم يبد عليه أنه أبصر هذه الحركة ، غير أن عينيه الثابتتين المحملقتين كانتا تتقدان فى الظلام . جلس الأمير على كرسى ونظر الى رفيقه مرتاعاً . وانقضى على هذا نصف ساعة . وفجأة قال روجوين وهو ينفجر فى ضحك صاخب ، ناسياً أن عليه أن يتكلم بصوت خافت :

ـ الضابط ... هل تتذكر ذلك الضابط ؟.. هل تتذكر كيف جلدته بالسوط فى حفلة الموسيقى ؟ هأ هأ هأ !... هل تتذكر ؟ وطالب كلية الحربية ... طالب الكلية الحربية ... الذى وثب ...

انتفض الأمير وقد اعتراه رعب جديد . وهدأ روجويين فجأة ، فمال نحوه برفق ، وجلس الى جانبه ، وأخذ يلاحظه . كان قلبه يدق دقاً قوياً ، وكان يتنفس بمشقة وعناء .

كف روجويين عن الالتفات اليه ، حتى لكأنه نسيه . لكن الأمير ظل يرمقه منتظراً . وكان الوقت يمضي ، وأقبل الصبح . كان روجويين يأخذ يدمدم بين الفينة والفينة على حين فجأة ، فيقول بصوت ثاقب كلمات مفككة ، ويطلق صرخات تتخللها ضحكات : فكان الأمير عندئذ يبسط عليه يده المرتعشة ، فيمسح له رأسه برفق ، ويلاعب بأصابعه شعره وخديه !... ذلك كل ما كان يستطيع أن يفعله . وكانت تعاوده الرعدات التي تسرى في جسمه . ومرةً أخرى أصبحت ساقاه تنثنيان تحته . ان احساساً جديداً كل الجدة كان قد غزا قلبه ، وملأ نفسه بقلق غير ذي نهاية .

وطلع النهار أثناء ذلك . اضطجع الأمير أخيراً على مرقده ، وقد هدّه التعب وأنهكه الألم ، وأطبق بوجهه على وجه روجويين الشاحب الجامد . وسالت دموع من عينيه على خدى روجويين ، ولكن لعله كان لا يحس انسكابها بل ولا يشعر بها ...

المهم على كل حال أنه حين فُتح الباب بعد بضع ساعات وُجد القاتل هاذياً مغمى عليه ، ووُجد الأمير جالساً بقربه ، جامداً صامتاً على مضجعه : فكلما صرخ المريض أو هذى أسرع الأمير يمسح بيده المرتعشة شعره وخديه ملاطفاً مهدئاً . ولكن الأمير كان قد أصبح منذ ذلك الحين لا يفهم شيئاً من الأسئلة التي ألقيت عليه ولا يتعرف الناس الذي دخلوا وأحاطوا به . فلو جاء شنايدر في تلك اللحظة من سويسرا ليرى المريض الذي كان يعالجه في الماضي لتذكر الحالة التي كان عليها هذا المريض في السنة الأولى من معالجته بسويسرا ، ولقال بحركة تنم على اليأس كما فعل حينذاك : « أبله ! » .

الفصل الثاني عشر

خاتمة

هرعت أرملة معلم المدرسة الى بافلوفسك ومضت رأساً الى بيت داريا الكسيفنا التى كانت ما تزال مشدوهة منذ الليلة البارحة • فقصت عليها كل ما كانت تعرفه ، وألقتها بذلك الى رعب لم يستطع شىء أن يهدئه • وقررت المرأتان فوراً أن تقابلا ليبديف الذى اضطرب هو أيضاً من جهتين ، جهة أنه صديق للأمير ، وجهة أنه مالك للشقة التى يسكنها الأمير • وارتأى ثلاثة أشخاص هم داريا ألكسيفنا وفيرا وليبديف (بنصيحة من ليبديف) أن يسافروا الى بطرسبرج ليمنعوا بأقصى سرعة ممكنة « ما قد يحدث فعلاً » • وهكذا فتحت الشرطة باب بيت روجوين منذ الغداة فى الساعة الحادية عشرة من الضحى ، بحضور ليبديف والسيدات وأخى روجوين ، سيميون سيميونوفتش ، الذى يقيم فى الجناح الآخر من المنزل • ومما شجع على اتخاذ هذه المبادرة أكثر من أى شىء آخر ما ذكره البواب من أنه رأى بارفيون سيميونوفتش يرجع الى البيت متسللاً بخطى كخطى الذئب ، من جهة سلّم الباب ، فى صحبة رفيق • فلم يبق عندئذ أى تردد ، فاقتُحم باب الدخول الذى طالما قُرع جرسه بالأمس فى غير طائل •

أُرقد روجوين مدة شهرين مصاباً باحتقان دماغى • فلما شُفى حُقّق معه وحُكم عليه • وقد جاءت أقواله فى التحقيق صادقة كل

الصدق دقيقة كل الدقة مقنعة كل الاقناع ، فأُخرج الأمير من القضية منذ البداية . أما فى المحاكمة فقد كان صامتاً طول الوقت . لم يعارض المحامى البارع البليغ المكلف بالدفاع عنه حين برهن بكثير من الوضوح ومن المنطق فى آن واحد على أن الجريمة انما ارتكبت على أثر نوبة حمى دماغية سبقت بداياتُها وقوعَ الكارثة بمدة طويلة ، وليست تلك الحمى الا نتيجةً للأحزان والأشجان التى زخز بها قلب المتهم . ولكن روجويين لم يضف شيئاً لتدعيم هذا الرأى ، واقتصر - كما فعل فى التحقيق - على أن يبسط تفاصيل الحادث بوضوح وجلاء ودقة وتحديد .

استفاد روجويين من الظروف المخففة فحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً فى سيبريا . وقد سمع الحكم دون أن يهتز أو يتأثر ، وكان شارد الفكر « حالم » الهيئة . وآلت ثروته الضخمة الى أخيه ، الا جزءاً يسيراً كان قد بدّده فى مجون الآونة الأولى . وقد سُرَّ أخوه سيميون سيميونوفتش بذلك سروراً عظيماً .

ان أمه العجوز ماتزال حية ، ويبدو أنها تتذكر ابنها الحبيب بارفيون سيميونوفتش فى بعض الأحيان ، ولو تذكراً غامضاً مبهماً . لقد صان الله فكرها وقلبها من ادراك النازلة الفظيعة التى زارت بيتها .

وليبديف وكيللر وجانيا وبتسين وآخرون كثيرون من أشخاص روايتنا ، ظلوا يعيشون كما كان يعيشون فى الماضى . انهم لم يتغيروا كثيراً ، فلا نكاد نجد ما نقوله عنهم . ومات هيبوليت وهو فى حالة اضطراب شديد واهتياج رهيب ، قبل الموعد الذى كان يتوقعه بقليل ، بعد نحو خمسة عشر يوماً من مقتل ناستاسيا فيليبوفنا . وتأثر كوليا بهذه الأحداث كلها تأثراً عميقاً . فاقترب من أمه اقتراباً حاسماً . ان نينة ألكسندروفنا قلقة عليه ، فهى تجده مسرفاً فى التأمل والتفكير بالقياس الى سنه . ومن يدرى ؟ قد يصبح فى المستقبل رجلاً ذا شأن . يجب أن

نذكر في هذه المناسبة أنه هو الذى عُنى بترتيب الاجراءات التى حددت مصير الأمير فى المستقبل • كان منذ مدة طويلة قد ميَّز أوجين بافلوفتش رادومسكى على جميع الناس الذين عرفهم فى الآونة الأخيرة • فكان أول من ذهب اليه فقصَّ عليه كل ما يعرفه عن الحادث وعن حالة الأمير الراهنة • ولم يخطىء ظنه : فقد أظهر أوجين بافلوفتش اهتماماً كبيراً وعناية حارة بمصير « الأبله » المسكين ؟ وبفضل جهوده ومساعيه وُضع الأمير مرة أخرى فى معهد شنايدر بسويسرا •

وسافر أوجين بافلوفتش هو نفسه الى الخارج منتوياً أن يقيم فى أوروبا مدةً طويلة • كان ينعت نفسه ، مخلصاً كل الاخلاص ، بأنه « رجل لا تحتاج اليه روسيا » • وكان يزور صديقه المريض عند شنايدر فى أحيان كثيرة ، مرةً كلَّ بضعة أشهر على الأقل • ولكن شنايدر يبدو أكثر هماً وغماً فى كل مرة ، فهو يهز رأسه ، ويُفهم الزائر أن أعضاء التفكير عند مريضه معطلة تعطلاً كاملاً ، وأنه اذا كان لا يقطع بأن حالة المريض لا يمكن أن تشفى ، فهو متشائم فى تخميناته أشد التشاؤم • فكان أوجين بافلوفتش يبدو متأثراً تأثراً شديداً ، لأنه رجل ذو قلب حساس • وقد برهن على ذلك اذ قبل أن يكتب اليه كوليا، واذ كان يجيب على رسائله أحياناً •

وقد ظهرت فى هذه المناسبة احدى صفات طبعه • ونحن نسمح لأنفسنا بأن نشير اليها لأنها صفة حسنة • ان أوجين بافلوفتش ، بعد كل زيارة من زياراته لمعهد شنايدر ، كان ـ عدا ما يكتبه الى كوليا ـ يرسل الى شخص آخر ببطرسبرج رسالةً تشرح حالة الأمير الصحية شرحاً مفصلاً ولطيفاً الى أبعد الحدود • وكانت مراسلاته هذه ـ الى جانب ما تشتمل عليه من احترام ـ تعبر (بجرية متزايدة) عن بعض الآراء يبسطها بصراحة وعن بعض الأفكار وبعض العواطف يعرضها بصدق •

فذلك اذن أول مظهر لشيء يمكن أن يشبه علاقة صداقة حميمة. والشخص الذى كان يبعث اليه أوجين بافلوفتش بتلك الرسائل (وان تكن قليلة متباعدة) ، ويستحق منه كل هذا الاهتمام وكل هذا الاحترام لم يكن الا فيرا ، بنت ليبديف . لا نعرف على وجه الدقة كيف انعقدت هذه الصلات . لا شك فى أن منشأها هو كارثة الأمير التى حزنت لها فيرا حزناً سقطت بسببه مريضة . أما الظروف الأخرى التى لابست انعقاد تلك الصلة فنحن نجهلها .

واذا كنا قد تكلمنا عن تلك المراسلات فلأنها قد نقلت فى بعض الأحيان أنباء عن أسرة ايبانتشين ، ولا سيما عن آجلايا ايفانوفنا . ففى رسالة مكتوبة ببباريس ، غامضة بعض الغموض ، يذكر أوجين بافلوفتش أن آجلايا ايفانوفنا قد عصف بها غرام قوى فتزوجت رجلاً بولندياً مهاجراً ، رغم ارادة أهلها ، وأن أهلها لم يوافقوا على هذا الزواج أخيراً الا لاتقاء فضيحة ضخمة . وبعد صمت دام ستة أشهر ، بعث أوجين بافلوفتش الى فيرا رسالة ملأى بالتفاصيل يذكر فيها أنه أثناء زيارته الأخيرة للبروفسور شنايدر فى سويسرا ، التقى بأسرة ايبانتشين ، (عدا ايفان فيدوروفتش طبعاً ، لأن أعماله تحتجزه فى بطرسبرج) ، والتقى كذلك بالأمير « شتش ... » ؛ وأن لقاءهم هذا كان غريباً : لقد استقبلوه جميعاً بحماسة ، حتى ان آديلائيد وألكسندرا وجدتا أنه يقع على عاتقهما أن تشكرا له « اهتمامه الملائكى بالأمير المسكين » . أما اليزابت بروكوفيفنا فانها حين رأت الأمير مريضاً مذلاً هذا الاذلال قد طفقت تبكى من كل قلبها . لقد زال حقدها عليه زوالاً تاماً . وأما الأمير « شتش ... » فقد قال فى هذه المناسبة آراء صادقة وعبَّر عن حقائق وُفِّق فيها كل التوفيق فجاء كلامه زاخراً بسلامة الحس وحسن الفهم . وقد بدا لأوجين بافلوفتش أنه لم يقم بين

الأمير « شتش ••• » وبين آديلائيد اتفاق تام حتى الآن • ولكن بدا له في الوقت نفسه أنه لا بد أن يأتي يوم نرى فيه آديلائيد الحارة المندفعة تذعن بإرادتها اذعاناً صادقاً أمام ذكاء الأمير « شتش ••• » وتجربته وخبرته • ثم ان المحن التي ألمت بالأسرة قد أثرت فيها تأثيراً كبيراً ولقنتها دروساً كثيرة ، ولا سيما مغامرة آجلايا مع الكونت البولندي المهاجر • ان ما كانت الأسرة ترتجف خوفاً منه حين رضيت أن تزوجه آجلايا قد تحقق في ستة أشهر ، مع مفاجآت ما كان لأحد أن يتجرأ فيتصورها أو تخطر له ببال • لقد اتضح أن هـذا الكونت ليس « كونتاً » • واذا كان مهاجراً فانه لم يهاجر الا في أعقاب قصة مشبوهة غامضة • لقد استطاع أن يستولي على آجلايا بالنبل العظيم الذي تتصف به نفسه الممزقة ألماً على وطنه ؛ وبلغ من استيلائه على الفتـاة أنهـا حتى قبل الزواج قد أصبحت عضواً في لجنة من المهاجرين أُنشئت في الخارج لاصلاح بولنده • وعدا ذلك أصبحت مريدةً من مريدات كاهن كاثوليكي شهير استولى على قلبها وفكرها حتى ملأها بالاندفاع والتعصب • أما الثروة الضخمة التي يملكها « الكونت » ، والتي قـدم لأليزابت بروكوفيفنـا والأمير « شتش ••• » براهين على وجودها تكاد تكون قاطعة ، فقد تبيَّن أنها لم توجد في يوم من الأيام • أكثر من ذلك أن الكونت وصـديقه الكاهن الشـهير ، قد أفلحا ، بعد زواج آجلايا بستة أشهر لا أكثر ، أن يفسدا علاقات آجلايا بأعضاء أسرتها افساداً كاملاً ، فهم الآن لم يروها منذ عدة أشهر !••• الخلاصة : هناك أشياء كثيرة يمكن أن تروى ، ولكن اليزابت بروكوفيفنا وبنتيها والأمير « شتش ••• » كانوا قد بلغوا جميعاً من شدة الارتياع لهذا « الهول » الرهيب أنهم خشـوا حتى من الالماع الى بعض الأمـور في حديثهم مع أوجين بافلوفتش ، مع علمهم بأن أوجـين بافلوفتش كان ، دون أن يحدثوه بشيء ، مطلعاً اطلاعاً تاماً على آخر ما وصلت اليه آجلايا

باندفاعات هواها . ان اليزابت بروكوفيفنا المسكينة تود لو ترجع الى روسيا . يقول أوجين بافلوفتش انها قد انتقدت بمرارة وحدة وتحيز كل ما هو أجنبي . « انهم في أي مكان هنا لا يعرفون كيف يجب أن يُخبز الخبز . وهم في الشتاء يتجمدون كالفئران في قبو . على الأقل أتيح لي الآن أن أبكي على هذا الشاب المسكين كما يبكي الروس » . كذلك قالت اليزابت بروكوفيفنا متأثرة وهي تومىء الى الأمير الذي لم يتعرفها . ثم ختمت كلامها شبه غاضبة وهي تودع أوجين بافلوفتش : « كفى حماسات سخيفة ! آن لنا أن نسمع صوت العقل ! كل هذا ، كل هذه البلاد الأجنبية التي تشيدون بها ، كل أوروبا هذه التي تعظمونها ، كل هذا ليس الا سراباً ... ونحن أنفسنا لسنا في البلاد الأجنبية الا سراباً ... تذكروا ما أقوله لكم .. ولسوف ترون بأعينكم ! » .

حواش

الصفحة

٩ ★ « مصرف لومبارد » : هو المؤسسة الحكومية التى كانت صندوق ادخار واقراض ثم توقفت عن العمل حين ظهرت البنوك الحديثة·

١٨ ★ واحدة من الجزر التي يشكلها فرعا نهر نيفا ، وفيها قصر من القصـور الامبراطورية · وكان فى تلك الجزيرة فيللات كثيرة لموظفين يمنعهم عملهم من الابتعاد عن بطرسبرج ·

٢٠ ★ كانت توجد فى بافلوفسك قاعة كبيرة تجـاور المحطة ، وكانت توجد حديقة عامة · والقاعة والقصر يتبعان أملاك الدوق الكبير قسطنطين ، ولكن القاعة والحديقة مفتوحتان للجمهور تقام فيهما أثناء الصيف حفلات موسيقية سمفونية ذات شهرة كبيرة ·

٢٣ ★ فى رسـالة كتبها دوستويفسـكى الى ن·ن· ستراخوف فى ٥ نيسان ـ أبريل ١٨٧٠ ، يعبر عن مثل هـذا الرأى بصدد لومونوسوف وبوشكين ، وينكر على تولوستوى حق أن يقارن بهما ·

٢٤ ★ « فاموسوف » : شخصية من شـخصيات مسرحية جريبويدوف الهزلية « كثير من الذكاء ضرر » ·

٤٢ ★ « وحيدين » : بالفرنسية فى الأصل

٥٣ ★ بالفرنسية فى الأصل

٦١ ★ جرح بوشكين فى مبارزته مع دانتيس يـوم ٢٧ كانون الثانى

الصفحة

(يناير) ١٨٣٧ ؛ ومات يوم ٢٩ فى الساعة الثالثة بعد الظهر، ان رصاصة خصمه قد ثقبت أحشاءه .

٩٢ ★ يجرى المشهد فى فترة « الليالى البيضاء » بمدينة بطرسبرج .

٩٢ ★ ذكرى بيت من الشعر ورد فى « فاوست » جوته .

١٠٠ ★ ان حصار كارس ، أثناء حرب ١٨٤٥ ـ ١٨٥٥ قد انتهى بتسليم القلعة للجنرال مورافييف فى ٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ، لأن الذخائر والمؤن قد نفدت عند المحاصرين نفادا تاما .

١٠٥ ★ ربما كانت هذه الفكاهة تقوم على الصلة اللفظية التى لا تمكن ترجمتها ، بين كلمة بورروك الروسية (ومعناها الرذيلة) ، وكلمة بورروكهود (ومعناها السفينة البخارية) .

١١٧ ★ بالفرنسية فى الأصل

١٢٣ ★ أغلب الظن أنه الدكتور بوتكين ، طبيب الاسكندر الثانى .

١٣١ ★ قطع ذهبية قيمة الواحدة منها عشرة روبلات .

١٤٩ ★ «جبل العصافير» : تل صغير فى ضاحية بجنوب شرق موسكو، منه تأمل نابوليون وأركان حربه المدينة فى اليوم الحادى عشر من شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٨١٢ ؛ وفى ذلك التل كان يجمع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة قبل ترحيلهم الى سيبيريا. ان هذا التل هو اليوم مرتع نزهة ورياضة ، ويسمى « جبل لينين » .

١٥٧ ★ « قومى طليثا » انجيل مرقص ، الاصحاح الخامس ، ٤١

١٥٧ ★ « اخرج لعازر » : انجيل يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر ، ٤٣

١٨١ ★ واضح أن أوجين بافلوفتش يرجع هنا الى « شرح » هيبوليت (صفحة ١٦٣ سطر ١٠) ولكن يجب أن نذكر أنه يستعمل هنا كلمة Chtouka التى تعنى « مقلبا » ، فى حين أن هيبوليت

كان قد استعمل كلمة Choutka التى تعنى مزاحا • فتشابه اللفظين يبعث المرء على أن يقدر أن الناشر ارتكب خطأ مطبعيا• فلعل المؤلف انما استعمل كلمة واحدة •

٢٥١ ★ « بودكوليوسين » : بطل مسرحية جوجول الهزلية «زواج» • انه نموذج الطبع الضعيف ، مع انتفاضات استقلالية : لقد قفز من النافذة فى لحظة الزواج •

٢٥٢ ★ بالفرنسية فى الأصل •

٢٥٤ ★ « بيروجوف » : شخصية رئيسية فى قصة عنوانها « شارع نفسكى » •

٢٧٣ ★ « نوزدريوف » : شخصية مضحكة هزلية من شخصيات رواية جوجول « النفوس الميتة » : نموذج بوهيمى ، متشدق ، شرير•

٢٨١ ★ « ياروشكا » : تصغير اسم ياروم ، وهو من يسمى بالفرنسية جيروم •

٢٨١ ★ « كابيتوشكا » : تصغير اسم كابيتون •

٣١٤ ★ ضاحية من ضواحى موسكو

٣١٦ ★ « الأرشيف الروسى » : مجلة تاريخية أسسها سنة ١٨٦٣ ، ب • بارتنيف • ورغم أن عدد النسخ التى كان يطبع منها ضئيل ، فقد كانت تعد على الدوام أفضل نشرة من هذا النوع•

٣٢٢ ★ هو كتاب « تاريخ حملة ١٨١٥ ، واترلو » ، تاليف الليوتنان كولونيل شاراس ؛ صدر الكتاب بباريس سنة ١٨٦٤

٣٢٤ ★ بالفرنسية فى الأصل :

٣٢٥ ★ بالفرنسية فى الأصل

٣٢٦ ★ بالفرنسية فى الأصل

٣٢٧ ★ بالفرنسية فى الأصل

الصفحة

٣٢٧ ★ « هى اذن بنت صغيرة » : بالفرنسية فى الأصل

٣٢٧ ★ « اياك والكذب ، صديقك المخلص نابوليون » بالفرنسية فى الأصل .

٣٣٠ ★ « لأن يكون المرء مع نساء ، خير من أن يخبط هنا وهناك خبط عشواء » : يستغل الجنرال فى هذه العبارة جناسا لفظيا بين كلمة bobami وكلمة babami (ومعناها : نساء) .

٣٣١ ★ « جريشا » : تصغير جريجورى

٣٣٢ ★ « ملك روما » بالفرنسية فى الأصل

٣٣٨ ★ « كامنى أوستروف » : جزيرة فى نهر نيفا شمال بطرسبرج .

٣٣٨ ★ « حاميتها » : بالفرنسية فى الأصل .

٣٤٠ ★ « بعد كل ما جرى » : بالفرنسية فى الأصل .

٣٤١ ★ فريدريك شلوسر (١٧٧٦ ــ ١٨٦٠) : مؤرخ ألمانى وضع كتابا بعنوان « التاريخ العام » .

٣٤٧ ★ « جلاشا » تصغير آجلايا

٣٦٢ ★ ان جليبوف ، عشيق المرأة التى طردها بطرس الأكبر ، واسمها أودوكسيا ، قد اشترك فى الثورة التى أقامها رجال الكهنوت على هذه الأميرة وابنها الكسى . وقد حوكم جليبوف سنة ١٧١٨ فى كينين ، وحكم عليه بالخازوق .

٣٦٣ ★ آندره ايفانوفتش أوسترمان (١٦٨٦ ــ ١٧٤٧) ، ابن قسيس من فستفاليا ، جاء الى روسيا فى السنة الثامنة عشرة من عمره. وقد ألحقه بطرس الأكبر بوزارة الخارجية. فاشترك فى مباحثات صلح نيستاد سنة ١٧٢١ ومعاهدة ١٧٢٣ مع ايران . وقد ترأس الحزب الألمانى فى عهد آنا ايفانوفنا ، ونال لقب كونت ورتبة مستشار . ونفى الى سيبريا بعد أن تم اسقاط ايفان الرابع على يد اليزابث بتروفنا .

الصفحة

٣٧٧ ★ يقال ان توماس مورروس الذى حكم عليه بالاعدام قد تضرع الى الجلاد أن لا ينال لحيته بسوء ، قائلا له : « ليس يهمني كثيرا أن يصيب لحيتى أذى ، ولكن يهمك أنت أن يقول الناس عنك انك تجيد مهنتك اجادة تامة ، لأن القرار ينص على أن عليك ان تقطع رأسى لا لحيتى » .

٣٧٧ ★ « هذا ذنبى » : بالفرنسية فى الأصل .

٤٠٠ ★ باللاتينية فى الأصل .

٤٠٤ ★ « الخليين » Khlistes : ملة يرجع عهدها الى نهاية القرن الثامن عشر ، وفى عقيدتها يمتزج نـــوع من التصوف المسف والانحلال الجنسى .

٤١٣ ★ « دعوه يتكلم » : بالفرنسية فى الأصل .

٤١٨ ★ ان الدعوة السلافية التى كان ينتمى اليها دوستويفسكى لاتقتصر على أن تكون مذهبا يهدف الى الانبعاث السياسى لجميع السلافيين، بل كان كذلك فلســـفة قومية تتضمن حلا روسيا للمشكلات الاجتماعية والأخلاقية .

٤٣١ ★ « هذه الأبيات السخيفة » : ان هـــذه الأبيـــات جزء من قصيدة بوشكين التى عنوانها « انطفاء فرح الأيام المجنونة » ، والتى تعد من أجمل القصائد الغنائية . فلعل الفتى هيبوليت متأثر هنا بالتيار النقدى الأدبى الذى طلع فى ذلك الزمان والذى يمثله بيساريف وأمثاله الذين كانوا يسفهون بوشكين .

٤٨٦ ★ «أبيع حياتى بليلة واحدة» : بيت من قصيدة للشاعر بوشكين: « ليالى مصر » .

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعيا يدافع عن "الفقراء" والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف